

بلاد ما وراء النهر في العصر العباسي

(١٣٢-٢٦١هـ/ ٧٥٠-٨٧٣م)

د.محمود محمد خلف

إذا كانت الدولة الأموية (٤١-١٣٢هـ / ٦٦١ - ٧٥٠م) قد نجحت فى فتح بلاد ما وراء النهر أو ما يعرف بأسيا الوسطى، وعملت على نشر الإسلام بين سكانها فإن الفضل يرجع إلى الدولة العباسية (١٣٢-٢٦١هـ /٧٥٠- ٨٧٢م) فى أنها مكنت لهذه الحركة الإسلامية العميقة من أن تمضى فى سبيل نجاحها ليكتسب إقليم ما وراء النهر فى مستهل القرن الثالث الهجرى طابعًا إسلاميًا واضحًا . كذلك يرجع الفضل للعباسيين فى حماية إقليم ما وراء النهر من الأخطار الداخلية (الثورات)، والخارجية التى هددته .

بالإضافة لنشر الأمن فى ربوع تلك البلاد، وساعد فى نفس الوقت على التمكين للحركة الإسلامية من أن تمضى فى طريقها حتى أثمرت هذه البلاد خيرة علماء الإسلام .

تصميم الغلاف اسلام عمر





بلاد ما وراء النهر
فى العصر العباسى

(132 - 261 هـ./ 750 - 872م.)

تاليف
د. محمود محمد خلف



الهيئة المصرية العامة للكتاب
٢٠١٤

خلف، محمود محمد.

بلاد ما وراء النهر فى العصر العباسى (١٣٢ - ٢٦١هـ/ ٧٥٠ - ٨٧٢م)/ تأليف: محمود محمد خلف. ـ القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠١٤.

: ٢٤ سم.

تدمك ١ ٩٣٤ ٤٤٨ ٩٧٧ ٩٧٨

١ ـ آسيا الوسطي ـ تاريخ.

أ ـ العنوان.

رقم الإيداع بدار الكتب ١٤٦٥٢/ ٢٠١٤

I. S. B. N 978 - 977 - 448 - 934 - 1

ديوى ٩٥٨

وزارة الثقافة
الهيئة المصرية العامة للكتاب
رئيس مجلس الإدارة
د. أحمد مجاهد

اسم الكتاب : بلاد ما وراء النهر
في العصر العباسي
تأليف : د. محمود محمد خلف

حقوق الطبع محفوظة للهيئة المصرية العامة للكتاب

الإخراج الفني : مرفت عنتر النحاس

الهيئة المصرية العامة للكتاب
ص. ب : ٢٣٥ الرقم البريدى : ١١٧٩٤ رمسيس
www.gebo.gov.eg
email:info@gebo.gov.eg

إهــداء

- إلى الرَّاحلِيْن الكَريمِيْن:

والدى ووالدتى سائلًا المولى - عز و جل - أن يسكنهما فسيح جناته.

- إلى أساتذتى :

أ. د / عبد الشافى محمد عبد اللطيف.

أ. د / حسين يوسف دويدار.

أ. د / محمد على عتاقى.

اعترافًا من التلميذ بفضل أساتذته عليه. والله أسأل أن يحقق لهم الأجر والسعادة فى الدنيا، وحُسن الثواب فى الآخرة.

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

والصلاة والسلام على أشرف المرسلين

وبعد:

فيمكننى أن أحدد النطاق الجغرافى الذى ستمتد إليه دراستى تحديدًا واضحًا، بأنه يشمل المناطق الخصبة السهلة الواقعة بين نهرى سَيْحَون - سِرْ دِرْيَا حاليًا - وجَيْحَون - أَمُوْ دِرْيَا حاليًا - اللذين يصبان فى بحيرة خوارزم - بحر أورال حاليًا والشاطئ الأيسر لنهر سَيْحَون، ويشتمل: طَخَارِسَتان والخُتَّل - وهذه البلاد أطلق عليها المسلمون قديمًا بلاد ما وراء النهر وتُعرف حاليًا بدول آسيا الوسطى، (وهى: كازاخستان، أوزبكستان ، قيرغيزستان، طاجكستان ، تركمانستان)؛ وإن كانت جمهورية أوزبكستان المستقلة عن الاتحاد السوفيتى - السابق - فى الثامن من ديسمبر1991 م تشغل الحيز الأكبر منها.

وقد تطلع المسلمون لفتح هذه البلاد منذ وقت مبكر، حيث قام عبيد الله بن زياد بن أبى سفيان (28 - 67هـ/ 648 - 686م) فى عام 53هـ/ 673م بغزو بخارى. فكان أول من غزاها. وفى عام 56هـ/ 676م، تولى سعيد بن عثمان بن عفان حكم خراسان من قِبل الخليفة معاوية بن أبى سفيان (41 - 60هـ/ 661 - 680م)، فغزا

بخارى وسمرقند، واستمرت حملات المسلمين على هذه البلاد حتى تولى القائد العظيم قتيبة بن مسلم الباهلى (46 – 96هـ/ 669 – 715م) حكم خراسان فى خلافة الوليد بن عبد الملك (86 – 96 هـ / 705 – 715 م) ونجح فى فتح هذه البلاد بصورة نهائية؛ وعمل على تثبيت أقدام المسلمين هناك.

وإذا كانت الدولة الأموية (41 – 132 هـ/ 661 – 750م) قد نجحت فى فتح هذه البلاد، وعملت على نشر الإسلام بين سكانها فإن الفضل يرجع إلى الدولة العباسية (132 –261هـ/ 750 – 874م) فى أنها مكنت لهذه الحركة الإسلامية العميقة من أن تمضى فى سبيل نجاحها؛ ليكتسب إقليم ما وراء النهر فى مستهل القرن الثالث الهجرى طابعًا إسلاميًا واضحًا. كذلك يرجع الفضل للعباسيين فى حماية إقليم ما وراء النهر من الأخطار الداخلية (الثورات)، والخارجية التى هددته. بالإضافة إلى نشر الأمن فى ربوع تلك البلاد، مما ساعد على إعلاء شأن الحكم الإسلامى فى نظر سكان أهل هذه المناطق، وساعد فى الوقت نفسه على التمكين للحركة الإسلامية من أن تمضى فى طريقها حتى أثمرت هذه البلاد خيرة علماء الإسلام.

وكما عملت الخلافة العباسية على المحافظة على هوية هذه البلاد وجعلها إسلامية، فقد عملت – أيضًا – على تقدم الحياة الاقتصادية بها، وهذا التقدم يرجع فى الأساس إلى التمدن والتحضر الذى ساد فى الدولة العباسية، والذى أصبح العامل الأساسى فى هذا التطور، وكان أوضح صورة لها. وكانت النتيجة تقدمًا سريعًا فى المجالات كافة كالزراعة والصناعة والتجارة. ثم كان ازدياد رأس المال فى المدن حافزًا جديدًا على الازدهار الذى شهدته الحياة الاقتصادية فى كثير من مدن وأقاليم بلاد ما وراء النهر.

وعلى ذلك، فإن بلاد ما وراء النهر أصبحت جزءًا من كيان الدولة الإسلامية. وهذه الدراسة تهدف إلى إلقاء الضوء على الحياة السياسية والاقتصادية فيها من

سقوط الدولة الأموية إلى قيام الدولة السامانية، وذلك خلال الفترة من (132 - 261 هـ/ 750 - 874م). وترجع أهمية هذه الدراسة لعدة اعتبارات مهمة، وهى:

أولاً: إلقاء الضوء على جهود المسلمين الأوائل، وتحملهم الصعاب والمشاق فى سبيل نشر الإسلام فى بلاد ما وراء النهر، والتذكير بدورهم البارز فى هذا المجال. وبأنهم استطاعوا أن يتركوا بصماتهم فى تاريخ هذه البلاد، وأن يؤثروا فى حياتها السياسية والاقتصادية والدينية؛ بل العلمية أيضًا.

ثانيًا: الرغبة فى ربط الماضى بالحاضر، وتذكير الشعب الأوزبكى بتاريخه الإسلامى المجيد، السابق على الحكم الروسى. إن دول آسيا الوسطى التى يدين معظم أهلها بالإسلام يشعر أهلها أنهم جزء من العالم الإسلامى ويتطلعون إلى الوصول إلى أقصى درجات التعاون معه.

ثالثًا: رغبة الباحث فى إلقاء الضوء على الحياة الاقتصادية التى كانت مزدهرة هناك، والتى كانت خيراتها تُحمل إلى سائر بلدان العالم الإسلامى.

رابعًا: رغبة الباحث فى تحقيق جزء - ولو بسيط - من أهداف المؤتمر الدولى: " المسلمون فى آسيا الوسطى والقوقاز ... الماضى والحاضر والمستقبل " الذى نظمه مركز الاقتصاد الإسلامى وقسم اللغة الفارسية وآدابها بكلية الدراسات الإنسانية بجامعة الأزهر، والذى دعا إلى إنشاء مراكز لدراسات بلاد ما وراء النهر؛ يهتم بجمع كل ما يتعلق بهذه المنطقة من دراسات وأبحاث، كما دعا إلى العمل على إحياء ثقافة مسلمى ما وراء النهر وتراثهم الدينى والحضارى والفكرى لما له من أكبر الأثر فى العودة إلى الذات وتحقيق الهوية.

خامسًا: إنه ليؤسفنى ألا أستطيع أن أُضَمّن هذا البحث دراسة الحياة الاجتماعية، والعلمية. فى هذه البلاد - لكى تكتمل الصورة - فبدون دراسة وافية لهذه النواحى تكون الصورة التى نخرج بها غير وافية. ولكن لو كنتُ أحطتُ بهذه النواحى كان معنى هذا ألا يقتصر حجم البحث على الضعف فحسب، بل كان هذا يستلزم الانتقال من هذا الموضوع إلى آخر، وذلك من غير أن أحيط إحاطة تامة بأحد منها؛ لذا فقد يكون مجال هذا الموضوع بحوث أخرى إن شاء الله تعالى.

تقسيم البحث:

وقد قسمت هذا البحث إلى قسمين رئيسين، مع التمهيد والخاتمة ففى التمهيد: ألقيت الضوء على العرض الجغرافى لبلاد ما وراء النهر، وحاولت أن أرسم صورة جغرافية تقريبية لهذه البلاد مستشهدًا بمصادرنا الجغرافية. ثم تحدثت عن الأحوال السياسية لبلاد ما وراء النهر قُبيل الفتح الإسلامى . وتحدثت عن الفتح الإسلامى لخراسان، وكيف أصبحت قاعدة تنطلق منها الفتوحات الإسلامية لفتح بلاد ما وراء النهر،ثم تتبعت مراحل الفتح الإسلامى لتلك البلاد.

والقسم الأول: وهو مخصص لدارسة "الحياة السياسية". وقد قسمته إلى أربعة فصول: الفصل الأول: بعنوان" الثورة العباسية فى بلاد ما وراء النهر" فألقيت الضوء على أنواع الثورات التى ظهرت فى بلاد ما وراء النهر . ومراحل الثورة العباسية فى تلك البلاد بالتفصيل.

الفصل الثانى: وقد خصصته للحديث عن " بلاد ما وراء النهر فى ظل الخلافة العباسية"، وقد تحدثت فيه عن أهم الثورات الدينية والسياسية التى واجهت الخلافة العباسية فى تلك البلاد.

وتناولت فى الفصل الثالث: "أحوال بلاد ما وراء النهر من قيام الدولة الطاهرية وحتى قيام الدولة السامانية " فتحدثت عن الأسباب الحقيقية لقيام الدولة الطاهرية، مفصلًا القول فى أحوال بلاد ما وراء النهر فى ظل تلك الدولة. ثم ركزت على أحوال بخارى حتى قيام الدولة السامانية .

وتناولت فى الفصل الرابع والأخير" استقرار العرب وانتشار الإسلام فى بلاد ما وراء النهر" فتحدثت عن استقرار العرب فى هذه البلاد، وعن جهود المسلمين الأوائل فى نشر الإسلام هناك. وذلك عن طريق الدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة كما علمنا القرآن الكريم .

وأما القسم الثانى: فقد خصصته لدراسة "الحياة الاقتصادية" وقسمته إلى أربعة فصول:

جاء الفصل الخامس لدراسة الزراعة فى بلاد ما وراء النهر فتحدثت عن نظم الرى المستخدمة ، وألقيت الضوء على أهم المحاصيل الزراعية، واختتمت الفصل بالحديث عن الثروة الحيوانية فى هذه البلاد. وخصصت الفصل السادس للحديث عن "الصناعة" فتحدثت عن أهم المعادن، والأحجار الكريمة فى بلاد ما وراء النهر، وألقيت الضوء على بعض الصناعات التى ظهرت فى هذه البلاد، وأشهر من اشتغل بها. وفى الفصل السابع تحدثت عن "التجارة" بنوعيها: الداخلية، والخارجية، والتى قامت مع جميع بلدان العالم. ثم ألقيت الضوء على أهم طرق التجارة الداخلية والخارجية. وأما الفصل الثامن والأخير، فقد خصصته للحديث عن "النظام المالى فى بلاد ما وراء النهر". وتحدثت فيه عن نظام الضرائب "المكوس". ونوع العملة المستخدمة فى هذه البلاد إبان الخلافة العباسية. مناقشًا آراء المؤرخين فى هذه المسألة. ثم تحدثت عن الخَرَاج فى إقليمَىْ خراسان وبلاد ما وراء النهر.

وانتهت الدراسة بخاتمة تضمنت أهم النتائج التى أسفر عنها البحث، وأعقبتها بملاحق وخرائط تخدم البحث فى جوانبه كافة.

وأعترف بكل صدق وأمانة بجميل أستاذى الجليل الفاضل الأستاذ الدكتور/ عبد الشافى محمد عبد اللطيف، فقد كان من العسير على المضى فى هذا البحث لولا أن مهد لى الطريق بأعماله القيمة، والنصائح الثمينة التى لم يدخر وسعًا فى تزويدى بها والتى كانت خير هدى لى فى عملى.

وفى الختام ؛أرجو أن أكون قد وفقت فى هذا البحث، وأعترف بأننى لم أصل فيه إلى مرتبة الكمال، فهو عمل بشرى قابل للصواب والخطأ، وحسبى أنى اجتهدت فإن كنت أخطأت فلا بد أن أمتثل لقوله تعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ (البقرة، الآية: ٢٨٦).

د/محمود محمد خلف

الهرم - الجيزة

" التمهيد "

المبحث الأول : العرض الجغرافى لبلاد ما وراء النهر.

1- أقاليم بلاد ما وراء النهر.

2- الأنهار الرئيسة فى بلاد ما وراء النهر.

المبحث الثانى : الفتح الإسلامى لإقليم خراسان
والمحاولات المبكرة لفتح بلاد ما وراء النهر.

1- أحوال بلاد ما وراء النهر قبل الفتح الإسلامى.

2- الفتح الإسلامى لإقليم خراسان.

3- محاولات المسلمين المبكرة لفتح بلاد ما وراء النهر.

المبحث الثالث : قتيبة بن مسلم وإتمام الفتح الإسلامى لبلاد ما وراء النهر.

1- فتح طخارستان والطالقان والصغانيان.

2- فتح بُخارَى.

3- فتح خوارزم وسمرقند.

4- فتح فرغانة والشاش وكاشغر.

المبحث الأول
العرض الجغرافى لبلاد ما وراء النهر

مفهوم بلاد ما وراء النهر

أطلق الجغرافيون العرب على المناطق الخصبة السهلة الواقعة بين نهرى سَيحُون - سِيْر دِرْيَا حاليًا- Sir Darya - وجَيحُوَن - أَمُوْ دِرْيَا حاليًا Amu Darya- اللذين يصبان فى بحر خوارزم - آرال حاليًا - والشاطئ الأيسر لنهر سيحون، ويشمل طخارستان، والختل، هذه البلاد أطلق عليها المسلمون - قديمًا- بلاد ما وراء النهر[١].

يصف المقدسى البشارى (ت 390هـ) هذا الإقليم بقوله: "هو أجل الأقاليم، وأكثرها أجلة وعلماء و(هو) معدن الخير، ومستقر العلم؛ وركن الإسلام المحكم، وحصنه الأعظم؛ ملكه خير الملوك، وجنده خير الجنود. فيه يبلغ الفقهاء درجة الملوك... ترى به رساتيق[٢] جليلة، وقرى نفيسة، وأشجارًا ملتفة، وأنهارًا جارية، ونعمًا ظاهرة. ونواحى واسعة، ودينًا مستقيمًا[٣].

(١) بارتولد: تركستان من الفتح العربى إلى الغزو المغولى، ترجمة: صلاح الدين عثمان هاشم، المجلس الوطنى للثقافة، الكويت، 1041هـ - 1891م، ص145.

(٢) الرستاق: كل موضع فيه مزارع وقرى وهو عند الفرس بمنزلة السواد عند أهل بغداد. ياقوت الحموى: معجم البلدان، جـ١، ص40.

(٣) المقدسى: (أبى عبد الله محمد بن أحمد البشارى ت390هـ): أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم، مكتبة مدبولى، القاهرة، 1141هـ - 1991م ط3، ص360.

ولا يتبادر إلى أذهاننا أن بلاد ما وراء النهر - بعد هذا الوصف الرائع من المقدسي - كانت تكون وحدة جغرافية واحدة، بل على العكس، فقد قامت في هذه المنطقة عدة ممالك مستقلة عن بعضها البعض[1]. وهذه الممالك منها ما يقع على نهر جيحون، وهي: مملكة طخارستان، ومملكة الختل، ومملكة صغانيان. ومنها ما يقع بين نهري جيحون وسيحون، وهي: مملكة الصغد (بخارى وسمرقند)، ومملكة خوارزم. ومنها ما يقع خلف نهر سيحون، وهي: مملكة فرغانة، ومملكة أشروسنة، ومملكة الشاش.

وعلى ذلك؛ فيمكن تقسيم بلاد ما وراء النهر إلى ستة أقاليم، وهي:

(١) إقليم الصغد: وهو (صغديانا القديمة) عاصمته بخارى وسمرقند.

(2) إقليم خوارزم: في غرب الصغد، وهو الإقليم المعروف اليوم بـ (خيوه). ويشتمل على دلتا نهر جيحون.

(3) إقليم طخارستان: في الجنوب الشرقي ومعه الصغانيان، والختل وغيرهما من الكور التي تقع في أعالي جيحون، وإليه أيضًا تعود (بذخشان). وإن وقعت في ضفته اليسرى، أي الجنوبية، فإن المنعطف الكبير للنهر فيما وراء طخارستان يكاد يطوقها.

(4) إقليم فرغانة: في أعلى نهر سيحون.

(5) إقليم أشروسنة: في أعلى نهر سيحون كذلك.

(6) إقليم الشاش: وهو اليوم إقليم (طشقند)، مع النواحي التي في الشمال الغربي الممتدة حتى مصب نهر سيحون في بحر آرال[٢] (بحيرة خوارزم).

ولما كان من الصعب عليّ في هذا العرض الجغرافي - ذكر بلاد ما وراء النهر بالتفصيل، لذلك فسوف أقتصر على ذكر أهم هذه البلدان. ولنبدأ بالأقاليم الواقعة بين جيحون وسيحون، وأهمها:

---

(١) د. عبد الشافي محمد عبد اللطيف: العالم الإسلامي في العصر الأموي، دراسة سياسية - الطبعة الثانية، 1414 هـ - 1993. ص 338 - 339.

(٢) د. أحمد شلبي: موسوعة التاريخ الإسلامي، مكتبة النهضة المصرية، 1993 م، جـ8، ص 582.

أولًا: إقليم الصُّغد

يشمل هذا الإقليم الأرض الخصبة الواقعة فيما بين نهرى جيحون وسيحون؛ وهو عبارة عن قرى متصلة، خلال الأشجار والبساتين. وهذا الإقليم "من أطيب أرض الله، كثيرة الأشجار غزيرة الأنهار"[١]. وتبلغ مساحة الصغد[٢] ستة وثلاثين فرسخًا[٣] فى ستة وأربعين فرسخًا. وأجل مدن الصغد: بخارى وسمرقند؛ ويمكن القول: إن سمرقند كانت مركزه السياسى؛ بينما كانت بخارى عاصمته الدينية، ومع ذلك، فالمدينتان كانتا فى مرتبة واحدة.

والآن نتعرف على بخارى؛ وأهم المدن التابعة لها. ثم نثنى القول على سمرقند وأهم مدنها، ثم نأتى إلى باقى المدن الأخرى.

(أ) بُخارى

مدينة تقع فى واحة جميلة يمر بها نهر زرا فشان[٤] أحد روافد نهر جيحون. ويقدم لنا العالم الجغرافى الرحالة الإصطخرى (ت 340 هـ - 951 م)، وصفًا رائعًا لهذه المدينة فيقول: "وأما نزهة ما وراء النهر فإنى لم أرَ، ولا بلغنى أن فى الإسلام بلدًا أحسن خارجًا من بخارى، لأنك إذا علوت قهندزها (قلعتها) لم يقع بصرك من جميع النواحى إلا على خضرة تتصل خضرتها بلون السماء، وليس بما وراء النهر

---

(١) إصطخرى: (أبى إسحاق إبراهيم بن محمد الفارسى، ت 340 هـ): المسالك والممالك، تحقيق د. محمد جابر الحينى، الهيئة العامة لقصور الثقافة، الذخائر، العدد (119)، 2004 م، ص 165.

(٢) القزوينى: (زكريا بن محمد بن محمود، ت682هـ): آثار البلاد وأخبار العباد، الهيئة العامة لقصور الثقافة، الدراسات الشعبية، العدد (87)، 2003م، ص544.

(٣) الفرسخ: يقدر بنحو اثنى عشر ألف ذراع، وهو يساوى ثلاثة أميال، ويقدر حاليًا بنحو 5544 مترًا، انظر ابن خرداذبة: المسالك والممالك، ليدن - أبريل، 1889م، ص4، ياقوت: معجم البلدان، جـ1 ص39. د. محمد ضياء الريس: الخراج والنظم المالية للدولة الإسلامية، دار الأنصار، القاهرة، 1977م، ط4، 290 - 300.

(٤) نهر زرا فشان: معناه ناثر الذهب، وهو رافد مهم من روافد نهر جيحون، فامبرى: تاريخ بخارى منذ أقدم العصور حتى العصر الحاضر، ترجمة: د. أحمد محمود الساداتى، مكتبة نهضة الشرق، جامعة القاهرة، 1987م، ص33.

وخراسان بلدٌ أحسن قيامًا بالعمارة على ضياعهم من أهل بخارى؛ ولا أكثر عددًا على قدرها فى المساحة منهم. وذلك مخصوص بهذه البلاد"[١].

ويضيف القزوينى فيقول: "بخارى مدينة عظيمة مشهورة بما وراء النهر، قديمة طيبة لم أر ولا بلغنى أن فى جميع بلاد الإسلام مدينة أحسن خارجًا من بخارى؛ أحد متنزهات الدنيا"[٢].

وعلى ذلك، فقد كانت بخارى مدينة عظيمة، تمتاز بقصورها العالية. وجناتها المتدانية. وقراها متصلة العمارة، تصل مساحتها إلى سبعة وثلاثين ميلًا فى مثلها[٣]. ويتفق كل من صاحب "معجم البلدان"[٤] و"مسالك الأبصار"[٥] إلى أن بخارى كانت: "أم الأقاليم،ويم التقاسيم، ومستقر الحكم ... وكانت كل الممالك تبعًا لها".

نشأة بُخارى

أما عن نشأة المدينة، فهى كسائر المدن القديمة الأخرى، يكتنفها الغموض، ويحيط ببنائها اللبس، وتختلط الحقيقة بالأسطورة. وأقدم وصف ورد إلينا عن بناء المدينة ندين به للنرشخى. ونلخصه فيما يلى:

«إن هذا الموضع - المعروف اليوم ببخارى - كان يتكون من بركة ومروج كثيرة، وفى بعض أجزائه كان لا يوجد مخاضة للإنسان أو الحيوان، وذلك لأن الثلوج كانت تذوب على الجبال بالولايات التى بناحية سمرقند، فيجتمع الماء هنالك. وكان هذا الماء - دائمًا - يحمل الطمى. ثم توقف جريان هذا الماء بعد فترة من الزمن. ثم طُمر هذا الموضع الذى يقال له "بخارى" وتمهدت الأرض، واجتمع الناس من كل

---

(١) الإصطخرى: المسالك والممالك، ص164.

(٢) القزوينى: آثار البلاد، ص509.

(٣) مجهول: البلدان، مخطوط، ورقة، ص83.

(٤) ياقوت: معجم البلدان، جـ1، ص280.

(٥) ابن فضل الله العمرى (ت748هـ - 1347م): مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار، نقلا عن القلقشندى: (الشيخ أبى العباس أحمد ت821هـ): صبح الأعشى فى صناعة الإنشا، الهيئة العامة لقصور الثقافة، الذخائر، العدد (133)، 2005م، جـ4، ص434.

صوب. وازدهر ذلك المكان بمرور الوقت، فأعجب الناس به، وأقاموا فيها. وكانوا أول الأمر يعيشون ويقيمون فى الخيام والسرادقات، ثم تجمعوا وتكاثروا على مر العصور وبنوا العمائر[١]، ثم نصَّبوا أميرًا عليهم".

يتضح لنا من هذه القصة: أن مدينة بخارى قد أُنشئت قبل الإسلام بقرون عدة فى موضع المدينة الحالى. وأما عن اسمها، فقد اشتق من كلمة "بُخر". وهى صيغة تركية مغولية للكلمة السنسكريتية "فهاره"[٢] ومعناها صومعة أو دير. وذلك لأن البوذيين كان لهم معبد فى بخارى، أو على مقربة منه فى سمرقند.

مناخ بُخارى:

أما عن مناخ المدينة، فهى تتميز دون سائر مدن ما وراء النهر بهوائها الجاف المتقلب وذلك لقربها من المناطق الجبلية شتاؤها طويل بارد؛ وربيعها ممطر، وصيفها حار جاف، وخريفها يتميز بالنشاط. والمناطق الرملية المحيطة بها ذات هواء ساخن وشتاء قصير[٣]. ويعتبر الجزء الشمالى منها أخصب بقاعها لاحتوائه على وادٍ خصب يؤدى إلى سمرقند.

وصف المدينة

اسم بخارى القديم هو (بُومِجْكَت)[٤]: وهى مدينة على أرض مستوية، وبناؤها من الخشب المشبك. وتحيط بها القصور والبساتين والمحال والطرق المبلطة والقرى

(١) النرشخى: (أبى بكر محمد بن جعفر ت348هـ - 959م): تاريخ بخارى، عرَّبه عن الفارسية د. أمين عبد المجيد بدوى، ونصر الله مبشر الطرازى، دار المعارف، ذخائر العرب، العدد (40) ، 1993م، ص18-20.

(٢) دائرة المعارف الإسلامية، "مادة بخاري"، ترجمة: د. عبد الحميد يونس وآخرين، دار الشعب، القاهرة، 1969م، م6، ج45، ص346- 347.

(٣) د. خالد عزب: بخارى الشريفة - تاريخها وتراثها الحضارى، مكتبة مدبولى، القاهرة، (ب-ت)، ص908.

(٤) أوردها (بالتاء) المقدسى: أحسن التقاسيم، ص297، والإصطخرى: المسالك، ص176. بينما وردت (بالثاء) عند السمعانى: الأنساب، جـ1، ص398، جـ5، ص695، وياقوت: معجم البلدان، جـ1، ص389.

المتصلة. ويحيط بها سور واحد ضخم يبلغ طوله اثنى عشر فرسخًا فى مثلها، ثم سور داخلى يبلغ طوله نحو فرسخ فى مثله. وهذا السور الحصين داخله القلعة.

وللمدينة سبعة أبواب، وهى: باب المدينة الرئيس، وباب نور، وباب حقره، وباب الحديد، وباب القلعة (القهندز)، وباب مهر، وباب بنى أسد[١]. كما كان للمدينة كثير من الدروب.

ومن الجدير بالذكر: أن المدينة قد أحيطت ببوابات من حديد بلغ طول وعرض كل منها أربعة أمتار. وعلت جانبيها الأيمن والأيسر أبراج هائلة. وكانت هذه البوابات تقفل مساء كل ليلة بأقفال ضخمة، ثم تؤخذ المفاتيح إلى القلعة لتحفظ حتى الصباح[٢]. وبخارى حاليًا تقع على المجرى الأسفل لنهر زرا فشان، وهى ترتفع عن مستوى سطح البحر بنحو (722) قدمًا، أى قرابة (222,4 مترًا). وهى جزء من جمهورية أوزبكستان[٣] وعاصمتها طشقند.

ولا أستطيع أن أذكر قرى بخارى بالتفصيل، ونكتفى بذلك وأنتقل إلى سمرقند.

(ب) سمرقند

المدينة الثانية فى إقليم الصغد، وتقع هذه المدينة على نهر زرا فشان – رافد نهر جيحون – وسمرقند مدينة إسلامية تضرب بجذورها فى التاريخ. فهى تبعد عن بخارى بنحو مائة وخمسين ميلًا[٤] وتقوم على مسافة قصيرة من الضفة الجنوبية لنهر الصغد على مكان مرتفع قليلًا من الأرض.

---

(١) ابن حوقل: (أبى القاسم بن حوقل النصيبى ت367هـ – 977م): صورة الأرض، دار الكتاب الإسلامى، القاهرة، (ب – ت)، ص398.

(٢) فيتالى تومكين: بخارى، ترجمة صلاح صلاح الدين هاشم، منشورات المجمع الثقافى، أبو ظبى، 1995م، ص21.

(٣) د. محمود أبو العلا: المسلمون فى الاتحاد السوفيتى، مكتبة الإنجلو المصرية، القاهرة، 1993م، ص60– 61، وملف الجمهوريات الإسلامية فى آسيا الوسطى، مركز الأهرام للتنظيم وتكنولوجيا المعلومات، القاهرة، 1424هـ، ص228 وما بعدها.

(٤) الميل البرى: يساوى أربعة آلاف ذراع، يقدر بنحو (1847) مترًا، فهو يساوى (1,880) كم. د. محمد ضياء الدين الريس: الخراج والنظم المالية، ص300.

هذا؛ وقد تغنى الرحالة المسلمون وأبدعوا فى وصف سمرقند بل فضلوها على سائر بقاع الأرض. يقول الإصطخرى: "وأما صغد سمرقند فإنها أنزه الأماكن... لأنها مشتبكة الخضرة والبساتين؛ فهى ميادين وبساتين ورياض مشتبكة قد حفت بالأنهار الدائم جريها. والحياض فى صدور رياضها وميادينها. مخضرة الأشجار والزروع، ممتدة على جانبى واديها ومن وراء الخضرة من جانبيها مزارع تحرسها" ثم يختم كلامه بقوله: "وهى أزكى بلاد الله وأحسنها أشجارًا وثمارًا، وفى عامة مساكنهم البساتين والحياض والمياه الجارية، قل ما تخلو سكة أو دار من نهر جارٍ"[1].

وهذا الوصف الرائع يقدم لنا صورة صادقة عن سمرقند العريقة. ويبدو لى أن الإصطخرى لم يكن وحده المعجب بسمرقند، بل إن جميع الفاتحين قد أعجبوا بها وقدروها. فقد ذكرت كتب التاريخ أن رجلًا من خراسان قدم على كسرى أنوشروان أثناء حروبه مع الترك فى فرغانة فقال كسرى للرجل: أخبرنى مَنْ أحسن أهل خراسان لقاءً؟ قال الرجل: أهل بخارى. قال كسرى: فَمنْ أحسنهم ضيافة؟ قال الرجل: أهل سمرقند. فأعجب كسرى بها. وقيل: إن الرحالة القدماء قد اختبروا البلاد. وما تمتاز به فوجدوا أخف بقاع الدنيا ماءً. ماءَ سمرقند[2].

ولما أشرف قتيبة بن مسلم (49-96هـ/ 669 - 715م) على سمرقند رأى منها منظرًا فى غاية الحُسن، تحار فيه العيون. فقال لأصحابه شبهوُها. فلم يأتوا بشيء فقال لهم: كأنها السماء فى الخضرة وكأن قصورها النجوم الزاهرة، وكأن أنهارها المَجَرَّة[3]. فاستحسن أصحابه هذا التشبيه جدًا. وتعجبوا من صدقه فى هذا الوصف. وهكذا؛ يبدو لنا أن سمرقند كانت مدينة حسنة شبيهة ببخارى،

---

(١) الإصطخرى: المسالك والممالك، ص165.

(٢) النويرى: (أحمد بن عبد الوهاب، ت733هـ): نهاية الأرب فى فنون الأدب، دار الكتب المصرية، جـ1، ص295-296.

(٣)) انظر الخبر بطوله فى الثعالبى: (عبد الملك بن محمد بن إسماعيل ت 429هـ) : لطائف المعارف، تحقيق إبراهيم الإبيارى، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، (ب - ت)، ص 217.

وكانت تمتاز بقصورها العالية، وأنهارها المتدفقة وجوها العليل. مما جعلها مطمح الأنفس[١]؛ لذا فقد صارت مقرًا للتجار يجتمعون فيها من مختلف الآفاق.

نشأة سمرقند:

أما عن نشأة المدينة فقد اختلفت المصادر حول المؤسس الحقيقي لها. فيذكر القزويني: أن المدينة من بناء كيكاوس بن كيقباذ ملك الفرس[٢]، بينما يذكر ياقوت: أن المدينة من بناء الإسكندر المقدوني (356- 323ق.م.) ملك اليونان. والذي بنى عليها سورًا ضخمًا، بلغ طوله اثنى عشر فرسخًا. ومن ثم فقد أُطلق على المدينة الإسكندرية[٣] نسبة إليه.

وصف سمرقند

وأما عن وصف سمرقند، فهي مدينة تمتاز بموقعها الجغرافي على نهر زرا فشان. وتضرب بجذورها في التاريخ وبغض النظر عن المؤسس الحقيقي لها، فإن أقدم وصف وصل إلينا لسمرقند الإسلامية فإنا ندين به لابن الفقيه الهمداني (ت290هـ - 903م). والذي ذكر أن للمدينة اثنى عشر بابًا من الخشب. ولكل باب مصراعان. ويوجد خلف كل باب؛ باب آخر ذو مصراعين أيضًا[٤].

وقد شغلت مساحة المدينة الداخلة، ألفين وخمسمائة جريب[٥]. وكان يقوم بها المسجد الجامع والقلعة وقصر الإمارة. وهي تختلف عن بخاري في أن قلعتها كانت

---

(١) ابن الوردي: خريدة العجائب وفريدة الغرائب،ص23.

(٢) القزويني: آثار البلاد، ص535.

(٣) ياقوت الحموي: معجم البلدان، جـ1، ص150.

(٤) ابن الفقيه: (أحمد بن محمد الهمداني ت290هـ): مختصر كتاب البلدان، طبع ليَدنْ، بريل، 1981م، ص325.

(٥) الجريب: يختلف عياره من بلد إلى أخر. فكان بالعراق يساوي (3600 ذراع). وفي خراسان يساوي عشرة أقفزة. انظر الخوارزمي (محمد بن أحمد بن يوسف ت387هـ): مفاتيح العلوم، تحقيق فان فلوتن، الهيئة العامة لقصور الثقافة - الذخائر، العدد (118)، 2004م. ص 66 -67. والماوردي: (على بن محمد بن حبيب المصري ت 450هـ) الأحكام السلطانية والولايات الدينية، دار ابن خلدون، الإسكندرية، ص 283 -289. ويقدر الدكتور الريس: مساحة الجريب - حاليًا - بنحو (135,000) متر مربع، كتاب: الخراج والنظم المالية، ص 290. بينما يرى (هنش) إن مساحة الجريب "القانوني" كان يعادل (11952 م) في العصور الوسطى المبكرة. أما في العصور الوسيطة المتأخرة فكان يعادل (958 م) بإيران والمناطق المتاخمة لها. انظر بارتولد: تركستان، مرجع سابق، ص171. حاشية (183).

بداخل المدينة، ولسمرقند (المدينة الداخلة) أربعة أبواب، هي[1]: باب الصين فى جهة المشرق. وباب بخارى من جهة الشمال. وباب النوبهار فى جهة الغرب، والباب الكبير ويعرف بباب (كِشّ) فى جهة الجنوب. كما تمتعت المدينة بدروبها الواسعة الفسيحة.

وهكذا ظلت سمرقند تنعم بالسلام والرخاء والهدوء، حتى وقعت تحت الغزو الروسى البغيض. فتغيرت ملامحها الجغرافية[2]. ثم عادت إليها الحياة مرة ثانية وذلك بعد حصول أوزبكستان على استقلالها، وصارت سمرقند جزءًا أصيلًا من هذه الدولة.

(ج) مدينة كِشّ

المدينة الثالثة من مدن إقليم الصغد، وهى مدينة عظيمة لها قلعة وحصن. بنيت من الآجر لأنها غزيرة الأمطار. ولها نهران يمران بها ينتفع بهما فى الزراعة. وللمدينة أربعة أبواب، هى: باب الحديد، وباب عبيد الله، وباب القصابين، وباب المدينة الداخلة[3]. وكش حاليًا إحدى مدن أوزبكستان، ويقال لها اليوم "شهر سبز" ومعناها المدينة الخضراء.

(د) مدينة نَسَف (نَخشَب)

المدينة الرابعة من مدن إقليم الصغد، وهى مدينة كبيرة عظيمة الاتساع، بنيت من الآجُرّ، غزيرة الأمطار، تقع على بُعد مائة ميل تقريبًا من مدينة كش من ناحيتها

---

(١) المقدسى: أحسن التقاسيم، ص 278.

(٢) د. جمال حمدان: استراتيجية الاستعمار والتحرير، مهرجان القراءة للجميع ، مكتبة الأسرة 1999م، ص115. سعيد أحمد محمد: التأثير الأيديولوجى للروس على المجتمعات الإسلامية بوسط آسيا "أوزبكستان" رسالة ماجستير، معهد الدراسات الآسيوية، جامعة الزقازيق، 2003م، ص45 وما بعدها.

(٣) ابن حوقل:صورة الأرض ص 412.

الغربية. ولها قلعة وحصن، وأرضها خصبة. وللمدينة أربعة أبواب، وهى: باب البخارية، وباب سمرقند، وباب كش، وباب غوبذين[1]. والمدينة تقع على الطريق المؤدى من بخارى إلى بلخ. وقد مدح المقدسى كثرة أعناب المدينة، وأثنى على اتساع أسواقها. غير أنه عاب أهلها بقوله: "وهى كثيرة الأعناب الجيدة، والمزارع العذبة الطيبة ... وأهلها غاغة[2]، وبها عصبيات وحشية، وهم قوم سوء"[3].

ويذكر السمعانى أنه أقام بها قريبًا من شهرين، وسمع بها جماعة من العلماء، ويثنى على المدينة بكثرة علمائها[4]. ومدينة نسف هى التى ذكرها أبو تمام[5] فى قصيدته التى يمتدح فيها الخليفة المعتصم العباسى (218-227هـ/833-842م) فقال:

تهابك الروم فى معاقلهـــا   والترك تخشاك من وراء نسف

ثانيًا: إقليم خوارزم[6]

خوارزم، اسم يطلق على الإقليم. وهو منقطع عن خراسان، فالصحارى تحيط به من كل الجوانب. يحده من الغرب والشمال بلاد الترك. ومن الشرق بلاد الصغد، ويمتد على جانبَىْ نهر جيحون[7]. ويطل بقاعدة عريضة على بحيرة خوارزم (بحر آرال) حاليًا.

---

(١) ابن حوقل: نفس المصدر، ص413. القزوينى: آثار البلاد، ص 466.

(٢) هم:السّفلة من الناس والمتسرعين إلى الشر، ويجوز أن يكون من الغوغاء :وهى الصوت والجلبة لكثرة لغطهم وصياحهم .ابن منظور: لسان العرب، جـ8، ص444.

(٣) أحسن التقاسيم، ص 283.

(٤) الأنساب، جـ5، ص 486.

(٥) الأصفهانى: (على بن الحسين بن محمد القرشى ت 356هـ): الأغانى، تحقيق إبراهيم الإبيارى، دار الشعب، القاهرة، 1970 م، جـ 17، ص 6227-6250. أما البيت المذكور فلم أعثر عليه فى ديوان أبى تمام المطبوع بتحقيق وشرح إيليا الحاوى، دار الكتاب اللبنانى، بيروت، 1981م، وطبعة ثانية بتحقيق د. محى الدين صبحى، دار صادر، بيروت، جزءان، 1997م.

(٦) ضبطها ياقوت هكذا: أوله بين الضمة والفتحة، والألف مسترقة ليست بألف صحيحة. ثم قال: "هكذا يتلفظون به" وقد سبق القول إن البلدة الوحيدة التى دخلها ياقوت من مدن ما وراء النهر هى خوارزم وذلك عام 616هـ (1219م) انظر: معجم البلدان، جـ2، ص252.. أما السمعانى: فقد ذكر الكلمة دون ضبط لها. انظر: الأنساب، جـ2، ص408.

(٧) ابن الوردى: خريدة العجائب، ص32.

وهذا الإقليم مشهور بكثرة المدن والقرى. قال جار الله الزمخشرى: "بخوارزم فضائل لا توجد فى غيرها من سائر الأقطار، وخصال محمودة لا تتفق فى غيرها من الأمصار، قد اكتنفها أهل الشرك، وأطافت بها قبائل الترك. فغزو أهلها معهم دائم والقتال فيما بينهم قائم، وقد أخلصوا فى ذلك نياتهم، وقد تكفل الله بنصرهم فى عامة الأوقات... وقد خصها (الله تعالى بنهر) جيحون، وادٍ عسر المعبر، بعيد المسالك، غزير الماء كثير المهالك، وأهلها أصحاب نفوس أبيةٌ، ولهم الوفاء والأمانة"[١] ولا غرابة فى ذلك فالإمام الزمخشرى يمدح وطنه، ومسقط رأسه لأنه من قرية زمخشر؛ إحدى قرى خوارزم . يقول ابن أرسلان الخوارزمى: "خوارزم مين (هكذا) أرض رخوة، وهى من ثغور الإسلام، ودار رباط... ومما لا ينكر من فضائلها طيب الهواء، وعذوبة الماء، والبساتين على شطها، والأنهار إلى القرى والمزارع. تطرد من جانبيها الأغذية الشهية، والفواكه الطيبة المتوافرة. فقد اتفق التجار الجوالون (على) أن مثلها لا يوجد"[٢].

نشأة خوارزم

أما عن نشأة المدينة فهى أيضًا يكتنفها الغموض، يحدثنا المقدسى عنها ما ملخصه: أن أحد الملوك القدماء - لم يسمه - غضب على أربعمائة من أهل مملكته فأمر بنفيهم إلى موضع منقطع عن العمارات، فكان هذا المكان (كث) - إحدى مدن (خواررزم) - فقام الناس ببناء أكواخ لهم؛ وكانوا يعيشون على صيد الأسماك فقيل لهم: كيف حالكم. فقالوا: عندنا هذا اللحم، وأشاروا إلى السمك. وعندنا هذا الحطب، فنحن نشوى هذا بهذا، ونتقوت به، فأطلق عليهم الملك (خوارزم). لأن اللحم بلغة الخوارزمية (خوار) والحطب (رزم)[٣]. يقول ياقوت: ثم خفف استثقالًا لتكرير الراء فقيل خوارزم[٤]. أما فامبرى فيؤكد على أن معنى الكلمة المحارب[٥]. وأما اليعقوبى فيطلق عليها اسم "بيل" ويقول: "خوارزم واسمها

---

(١) القزوينى: آثار البلاد، ص525.

(٢) الخوارزمى: تاريخ خوارزم، مخطوط ، ورقة4 .

(٣) أحسن التقاسيم، ص285 د. عفاف سيد صبره:التاريخ السياسى للدولة الخوارزمية،دار الكتاب الجامعى ،القاهرة،1987م ، ص10 .

(٤) معجم البلدان، جـ2، ص252.

(٥) تاريخ بخارى، ص23.

(بيل) وهى جانبان يشقها جيحون، ويعبر نهر بلخ إلى الترمذ والنهر يضرب سورها ومدينتها"[١]. ويسمها ابن أرسلان الخوارزمى "المنصورة"[٢].

وبالجملة؛ فإقليم خوارزم عبارة عن كورة جليلة واسعة كثيرة المدن، ممتدة العمارة... كثيرة المزارع والشجر والفواكه والخيرات، مفيد للتجار... حيث رزقهم الله تعالى الرخص والخصب[٣].

وجدير بالذكر: أن ابن فضلان فى رحلته التى قام بها فى عام (309هـ) قد دخل خوارزم، ووصف بردها الشديد، وذم أهلها، كما دخل مدينة (الجرجانية) وحدد المسافة بينها وبين خوارزم بأنها خمسون فرسخًا، وأقام بها عدة أيام. وقال: "فرأينا بلدًا ما ظننا إلا أن بابًا من الزمهرير قد فتح علينا منه"[٤].وفى سنة 616هـ/ 1219م زار ياقوت الحموى الجرجانية أو (كركانج) كما سماها. وذلك قُبيل الغزو المغولى لها. فقال عنها: "ولا أعلم أنى رأيت أعظم منها مدينة، ولا أكثر أموالا، وأحسن أحوالًا"[٥].

ثالثًا: إقليم طَخَارِسْتَانَ[٦]

يقع هذا الإقليم فى أعلى نهر جيحون. وفى القرن الخامس الميلادى احتله الهياطلة[٧]. وفى القرن السادس الميلادى قضى الترك عليهم[٨]؛ واحتلوا المدينة.

---

(١) اليعقوبى: البلدان، ص324. ولم يرد هذا الاسم فى باقى المصادر.

(٢) الخوارزمى: تاريخ خوارزم، مخطوط، ورقة 4.

(٣) المقدسى: أحسن التقاسيم، ص284 -285 .

(٤) ابن فضلان: (أحمد بن فضلان بن العباس بن راشد): رسالة بن فضلان فى وصف الرحلة إلى بلاد الترك والخزر والروس والصقالبة، تحقيق د. سامى الدهان، مطبوعات المجمع العلمى العربى بدمشق، 1379هـ- 1959م، ص 82-85.

(٥) معجم البلدان، جـ2، ص45.

(٦) ضبطها الإصطخرى: طُخَيرِسْتان، انظر المسالك والممالك، ص156 . والملحق رقم (5).

(٧) نسبة إلى هيطل بن عالم بن سام بن نوح، استوطن بلاد ما وراء النهر وعمرها، فسميت باسمه. الخوارزمى: مفاتيح العلوم، ص119، ياقوت: معجم البلدان، جـ4، ص491.

(٨) دائرة المعارف الإسلامية، "مادة طخارستان"، م6، جـ45، ص346.

وكان حاكم طخارستان إبان غزوات المسلمين لها يُلقب باللقب التركى (يبغوا) وبالعربية (جبغوية)[١].

وطخارستان تنقسم إلى قسمين: طخارستان العليا وتشمل مدن الطالقان، الختل، بذخشان، الصغانيان، وزم. طخارستان السفلى. وتشمل، خُلم، وسمنجان.

وأهم هذه المدن: بَذَخشانَ: مدينة صغيرة؛ خصبة الأرض. بها الكروم، وتجرى فيها الأنهار[٢]. وهى تقع على الشاطئ الأيسر من المجرى الأعلى لنهر جيحون، أو على وجه الدقة على الشاطئ الأيسر لنهر (بنج) - جرياب قديمًا - أحد روافد نهر جيحون؛ لذا فقد وصفت المدينة بأنها ذات نعم وفيرة، كما اشتهرت بكثرة المعادن. ومما هو جدير بالذكر، أن السيدة زبيدة زوجة الخليفة هارون الرشيد (170-193هـ/ 786- 809م) قد بنت هناك حصنًا قويًا للدفاع عن هذه البلاد أمام هجوم الترك. قال السمعانى عنه: "ورأيت بها حصنًا عجيبًا قل ما رأى الناس مثله"[٣].

أما عن مكان مدينة بذخشان - حاليًا - فيرجح لستر نج، أن مدينة (فيض آباد) قد قامت على أنقاض المدينة القديمة[٤]. وفيض آباد هذه تعد جزءًا من جمهورية طاجكستان الحالية.

والآن: قد فرغت من ذكر المدن الواقعة على نهر جيحون، والمدن الواقعة بين نهرَىْ جيحون وسيحون ننتقل إلى المدن السيحونية:

رابعًا: إقليم فرغانة

هو أحد أقاليم نهر سيحون، ويمتد لمسافة مائتى ميل على طول جانبى النهر، وأهم مدنه:

(١) فَرْغَانة: مدينة واسعة بما وراء النهر، كثيرة الخيرات تَبعُد عن سمرقند بنحو خمسين فرسخًا، يرجع بناؤها إلى الملك كسرى أنوشروان. ويقال: إنه نقل

(١) جبغوية: لقب ملك الترك الغزية، الخوارزمى: المصدر السابق، ص12.

(٢) الإصطخرى: المسالك والممالك، ص156، مجهول: حدود العالم، ص82.

(٣) الأنساب، جـ1، ص301.

(٤) مقال فى دائرة المعارف الإسلامية، مادة بذخشان، م6، جـ47، ص 509.

إليها مجموعة مختلفة من الناس وسماها (هر خانة)[١]. وقيل سميت (أَزْهَر خانة) ومعناها بالفارسية (من كل بيت)[٢]، ويسميها اليعقوبى (كاسان) ويصفها بأنها "مدينة جليلة القدر، عظيمة الأمر"[٣]. وتمتاز فرغانة بأن الجبال والصحارى تحيط بها من جميع الجهات، ومع ذلك فالمصادر تجمع على أنها ذات نعم وفيرة، ومياه جاريه، وضياع كثيرة[٤]. وكانت أوسع قرى بلاد ما وراء النهر تقع فى فرغانة "وربما بلغت مساحة القرية مرحلة، لكثرة أهلها وانتشار مواشيهم ومراعهم"[٥].

وفى العصر الحديث وبالتحديد فى عام 1876م وقعت فرغانة تحت الاحتلال الروسى، وأطلق عليه (خانية خُوقند). وبعد الثورة الروسية، أعادت إليها الحكومة الروسية رسميًا اسمها القديم فرغانة[٦]، والتى مازالت تعرف به حتى اليوم.

(2) أَخِسْيكَث: عاصمة الإقليم، تقع على الشاطئ الأيمن لنهر الشاش – سيحون – ومعناها بلغة الصغد "مدينة الأمير" وتمتاز بأنها مدينة واسعة، مستوية، تبعد عن الجبال بنحو نصف فرسخ، وتبلغ مساحتها نحو ميل فى مثله[٧]، وقد بنيت من الطوب اللّبِن، ولها قلعة عظيمة، ومسجد جامع، وبها المياه الجارية، والحياض الكثيرة.

وقد ذكر ابن حوقل أبواب المدينة الخمسة، وهى: باب بجير، باب المرقشة، باب كاسان، باب الجامع، باب رهابه[٨]. أما المقدسى فقد دخل المدينة وأثنى عليها بقوله: "إنها بلد كبير خطير بالأشجار المحيطة به، والأنهار الفائضة إليه مع عمارة وخصب ورخص". ولكنه ذم أهلها بقوله: "وفى أهلها غلظة"[٩].

---

(١) القزوينى: آثار البلاد، ص603.

(٢) ياقوت: المصدر السابق، نفس الجزء، ص428.

(٣) البلدان، ص294.

(٤) مجهول: حدود العالم، ص87.

(٥) ابن حوقل: صورة الأرض، ص420، السمعانى: الأنساب، جـ4، ص367.

(٦) فاميرى: تاريخ بخارى، ص69، جاى ونت: أضواء على آسيا، ترجمة روفائيل جرجس، سلسلة الألف كتاب العدد (308)، الأنجاو المصرية، القاهرة، ص62.

(٧) دائرة المعارف الإسلامية، مادة أخسيكث، م2، جـ14، ص420

(٨) صورة الأرض، ص420، القلقشندى: صبح الأعشى، جـ4، ص438.

(٩) أحسن التقاسيم، ص271.

ظلت أخسيكث تنعم بالهدوء والسلام إلى أن فاقت على الغزو المغولى الذى دمر المدينة، وتركها أطلالاً مازالت قائمة إلى وقت قريب، ويطلق عليها "إسكى أخسي" وتبلغ مساحتها - كما يقول بارتولد - ألف خطوة من الغرب إلى الشرق، وستمائة من الشمال إلى الجنوب. وتقع على مائة وخمسين قدمًا فوق مستوى نهر سيحون[١]. وعلى كل حال، لم يبقَ لنا من أخسيكث الإسلامية غير هذا الوصف الذى تركه لنا السمعانى حين قال: "أخسيكث من بلاد فرغانة، كانت من أنزه بلادها وأحسنها، خرج منها جماعة من العلماء قديمًا وحديثًا"[٢].

خامسًا: إقليم أَشْروسَنَة[٣]

يقع هذا الإقليم فى القسم الرابع من الأرض، وهو أحد أقاليم بلاد ما وراء النهر، يقع إلى الشمال الشرقى من سمرقند، أما حدوده الجغرافية فهى؛ يحده شمالاً: الشاش وبعض فرغانة، وشماله الغربى: السهوب الواسعة لنهر سيحون. ومن الجنوب: بعض حدود كش الصغانيان وشومان، وجبل البتم التى تمتد على طول المجرى الأعلى لنهر زرا فشان. وهذه الجبال تعد جزءًا من الإقليم. ومن الشرق: بعض فرغانة أيضًا. كان يسكن هذا الإقليم قبل الإسلام جماعة من الإيرانيين يحكمهم أمراؤهم الذين يحملون لقب (الأفشين)[٤] ويشمل هذا الإقليم كثيرًا من المدن والقرى، وبه الخيرات الوافرة ويقال: إن به أربعمائة حصن[٥].

وفيما يلى عرض لأهم مدن الإقليم:

(١) بُومْجِكت أو بُونْجكَث: عاصمة الإقليم. وهى بلدة كبيرة؛ خصبة، عامرة، وفيرة . بناؤها من الطوب اللبن والخشب وتنقسم إلى قسمين، هما:

---

(١) تركستان، ص273، ودائرة المعارف الإسلامية، م2، جـ14، ص420.

(٢) الأنساب، جـ1، ص95.

(٣) اختلفت المصادر فى كتابة هذا الاسم. فقد ذكره الإصطخرى (ص182)، وابن حوقل (ص413). والمقدسى (ص277) وابن الوردى (ص24): اشروسنة. بينما ذكره اليعقوبى (البلدان ص294)، وأبو الفدا (تقويم البلدان ص485)، وابن الفقيه (المختصر ص322)، وصاحب حدود العالم (ص87)، والسمعانى (جـ1، ص141)، ودائرة المعارف الإسلامية (م3، جـ20، ص296): اسروشنة. أما ياقوت فقد ذكر الاسمين، جـ1، ص 145 - 161.

(٤) الخوارزمى: مفاتيح العلوم، ص119.

(٥) القلقشندى: صبح الأعشى، جـ4، ص433.

(أ) المدينة الداخلة: ويحيط بها سور ضخم، ولها بابان، هما: باب المدينة، والباب الأعلى. وبداخلها القلعة والمسجد والأسواق والسجن. ويجرى بها نهر كبير يسقى البساتين[١].

(ب) المدينة الخارجة: فيحيط بها سور ضخم أيضًا يقدره الإصطخرى بنحو ثلاثة فراسخ[٢]. ولها أربعة أبواب، وهى: باب زامين؛ باب مِرَسْمَنده، باب نوجكث، باب كهلباذ (أو كهلباذ) ويخترق المدينة ستة أنهار مما جعلها فى غاية الخصب، والنزهة. وقد وصل عدد سكانها إلى نحو عشرة آلاف نفس[٣]. أما مدينة بومجكت القديمة، فقد تهدمت، وقامت على أطلالها مدينة "أرأيته" الحالية[٤].

(2) زامَين أو سُوسَنْدة: مدينة تقع على طريق خجندة فرغانة. يشقها نهر عظيم، وتقع المدينة على جانبيه. هذا وقد خرب النهر مدينة زامين؛ مما اضطر الناس إلى بناء مدينة جديدة هى سوسندة، ونقل الناس الأسواق والمسجد الجامع إليها. ويذكر المقدسى: أن الأهالى قد أقاموا جسورًا صغارًا على هذا النهر الذى يشق مدينتهم، لكى يُسهل لهم العبور[5] وعلى كل، فقد تمتعت المدينة الجديدة بالرخاء. وقامت بها البساتين والمزارع. وعاش أهلها فى أمان حتى إن المدينة لم يكن عليها سور خارجى كما يقول ابن حوقل[٦].

سادسًا: إقليم الشاش: يقع إقليم الشاش غرب إقليم فرغانة؛ على الضفة اليمنى لنهر سيحون. وهو إقليم واسع فمقدار عرضه مسيرة يومين فى ثلاثة أيام. وليس بخراسان وبلاد ما وراء النهر إقليم على مقدار الشاش من المساحة كما يقول ابن حوقل[٧].

---

(١) مجهول: حدود العالم، ص87.
(٢) المسالك والممالك، ص183، ابن حوقل: صورة الأرض، ص414.
(٣) المقدسى: أحسن التقاسيم، ص277.
(٤) بارتولد: تركستان، ص280، لسترنج: بلدان الخلافة الشرقية، ص518.
(٥) المقدسى: المصدر السابق، نفس الصفحة.
(٦) صورة الأرض، ص464، على حين يذكر صاحب حدود العالم، ص86 أن لها سورًا حصينًا.
(٧) صورة الأرض، ص416، القزوينى: آثار البلاد، ص538.

وإقليم الشاش يمتد فى أرض سهلة، مستوية، قرى عامرة، أبنيتهم من الطوب اللبن، وعامة دُورهم يجرى فيها الماء. كلها مستترة بالخضرة، وتنتشر فيها البساتين والمتنزهات. أهلها مقاتلون، غزاة، وذلك لأن مدينتهم أكبر ثغر فى وجه الترك. وبالجملة: فإقليم الشاش من أنزه بلاد ما وراء النهر كما يقول الإدريسي[١].

أما عن تطور المدينة، فإنها كانت تعرف قديمًا باسم جج أو جاج. وهو اسم المدينة بالفارسية[٢] وبعد الفتح الإسلامى لها، أطلق عليها الشاش. ثم تعرضت المدينة للغزو والتدمير أكثر من مرة، بداية من الغزو المغولى، ومرورًا بغزو محمد خوارزمشاه، ثم غزو تيمورلنك. ومنذ هذا العصر تحرف اسم المدينة من الشاش أو الجاج إلى تاشكنت. ومعناها مدينة الحجر[٣]. ثم حرَّفه السكان الناطقون بالتركية إلى طشقند الحالية.

وفى العصر الحديث وبالتحديد فى عام 1865م تعرضت المدينة للغزو السوفيتى، ثم حصلت على استقلالها. وأصبحت عاصمة لجمهورية أوزبكستان الاتحادية[٤].

والآن نعرِّف ببعض مدن الإقليم:

(1) بِنْكث: عاصمة الإقليم[٥]. وكانت تنقسم - كباقى مدن بلاد ما وراء النهر - إلى قسمين: مدينة داخلية، وأخرى خارجية.

وأما المدينة الداخلية: فتبلغ مساحتها فرسخًا فى مثله، ولها ثلاثة أبواب، وهى: باب أبى العباس، باب كش الذى يصل إلى سمرقند، وباب الجُنيد[٦]. وتمتاز المدينة بقلعتها الضخمة التى تحميها من خطر الترك، وكان لهذه القلعة بابان، أحدهما: يفضى إلى الداخل، والآخر: يفضى إلى البستان. وكان المسجد الجامع يقع بالقرب من سور القلعة. أما السوق ففى وسط المدينة.

(١) نزهة المشتاق، جـ1، ص703.
(٢) فامبرى: تاريخ بخارى، ص24.
(٣) لستر نج: بلدان الخلافة الشرقية، ص 524 - 525.
(٤) د. مصطفى رمضان: المسلمون فى آسيا الوسطى وإيران، ص 235.
(٥) السمعانى: الأنساب، جـ1، ص405، ياقوت: معجم البلدان، جـ1، ص394.
(٦) المقدسى: أحسن التقاسيم، ص276.

وأما المدينة الخارجية: فكان يحيط بها سور ضخم يحميها ويحمى الناحية كلها. ويمكن أن أقدم وصفًا سريعًا لهذا السور بأنه: كان يحيط بمدينة الشاش من ناحية الشمال. ويأخذ هيئة نصف دائرة، يصل ما بين ضفة نهر الترك فى الشرق، حتى نهر سيحون فى الغرب. وكان هناك على بُعد فرسخ من هذا السور خندق عميق[1] يمتد من الجبل شرقًا حتى وادى سيحون غربًا. كل هذا لحماية البلاد من خطر الترك، أما عن أبواب المدينة الخارجية فهى سبعة - كما يقول المقدسى وابن حوقل - مع اختلاف فى اللفظ بينهما، وهى كالتالى:

1- باب فرغكد (فرغذ عند ابن حوقل).

2- باب خاسكث (خاسكت عند ابن حوقل).

3- باب سنديجا (سكنديجاق عند ابن حوقل).

4- باب الحديد.

5- باب بركر دجا (باكر ديجاق عند ابن حوقل).

6- باب سكرك.

7- باب در ثغرياذ (در نصر باد)[2].

وأخيرًا، فإن المدينة كانت خصبة؛ حيث يشقها عدة أنهار تسقى البساتين والأشجار[3].

الأنهار الرئيسة فى بلاد ما وراء النهر

تمتعت بلاد ما وراء النهر بكثرة أنهارها - وسوف نتحدث عنها بالتفصيل فى فصل الرى والزراعة - أما الآن فنركز على النهرين الرئيسين، وهما: نهرا جيحون، وسيحون.

---

(١) ابن حوقل: صورة الأرض، ص417.

(٢) المقدسى: المصدر السابق، نفس الصفحة، ابن حوقل: نفس المصدر، نفس الصفحة.

(٣) مجهول: حدود العالم، ص87.

(أ) نهر جَيْحَون

كان نهر جيحون – قديمًا – يُعد الحد الفاصل بين الأقوام الناطقة بالفارسية، والأقوام الناطقة بالتركية. أو بمعنى آخر بين إيران وتوران[1]. فما كان فى شماله من أقاليم سماها العرب: ما وراء النهر، أو الهياطلة[2].

هذا، وقد أطلق العرب على نهر أُوكْس oxus اسم جيحون أو نهر بلخ[3]. وذلك لأن العرب قد سموا الأنهار بأسماء المدن الكبيرة التى تقع عليها، أو تقع قريبة منه، ولما كانت بَلْخ تقع على بُعد بضعة أميال من ضفة جيحون الجنوبية، فقد نسب النهر إليها.

أما عن منابع نهر جيحون: فقد ذكر ابن رسته – إن نهر جيحون ينبع من هضبة التبت الصغرى – بامير حاليًا – ثم ينحدر نحو الشرق[4]. وقد ذكر كل من الإصطخرى، وابن حوقل روافد نهر جيحون. وهي[5] كالتالى:

نهر جَرْياب وهو عمود النهر – ينج حاليًا – وكان يصل إلى بذخشان من الشرق، ثم يتجه غربيًا فجنوبيًا قبل أن يبلغ أطراف مدينة خُلم. وكان لهذا النهر روافد كثيرة، منها: أنْديجاراغ – برتنك حاليًا – ونهر فَارْغر، ونهر أَخْشوَا. ومن اليسار عند مدينة آرهن يصب فى نهر جيحون نهر وخشاب أو نهر الوخش – ويعرف حاليًا بسرخاب ومعناه النهر الأحمر –. وبعد انعطافه حول مدينة بذخشان يستقبل فى يساره نهرى الطايقان وقندز الآتيين من طخارستان – وهما عند ابن رسته ختلاب وتراب – ثم يلتقى نهرا القباذيان الصغانيان – عند ابن رسته زامل – بجيحون فى

---

(١) توران: كلمة إيرانية تطلق على البلاد التى تقع إلى الشمال الشرقى من إيران، ونتيجة الهجرات الآسيوية، أصبح لفظ (توره) يطلق على الأعداء الإيرانيين وهم الطخاريون (أهل طخارستان)، والهياطلة والترك. دائرة المعارف الإسلامية، مادة توران، م10، ص123.

(٢) لستر نج: بلدان الخلافة الشرقية، ص478.

(٣) المسعودى: مروج الذهب، جـ1، ص94، ياقوت: معجم البلدان، جـ2، ص101 ويعرف حاليًا باسم (آمو دريا) ينبع من جبال بامير ويجرى على الحدود الفاصلة بين دولة أفغانستان وجمهورية طاجكستان الحالية.

(٤) الأعلاق النفيسة، ص 91 -93.

(٥) الإصطخرى: المسالك والممالك، ص166، ابن حوقل: صورة الأرض، ص393.

ضفته الشمالية. وتفصل جبال البتم - فى الشمال- مياه نهر جيحون عن مياه نهر زرا فشان التى فى الصغد[1] ثم ينحدر النهر نحو الغرب، ثم الشمال الغربى حتى يصب فى بحر خوارزم - آرال حاليًا[2].

ومما هو جدير بالذكر، أن نهر جيحون كان يتجمد فى فصل الشتاء حتى كانت القوافل تعبر عليه ماشية. وربما بلغت طبقة الجليد نحو خمسة أشبار - كما يقول ياقوت الحموى، الذى زار هذه المناطق[3]. ولدينا شاهد آخر وهو الرحالة ابن فضلان، والذى ذكر فى رحلته إنه أقام بالجرجانية - عاصمة خوارزم - من شدة البرد - شهور رجب وشعبان ورمضان وشوال، وساق لنا قصة ملخصها: أن رجلين ساقا اثنى عشر جملًا ليحملا عليها حطبًا من بعض الغياض، وأنهما باتا من غير إشعال نار، فأصبحا والجمال موتى من شدة البرد[4]. ويحدثنا القزوينى: أن أهل خوارزم كانوا يحفرون آبارًا بالمعاول فى نهر جيحون يخرقونه للوصول إلى المياه. ويسقون منها، ثم يحملونه فى جرار[5]. كان الوضع يظل هكذا حتى ينقضى فصل الشتاء، فيتقطع الجليد، ويعود النهر إلى جريانه.

(ب) نهر سَيْحَون

أطلق العرب على نهر جَكَزرْتِس Jaxar Tes اسم سيحون، أو نهر الشاش - طشقند حاليًا - نسبة إلى أكبر المدن الواقعة عليه وهى مدينة الشاش.

وأما عن تطور اسم النهر، فبعد الغارة المغولية على هذه البلاد كاد أن يبطل استعمال هذا الاسم، لأنهم أطلقوا عليه اسم كل ذريان، ثم تحرف إلى الاسم التركى سيرصو بمعنى نهر سير[6]. ومن ثم عرف باسم سِيِّر دِرْيَا حاليًا.

---

(١) مجهول: حدود العالم، ص 36-37. لستر نج: بلدان الخلافة الشرقية، ص 479.

(٢) هى: بحيرة كبيرة فى غرب تركستان مالحة نوعًا ما، بلغت مساحتها عام 1942م (66.548كم^2). منها (345. 2كم^2) جزائر، انظر دائرة المعارف الإسلامية، مادة بحيرة خوارزم، م1، ص42.

(٣) معجم البلدان، جـ1، ص279.

(٤) الرحلة إلى بلاد الترك، ص 84 -85.

(٥) آثار البلاد، ص526.

(٦) لستر نج: بلدان الخلافة الشرقية، ص519.

وأما منابعه فقد ذكر ابن حوقل أن النهر يخرج من بلاد الترك، حيث تجتمع إليه عدة أنهار تأتى إليه من الجبال، ثم يدخل وادى فرغانة ويسير بها نحوًا من مائتى ميل، ثم ينحدر شرقًا ليستقبل أنهار: خر شاب، وأوْرسِت، وقبا، وجد غل - نرين حاليًا - وأنهارًا أخرى غيرها. ثم ينعطف شمالاً، فيستقبل نهرى أيلاق، وترك من يمينه، ثم يمر بغرب الشاش، ثم أسفيجاب ثم تتوزع مياهه على أنهار عديدة حتى يصب فى بحر خوارزم[١] - آرال حاليًا - فى القسم الشمال الشرقى منه.

ومما تجدر الإشارة إليه: أن نهر سيحون كان يتجمد - هو الآخر - فى فصل الشتاء، ولكن لمدة أطول من نهر جيحون، حيث كانت القوافل تعبره. وكان يُعد "نحو ثلثى جيحون"[٢] على قول حد ياقوت الحموى.

هذه، فى عُجالة سريعة الأنهار الرئيسة ببلاد ما وراء النهر، وهناك أنهار أخرى - فرعية - تغطى جميع البلاد؛ سوف أذكرها عند الحديث عن الرى والزراعة فى بلاد ما وراء النهر .وفى الختام، فقد أجمع الرحالة الذين دخلوا بلاد ما وراء النهر على أن: "مياههم أعذب المياه، وأخفها. وقد عمت المياه العذبة جبالها، وضواحيها ومدنها". مما ساعد بلاد ما وراء النهر على أن صارت "من أخصب أقاليم الإسلام، وأنزهها، وأكثرها خيرًا، وأهلها يرجعون إلى رغبة فى الخير"[٣].

هذا ، و قد ارتبطت خمس من الجمهوريات الإسلامية فى آسيا الوسطى بنهرى جيحون و سيحون . إذ تشغل جمهوريتا " طاجكستان " و"قيرغيزيا" الإقليم الجبلى الذى ينبع منه النهران . وتشغل جمهورية " أوزبكستان " بعض دلتاه على بحر أورال. وتشغل جمهورية " تركمانستان"معظم مجرى نهر جيحون جنوب دلتاه على بحر أورال . ويشغل جنوب " كازاخستان " كل المجرى الأدنى لنهر سيحون . وهذان النهران قد أعطيا الحياة للإقليم الصحراوى[٤].

---

(١) ابن حوقل: صورة الأرض، ص419، لسترنج: نفس المرجع، ص521 .

(٢) معجم البلدان، جـ3، ص102، وانظر القلقشندى: صبح الأعشى، جـ4، ص445.

(٣) الإصطخرى: المسالك والممالك، ص161.

(٤) د. مصطفى كسبه : المسلمون فى آسيا الوسطى والقوقاز، هدية مجلة الأزهر 1414 هـ ، جـ 1 ، ص 49 .

المبحث الثانى

الفتح الإسلامى لإقليم خراسان والمحاولات المبكرة لفتح بلاد ما وراء النهر

قبل الحديث عن الفتح الإسلامى لإقليم خراسان، أُلقى نظرة على الأحوال السياسية لبلاد ما وراء النهر قُبيل الفتح الإسلامى. ولنبدأ بالحديث عن عناصر السكان فى هذه المنطقة، ولكن، ليس المراد من دراسة عناصر السكان فى هذا المبحث الناحية (الأنثروبولوجية)، بل المراد دراسة هجرات شعوب المنطقة من مكان إلى آخر حتى استقر ببعضهم المقام فى بلاد ما وراء النهر.

أما عن عناصر السكان: فقد اختلفت آراء المؤرخين المحدثين حولها، فيرى الأستاذ الدكتور حسن أحمد محمود - رحمه الله تعالى - أن سكان بلاد ما وراء النهر من العنصر التركى الذى انحدر إليها من المشرق منذ القرن السادس الميلادى وكونوا لهم عدة ممالك مستقلة[١]. ويوافقه الأستاذ الدكتور عبد الشافى محمد عبد اللطيف فى هذا الرأى[٢].

---

(١) الإسلام والحضارة العربية فى آسيا الوسطى، دار الفكر العربى، القاهرة، 1968م، ص113.

(٢) العالم الإسلامى فى العصر الأموى ،ص 337.

ويبدو أن هذه الآراء قد استندت إلى رأى المؤرخ الروسى بارتولد الذى يقول: "ومن الآثار التى تهم صاحب الدراسات التركية، وتهم المؤرخ - أيضًا - آثار أورخون[١]؛ وهى تخلد أقدم ذكر للسان التركى، وقد اكتُشفت فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر، وهى أقدم آثار تركية أنشأها الترك أنفسهم عن تاريخهم، فأصحاب هذه الآثار قد سموا أنفسهم لأول مرة فى التاريخ بالترك؛ وهم قوم قد ظهروا فى القرن السادس، واستولوا فى زمن قصير على مساحات تمتد من حدود الصين إلى إيران وبيزنطة"[٢].

بينما يرى الدكتور شكرى فيصل: أن سكان المنطقة خليط من الأتراك والإيرانيين[٣]، ويستند إلى رأى المستشرق "جب" الذى يقول: "ليس سكان حوض النهر (جيحون) وسكان الصغد تركًا فى الأصل، فهم إيرانيون فى طابعهم، يتكلمون لغة إيرانية، ويمارسون أنظمة إيرانية"[٤].

والرأى عندى، أن الترك كانوا خلال القرنين السادس والسابع الميلاديين، يسودون مواطن كثيرة ببلاد ما وراء النهر، وإن وجدت بعض العناصر الأخرى معهم، مثل: العنصر الآرى، والصينى، والإيرانى[٥] وإن كانت هذه العناصر بأعداد قليلة، إلا أنها لا يمكن إغفالها.

---

(١) نقش أورخون: نسبة إلى نهر أورخون فى منغوليا، وهذا النقش على ألواح حجرية بارتفاع 3.75 مترًا، وعرض 1.3 - 1.5 متر، وقد كتبت النقوش عليه من اليمين إلى اليسار، ومن أعلى إلى أسفل، لمزيد من التفاصيل انظر: أوقطاى آصلان آبا: فنون الترك وعمائرهم، ترجمة: أحمد محمد عيسى، مطبعة رنكلر، إستانبول، 1407هـ - 1987م، ص3.

(٢) تاريخ الترك فى آسيا الوسطى، ترجمة أحمد محمد سليمان، الهيئة المصرية للكتاب، الألف كتاب الثانى (العدد 235)، 1996م، ص17.

(٣) حركة الفتح الإسلامى فى القرن الأول، دار العلم للملايين، بيروت، 1980م، ص208.

(4) Gibb: The Arab Conquests in Centeral, Asia, London. 1923, vol. II.

(٥) لمزيد من التفاصيل انظر د.سعد زغلول عبد الحميد: الإسلام والترك فى العصر الإسلامى الوسيط، مقال فى مجلة المختار من عالم الفكر، دراسات إسلامية، وزارة الإعلام، الكويت، 1984م، ص147.

أما عن الأحوال السياسية فلم تعرف بلاد ما وراء النهر قيام حكومة مركزية، بل ظهرت فيها عدة ممالك مستقلة عن بعضها ، بل متحاربة باستمرار ويؤكد هذه الحقيقة المستشرق الإنجليزى "جب" فقال: "كانت الولايات فى هذه المنطقة تعترف بـ"الخان" سيدًا لها وتدفع له الجزية، وكانت إمارة الصغد مقسمة إلى ولايات صغيرة مستقلة تقوم بينها معاهدات مرنة؛ وقد ارتبطت الولايات برباط سيادة أسرة معينة فيها على جميع الأسرات الأخرى – ولكنه لم يكن رباطًا وثيقًا – وكان إلى جانب هؤلاء الأمراء سادة محليون لا تتجاوز سلطة الواحد منهم حدود قراه... وكذلك كان الحال فى منطقة سيحون"[1]، وهكذا كانت البلاد مقسمة إلى إمارات صغيرة، وكان العداء مستمرًا بينها».

أما عن الأحوال الاجتماعية: فقد انقسم المجتمع إلى طبقتين: طبقة الأغنياء وتُعرف بـ"الدهاقين"[2] وقد تمتعت بالحقوق والمزايا كافة، وطبقة أخرى فقيرة، هى طبقة "الفلاحين" وقد حرمت من كل شىء[3]. هذا، إلى جانب بعض الطبقات الأخرى؛ ومنها:طبقة العسكريين والقادة ،وطبقة الصناع والحرفيين وغيرهم.

هذه العوامل جعلت بلاد ما وراء النهر مهيأة للفتح الإسلامى الذى سيخلصها من هذا التفكك السياسى والاجتماعى.

والآن.. نمضى مع حركة الفتح الإسلامى لإقليم خراسان والذى مهد الطريق لفتح بلاد ما وراء النهر.

---

(1)Gibb: p.p: 6-7.

(٢) الدُّهقان : كلمة فارسية مركبة من مقطعين:(دهـ)بمعنى قرية،و(قان) بمعنى شيخ أو رئيس،ودهقان معناها شيخ القرية أو رئيس القرية. والجمع دهاقنة ودهاقين.ابن منظور: لسان العرب ، جـ 13، ص 163، محمود شيث خطاب:قادة الفتح الإسلامى فى بلاد ما وراء النهر،ص 512.

(٣) د.حسن أحمد محمود: الإسلام والحضارة العربية، ص115 ،ولمزيد من التفاصيل انظر كريستنسن:إيران فى عهد الساسانيين،ص 303 وما بعدها.

الفتح الإسلامى لإقليم خراسان

قسم الجغرافيون العرب خراسان إلى أربعة أقسام رئيسة، عُرف كل قسم منها باسم عاصمته، وهذه الأقسام هى: مرو[١]، ونيسابور[٢]، وبلخ[٣]، وهراة[٤]، وكانت مرو هى العاصمة الرئيسة للإقليم حتى قام الطاهريون (205 – 259هـ /821– 873م) بنقلها إلى نيسابور.

أما عن مسألة الفتح، فإنها تعود إلى عهد الخليفة الراشد عمر بن الخطاب (13–23هـ/ 634 –644م) حين أمر جند المسلمين بالانسياح فى الإمبراطورية الفارسية، فدفع لواء خراسان إلى الأحنف بن قيس. فاستطاع أن يفتح هراة، ومرو الروذ، وواصل زحفه إلى بلخ، ونجح فى فتح البلاد من نيسابور إلى طخارستان[٥] – إحدى أقاليم ما وراء النهر – وكتب إلى عمر بن الخطاب (رضى الله عنه) بفتح خراسان، فاستبشر الخليفة خيرًا بهذا الفتح العظيم غير أنه قال: "لوددت أنى لم أكن بعثت إلى خراسان جندًا، ولوددت أنه كان بيننا وبينها بحر من نار"[٦]، وخشى الخليفة أن يتقدم الأحنف فى بلاد فارس والترك، فكتب إليه يقول: "أما بعد، فلا تجوزن النهر (جيحون) واقتصر على ما دونه، وقد عرفتم بأى شىء دخلتم على خراسان،

---

(١) مرو: مدينتان: مَرْوُ الروذ، ومَرْوُ الشاهجان والمقصود الأخير، وهى من أشهر مدن خراسان، وقصبتها، بينها وبين بلخ مائة واثنان وعشرون فرسخًا. ياقوت:معجم البلدان، جـ4، ص253، لسترنج: بلدان الخلافة الشرقية، ص440.تقع – حاليًا – على بُعد (265كم^2) شمال شرق مدينة مشهد،و(350كم^2) شمال مدينة هراة،و(425 كم^2)شرق مدينة بلخ،و(320 كم^2)غرب مدينة بخارى.

(٢) نَيْسَابُور: مدينة عظيمة، تبعد عن الرى بمائة وستين فرسخًا، وعن سرخس بأربعين فرسخًا، ياقوت:نفس المرجع،ونفس الجزء، ص253، لسترنج: نفس المرجع، ص440.تقع – حاليًا – على بُعد (90 كم^2) من مدينة مشهد .

(٣) بلخ: مدينة مشهورة بخراسان، هى أجمل مدنها وأكثرها خيرًا وأوسعها، بينها وبين ترمذ اثنا عشر فرسخًا. ياقوت: نفس المصدر، جـ1، ص378، لسترنج: نفس المرجع ، ص462.تقع – حاليًا – شمال أفغانستان.

(٤) هراة: مدينة عظيمة من أمهات مدن خراسان، زارها ياقوت عام 607هـ وأثنى عليها. ياقوت: نفس المصدر، جـ4، ص471، لسترنج: نفس المرجع، ص401.تقع – حاليًا – شمال غرب أفغانستان.

(٥) البلاذرى: فتوح البلدان، ص535، الطبرى: تاريخ الأمم، جـ2، ص 546-550 .

(٦) ابن الأثير: الكامل ، جـ2، ص 437.

فداوموا على الذى دخلتم به يدم لكم النصر؛ وإياكم أن تعبروا فتنقضوا!!"[١]
وهكذا؛ استحق الأحنف بن قيس لقب "سيد المشرق المسمى بغير اسمه[٢]"، كما يقول عمر بن الخطاب، وأصبح الأحنف النذير الصادق بانتهاء الدولة الساسانية، وفى العام الأخير من خلافة عمر بن الخطاب كانت كل مملكة آل ساسان فى قبضة المسلمين، وتحت سيادتهم.

استمر الوضع هكذا حتى اغتيل الخليفة العادل عمر بن الخطاب على يد المجوسى الحاقد، أبى لؤلؤة فيروز، واختار المسلمون عثمان بن عفان للخلافة وأثبت أنه على مستوى المسئولية، فلم يفرط فى الإنجاز العظيم الذى حققه عمر، فبتولى عثمان خلافة المسلمين بدأت مرحلة جديدة من الفتح الإسلامى، فإن كان عمر قد خشى على المسلمين من الانسياح فى بلاد فارس فإن الخليفة عثمان كان على العكس، فقد سمح للمسلمين بذلك، لأنه رأى أن خير وسيلة لتأمين الفتوحات الإسلامية فى المشرق هو القضاء التام على الإمبراطورية الفارسية، خاصة إذا علمنا أن يزدجرد الثالث (آخر كسرى فى التاريخ) قد فر بعد اندحار جيشه فى نهاوند[٣]، إلى بلاد ما وراء النهر، وطلب العون من سكانها.

على كل حال، استهل الخليفة عثمان بن عفان عام (29هـ) بعزل أبى موسى الأشعرى عن ولاية البصرة، وولى مكانه عبد الله بن عامر بن كريز الذى أرسل على الفور الأحنف بن قيس – ذلك القائد المحنك الدارس لطبيعة هذه البلاد من قبل – إلى خراسان، فنجح فى فتح طخارستان والطالقان[٤] ووصلت جيوشه إلى خوارزم – إحدى أقاليم بلاد ما وراء النهر – غير أنه لم يقدر على فتحها فعاد إلى بلخ مرة ثانية.

---

(١) النويرى: نهاية الأرب، جـ19، ص275.
(٢) ابن خلكان: وفيات الأعيان، جـ2، ص408.
(٣) انظر: التفاصيل فى البلاذرى: فتوح البلدان، ص371، الطبرى: تاريخ الأمم، جـ4، ص116 وما بعدها.
(٤) الطالقان: بلدة بخراسان تقع بين مرو الروذ وبلخ. ياقوت: نفس المصدر، جـ3، ص239، لسترنج: بلدان الخلافة الشرقية، ص470.

هكذا نرى أن جيوش المسلمين قد وصلت إلى بلاد ما وراء النهر للمرة الثانية على يد القائد الأحنف بن قيس(١)، هذا فى الوقت نفسه الذى نجح فيه عبد الله ابن عامر فى فتح باقى مدن خراسان(٢)، لتصبح جزءًا من الدولة الإسلامية، ودانت جميع البلاد الواقعة فى الضفة الجنوبية لنهر جيحون للمسلمين، بل بدأت الجيوش الإسلامية تعبر هذا النهر بالفعل، حتى صالحوا دهاقين الأتراك الغربيين. أما عبد الله بن عامر، فقد أدى شكر هذه النعمة الكبيرة بإحرامه بعمرة من نيسابور، ثم قدم على الخليفة عثمان بن عفان فى المدينة المنورة(٣).

اضطربت أحوال الخلافة الإسلامية عقب استشهاد الخليفة عثمان بن عفان، وبويع على بن أبى طالب (35- 40هـ) بالخلافة، واجتاحت العالم الإسلامى فتنة كبرى، انتفضت فيها بعض البلدان الإسلامية ومنها خراسان، ولكن استطاع الإمام على أن يحافظ على الفتوحات التى تمت، وقد نجح فى ذلك - رغم الظروف الصعبة التى كان يكابدها داخليًا - ولم يترك المسلمون شبرًا من الأرضى التى فتحوها(٤).

المحاولات المبكرة لفتح بلاد ما وراء النهر

بعد اغتيال على بن أبى طالب (رضى الله عنه) وصلح الحسن بن على مع معاوية بن أبى سفيان، أصبح الأخير خليفة للمسلمين عام (41هـ) وهو العام الذى سماه المسلمون "عام الجماعة"، واستبشر الناس خيرًا بخلافة معاوية وبانتهاء الفتن والحروب الداخلية.

عهد الخليفة معاوية إلى زياد بن أبى سفيان بولاية خراسان، وبالفعل نجح زياد فى التصدى لحركات التمرد والعصيان التى أعقبت الفتنة الكبرى، وبدأ يتطلع إلى فتح بلاد ما وراء النهر.

---

(١) اللواء محمود شيت خطاب: الأحنف بن قيس، فاتح قاشان وخراسان، مجلة المجمع العلمى العراقى، 1964م، م11، ص40.

(٢) التفاصيل: البلاذرى: فتوح البلدان، ص350، ابن الجوزى: المنتظم، جـ5، ص15، 16، 19، 40، ابن الأثير: الكامل، جـ3، ص19، 20، 21.

(٣) اليعقوبى: تاريخ اليعقوبى، جـ2، ص 116، ابن كثير :البداية والنهاية، جـ7، ص 146.

(٤) د.عبد الشافى محمد عبد اللطيف: بحوث فى السيرة النبوية والتاريخ الإسلامى، ص260.

وبحكم موقع مدينة بلخ - والتى تمثل باب بلاد ما وراء النهر الجنوبى - فلا عجب أن نرى زيادًا يركز على هذه المدينة - بل قل على إقليم خراسان كله - لتكون منطلقًا ينطلق منه المسلمون فى غزواتهم إلى تلك البلاد؛ لنشر الإسلام بين ربوعها، وليس كما يقول المستشرق المجرى فامبرى: "إن العرب كانت تستهويهم ما عرف عن بلاد الصغد من الثراء"[1]، وليس كذلك كما يقول اللواء محمود خطاب: "فلا عجب أن يقرر المسلمون فتح بلاد ما وراء النهر للدفاع عن بلخ بخاصة وخراسان بعامة، لأن الهجوم أنجح وسيلة للدفاع"[2].

على كل حال: رأى زياد أن يولى قيادة الجيوش الإسلامية المسئولة عن فتح خراسان لأحد أصحاب النبى (صلى الله عليه وسلم) المشهورين بالشجاعة والإقدام، وهو الحكم بن عمرو الغفارى والذى استطاع أن يعبر نهر جيحون إلى ما وراء النهر، فكان أول من شرب من مائه من المسلمين - على قول البلاذرى - وتوضأ وصلى ركعتين شكرًا لله تعالى[3].

وهكذا يمكن القول: إن أسس فتح بلاد ما وراء النهر قد بدأها زياد وتابعها بعده ابنه عبيد الله بن زياد الذى حكم خراسان عام (53هـ /672م)، وقد وجد أن جهود أبيه فى توطيد الأمن والاستقرار فى الإقليم قد أتت ثمارها، وأصبح بالفعل قاعدة مكينة يمكن الانطلاق منها إلى ما وراء ذلك.

ودون الدخول فى تفاصيل المعارك التى خاضها عبيد الله، أقول: استهل عبيد الله بن زياد عام (53هـ / 672م) فعبر نهر جيحون إلى بخارى وكان عدد المسلمين أربعة وعشرين ألفًا، ففتح راميثن[4]، ونسف، وبيكند[5]، ومنها سار إلى بخارى محملًا بالغنائم، وقد استنجدت الملكة خاتون[6] - ملكة بخارى - بالترك، تستمدهم

(١) فامبرى: تاريخ بخارى، ص75.

(٢) اللواء محمود شيت خطاب: قادة الفتح الإسلامى فى بلاد ما وراء النهر، دار ابن حزم، بيروت، 1418هـ - 1998م، ص80.

(٣) البلاذرى: فتوح البلدان، ص542، وللمزيد انظر: اليعقوبى: تاريخ اليعقوبى، جـ2، ص155، ابن كثير: البداية والنهاية، جـ8، ص21.

(٤) رَاميثَن: قرية ببخارى. السمعانى :الأنساب ، جـ3، ص30، ياقوت: معجم البلدان جـ 2، ص 304.

(٥) بيكند: بلدة بين بُخارى وجيحون على مرحلة من بخارى، كبيرة ، حسنة، كثيرة العلماء. ياقوت: نفس المصدر، جـ1 ، ص 388.

(٦) خاتون: كلمة صغدية شاعت فيما بين الترك والمغول، بمعنى ملكة، بارتولد: تاريخ الترك، ص50.

وتطلب منهم العون، محاولة إنقاذ المدينة، فجاءها عدد كبير منهم، ولقيهم المسلمون فهزموهم بعد قتال شديد، حتى اضطرت الملكة خاتون إلى طلب الصلح، ودفعت مليون درهم جزية[١] سنوية تؤدى للمسلمين فى كل عام.

بعد هذا الصلح عاد عبيد الله إلى العراق ليتولى حكم البصرة عام 55هـ/675م، وخلفه فى حكم خراسان سعيد بن عثمان بن عفان فعبر نهر جيحون، وغزا سمرقند، وقاتل أهلها ثلاثة أيام، وحلف ألا يبرح المدينة حتى يفتحها، فخاف أهل سمرقند أن يفتحها عنوة، ويقتل من فيها، فطلبوا الصلح، فصالحهم سعيد على سبعمائة ألف درهم[٢]، ثم اتجه إلى ترمذ[٣] ففتحها صلحًا[٤] أيضًا.

عبد الملك بن مروان واستئناف حركة الفتوحات الإسلامية

توقفت حركات الفتوحات الإسلامية فى بلاد ما وراء النهر بسبب المنازعات التى دارت حول الخلافة الإسلامية، ونجح عبد الملك فى القضاء على ثورة عبد الله بن الزبير عام (73هـ/693م)، وبعد أن استقامت له أمور الخلافة، أرسل أمية بن عبد الله بن خالد الأموى فغزا بخارى، وصالحهم على جزية يؤدونها للمسلمين، ثم غزا الخُتّل[٥] - إحدى مدن طخارستان - وفتحها بدون مقاومة تذكر.

لم يستمر أمية واليًا على خراسان طويلًا ثم عزله[٦] عبد الملك بن مروان وضم خراسان إلى الحجاج بن يوسف الثقفى والى العراق، وبضم هذا الإقليم إلى

---

(١) البلاذرى: فتوح البلدان، ص543، ابن الجوزى: المنتظم، جـ5، ص267، النرشخى: تاريخ بخارى، ص64.

(٢) يذكر اليعقوبى: أنه غزا طخارستان، تاريخ اليعقوبى، جـ2، ص165 وكتابه: البلدان، ص297. ابن كثير: البداية والنهاية، جـ8، ص73.

(٣) ترمذ، مدينة مشهورة من أمهات المدن تقع على نهر جَيحون من جانبه الشرقى متصلة العمل بالصغانيان ولها قلعة، يحيط بها سورٌ وأسواقها مفروشة بالآجر. ياقوت: معجم البلدان ، جـ 1 ، ص 411.

(٤) البلاذرى: فتوح البلدان، ص445، النرشخى: تاريخ بخارى، ص 65 - 66.

(٥) الطبرى: تاريخ الأمم، جـ3، ص607، ابن الأثير: الكامل، جـ3، ص185 -186.

(٦) يعلل ابن قتيبة عزل أمية إلى ما اتصف به من الجبن وعدم الشجاعة، انظر: عيون الأخبار، جـ1، ص166، 171 ، 197.

الحجاج استؤنف الفتح الإسلامى لبلاد ما وراء النهر، وقد اختار الحجاج لهذا الإقليـم رجلًا من خيرة رجال عصره، عرف بالشجاعة والإقدام، وهو المهلب بن أبى صفرة الأزدى، والذى فرغ من حروب الخوارج الأزارقة(١) وبدأ مرحلة جديدة من حياته بتوليه إقليم خراسان.

قدم المهلب خراسان سنة (79هـ/698م)، وعبر نهر جيحون على رأس جيش بلغ قوامه ثمانية آلاف مقاتل، فحاصر مدينة كش، ووجه ابنه يزيد فحاصر قلعة الختّل ثم صالحهم على جزية(٢)، حملها معه إلى أبيه. وفى نفس العام وجه المهلب ابنه حبيبًا إلى بخارى، فخرجت عليه جماعة من أهل قرية مجاورة لها فقاتلهم حبيب وأحرق قريتهم، لذا فقد عرفت هذه القرية بـ"المحترقة"(٣).

أقام المهلب بمدينة كش ما يقرب من سنتين، وقيل له: لو تقدمت إلى ما وراء ذلك، فقال: ليت حظى من هذه الغزوة سلامة هذا الجند، وعودهم سالمين(٤)، وهذا القول من قائد شجاع مثل المهلب يدلنا على شراسة وقوة المقاومة فى هذه البلاد، على كل حال، عاد المهلب إلى مرو، ولم يلبث إلا قليلًا ثم توفى عام 82هـ/701م، وخلفه على حكم خراسان ابنه يزيد.

أقر الحجاج بن يوسف تولية يزيد بن المهلب على خراسان، ونجح الأخير فى فتح جبال البتُّم(٥)، وغزو خوارزم(٦)، وأصاب منها سبيًا كثيرًا، ولم أعثر – على قدر علمى – على نص يشير إلى السنة التى غزا فيها هاتين المدينتين، والذى يظهر لى أن يزيد قد حكم خراسان فى الفترة من (82– 85هـ /701 – 704م) فلابد إذن أن يكون الفتح خلال هذه المدة.

---

(١) تفاصيل المعارك فى ابن أعثم: الفتوح، جـ4، ص53 وما بعدها. ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، جـ3، ص161 وما بعدها

(٢) اليعقوبى: البلدان، ص299، الطبرى: تاريخ الأمم، جـ3، ص616.

(٣) البلاذرى: فتوح البلدان، ص550 ويذكر أنه غزا خجنده، ابن الأثير: الكامل، جـ3، ص 192-207.

(٤) الطبرى: المصدر السابق، نفس الجزء، ص336، ابن الجوزى: المنتظم، جـ6، ص234.

(٥) البتم: اسم حصن ببلاد فرغانة، منيع جدًا وفيه معدن الذهب والفضة والنوشادر.ياقوت: معجم البلدان جـ 1 ، ص 235.

(٦) البلاذرى: فتوح البلدان، ص556، ابن كثير: البداية والنهاية، جـ9، ص56.

لم يلبث يزيد فى حكم خراسان سوى فترة بسيطة، ثم عزله الحجاج خوفًا من أطماعه(١)، وليس كما يحلو لبعض المؤرخين(٢) أن يردد أن الكهنة أخبروا الحجاج بأن يزيد سوف يخلعه، لأنه لا أحد يعلم الغيب إلا الله سبحانه وتعالى. كان الحجاج إذًا على علم بما يدور فى رأس يزيد، ويعلم إنه لن يُسلم خراسان إلا لقائد عظيم مثله، فكان المُفضَّل بن المهلب الأزدى والذى نجح فى غزو مدينتَىْ آخرون(٣)، وشومان(٤) – من إقليم بخاري- "فظفر وغنم" على حد قول بعض المؤرخين(٥)، ثم قسم ما أصابه من غنائم بين جنده، وللأسف لم تمدنا المصادر – على قدر علمى – بشيء يذكر حول تفاصيل هذه الغزوة، ولكن يبدو أن المفضل قد نجح فى استعادة فتح هذه المنطقة من بلاد ما وراء النهر فى مدة زمنية قصيرة، إذ لم يبقَ فى ولاية خراسان سوى تسعة أشهر فقط، مما يدل على قيادته الحكيمة.

وفى ختام هذه المرحلة من حركة الفتح الإسلامى فى بلاد ما وراء النهر أستطيع القول: إن المسلمين قد نجحوا بالفعل فى جعل خراسان ثغرًا إسلاميًا، يحاربون فيه الترك، ويشيعون بين صفوفهم الفرقة، وفى الوقت نفسه كان المسلمون قد ألفوا طبيعة هذه البلاد المناخية والجبلية(٦). حقيقة إن المسلمين لم يحققوا كسبًا أرضيًا فى بلاد ما وراء النهر بصورة نهائية، ولكن تفاهمًا تم – بعد هذا النضال الطويل – بينهم وبين أهل أرض هذه البلاد تظهر نتيجته فى ولاية قتيبة بن مسلم كما سيأتى.

---

(١) يرجع بعض المؤرخين أسباب العزل إلى خوف الحجاج من تمرد يزيد عليه خاصة بعد النجاح الكبير الذى حققه فى خراسان،بالإضافة لذلك ، ثقة يزيد العالية بنفسه حيث كان يرى أنه "ندّ" للحجاج .ابن الأثير: الكامل ،جـ4،ص 505.

(٢) الدينورى: الأخبار الطوال، ص477. اليعقوبى: تاريخ اليعقوبى، جـ2، ص193.

(٣) آخرون: لم أعثر عليها هكذا، ولكنها وردت عند السمعانى وياقوت: آغزون. الأنساب، جـ1، ص64، معجم البلدان، جـ1، ص55.

(٤) شومان: قرية على نهر جيحون من أعمال بخارى، ياقوت: نفس المصدر، جـ3، ص164.

(٥) البلاذرى: فتوح البلدان، ص551، ابن الأثير: الكامل، جـ4، ص 227 – 228، ابن الجوزى: المنتظم، جـ6، ص164.

(٦) د.حسن أحمد محمود: الإسلام والحضارة العربية، ص115.

المبحث الثالث

قتيبة بن مسلم وإتمام الفتح الإسلامى لبلاد ما وراء النهر

لقد اشتهر فى فتح المشرق كثير من القادة كانوا شهبًا أضاءت سماء المشرق، وانفتحت أمام عزيمتهم أبواب الدنيا، وسقطت دولة بنى ساسان تحت سنابك خيولهم، وعندما جاء الأمير أبو حفص قتيبة بن مسلم بن عمرو الباهلى أذل أنوف الأعداء، وأظهر عُلُوَّ همته فى الجهاد فى سبيل الله تعالى، وفتح الله على يديه أقاليم واسعة تزيد على ما فتحه أسلافه كلهم، فقد اشتهر الأمير أبو حفص بأنه أحد الأبطال الشجعان؛ ومن ذوى الحزم والدهاء والرأى.

وقبل أن نمضى مع فتوحات قتيبة أُلخص أهم العوامل التى ساعدته فى فتح بلاد ما وراء النهر، وهى:

أولًا: أن تولية قتيبة قد جاءت من قِبل أمير العراق الحازم الحجاج بن يوسف؛ الذى كان يطلع على تحركات قتيبة خطوة خطوة ويمده بكل ما يحتاج إليه من المؤن والرجال[1]، هذا فى الوقت الذى بدأت فيه خلافة الوليد بن عبد الملك، والذى اشتهر بكثرة الفتوحات، حتى قال عنه المؤرخون: "أقام الجهاد فى أيامه وفتحت

---

(١) - د.عبد الشافى محمد عبد اللطيف: العالم الإسلامى فى العصر الأموى: ص341 د.عفاف صبره:التاريخ السياسى للدولة الخوارزمية،ص 16.

فى خلافته فتوحات عظيمة كأيام عمر بن الخطاب"[1]، ولا يخفى علينا أن عون ومساندة الخلافة من أهم وأعظم العوامل التى تشجع القادة فى ميدان القتال.

ثانيًا: أن الاستعدادات العسكرية فى قاعدة خراسان كانت قد اكتملت، وأصبحت تضمن النجاح للقادة المجاهدين فيها، وهذا أمر يغرى بمواصلة الفتح والجهاد، والقيام بعمليات عسكرية ذات طابع أعمق وأوسع.

ثالثًا: أن القوات الإسلامية استطاعت أن تُوقع الفرقة بين الإمارات التركية فى هذه المنطقة، فدب النزاع بين إمارتَىْ فرغانة وخوارزم، والصغانيان[2] وشومان[3]، هذا النزاع ساعد المسلمين على فتح كل إمارة على حدة، حيث لم تجتمع للمسلمين جبهة تركية موحدة، على حين تجمع المسلمون تحت ظل راية إسلامية موحدة.

هكذا، تجمعت وتضافرت كل هذه العوامل، مع علو همة القائد قتيبة بن مسلم فى الجهاد،الأمر الذى كان من أهم الأسباب المساعدة على نجاحه فى فتح بلاد ما وراء النهر، ومن الصعب هنا تتبع خطوات قتيبة بالتفصيل، فهذا يستحق بحثًا مفردًا، لكننى سأركز على فتح المدن الكبرى.

وعلى ذلك فيمكننى أن أقسم فتوحات قتيبة إلى أربع[4] مراحل، كل مرحلة منها تختص بفتح إقليم من أقاليم ما وراء النهر.

---

(١) ابن طباطبا: الفخرى فى الآداب السلطانية، ص127، ابن عبد ربه، العقد الفريد، جـ4، ص242.

(٢) الصغانيان: مدينة تقع غرب نهر وخشاب - الوخش حاليًا - ويحدها من الجنوب نهر جيحون. قال الإصطخرى عنها: "وهى مدينة أكبر من الترمذ، إلا أن الترمذ أكثر مالاً وأهلاً، ولها قلعة" المسالك والممالك ،ص167 . ويقول السمعانى: "إن بها مسجدًا حسنًا مشهورًا" الأنساب (جـ1 ،ص459) والصغانيان تعرف - حاليًا - باسم سياسيا.

(٣) بارتولد: تركستان، ص303، د.حسن أحمد محمود: الإسلام والحضارة العربية، ص123.

(٤) اتبعت هنا تقسيم أستاذى الدكتور/ عبد الشافى محمد عبد اللطيف فى كتابه: العالم الإسلامى فى العصر الأموى، ص343،. وإن كان بعض الأساتذة يحلو لهم تقسيمها إلى ثلاث مراحل، انظر: على سبيل المثال، د.سيدة إسماعيل كاشف: الوليد بن عبد الملك، ص120، د.حسن حبشى: تاريخ العالم الإسلامى، جـ1، ص120.

المرحلة الأولى: فتح طخارستان والطالقان والصغانيان (86- 87 هـ/ 705-706م):

اتخذ قتيبة من مرو - عاصمة خراسان - قاعدة ينطلق منها إلى فتح بلاد ما وراء النهر، فسار غازيًا إلى إقليم طخارستان، ونظرًا لأهميته فقد رأى قتيبة أن يحكم سيطرته على هذا الإقليم، وعلى الطريق الممتد ما بين طخارستان وبلخ، ثم واصل سيره حتى فتح مدينة الطالقان، ولم يجد أمامه صعوبات تذكر فعبر نهر جيحون، فتلقاه ملك الصغانيان بهدايا ومفاتيح المدينة[1]، ثم سار قتيبة إلى مدينة آخرون (أغزون) وشومان فصالحه ملكها على فدية أدَّاها إليه فقبلها قتيبة، ثم بعث أخاه صالحًا ففتح كاشان وأورشت وأخسيكث[2] من إقليم فرغانة.

وبذلك يكون قتيبة قد نجح فى إخضاع إقليم طخارستان بصورة نهائية للمسلمين وبدأ يتأهب لبدء جهاده الكبير فيما وراء النهر.

المرحلة الثانية: فتح بخارى (87- 90هـ / 706 - 710م)

لم يأت فتح إقليم بخارى دفعة واحدة؛ بل فتحت كل مدينة منه على حدة نلخصها فيما يلى:

1) **فتح بيكند_87هـ /706م:** احتلت مدينة بيكند أهمية عسكرية (استراتيجية) مهمة بين سائر مدن بلاد ما وراء النهر؛ فهى تمثل أقرب مدن بخارى للمسلمين فى خراسان، فضلًا عن كونها الباب الجنوبى الغربى لبلاد ما وراء النهر، لذا فقد حرص الترك على تحصين المدينة، فأحاطوها بسور منيع، وأقاموا فيها الاستحكامات العسكرية.

جهز قتيبة جيشه، فسار من مرو - مقر حكمه فى خراسان - حتى وصل إلى مدينة آمل، ومنها إلى مدينة زم، ثم عبر نهر جيحون إلى بيكند وهناك استنصر أهل بيكند بالترك، فأتوهم فى جمع كبير، وأخذوا الطريق على المسلمين، فلم ينفذ لقتيبة

---

(١) البلاذرى: فتوح البلدان، ص 553 - 554، ابن أعثم: الفتوح، جـ4، ص161، ابن الأثير: الكامل، جـ4، ص241.

(٢) الدينورى: الأخبار الطوال، ص476، فامبرى: تاريخ بخارى، ص61.

رسول ولا خبر لمدة شهرين؛ حتى إن الحجاج قد أشفق على المسلمين المجاهدين فأمر الناس بالدعاء لهم فى المساجد، وكتب بذلك إلى باقى الأمصار[١].

أما قتيبة فإنه أمر أصحابه بالجدِّ فى القتال، فانهزم العدو، وقُتل أكثرهم، وفر الباقون إلى داخل الحصن، فوضع قتيبة الفعلة لهدم سور المدينة، فسألوه الصلح، فأجابهم، وفتحت المدينة أبوابها واستعمل عليها ورقاء بن نضر الباهلى وعاد إلى مرو[٢].

ويمكننى أن ألخص أهم النتائج المترتبة على فتح بيكند فيما يلى:

(أ) نجح المسلمون فى السيطرة على الجنوب الغربى لبلاد ما وراء النهر مما يسر لهم مواصلة الفتوحات فى هذه البلاد.

(ب) استعان المسلمون بالغنائم التى حصلوا عليها من فتح بيكند، يقول ابن كثير: "وصار لكل واحد منهم (المسلمين) مال مستكثر جدًا، وصارت لهم أسلحة وعدد وخيول كثيرة، فقووا بذلك قوة عظيمة"[٣]، وكتب إلى الحجاج يستأذنه فى فتح خزائن السلاح لدفعها إلى الجنود، استعدادًا لمواصلة الفتح.

2) فتح تومشكت وراميثن (من قرى بخاري) 88هـ /707م:

استقر قتيبة فى مرو أيام الشتاء للراحة، وإعداد رجاله للقتال، فلما أهلّ فصل الربيع ندب الناس للجهاد، فسار إلى بخارى ونجح فى فتح مدينة خنبون وتاراب ثم أتى تومشكت وصالح أهلها، ويفهم من كلام البلاذرى أن قتيبة قد غزا تومشكت وكرمينية فى آن واحد - وذلك قبل أن يفتح بخاري[٤]- وهذه الرواية لا تتفق مع الطبيعة الجغرافية لهذه البلاد، حيث إن كرمينية تقع شرق مدينة بخارى، على الطريق المؤدى إلى سمرقند والاتجاه إلى بخارى صوب الصغد ، لم يتأتَّ إلا بعد

(١) البلاذرى: فتوح البلدان، ص554، ابن الأثير: الكامل، جـ4، ص344، ابن كثير: البداية والنهاية، جـ9، ص71.

(٢) خليفة بن خياط: تاريخ خليفة، ص190، ابن الجوزى: المنتظم، جـ9، ص71.

(٣) ابن كثير: المصدر السابق، نفس الجزء، ص74.

(٤) البلاذرى: فتوح البلدان، ص554.

إتمام فتح بخارى ونواحيها[١]. وبغض النظر عن رواية البلاذرى، فإن قتيبة سار إلى رامثين، وصالح أهلها على فدية يؤدونها للمسلمين[٢].

3) فتح بخارى: أهلَّت سنة (90هـ/708م) وقتيبة مستعد لفتح بخارى ، بناءً على تعليمات وأوامر من الحجاج، وكان "وردان خذاه" ملك بخارى يستنصر ملوك الترك والصغد، فحضر إليه جمع كبير منهم، ودارت المعركة، واشتد القتال، حتى فشلت قبيلة الأزد فى الدفاع عن مقدمة جيش المسلمين، مما اضطر قتيبة للذهاب إلى بنى تميم مثيرًا حماسهم بقوله:" يومًا كأيامكم"، فعبر منهم ثمانمائة رجل، نهر جيحون، واستمر القتال حتى كتب الله النصر للمسلمين، وفر الترك[٣]، وفتح الله تعالى على المسلمين بخارى، وكتب قتيبة بهذا الفتح العظيم إلى الحجاج فى العراق.

4) فتح باقى إقليم بخارى: بعد فتح بخارى يمَّم قتيبة وجهه إلى مدينة شومان وفتحها عنوة[٤]، ثم سار إلى كش ونسف وفتحهما صلحًا[٥].

وفى ختام هذه المرحلة يكون قتيبة قد نجح فى فتح بيكند، وبخارى، وكش، ونسف، وشومان، وأحكم سيطرته على إقليم طخارستان كما استطاع أن يؤكد النفوذ الإسلامى فى نهر جيحون، وبات الجميع يخشى قوة المسلمين، لذلك فقد صار لفتح بخارى أثر كبير فى إظهار قوة المسلمين فى المنطقة.

المرحلة الثالثة: فتح خوارزم وسمرقند (91- 93 هـ / 710- 712م)

فى هذه المرحلة التى استغرقت ثلاث سنوات استطاع قتيبة أن يبسط السيادة الإسلامية على كل ما وراء نهر جيحون، وذلك على مرحلتين، وهما:

---

(١) د.محمد أحمد: بخارى فى صدر الإسلام، ص59.
(٢) النرشخى: تاريخ بخارى، ص75.
(٣) الطبرى: تاريخ الأمم، جـ3، ص681، ابن الأثير: الكامل، جـ4، ص254.
(٤) البلاذرى: فتوح البلدان، ص555، ابن كثير: البداية والنهاية، جـ9، ص80 – 82.
(٥) اليعقوبى: تاريخ اليعقوبى، جـ2، ص200.

1) فتح خوارزم

وجه قتيبة جيشه لفتح خوارزم، والسبب فى ذلك، أن ملكها المسمى (خام جرد)، استدعى جيش المسلمين للقضاء على استبداد أخيه (خرزاذ) الذى عاث فى الرعية فسادًا، فكتب ملك خوارزم إلى قتيبة يدعوه لغزو المدينة على أن يمكنه من أخيه.

ويبدو أن هذه الرسالة قد صادفت هوى فى نفس قتيبة، فتجهز للغزو، وزيادة فى الحذر أظهر أنه يريد الصغد، أما ملك خوارزم فقد جمع جنوده، وقال لهم: "إن قتيبة يريد الصغد، وليس يغازيكم فهلم نتنعم فى ربيعنا هذا"، فلم يشعروا حتى نزل قتيبة مدينة هزارأسب[1] وصالح ملكها على عشرة آلاف رأس[2]، بالإضافة إلى بعض المتاع، ثم أرسل عبد الرحمن بن مسلم للقضاء على خرزاذ، ونجح فى قتله والاستيلاء على أرضه، ثم عينه قتيبة حاكمًا على المدينة[3].

2) فتح سمرقند

بعد أن فتح قتيبة خوارزم، توجه إلى سمرقند، وفرض حصاره على المدينة شهرًا كاملًا، حتى طلب ملكهم -لم تذكر المصادر اسمه- النجدة من ملوك الشاش، وفرغانة، فاستجاب له هؤلاء الملوك، وأرسلوا جيوشهم لمحاربة قتيبة - أثناء قيامه بحصار سمرقند - ولكنه كان يقظًا باثًا عيونه، ولم يغب عن باله حدوث مثل هذه المفاجآت، فأرسل إليهم فرقة من جنده بقيادة صالح بن مسلم؛ الذى نجح فى القضاء عليهم، ولم يفلت منه إلا الشريد، وغنم المسلمون أسلحتهم وأمتعتهم[4].

---

(١) ابن الجوزى: المنتظم، جـ6، ص308، ابن أعثم: الفتوح، جـ4، ص175 - 176.

(٢) المراد أن يأخذ منهم الجزية، وإلا فمن المستبعد استرقاق هذا العدد الضخم، إذ ماذا يصنع بهم قتيبة؛ وأى طعام يكفيهم، ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون،جـ3، ص63.

(٣) البلاذرى: فتوح البلدان، ص555، وعنده تم تعين "عبيد الله بن مسلم"، وتاريخ اليعقوبى، جـ2، ص201، ويسمى ملكها "سعيد بن ونوفار" وعين قتيبة على المدينة "عبد الله بن أبى عبد الله الكرماني".

(٤) د.عبد الشافى محمد عبد اللطيف: العالم الإسلامى فى العصر الأموى، ص 348.

عندما وصلت هذه الأنباء أهل سمرقند انكسروا؛ فضيق قتيبة عليهم الحصار ونصب المجانيق[1] على المدينة، حتى أحدثوا فيها ثلمة، وصاح قتيبة - صيحة الأسد- يثير حماسة جنوده: "حتى متى يا سمرقند يعشش فيك الشيطان؟! أما والله لئن أصبحت لأحاولن من أهلك أقصى غاية"، فلما أصبح أمر الناس بالجد فى القتال فقاتلوهم أشد القتال، وأمرهم قتيبة أن يبلغوا ثلمة المدينة.

فقاتلوهم حتى صاروا على تلك الثلمة، وعندما رأى أهل سمرقند شدة الحصار؛ ونجاح قتيبة فى الوصول إلى أبواب المدينة طلبوا الصلح[2]، فوافق قتيبة وصالحهم على جزية مقدارها مليون ومائتا ألف مثقال[3] يؤدونها للمسلمين كل عام، وأن يخلوا المدينة من المقاتلين، وأن يبنى فيها مسجدًا[4]، وبعد أن اطمأن قتيبة على المسلمين استخلف على المدينة عبد الله بن مسلم وعاد إلى مرو[5].

وفى ختام هذه المرحلة يكون قتيبة قد نجح فى فتح خوارزم وسمرقند، وفرض سيطرته الكاملة على حوض نهر جيحون، هذا، وقد آن الأوان للمسلمين بعد هذا الجهاد الطويل، أن يأخذوا قسطًا من الراحة التى كانوا فى حاجة إليها، فرجعوا إلى مرو، وقضوا فصل الشتاء بها، وتزود قتيبة بمدد قوى، تقدم به فى الربيع التالى لغزو أقاليم نهر سيحون.

---

(١) المنجنيق: آلة قديمة من آلات الحرب وحصار المدن كانت ترمى بها حجارة ثقيلة على الأسوار فتهدمها، ثم استعمل النفط فى الرمى بعد ذلك. الرازى: مختار الصحاح، ص911، الفيروزآبادى: القاموس المحيط، جـ1، ص1136.

(٢) البلاذرى: فتوح البلدان، ص555، الطبرى: تاريخ الأمم، جـ4، ص15- 16.

(٣) المثقال: أحد الأوزان، ويساوى درهمًا وثلاثة أربع أى (4,49) جرام. وينقسم إلى ستة دوانق، 22 قيراطا، 27حبة، والمثقال لم يتغير فى جاهلية ولا إسلام. الخوارزمى: مفاتيح العلوم، ص11، المقريزى: النقود الإسلامية، ص158-159، القلقشندى: صبح الأعشى، جـ3، ص440، د. الريس: الخراج والنظم المالية، ص353.

(٤) خليفة بن خياط: تاريخ خليفة، ص93، ابن كثير: البداية والنهاية، جـ9، ص84 - 85، ويذكر من شروط الصلح: أن تؤدى سمرقند إلى المسلمين مائة ألف من الرقيق، وهذه الرواية لا تتفق مع واقع المسلمين، وأحسب أن فيها شيئًا من المبالغة.

(٥) أقول: هذه هى الرواية الصحيحة فى فتح سمرقند. ولا يلتفت إلى الروايات الواهية التى ذكرها الدينورى فى كتابه:الأخبار الطوال،ص774 ،واليعقوبى فى تاريخه،جـ2،ص201، وابن أعثم فى كتابه:الفتوح جـ4 ،ص177. فهذه روايات لا تتفق مع جهاد المسلمين، ولا مع أحداث الفتح الإسلامى، ولا مع سلوك المسلمين الفاتحين.

المرحلة الرابعة: فتح فرغانة والشاش وكاشغر (94-96هـ/712-714م):

فى هذه المرحلة اتجهت الحملات الإسلامية إلى إخضاع المقاطعات الواقعة على نهر سيحون، وتوجه قتيبة على رأس الجيش لفتح إقليم فرغانة وفى مدينة خُجَندة اصطدم بجيش العدو، واقتتلوا مرارًا، وكان الظفر فى كل مرة لصالح المسلمين، ونجح قتيبة فى فتح المدينة[١]، ثم سار إلى مدينة كاشان وفرض الحصار عليها حتى أعلنت الاستسلام وفتحت أبوابها للمسلمين[٢].

بعد أن تم لقتيبة هذا الفتح الكبير، جاءته الأخبار بوفاة الحجاج بن يوسف، فأرسل إليه الخليفة الوليد برسالة واساه فيها وشجعه على مواصلة الفتح[٣]. استهل قتيبة عام (96هـ/714م) بعبور نهر جيحون، واستعمل رجلًا على معبر النهر؛ ليمنع عودة الجنود إلا بأذن منه، وهذا يدلنا على ذكاء قتيبة العسكرى، ثم سار إلى فرغانة، وهناك وصلت إليه أنباء وفاة الخليفة الوليد بن عبد الملك، ومع ذلك فقد سار إلى مدينة كاشغر[٤]، فحاربهم وغنم وسبي[٥]، وأوغل فى بلاد الصين، مما اضطر ملكهم – لم تذكر المصادر اسمه- أن يُرسل إلى القائد قتيبة يطلب منه المفاوضة. وبعد حديث طويل بين الوفد وملك الصين اتفق الطرفان على أن يُرسل ملك الصين الجزية للمسلمين، مع بعض الهدايا النفيسة[٦].

وهكذا، يتضح لنا أن الفتوحات الإسلامية قد وصلت بالفعل إلى مدينة كاشغر – إحدى مدن الصين فى هذا الوقت – وفى هذا أكبر رد على المستشرق الإنجليزى "جب" الذى زعم أن جيوش المسلمين لم تصل إلى هذه المدينة[٧]، على حين يؤكد

(١) البلاذرى: فتوح البلدان، ص556.

(٢) الطبرى: تاريخ الأمم، جـ4، ص21-22، ابن الجوزى: المنتظم، جـ6، ص 317- 335.

(٣) نص الرسالة فى الطبرى: نفس المصدر، نفس الجزء، ص30، ابن الأثير: الكامل، جـ4، ص283.

(٤) كاشْغر: مدينة وقرى ورساتيق. تقع فى وسط بلاد الترك، وهى أدنى مدن الصين، ويسافر إليها من سمرقند، ياقوت: معجم البلدان، جـ4، ص430، لسترنج: بلدان الخلافة الشرقية، ص530، و تقع حاليًا فى دولة أفغانستان.

(٥) ابن الجوزى: المنتظم، جـ6، ص12، ابن أعثم: الفتوح، جـ4، ص186.

(٦) التفاصيل: الطبرى: تاريخ الأمم، جـ4، ص23، ابن الأثير: الكامل، جـ4، ص289 – 290.

(7)Gibb .The Arab Conquests .P.67.

المستشرق المجرى فامبرى، أن جيوش المسلمين قد وصلت إلى تركستان الشرقية، وهاجمت أمراء الأيغور وأن مدينة كانتون[١] كانت آخر حدود الإسلام الشرقية[٢].

فتح إقليم أشروسنة

لم أعثر فى المصادر – على قدر علمى – على ما يشير إلى تفاصيل فتح هذا الإقليم، وإن كنت أرى أن فتح هذا الإقليم قد جاء فى خطوة سابقة على فتح إقليم فرغانة، أو على الأقل قبل فتح كاشغر، وذلك نظرًا لأهمية هذا الإقليم المتاخم لمدينة سمرقند، والمشهور فى الوقت نفسه بحدوده الطبيعية المنيعة، إذ يصبح من الصعب جدًا على المسلمين مواصلة الفتح فى حوض نهر سيحون إلا إذا أمَّنوا – بنجاح وقوة – إقليم أشروسنة.

وهكذا؛ انتهت المرحلة الرابعة والأخيرة من فتوحات المسلمين على يد القائد المظفر، قتيبة بن مسلم الباهلي[٣]، بعد أن أصبحت بلاد ما وراء النهر جزءًا من الدولة الإسلامية.

أما عن أحوال بلاد ما وراء النهر بعد وفاة قتيبة بن مسلم إلى قيام الدولة العباسية، فملخصه كلام الأستاذ الدكتور عبد الشافى محمد عبد اللطيف حين يقول: "وإن كانت (الدولة الأموية) لم تضِفْ جديدًا إلى فتوحات قتيبة فى هذا الجزء من العالم، إلا أنها لم تتراجع، ولم تخسر أرضًا، واحتفظت بمواقعها، ونهض الولاة فى هذه المناطق بمسئولياتهم، وهيئُوها لقبول الإسلام، وجعلها جزءًا لا يتجزأ من العالم الإسلامى"[٤].

---

(١) كانتون: إحدى مدن الصين حاليًا، للمزيد عن فتح المدنية، انظر: فهمى هويدى: الإسلام فى الصين، الكويت، عالم المعرفة، العدد (34)، 1401هـ – 1981م، ص18– 48.

(٢) تاريخ بخارى: ص96.

(٣) توفى قتيبة بن مسلم على إثر الثورة التى نشبت فى فرغانة وتوفى رحمه الله تعالى سنة 96هـ/715م، وكان عمره سبعًا وأربعين سنة، وقد أثنى عليه المؤرخون قديمًا وحديثًا، فرحم الله قتيبة وغفر له، مضى إلى ربه، وبقيت فتوحاته وأيامه منارات تضيء لنا أعماق التاريخ، وتُرسل بظلالها إلى نهاية التاريخ. ابن قتيبة: المعارف، ص230، ابن كثير: البداية والنهاية، ج9، 137– 161، ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج3، ص513.

(٤) العالم الإسلامى فى العصر الأموى، ص353.

القسم الأول
الحياة السياسية

الفصل الأول

" الثورة العباسية فى بلاد ما وراء النهر "

1- المقصود بالثورة.

2- أنواع الثورات فى بلاد ما وراء النهر.

3- المرحلة السرية.

4- المرحلة الجهرية.

5- استيلاء العباسيين على بلاد ما وراء النهر.

6- سقوط الدولة الأموية.

التمهيد

المقصود بالثورة

ليس المقصود بكلمة الثورة – Revolution – فى هذا البحث ما تحمله الكلمة من معنى ومضمون يتفقان ومفاهيمنا المعاصرة؛ أى "أن استخدام هذه الكلمة فى هذا البحث، هو استخدام تاريخى بحت، وبعبارة أخرى فإن استخدامنا لكلمة "ثورة" فى هذا البحث جاء تماشيًا مع استخدام كتَّاب العصور الوسطى ومؤرخيها لهذه الكلمة، بمعنى إثارة القلاقل والاضطرابات"[(١)]، إذ إن تلك الحركات العنيفة الطابع والتى وقعت فى فترة البحث (132– 261هـ/ 750– 874م) من جانب سكان بلاد ما وراء النهر لم تكن بالطبع تهدف إلى فرض مفاهيم جديدة وتغيير النظرية السياسية للدولة العباسية، كما أنها لم تكن على درجة من النضج الثورى بحيث تشكل حركة ذات أهداف واضحة محددة ومرسومة تهدف إلى تغيير الواقع آنذاك، بل هى مجرد حركة أو انتفاضة أو تجمع عشوائى لبعض الأفراد الذين حاولوا الخروج والاحتجاج على السلطة الحاكمة فى بلاد ما وراء النهر فى ذلك الوقت باستثناء ثورة المقنع.

---

(١) د. قاسم عبده قاسم: أهل الذمة فى مصر العصور الوسطى، دار المعارف، القاهرة، 1977م، ص181.

ومن ثَم يصبح من الخطأ أن نتناول كلمة "ثورة" – فى هذا البحث – على ضوء مدلولاتها المعاصرة. فالواقع أن تلك القلاقل، والاضطرابات التى أثارها بعض عناصر المجتمع فى بلاد ما وراء النهر (132- 261هـ/ 750- 874م) كانت حركات تفتقر إلى عنصرى الشمول والعمومية – فى كثير من الأحوال – وهما من أهم ما يميز الحركات الثورية.

إن هذه الثورات هى مجرد فتن وانتفاضات أكثر منها ثورات حقيقية، وإنها لم تجد من التنظيم والتدعيم ما يكفل لها النجاح. وقد حققت الدولة العباسية نجاحًا كبيرًا فى القضاء عليها وتصفية جذورها.

أنواع الثورات فى بلاد ما وراء النهر

تعددت أنواع الثورات فى بلاد ما وراء النهر، فهناك الثورات السياسية: والتى يرجع معظمها إلى الطموح الشخصى عند بعض الأفراد؛ مستغلين بُعْد هذا الإقليم عن مقر الخلافة العباسية فى بغداد. يضاف إلى ذلك كراهية بعض العناصر للعباسيين بسبب زيادة الخراج عليهم. أو لظلم بعض الولاة لهم.

وهناك أيضًا الثورات الدينية: والتى ترجع إلى الأفكار والتيارات الدينية القديمة: كالمانوية[١]، والمزدكية[٢]. والتى كانت منتشرة فى هذه البلاد قبل الفتح الإسلامى، وعندما فشلت هذه التيارات الدينية فى الظهور ، فقد بدأت تتخذ نزعات توفيقية

---

(١) تنسب المانوية إلى مانى بن فتق بن بابك بن أبى برزام،خرج فى حكم سابور بن أردشير ،ودعا إلى مبدأ النور والظلمة، وكان يقدس النار ويجعلها قبلته،وألف كتاب (الشابرقان) شرح فيه أصول مذهبه. واستمر مانى حتى قبض عليه الملك بهرام بن هرمز وقتله صبرًا .الشهرستانى:الملل والنحل،جـ2،ص 49 .البغدادى:الفَرق بين الفِرق،ص 162 .

(٢) تنسب هذه الفرقة إلى مزدك بن همدا دان،ظهر أيام الملك قباذ بن فيروز ،ودعا إلى اشتراك الناس فى الأموال والحُرم ،وجعل الناس شركة فيهما كاشتراكهم فى الماء والنار. وألف كتاب (الزند). قُتل مزدك على يد الملك كسرى أنوشروان.الشهرستانى:المصدر السابق،نفس الجزء،ص 55 .الرازى: اعتقادات فرق المسلمين، ص 89.

بين مبادئها ومبادئ بعض الفرق الإسلامية[1]، ومن ثم فقد أخذت تنفث سمومها من خلال هذه المبادئ لنشر تعاليمها فى بلاد ما وراء النهر.

وفى الختام، أستطيع القول: إن هذه الحركات (الثورات) ظلت مشكلة حقيقية طوال العصر العباسى الأول، حتى وفاة الخليفة المعتصم (218- 227هـ/ 833- 841م). واستطاع العباسيون - فى عصر القوة والازدهار - أن يقضوا عليها كلما عاودت الظهور تحت أفكار أو مسميات مختلفة.

(١) د. حسن محمود: الإسلام والحضارة العربية، ص49.

المبحث الأول
الثورة العباسية فى بلاد ما وراء النهر

ليس الغرض من هذا المبحث أن نؤرخ لقيام الدولة العباسية بالتفصيل، فقد أفردت بحوث تاريخية عميقة وجادة حول هذا الموضوع. ولكن الغرض هو إلقاء الضوء على الثورة العباسية فى إقليم خراسان بحكم أن بلاد ما وراء النهر كانت جزءًا من هذا الإقليم.

لا يوجد خلاف بين الباحثين على أن الثورة العباسية قامت على أكتاف عامة المسلمين فى خراسان وبلاد ما وراء النهر. وقد تجمعت لها من العوامل ما ساعد على نجاحها[١] حتى استطاع العباسيون الوصول إلى غرضهم وهو اعتلاء عرش الخلافة الإسلامية.

هذا، وقد مرت الدعوة العباسية بمرحلتين، هما: المرحلة السرية (100- 129هـ/ 718- 747م)، وتبدأ من إرسال محمد بن على بن عبد الله الدعاة العباسيين إلى إقليم خراسان. وتنتهى بتولية أبى مسلم الخراسانى أمر الدعوة هناك. والمرحلة الجهرية: (129- 132هـ/ 747- 750م) وتنتهى بإسقاط الخلافة الأموية وإعلان أبى العباس السفاح خليفة للمسلمين.

---

(١) لمزيد من التفاصيل انظر د. شاكر مصطفى : دولة بنى العباس ، جـ 1 ، ص 115 وما بعدها.

أولًا: المرحلة السرية (100- 129هـ/ 747- 750م)

يُرجع بعض الباحثين[١] أطماع العباسيين فى طلب الخلافة إلى عصر النبى (صلى الله عليه وسلم)، حينما حضر العباس بن عبد المطلب إلى على بن أبى طالب طالبًا منه الذهاب إلى النبى (صلى الله عليه وسلم) - وهو فى مرض موته - يسأله الخلافة من بعده، فإن كانت فيهم عرفوها، وإن كانت فى غيرهم لم يسألوهم إياها. ولكن عليًا اعتذر عن هذه المهمة، قائلًا: والله يا عم لئن سألناها رسول الله فمنعناها لا يعطيناها الناس أبدا، والله لا نسألها رسول الله أبدا[٢].

ومرورًا بكفاح آل البيت فى طلب الخلافة منذ قيام الدولة الأموية، أقول: تعد البداية الحقيقية للدعوة العباسية منذ إرسال محمد بن على دعاته من مقر إقامته فى الحميمة[٣] إلى العراق وخراسان. وذلك على رأس المائة الأولى. وبالتحديد فى خلافة عمر بن عبد العزيز (99- 101هـ/ 717- 720م) الذى أعطى الحرية الدينية لكل الطوائف، ولم يعد يخشى أحد ظلم ظالم ، ولا سلطان والٍ. ومن حُسن الحظ، فقد حفظت لنا كتب الأدب والتاريخ نص الوصِية التى وجهها الإمام محمد بن على لدعاته. وجاء فيها: "أما الكوفة وسوادها فهناك شيعة علىّ وولده. وأما البصرة وسوادها فعثمانية تقول: كن عبد الله المقتول، ولا تكن عبد الله القاتل. وأما الجزيرة فحرورية - (خوارج). وأما أهل الشام فلا يعرفون إلا طاعة بنى مروان. وأما أهل مكة والمدينة فقد غلب عليها أبو بكر وعمر. ولكن عليكم بخراسان، فإن هناك الصدور السليمة؛ والقلوب الفارغة التى لم تتقسمها الأهواء، ولم تتوزعها النِّحَل"[٤] وهذا النص يوضح لنا فى جلاء كيف أن الإمام محمد بن على قد استقرأ

---

(١) محمد الخضرى: الدولة العباسية، جـ١، ص14- 15. د. عبد العزيز غنيم: دور العباسيين فى طلب الخلافة، ص15 وما بعدها.

(٢) ابن سعد :الطبقات الكبير،جـ2، ص 246.

(٣) الحميمة: تقع اليوم على الطريق بين معان والعقبة، ويقطع المسافر من الحميمة 12 كم ليبلغ الطريق ثم يقطع 75 كم ليصل إلى العقبة. ياقوت: معجم البلدان، جـ2، ص186. وعن دورها فى الثورة انظر د . أحمد شلبى : الخلافة العباسية ، جـ 3 ، ص 48 .

(٤) ابن قتيبة: عيون الأخبار، جـ1، ص204، ابن الجوزى: المنتظم، جـ7، ص96.

البلاد جيدًا، وفهم طبيعة كل بلد على حدة [1]. وإن كنت لا أستبعد أن يكون ذلك قد تم عن طريق إرسال بعض الدعاة سرًا لهذه البلاد.

على كل حال، وقع اختيار الإمام محمد بن عليّ، على إقليم خراسان[2] ليكون مقرًا لدعوته. وقد وضع من التخطيط السليم ما يضمن له نجاح هذه الدعوة، بحيث يقيم هو – إمام الدعوة – فى الحميمة بأرض الشام. وتكون الكوفة مركزًا للداعية الأول، وتصير خراسان هى حقل الدعوة، ومجال نشاط الدعاة والنقباء، والجهاز المسئول عن الدعوة يتألف من الإمام، وسبعين من الدعاة، منهم اثنا عشر نقيبًا، وهم كالتالي[3]:

(1) سليمان بن كثير الخزاعى.

(2) مالك بن الهيثم الخزاعى.

(3) طلحة بن زريق الخزاعى.

(4) عمرو بن أعين الخزاعى.

(5) عيسى بن أعين الخزاعى.

(6) قحطبة بن شبيب الطائى.

(7) لاهز بن قريظ التميمى.

(8) موسى بن كعب التميمى.

(9) القاسم بن مجاشع التميمى.

(10) خالد بن إبراهيم الذهلى.

(11) أبو على الهروى شبل بن طهمان الحنفى.

(12) عمران بن إسماعيل المعطى.

---

(١) هناك بعض المؤرخين يشكك فى صحة هذه الوصية، انظر تحليل هذا النص فى كتاب : د. شاكر مصطفى : دولة بنى العباس ، جـ1 ، ص 98 و ما بعدها.

(٢) عن أحوال خراسان انظر : د. حسن احمد محمود : العالم الإسلامى فى العصر العباسى ، جـ 1 ، ص 39 .

(٣) ابن الجوزى: المصدر السابق ، نفس الجزء، ص276. ابن الأثير: الكامل، جـ4، ص322،

ونظرة متأنية فى هؤلاء النقباء يتضح لنا أنهم لم يتم اختيارهم من عنصر دون عنصر، ولا من قبيلة دون قبيلة، فهم: خمسة من خزاعة واثنان من تميم، وواحد من بكر، وواحد من طيئ، وأربعة من الموالى: اثنان من موالى خزاعة، وواحد من موالى أبى معيط، وواحد من موالى بنى حنيفة[١].

نزل أول ثلاثة من دعاة بنى العباس فى إقليم خراسان، وهم: حيان العطار، وأبو عكرمة السراج (المعروف بأبى محمد الصادق) ومحمد بن خنيس ، وهم يحملون وصية الإمام والتى جاء فيها: "انطلقوا إلى هذا الثغر، فادعوا الناس فى رفق وستر، فإنى أرجو أن يتمم الله أمركم، ويظهر دعوتكم، ولا قوة إلا بالله"[٢] وهذا النص يوضح لنا – فى جلاء – منهج الإمام محمد بن على فى مجال الدعوة[٣].

وصل الدعاة إلى خراسان، فى أول خلافة عمر بن عبد العزيز (100–101هـ/717–720م)، وكان والى الإقليم فى هذا الوقت، الجراح بن عبد الله الحكمى، ونجح الدعاة فى استمالة بعض الأهالى، مستغلين ظلم بعض ولاة بنى أمية لسكان هذه المناطق[٤]، وبمرور الوقت، وبحُسْن دعوة هؤلاء، زاد عدد المعتنقين للدعوة العباسية،حتى بدأ أمرهم فى الظهور فى ولاية سعيد بن عبد العزيز بن الحكم، المشهور (بسعيد خذينة)، والذى وجه إليهم تهمة التخطيط لإسقاط الخلافة الأموية، وزعزعة الحكم فى خراسان. ولكن نجح هؤلاء الدعاة فى خديعة هذا الوالى وأوهموه أنهم ما جاءوا إلى هذا الإقليم إلا من أجل التجارة، والغريب أن بعض الموالين لهم من أهل ربيعة واليمن، شهدوا بذلك مما اضطر الوالى إلى إخلاء سبيلهم[٥].

---

(١) د. شاكر مصطفى : دولة بنى العباس ، جـ 1 ، ص 120

(٢) الدينورى: الأخبار الطوال، ص485.

(٣) د . فاروق عمر : العباسيون الأوائل ، جـ 1 ، ص 32 .

(٤) قابل الدعاة العباسيين كثيرٌ من الصعوبات منها:أن الوالى أسد بن عبد الله القسرى قطع أيدى وأرجل من ظفر به من الدعاة وكانوا عشرة، وتمكن من القبض على كبير الدعاة فى خراسان وأمر به فقطع نصفين، وفى سنة (113هـ) قتل الوالى الجنيد بن عبد الرحمن مَنْ قبض عليه من شيعة بنى العباس وأهدر دم الباقين.ابن الأثير: الكامل،جـ4،ص 197،199، 205، ونماذج من هذا الظلم فى د. عبد العزيز الدورى : العصر العباسى الأول ، ص 15 – 16 . د. حسب الله: فى تاريخ بنى العباس، ص11 وما بعدها.

(٥) الطبرى: تاريخ الأمم، جـ4، ص96، ابن الأثير: الكامل، جـ4، ص353.

انطلق هؤلاء الدعاة يطوفون فى كور خراسان يدعون الناس إلى الدعوة العباسية، وفى خلال هذه المرحلة المبكرة وصلت الدعوة إلى بلاد ما وراء النهر، وبالفعل استجاب لهم بعض أهالى بخارى، وسمرقند، وكش، ونسف، والصغانيان، وختلان[١]، ومن إقليم خراسان؛ مدن: مرو الروذ، والطالقان، وهراة، وبوشنج. وهكذا أستطيع القول: إن بلاد ما وراء النهر كانت من أوائل الأقاليم التى دخلتها الدعوة العباسية.

استمر الدعاة العباسيون فى نشاطهم المستمر الذى لا يعرف الكسل ولا التوانى، ضاربين أروع الأمثلة فى تحمل الصبر على الأذى، حتى لو كان يفضى إلى الموت[٢]، كل هذا، والإمام محمد بن علىّ يعدهم بالفوز على أعدائهم بنى أمية.

هذا، وقد وقع حادث مهم فى سنة 120هـ، كاد أن يغير مصير هذه الدعوة، وهو غضب الإمام محمد بن علىّ على شيعته بخراسان، بسبب اتباعهم لعمار بن يزيد المعروف بخداش- نقيب العباسيين (111- 120هـ) - والذى حاول أن ينحرف بالدعوة عن مسارها الصحيح فدعا إلى دين الخُرَّمية[٣]، فبعث لهم الإمام كتابًا مختومًا، لم يبدأ فيه بالبسملة فعرف أصحابه أنهم أخطئوا.

وأرسلوا بكير بن ماهان إلى الإمام يطلبون منه العفو[٤]. وفى هذا دلالة واضحة على مدى ما تمتع به الإمام من مكانة عالية فى نفوس أتباعه. ويدلنا أيضًا على اطلاع الإمام - على الرغم من بُعد مكانه - على كل ما يدور فى مجال الدعوة بخراسان. واستطاع الإمام بهذا الموقف البسيط أن يقضى على هذه الدعوة الخُرمية، التى لو قدّر لها النجاح لقضت على الدعوة العباسية وهى فى مهدها.

وفى أثناء هذه المرحلة قابل بكير بن ماهان فى سجنه بالكوفة، شخصًا كان له أكبر الأثر فى نجاح الثورة العباسية، وهو أبو مسلم الخراسانى ولا أريد أن أطيل

---

(١) الدينورى: الأخبار الطوال، ص419 د. شاكر مصطفى : دولة بنى العباس ، جـ 1 ، ص 125 .

(٢) ابن الجوزى: المنتظم، جـ7، ص117.

(٣) الخُرمية: طائفة دانوا بترك الفرائض، وقالوا: الدين معرفة الإمام فقط. ومنهم من قال: الدين أمران: معرفة الإمام، وأداء الأمانة ؛ ومن حصل له الأمران، فقد وصل إلى الكمال، وارتفع عنه التكليف.للمزيد انظر الشهرستانى: الملل والنحل، جـ 1 ، ص 42.

(٤) ابن الأثير: الكامل، جـ4، ص235. ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، جـ3، ص101.

القول في شخصية الرجل، فقد اختلف المؤرخون حوله قديمًا وحديثًا(١). على كل حال، أُعجِب بكير بأبى مسلم إعجابًا شديدًا، فكانوا لا يوجهونه إلى مكان إلا ذهب ونجح فى تنفيذ ما أمروه به(٢)، فعلا شأنه بين رجال الدعوة، حتى إن سليمان ابن كثير، ومالك بن الهيثم، عندما حضروا إلى الإمام محمد بن على فى عام 125هـ فى اجتماعهم السنوى فى موسم الحج، وكانوا يحملون إلى الإمام مائتى ألف درهم، وأخبروه بأمر أبى مسلم وما رأوا من علو همته، فأوصى به الإمام خيرًا(٣).

وفى نفس العام، أعنى سنة 125هـ توفى الإمام محمد بن على، فتولى أمر الدعوة ابنه إبراهيم، والذى أظهر كفاءة فى القيادة لا تقل عن أبيه، واستمرت الدعوة حتى كانت سنة 127هـ، وفيها توجه سليمان بن كثير – وبعض النقباء – للاجتماع السنوى فى مكة أثناء موسم الحج، لمقابلة الإمام إبراهيم. وكان معهم أبو مسلم الخراسانى، فتعرف إليه الإمام، وأعجب به(٤). ومنذ هذا اللقاء نستطيع القول: إن أبا مسلم أصبح رجل الإمام الأول بلا منازع.

والدليل على ذلك، أن الإمام إبراهيم وجهه فى العام التالى – 128هـ- مباشرة، لتولى أمر الدعوة فى خراسان، وكتب إلى أتباعه: "إنى قد أمَّرته بأمرى فاسمعوا له وأطيعوا، فإنى قد أمَّرته على خراسان، وما غلب عليه بعد ذلك"(٥). ولكن عندما وصل أبو مسلم إليهم لم يعبأ به أحد لصغر سنه، ولم يقبلوا قوله، مما اضطره إلى العودة إلى الإمام فى مكة فأطلعه على حقيقة الأمر فى خراسان فكتب إليهم الإمام للمرة الثانية: إنه قد أجمع رأيه على أبى مسلم، وأمرهم بالسمع والطاعة. ثم أوصاه الإمام بوصية مهمة، نوردها كما هى نظرًا لأهميتها فى الثورة العباسية، وقد جاء فيها: "انظر هذا الحى من اليمن فالزمهم، واسكن بين أظهرهم، فإن الله

---

(١) د. حسن الباشا: دراسات فى تاريخ الدولة العباسية، ص9. د. حسن إبراهيم: تاريخ الإسلام السياسى، جـ2، ص18- 19. د. عبد العزيز الدورى : العصر العباسى الأول ، ص 26 – 27. فامبرى: تاريخ بخارى، ص78.

(٢) الجهشيارى: الوزراء والكُتاب، ص111.

(٣) الدينورى:الأخبار الطوال،ص 499.

(٤) ابن الجوزى: المنتظم، جـ7، ص262، ابن كثير: البداية والنهاية، جـ9، ص26.

(٥) ابن الأثير: الكامل، جـ5، ص21. ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، جـ3، ص103.

لا يتم هذا الأمر إلا بهم. واتهم ربيعة فى أمرهم. وأما مضر فإنهم العدو القريب الدار، واقتل من شككت فيه، وإن استطعت أن لا تدع بخراسان من يتكلم العربية فافعل[١]، وأيما غلام بلغ خمسة أشبار تتهمه فاقتله، ولا تخالف هذا الشيخ (يعنى سليمان بن كثير) ولا تعصِ، وإذا أشكل عليك أمر فاكتفِ به منى"[٢].

ونظرة سريعة فى هذه الوصية، نجد الإمامَ إبراهيم قد رسم لأبى مسلم الخطوط الرئيسة التى يستطيع أن يحقق بها النجاح، وإن كنت أُقدِّر ذكاء الإمام، فى معرفته التامة بأحوال القبائل العربية فى إقليم خراسان، إلا أننى أعيب عليه، هذا الإذن الذى أعطاه إلى أبى مسلم فى أن يقتل العرب[٣]، وكل مَنْ يقف أمام دعوته وفى هذا دليل على أن سياسة الانتقام قد رُسِمَت منذ الخطوات الأولى للثورة، والغريب أن هذا الشىء - أعنى الانتقام والقتل - هو ما عابه العباسيون على الأمويين قبل ذلك.

ثانيًا: المرحلة الجهرية (129- 132هـ/ 747- 750م) "إظهار الدعوة":

وقبل أن نواصل الحديث عن الثورة العباسية، نطل على حال الخلافة الأموية فى إقليم خراسان، والذى كان يحكمه نصر بن سيار، الذى عُرِف بأنه شديد المراس، قوى الشكيمة، وفى الوقت نفسه كان يتميز بعلو الهمة، والحذر[٤]، حتى إنه تولى حكم خراسان فى أواخر خلافة هشام بن عبد الملك 125هـ/ 742م. ولا أدل على كفايته من أنه استطاع أن يحتفظ بمنصبه لمدة سبع سنوات[٥]، فلم يُخلع إلا على يد أبى مسلم صاحب الثورة العباسية.

---

(١) هناك كثير من المؤرخين المحدثين يطعن فى صحة هذه الوصية؛لأنه ليس من المعقول أن يقضى العباسيون على جميع العرب فى خراسان.لمزيد من التفاصيل انظر د. الفاروق عمر : العباسيون الأوائل، جـ1 ،ص 43 .

(٢) ابن الأثير: المصدر السابق، نفس الجزء والصفحة.

(٣) لمزيد من التفاصيل انظر، محمد الركابى الرشيدى،دور العرب فى الدعوة إلى بنى العباس، رسالة ماجستير ،كلية اللغة العربية ،بالقاهرة،قسم التاريخ،تحت رقم (2338) ،1994م،ص 150 وما بعدها.

(٤) الجهشيارى: الوزراء والكُتَّاب، ص66.

(٥) اليعقوبى: تاريخ اليعقوبى ، جـ2 ، ص 233 . د . شاكر مصطفى : دولة بنى العباس، جـ 1، ص 128.

والحقيقة، أن نصرًا كان قد تقدمت به السن لدرجة لم يستطع فيها أن يقاوم أبا مسلم. وفى الوقت نفسه كان على نصر أن يواجه الثورة العارمة التى قادها جديع ابن على الكرمانى، الذى نجح فى جمع كلمة اليمنيين وربيعة ضد المضريين، وخاض فى سبيل ذلك كثيرًا من الحروب(١). أوهنت الطرفين، وكان المستفيد الوحيد هو أبو مسلم.

وأما حال الخلافة الأموية فى خلافة مروان بن محمد (127-132هـ/745-750م)، فكانت هى الأخرى سيئة للغاية، وكان على الخليفة أن يؤاجه الثورات التى نشبت فى مختلف أنحاء الخلافة، والتى تطالب بخلعه. ومن أمثلة هذه الثورات: ثورة الضحاك بن قيس فى العراق، وثورة عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر فى الكوفة، وثورة سليمان بن هشام بن عبد الملك بقنسرين(٢).

هكذا، كانت أوضاع الدولة الأموية إبان إعلان الثورة العباسية ولا شك أن أبا مسلم - المعروف بالذكاء - قد نجح فى استغلال كل هذه الأوضاع لصالحه. فبحلول عام 129هـ/ 746م توجه أبو مسلم إلى مرو، ودفع كتاب الإمام إبراهيم ابن محمد إلى النقيب سليمان بن كثير، وجاء فيه "أظهر دعوتك"(٣) وتم تنصيب أبى مسلم قائدًا عامًا للثورة، طبقًا لوصية الإمام إبراهيم - التى سبق ذكرها منذ قليل - وبالفعل، فقد نجح أبو مسلم فى استمالة الدهاقين والفلاحين إلى دعوته(٤)، وعمت الثورة جميع البلاد، حتى قيل: إنه انضم فى يوم واحد أهل ستين قرية(٥) للدعوة العباسية. كما وفق أبو مسلم فى أن يضم إلى صفوفه كل العناصر المعادية للأمويين، ومن بينهم خوارج سجستان(٦) كما وفق أيضًا فى ضم اليمنية إلى صفوفه بزعامة القائد جديع بن على الكرمانى.

---

(١) التفاصيل: ابن الأثير: الكامل، جـ4، ص494- 497. ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، جـ3، ص115-116.

(٢) انظر تفاصيل هذه الثورات فى:الطبرى:تاريخ الأمم،جـ4،ص 274، 275، 283.ابن الأثير:الكامل،جـ5،ص 5، 10، 12.

(٣) ابن الجوزى: المنتظم، جـ7، ص.

(٤) بارتولد: تركستان، ص313.

(٥) ابن كثير: البداية والنهاية، جـ10، ص309 .

(٦) الشهرستانى: الملل والنحل، جـ1، ص149.

ولذلك يكون أبو مسلم قد نجح فى جمع كلمة المعارضة المعادية للأمويين، وتحرك إلى سفيذنج[١] ولما كانت ليلة الخميس لخمس بقين من رمضان عقد اللواء على رمح طوله أربعة عشر ذراعًا وكان يُدعى الظّل، وتأويله أن الأرض لا تخلو من الظل أبدًا. كذلك لا تخلو الأرض من خليفة عباسى. وعقد الراية على لواء طوله ثلاثة عشر ذراعًا، وكانت تُدعى السحاب، وتأويلها أن السحاب يطبق الأرض، وكذلك دعوة بنى العباس تطبق الأرض. ولبس أبو مسلم هو وأنصاره السواد. وحضرت إليه جميع الوفود، ولما كان يوم عيد الفطر أمر أبو مسلم سليمان بن كثير أن يصلى بهذه الجموع ونصب له منبرًا[٢].

عندما رأى نصر تأزم الموقف، أرسل إلى الخليفة مروان بن محمد بأبيات، جاء فيها:

أرى بين الرماد وميض نار	وأخشى أن يكون له ضرام
فإن النار بالعودين تزكى	وإن الحرب مبدؤها كلام
فقلت من التعجب ليت شعري	أأيقاظ أمية أم نيام[٣]

فكتب إليه مروان: "الشاهد يرى ما لا يرى الغائب". فقال نصر: "أما صاحبكم فقد أعلمكم أن لا نصر عنده"[٤].

وعندما زادت قوة أبى مسلم تقدم إلى مرو، فهرب منها نصر بن سيار فنزل أبو مسلم دار الإمارة، وأمر بقتل كل مَنْ كان بها من مُضَر، وأما نصر فقد فرّ حتى نزل سرخس. فعهد أبو مسلم إلى قحطبة بن شبيب بمواصلة الحرب ضده. وكتب إلى الجنود بالسمع والطاعة. سار قحطبة فاستولى فى طريقه على جرجان ، وقتل كل مَنْ وجُدَ بها من أهل الشام[٥].

---

(١) حول هذه القضية انظر د. غنيم: دور العباسيين فى طلب الخلافة، ص9.
(٢) الطبرى: تاريخ الأمم، جـ4، ص305.
(٣) ابن قتيبة: عيون الأخبار، جـ1، ص128، أبو الفرج الأصفهانى: الأغانى، جـ6، ص64- 128.
(٤) ابن كثير: البداية والنهاية، جـ9، ص32.
(٥) ابن الجوزى: المنتظم، جـ7، ص287- 294. شك د. حسن أحمد محمود فى هذه الرواية ويبرئ ساحة العباسيين من هذا القتل. انظر : العالم الإسلامى فى العصر العباسى، جـ1، ص 53 .

وفى سنة 131هـ/ 748م، وجه قحطبة بن شبيب ابنه الحسن لمواصلة الحرب ضد نصر، الذى ولىَّ هاربًا حتى نزل قومس، وسار منها إلى الرى . كل هذا وجنود العباسيين خلفه، وفى ساوه قريبًا من همذان مات نصر[١] واستولى العباسيون على هذه البلاد، وسار قحطبة فاستولى على أصفهان.

ثم واصل سيره فاستولى على جلولاء، وسار منها إلى حلوان، حيث عسكر ابن هبيرة. وفى سنة 132هـ/ 749م وقعت الحرب بين الطرفين، العباسيين بقيادة قحطبة بن شبيب، والأمويين بقيادة ابن هبيرة، انتهت بقتل قحطبة[٢]. فبايع الجنود ابنه حميدًا، فسار حتى نزل كربلاء وهناك تولى القيادة الحسن بن قحطبة، الذى ارتحل إلى الكوفة فاستولى عليها، وسرعان ما سقطت البلاد فى أيدى العباسيين فاستولوا على الأهواز والبصرة[٣]، وأعلنوا قيام الدولة العباسية، وذلك بمبايعة أبى العباس السفاح بالخلافة فى 132هـ/ 749م فى مسجد الكوفة، وهناك ألقى خطبته الشهيرة[٤].

نعود إلى إقليم خراسان، فنجد أن أبا مسلم قد قرر القضاء على زعماء اليمنية، فقُتِل عثمان بن جديع الكرمانى على يد أبى داود خالد بن إبراهيم فى بلاد الخُتَّل بطُخَارِستان. وفى نفس اليوم قتَل أبو مسلم أخاه عليًا بن جديع ، وهكذا أصبح أبو مسلم سيد الموقف.

الاستيلاء على بلاد ما وراء النهر

فى الوقت الذى كانت فيه الحروب مشتعلة بين العباسيين والأمويين فى بلاد الشام، كان أبو مسلم يُرسل جيوشه للاستيلاء على مدن خراسان،

فأرسل خازم بن خزيمة للاستيلاء على مرو الروذ، ففتحها وقتل حاكمها، وكتب بالفتح إلى أبى مسلم. وبعث النضر بن نُعيم إلى هراة، فأخذها من عاملها عيسى

---

(١) المسعودى: مروج الذهب، جـ3، ص242.

(٢) اليعقوبى: تاريخ اليعقوبى، جـ2، ص241. محمد الخضرى: الدولة العباسية، جـ1، ص35.

(٣) ابن أعثم الكوفى: الفتوح ، جـ 4 ، ص 357 . ابن كثير: البداية والنهاية، جـ10، ص38- 39

(٤) الطبرى: تاريخ الأمم، جـ4، ص326، وتحليل الخطبة فى ، د. شاكر مصطفى : دولة بن العباس ، جـ1، ص149 .

ابن عقيل الليثى، ووجه أبا عاصم عبد الرحمن بن سليمان إلى الطالقان ففتحها. ووجه موسى بن كعب إلى أبيورد[١] ففتحها واستولى عليها[٢].

ووجه خالد بن إبراهيم الذهلى إلى بلخ، فاستولى عليها وفر عاملها زياد بن عبد الرحمن القشيرى إلى ترمذ - إحدى مدن بلاد ما وراء النهر - وهناك أعاد ترتيب جنوده، وتحالفت قبائل مضر وربيعة واليمنية على مواصلة القتال ضد أبى مسلم، وتولى القيادة العامة مقاتل بن حيان النبطى. وتحالف معه جميع ملوك طخارستان وما وراء النهر.

وبالقرب من نهر السرجنان - أحد روافد نهر جيحون - وقعت المعركة، والتى استطاع فيها خالد بن إبراهيم - نقيب العباسيين - تحقيق النصر على هذه القوى المتحالفة، واستولى على إقليم طخارستان[٣].

ثم توجه إلى الخُتّل - إحدى مدن طخارستان - ليقضى على فلول المقاومة بها، ونجح فى ذلك، وفر ملكها إلى أرض فرغانة. وهناك تكون حلف من ملوك فرغانة، والشاش والصين. فأرسل إليهم أبو مسلم القائد زياد بن صالح الخزاعى، الذى نجح فى هزيمتهم جميعًا عند نهر طراز[٤]، وقتل منهم زهاء خمسين ألفًا، وأسروا نحو عشرين ألفًا، وهرب الباقون إلى الصين[٥]. كذلك نجح خالد بن إبراهيم فى فتح كش وقتل حاكمها، واستولى كذلك على إقليم أشروسنة. أما سباع بن النعمان الأزدى، فقد استولى على سمرقند[٦]، وأصبح أول والٍ عربى عليها من قِبل أبى مسلم. وفى الوقت نفسه، كان الجهم بن عطية قد نجح فى فتح إقليم خوارزم[٧]. وصار أول حاكم عربى عليه.

---

(١) أبِيَوْردُ: مدينة بخراسان بين سرخس ونسا، ياقوت: معجم البلدان، جـ1، ص78. لسترنج: بلدان الخلافة الشرقية، ص471.

(٢) ابن الأثير: الكامل، جـ4، ص36. ابن كثير: البداية والنهاية، جـ10، ص31- 34.

(٣) د. حسن محمود: العالم الإسلامى فى العصر العباسى، جـ 1 ، ص 43 - 44 .

(٤) طراز: مدينة فى أقصى بلاد الشاش مما يلى تركستان،وهى حد بلاد الإسلام. وهى مدينة طيبة التربة عذبة الماء كثيرة الخيرات،ياقوت: معجم البلدان،جـ1 ،ص 223.

(٥) ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، جـ3، ص179.

(٦) الدينورى: الأخبار الطوال، ص527.

(٧) ابن الأثير: الكامل، جـ4، ص129.

وهكذا، استطاع أبو مسلم الخراسانى قيادة الثورة العباسية حتى نجح فى الاستيلاء على إقليم خراسان وبلاد ما وراء النهر وورثت الخلافة العباسية أراضى الدولة الإسلامية، التى تركتها الخلافة الأموية(١)، وبات جميع الملوك والأمراء فى آسيا الوسطى يخشون جانب العباسيين. ولم يعد أمام أبى مسلم إلا أن يواجه الثورات التى قامت فى بلاد ما وراء النهر.

مقتل الخليفة مروان بن محمد وسقوط الدولة الأموية

بعد مبايعة أبى العباس السفاح بالخلافة فى شهر ربيع الآخر 132هـ/ 749م، بعث عمه عبد الله بن على للقضاء على الخليفة الأموى مروان بن محمد. والتقى الجيشان عند نهر الزاب الكبير - أحد روافد نهر دجلة بالعراق - ودارت رحى الحرب بينهما(٢). والتى سرعان ما انتهت بانتصار العباسيين وهزيمة الخليفة مروان بن محمد، الذى فر على إثر الهزيمة من بلد إلى بلد، حتى دخل مصر. فأرسل عبد الله بن على أخاه صالح فى أثره، فأدركه فى قرية بوصير- جنوب الجيزة - فقتله هناك فى ذى الحجة 132هـ/ 749م(٣). وبذلك انتهت الدولة الأموية، وبدأت مرحلة جديدة من تاريخنا الإسلامى، اصطلح على تسميتها بالدولة العباسية(٤).

(١) محمد الخضرى: الدولة العباسية، جـ١، ص44 وما بعدها.

(٢) الطبرى: تاريخ الأمم، جـ4، ص350- 353، ابن الأثير: الكامل، جـ4، ص73- 77، ابن الجوزى: المنتظم، جـ7، ص355.

(٣) لتحليل الروايات فى مقتل الخليفة مروان بن محمد انظر: د. سيدة كاشف: مصر فى فجر الإسلام ص147. د. أحمد شلبى : الخلافة العباسية ، جـ 3 ، ص 53 - 54 .

(٤) . د.السيد أحمد حمور: الدولة العباسية بين أسس بنائها وأسباب فنائها ، ص13.

الفصل الثانى

"بلاد ما وراء النهر
تحت حكم العباسيين"

التمهيد

المبحث الأول : الثورات الدينية

1- ثورة الشيعة .

2- ثورة الخوارج .

3- ثورة بها فريد .

4- ثورة إسحاق الترك .

5- ثورة المبيضة .

6- ثورة المقنع .

المبحث الثانى : الحركات السياسية

1- ثورة زياد بن صالح الخزاعى.

2- ثورة أهل طخارستان .

3- ثورة الأمراء المحليين ضد الخلفاء العباسيين .

4- ثورة رافع بن الليث بن نصر بن سيار.

التمهيد

الثورات فى بلاد ما وراء النهر

قامت فى بلاد ما وراء النهر كثير من الثورات، بعضها ثورات سياسية خالصة، وبعضها ثورات دينية (ذات أهداف سياسية). وأذكر ببعض النقاط المهمة، وهى:

أولًا: أن معظم هذه الثورات لم يكن هدفها المطالبة بالخلافة،ولكنها هددت الأمن الداخلى للدولة،كما كانت خطرًا على شخص الخليفة، وعلى الدين الرسمى للدولة وهو الإسلام .

ثانيًا: ونحن ندرس الثورات فى بلاد ما وراء النهر لا نعتبرها كل تاريخ هذه البلاد خلال تلك الفترة ، إن هذه الثورات وإن طفت على السطح السياسى للأحداث ليست هى الصورة الحقيقية لتاريخ هذه البلاد. بل بالعكس هى الصورة السلبية له ،أما الجماهير الواسعة التى كانت تعيش حياتها بشكل هادئ وتبدع فى مجالات الآداب والفنون وتعمل فى الصناعات المختلفة وتخدم الحياة ، أو تعمل على بناء صروح الفكر والثقافة أو تعمل فى مجال التجارة. كل هذه الجماهير كانت تشكل الكتلة الرئيسة من الرعية . ولكن نظرًا لموضوع البحث فقد اقتصرت على الجانب السياسى فقط.

المبحث الأول

الثورات الدينية

تنوعت الثورات الدينية فى بلاد ما وراء النهر، فبعضها يرجع إلى أصول إسلامية مثل ثورات الشيعة والخوارج، وبعضها يرجع إلى المعتقدات الخاطئة، والأفكار الهدامة. التى تعود إلى تيارات دينية قديمة كانت موجودة قبل الفتح الإسلامى.

وسوف أتحدث أولًا عن الثورات (ذات الطابع السياسى) ثم أتابع القول عن باقى الثورات الأخرى.

(1) ثورة الشيعة فى بخارى (133هـ/ 750- 751م):

من المعلوم - تاريخيًا - أن الدعوة العباسية قد قامت على مبدأ "الرضا من آل محمد"[1]. وأن هذه الدعوة قد لاقت قبولًا واستحسانًا فى إقليم خراسان وبلاد ما وراء النهر. وقد استغل العباسيون هذه العاطفة الموجهة لأهل البيت ليكسبوا بذلك رضا المسلمين فى هذه المناطق.

ومن المعروف -أيضًا - أن الدعوة العباسية لاقت الاستجابة السريعة من أهل هذه البلاد، لاعتمادها على هذا المبدأ. حتى إننا نقرأ، أن أهل ستين قرية قد دخلوا فى دعوة أبى مسلم الخراسانى فى يوم واحد - كما سبقت الإشارة - وإن كان هذا

(1) ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، جـ3، ص170 وما بعدها.

النجاح الكبير للدعوة العباسية فى هذه البلاد يدل على عبقرية الدعاة العباسيين، وبذل جهدهم فى ذلك، إلا أنه يدل فى الوقت نفسه على عمق هذه الحركة التى استغلوها لصالحهم[١].

وعندما ظهرت نيات العباسيين الحقيقية وقاموا باضطهاد آل البيت وعدم إسناد الخلافة إليهم، قام الشيعة فى بخارى بثورة عارمة بقيادة شريك ابن الشيخ صالح المهرى، وكانت هذه الثورة تنادى بأحقية العلويين فى الخلافة[٢]. وأعلن زعيمها مبدأ الثورة بقوله: "ما على هذا اتبعنا آل محمد أن يسفك الدماء، وأن يعمل بغير الحق، ولا يكفينا ذلك كله إلا خليفة من أهل البيت"[٣].

ومما يسترعى النظر فى هذه الثورة، أن أغلب سكان بخارى وخوارزم وفرغانة[٤] قد انضموا إلى شريك، حتى وصل أتباعه ما يقرب من ثلاثين ألفًا. ومن الغريب أن نجد عمال أبى مسلم على بلاد ما وراء النهر ينضمون إلى هذه الثورة. فقد ذكر النرشخى، أن أمير بخارى عبد الجبار بن شعيب، وعبد الملك بن هرثمة أمير خوارزم، ومُخلّد بن الحسين أمير برزم[٥]. قد قبلوا دعوة شريك، وقاموا بنشرها، وتعهدوا على محاربة كل مَنْ يقف أمامها.

وبذلك أصبحت ثورة شريك ثورة مسلحة، يساندها جيش قوى، فما كان من أبى مسلم إلا أن أرسل قائده زياد بن صالح الخزاعى على رأس جيش بلغ قوامه عشرة آلاف جندى وأوصاه قائلا: "إذا وصلت إلى نهر جيحون، فتلبث وابعث الجواسيس ليخبروك بأحوال شريك، ولتذهب بحيطة إلى بخاري"[٦]. ولم يكتفِ أبو مسلم بذلك بل خرج من مرو، وعسكر على بُعد مرحلة من نهر جيحون. وجمع عساكره من مختلف الجهات، وأعلم زياد أنه من ورائه قائلا: "فإذا احتجت إلى عسكر فأخبرنى لأبعثه إليك"[٧].

---

(١) د. فاروق عمر : العباسيون الأوائل ، جـ 1 ، ص69 – 70 .

(٢) ابن الجوزى: المنتظم، جـ7، ص321 وعنده "سويد".

(٣) اليعقوبى: تاريخ اليعقوبى، جـ2، ص247.

(٤) الكرديزى: زين الأخبار، ص193.

(٥) بِرْزم: اسم حصن على نهر جيحون يبعد خمسة فراسخ من مرو. ياقوت: معجم البلدان، جـ1، ص381.

(٦) النرشخى: تاريخ بخارى، ص95.

(٧) الطبرى: تاريخ الأمم، جـ4، ص366. ابن كثير: البداية والنهاية، جـ10، ص55.

وصلت جيوش العباسيين بقيادة زياد بن صالح. وعسكر بالقرب من بخارى، كما أمره القائد العام أبو مسلم. وأخذ صالح يبث العيون ليعرف عدد الثوار. وليقف على مدى خطرهم. هذا فى الوقت الذى كان فيه شريك المهرى - زعيم الثورة - قد عسكر بجيشه على باب بخارى. واستوثق من حكام الأقاليم بالوقوف معه ضد العباسيين وسرعان ما بدأت المعركة، واستمرت الجولة الأولى سبعة وثلاثين يومًا. كان الظفر فيها للثوار. ونلمح فى كلام النرشخى - والذى انفرد بذكر تفاصيل المعركة - أن الثوار قد كونوا جيشًا قويًا منظمًا، وقد نجحوا فى استغلال موقع المدينة الحصين، حتى استطاعوا قتل خمسمائة جندي[1] من العباسيين فى يوم واحد.

أصبح على زياد - إذًا - أن يغير من خطته الحربية، لمواجهة الثورة فعقد تحالفًا مع "قتيبة بن طغشاده بخار خدات" واستطاع أن يحكم الحصار على الثوار داخل المدينة، مما اضطرهم الجوع إلى التخلص من مركزهم الحصين داخل المدينة ففروا هاربين من بخارى إلى مدينة نوكند[2] طلبًا للطعام. وعندما وصلوها وهم على هذه الحالة، هاجمهم القائد زياد، فقتل منهم الكثير، وفر الباقون، وأعلن زياد استيلاءه على المدينة. وقبض على شريك المهرى - زعيم الثورة - فقتله، وأرسل برأسه إلى أبى مسلم[3]. ثم توجه زياد إلى سمرقند ليقضى على فلول الثورة. وليستأصل شأفة الشيعة بها.

وقبل أن نغادر ثورة شريك نناقش روايات المؤرخين والمستشرقين فى مسألة مهمة، وهى: حريق زياد بن صالح - القائد العباسى - مدينة بخارى. فقد ذكر النرشخى أن صالحًا بعد أن قضى على الثورة، أحرق المدينة، وقد ظلت "لمدة ثلاثة أيام بلياليها تحترق"[4]. وأما فامبرى، فهو كعادته يأخذ هذه الروايات الضعيفة - بل قل الموضوعة - ويزيد عليها، ليصور المسلمين بهذه الصورة البشعة،حيث يقول:

---

(١) النرشخى: تاريخ بخارى، ص95.

(٢) نوكَنْد: من قرى سمرقند. ياقوت: معجم البلدان، جـ5، ص312.

(٣) د. شاكر مصطفى: دولة بنى العباس، جـ 1، ص 248.

(٤) النرشخى: المصدر السابق، ص97.

"وأعمل فيهم (أى سكان بخاري) القتل وترك زياد المدينة والنار تستعر فيها"[١]. ويضيف بارتولد: "وصلب الأسرى بأبواب المدينة"[٢].

أقول، هذه روايات موضوعة، ولا تمتُّ للحقيقة التاريخية بصلة، وذلك لأن باقى المصادر التاريخية الأخرى – كالطبرى وابن الأثير مثلًا – لم تذكر شيئًا عن هذا الحريق، ولا عن هذا الصلب، الذى كان على أبواب بخارى. ثم ما الداعى لإحراق المدينة خاصة وأنها قد فتحت أبوابها للعباسيين بعد فرار الثوار منها. يضاف إلى هذا وقوف حاكم المدينة "قتيبة بن طغشاده" إلى جانب القائد العباسى للقضاء على الثورة. فما الداعى – إذًا – لهذا الحريق؟!.

وأخيرًا، فإن نظرة المستشرقين للقادة المسلمين فى حروبهم. دائمًا ما يصورونهم بهذه الصورة الشنيعة، التى لا تتفق مع مبادئ الإسلام ولا تعاليمه[٣]، بل هى محض خرافة، وليس لها صلة مطلقًا بالحقيقة التاريخية.

وصفوة القول: إن زياد بن صالح، قد نجح فى القضاء على ثورة الشيعة ببخارى. وقتل زعيمها شريك المهرى، ولم يعتدِ على سكان بخارى، أو على المدينة نفسها. وبعد أن استتب الأمن فى ربوعها وعاد إليها الهدوء والاستقرار، رجع إلى أبى مسلم فى مرو.

(2) تجدد ثورة الشيعة (140هـ/ 757م):

لم يدُم الهدوء طويلا فى بخارى، ففى سنة 140هـ/ 757م تجددت ثورة الشيعة مرة ثانية، ولكن فى هذه المرة كانت بزعامة مجاشع بن حريث الأنصارى. والذى اتخذ من مدينة كشماهن – إحدى مدن بخارى – مقرًا لثورته[٤]. وانضم إليه

(١) فامبرى: تاريخ بخارى، ص79.

(٢) بارتولد: تركستان، ص315.

(٣) لمزيد من التفاصيل انظر، ابن قتيبة: عيون الأخبار، جـ1، ص108 وما بعدها، وابن عبد ربه: العقد الفريد، جـ1، ص108 وما بعدها. وابن خلدون: المقدمة جـ2، ص677 وما بعدها، و د. على جمعه: شبهات وإجابات حول الجهاد فى الإسلام، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، القاهرة، 2002م، ص34 وما بعدها.

(٤) الطبرى: تاريخ الأمم، جـ4، ص394. ابن الأثير: الكامل، جـ5، ص126.

خالد بن كثير حاكم قوهستان[1] وبات الثوار يمثلون خطرًا حقيقيًا على الدولة العباسية.

اشتعلت الثورة، ونجح الثوار فى محاصرة منزل أبى داود خالد بن إبراهيم الذهلى - حاكم خراسان بعد أبى مسلم - ونجحوا فى قتله، وأصبح الخطر يهدد الخليفة أبا جعفر المنصور، وينذر بثورة عارمة تجتاح بلاد ما وراء النهر، وتقضى على الخلافة العباسية هناك. لذا فقد ولى الخليفة المنصور القائد عبد الجبار بن عبد الرحمن الأزدى حكم خراسان، فتحرك بسرعة نحو بخارى، ونجح فى فرض الحصار المحكم عليها، حتى أعلن قادة الثورة الاستسلام[2]، وفتحت المدينة أبوابها للعباسيين، فأمر القائد عبد الجبار بقتل زعماء الثورة[3].

ويبدو أن الوالى عبد الجبار الأزدى، قد عامل الثوار بكل عنف، حتى إننا لم نعثر على ما يفيد تجدد ثورات الشيعة - خلال فترة البحث - مرة ثانية.

(3) ثورة الخوارج (160هـ/ 777م):

طبيعة الخوارج فى العصر العباسى الأول

كانت فرقة الخوارج[4] ترى أن الخلافة حق لكل مسلم ، ولم يكن رأيها فى العباسيين يختلف عن رأيها فى الأمويين ، فكلهم لا يصلح . وكلهم يجب الخروج

(١) قوهستان: تعريب كوهستان ومعناه موضع الجبال لأن كوه هو الجبل بالفارسية، فأحد أطرافها متصل بنواحى هراة ثم يمتد فى الجبال طولاً حتى يتصل بقرب نهاوند وهمذان وبروجرد، وهذه الجبال كلها تسمى بهذا الاسم، وهى الجبال التى بين هراة ونيسابور. ياقوت: معجم البلدان، جـ 3، ص 451. وهى إحدى مدن إيران حاليًا.

(٢) ابن الجوزى: المنتظم، جـ8، ص27. ابن كثير: البداية والنهاية، جـ10، ص73.

(٣) خليفة بن خياط: تاريخ خليفة، ص285.

(٤) هى: إحدى الفرق الإسلامية التى ظهرت بعد معركة صفين بسبب رفضهم التحكيم بين على بن أبى طالب ومعاوية بن أبى سفيان (رضى الله عنهما). ومن أسمائهم: الشراة، والمحكمة، والحرورية. ومن أشهر فرقهم: الأزارقة، والنجدات، والصفرية، والإباضية وغيرها. الشهرستانى: الملل والنحل، جـ1، ص 114 وما بعدها.

عليه ومقاتلته. فحاربوا بنى العباس فى صلابة وجلد لا يقلان عما كان منهم فى عهد بنى أمية[1].

على أن طبيعة الخوارج فى أواخر العصر الأموى تختلف عنها فى العصر العباسى الأول . وذلك من عدة وجوه:

أولًا : نشط الخوارج فى العصر العباسى الأول بعد أن أضعفتهم ضربات مروان ابن محمد فى أواخر الخلافة الأموية . والخوارج كما هو معروف عنهم لا يخافون الموت . وجماعة كهؤلاء يرهقون أعداءهم. ويقلقون أى جيش يتصدى لهم. لذا فقد تكررت ثوراتهم من حين لآخر طوال هذا العصر[2].

ثانيًا : تركز الخوارج فى العصر الأموى فى الأقاليم المركزية، كالسواد والموصل وفارس. ثم تحولوا إلى الأقاليم البعيدة عن المركز، مثل: سجستان ، وخراسان، وبلاد ما وراء النهر. وذلك خوفا من الضربات المتلاحقة التى كانت تسددها لهم دولة الخلافة.

ثالثًا : كانت قضية الخوارج سياسية، أما فى هذا العصر فقد أصبحت سياسية اجتماعية ، فكانوا يثورون من أجل العدل الاجتماعى ، ورفض الظلم ، والدفاع عن الضعفاء.

رابعًا : كانت ثورة الخوارج تعتمد فى قوتها وتماسكها على شخصية زعيمها، وما إن يقتل الزعيم حتى يتفرق الأتباع إلى أن يظهر زعيم أخر ليجمع شملهم فى ثورة جديدة ويتحرك لاحتلال مناطق أخرى ويهدد فيها النفوذ العباسى[3].

ومن أهم الثورات التى ظهرت فى بلاد ما وراء النهر ثورة يوسف بن إبراهيم المعروف بالبَرْم[4] – من موالى ثقيف ببخارى – والذى رفع علم الثورة تحت شعار

---

(١) د. شاكر مصطفى : دولة بنى العباس ، جـ 1 ، ص 277 .

(٢) د. أحمد شلبى : الخلافة العباسية ، جـ 3 ، ص 210 .

(٣) د. فاروق عمر : العباسيون الأوائل ، جـ 1 ، 227.

(٤) البَرْم: الذى لا يدخل مع القوم ولا يخرج معهم، وقيل مصدر بَرِمَ بالأمر برمًا إذا سئمه فهو برم، أى ضجر. وهذا هو الأقرب للصواب. الفيروزآبادى: القاموس المحيط، جـ1 ، ص1394 . ابن منظور: لسان العرب، جـ12، ص43.

"الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر"، منكرًا على الخليفة المهدى (158- 169هـ/ 744- 785م) سيرته التى يعامل بها الرعية. ونجح يوسف فى جمع الناس حوله بما رفعه من شعار الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر،لأن الناس - غالبًا - ما تستهويهم مثل هذه الشعارات ومن ثم فقد عمت الثورة إقليم خراسان، وخاصة بلاد مرو الروذ، والطالقان، والجوزجان، وبوشنج، وإقليم بلاد ما وراء النهر وخاصة مدينة كش[1].

أصبح - إذًا - على الخليفة المهدى أن يواجه هذه الثورة، فأرسل إليها القائد يزيد بن مزيد الشيباني[2] وبعد جولات عديدة، هُزم فيها العباسيون، اضطر يزيد إلى اللجوء إلى الخديعة فنادى بين الثوار، أن من لجأ إلى معسكره فهو آمن، فتفرق الثوار عن يوسف مما سهل ليزيد القبض عليه.

وقد اختلفت الروايات حول مصير الثائر يوسف بن إبراهيم، فيتفق ابن الأثير وابن الجوزى وابن كثير، على أن يزيد قد حَمل يوسف على بعير وحوّل وجهه إلى ذنبه. وبعد وصوله إلى مدينة الرصافة قُطعت يداه ورجلاه. ثم قُتل هو وأصحابه، وصلبوا على الجسر[3]. وينفرد اليعقوبى برواية يذكر فيها أن يوسف قد وصل إلى الخليفة المهدى وبعد حوار طويل بينهما، أمر الخليفة بقتله[4].

وقد حاول بعض الخوارج أن يثأروا لقتلاهم من يزيد الشيبانى فتسللوا إلى بغداد وهاجموا يزيدًا على جسر نهر الفرات وجرت معركة عنيفة وقد سقط عدد من القتلى بين الطرفين . ولكن يزيدًا أفلت من الموت بأعجوبة. ويذكر اليعقوبى هذا الحادث قائلًا : إنها المرة الأولى التى دخل فيها الخوارج إلى بغداد وقتلوا عددًا من سكانها[5].

على كل حال، فقد قتل يوسف البَرْم، وإن كانت ثورته أقل شهرة من باقى الثورات الأخرى التى ظهرت فى خلافة المهدى، حيث لم تمدنا المصادر بتفاصيل

---

(١) اليعقوبى،تاريخ اليعقوبى،جـ2،ص 278.

(٢) ذكر خليفة بن خياط: أن القائد هو: سعيد بن سلم بن قتيبة بن سلم بن عمرو. تاريخ خليفة، ص283.

(٣) ابن الجوزى: المنتظم، جـ8، ص235. ابن الأثير: الكامل، جـ5، ص233.

(٤) اليعقوبى،البلدان، ص204.

(٥) اليعقوبى : نفس المصدر ، نفس الجزء ، نفس الصفحة.

كثيرة حول هذه الثورة. ولم أعثر . على قدر علمى - على ما يفيد تجدد ثورات الخوارج - خلال فترة البحث - مرة ثانية.

النوع الثانى من الثورات الدينية التى ظهرت فى بلاد ما وراء النهر ثورات ترجع إلى أصول غير إسلامية، فهى تعد امتدادًا للزرادشتيه(١)، والمانوية، والمزدكية، وغيرها من التيارات التى ظهرت قبل الفتح الإسلامى. وقد اختلفت آراء المؤرخين المحدثين حول الأسباب الحقيقية لهذه الثورات. فيذكر الدكتور حسن إبراهيم حسن أن الغرض منها هو : تحويل الملك من العرب المسلمين إلى الفرس والمجوس(٢). أما الدكتور عبد العزيز الدورى فيقول : إن الدعوة العباسية " أحيت بعض المبادئ التى كانت متأصلة فى إيران قبل الفتح الإسلامى فلما خاب أمل أصحابها بالعباسيين ظهرت بشكل حركات زندقة متشحة بثوب إسلامى أحيانًا، وكشفت عن حقيقتها علنًا فى بعض الأحيان"(٣). أما الدكتور أحمد شلبى فيذكر أن السبب الحقيقى يرجع إلى عاملين :

أولًا: نظرية الحق الإلهى المقدس للأسرة الفارسية الحاكمة التى اعتنقها الفرس قبل الإسلام، فلما أسلموا اعتقدوا بأن آل البيت من العلويين أحق بالخلافة من العباسيين. لذلك فقد ثاروا ضدهم. ثانيًا: تحويل السلطة الفعلية إلى الفرس عن طريق ضرب العرب بعضهم ببعض، أو تنصيب خلفاء ضعفاء يحكمون من خلالهم(٤).

ويقسم الدكتور حسن أحمد محمود هذه التيارات إلى قسمين ، أحدهما : تيار منافر (ثورى) . والآخر: تيار متعاون. ويقول : إن معظم هذه الثورات ظهرت من

---

(١) زرادشت: من أهل أذربيجان. ظهر أيام الملك بشتاسف بن لهراسف ومذهبه :القول بأن النور والظلمة أصلان متضادان. وقد صنف كتابًا يدعو فيه لمذهبه يسمى (زند اوستا) أو (افستا). قسم فيه العالم إلى قسمين: الروحانى، والجسمانى، أو الروح والشخص. ويدعى أن موارد التكليف ثلاثة: الاعتقاد، والقول، والفعل، وأتباعه يعظمون النار. الشهرستانى: الملل والنحل،جـ2، ص14. الإمام الرازى: اعتقادات فرق المسلمين والمشركين، تحقيق: على سامى النشار، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، 1938م، ص86.

(٢) د . حسن إبراهيم حسن : تاريخ الإسلام السياسى ، جـ 2 ، ص 102.

(٣) د . عبد العزيز الدورى : العصر العباسى الأول ، ص 67 .

(٤) الخلافة العباسية ، جـ 3 ، ص 95 – 97 .

التيار الأول الذى يعد امتدادًا للتيارات القديمة مثل المانوية والمزدكية[١]. أما الدكتور فاروق عمر : فيرى أن السبب الحقيقى لهذه التيارات يرجع إلى عوامل اجتماعية، حيث فشل العباسيون فى تحقيق آمال الشعوب التى ثارت ضد الأمويين لتحقيق نوع من العدالة الاجتماعية. لذلك كان الغرض من هذه الثورات القضاء على سلطة بغداد ونفوذها فى المنطقة، ولا يعنى هذا أن "العناصر التى ثارت تبنت المبادئ التى ثار من أجلها زعماء هذه الحركة، فالكثير ممن انضم إلى هذه الحركات أو تلك لم ينضم إليها إيمانًا بمبادئها، بل اعتبرها متنفسًا لسخطه ورمزًا للتعبير عن تذمره وتحقيق تطلعاته"[٢].

والحقيقة أننى أميل إلى أن السبب الحقيقى لهذه الثورات هو الكيد للإسلام والمسلمين. ويعجبنى هنا قول المقريزى الذى يشرح فيه هذه الحقيقة فيقول: "واعلم أن السبب فى خروج أكثر الطوائف عن ديانة الإسلام أن الفرس كانت فى سعة الملك وعلو اليد على جميع الأمم، بحيث إنهم كانوا يسمون أنفسهم الأحرار والأسياد وكانوا يعدون سائر الناس عبيدًا لهم . فلما امتُحنوا بزوال الدولة عنهم على أيدى العرب. وكانت العرب عند الفرس أقل الأمم خطرًا ، تعظم الأمر وتضاعفت لديهم المصيبة ، وراموا كيد الإسلام بالمحاربة فى أوقات شتى ... فرأوا أن كيده على الحيلة أنجح فأظهر قوم منهم الإسلام"[٣].

والآن نعرض لأهم هذه الثورات :

(4) ثورة بها فريد (131هـ/ 748م)

فى سنة (131هـ/ 748م)، ظهر فى إقليم نيسابور رجل يسمى "بها فريد ابن ماه فروردين" كان هذا الرجل من أهالى قرية زوزن[٤]. غاب عن قريته سبع سنوات

---

(١) العالم الإسلامى فى العصر العباسى ، جـ 1 ، ص 79.

(٢) العباسيون الأوائل ، جـ 1 ، ص 237 .

(٣) الخطط ، جـ 4 ، ص 190 – 191 .

(٤) زُوْزَن: كورة واسعة بين نيسابور وهراة، كانت تعرف بالبصرة الصغرى. ياقوت: معجم البلدان، جـ3، ص158.

عاش فيها فى بلاد الصين. ثم عاد إلى قريته، وأظهر السحر الذى تعلمه، وأتى بأشياء غريبة حتى صدقه الناس، ثم ادعى أنه النبى المرسل إليهم. كما ادعى أنه رأى الجنة والنار، وأن الله تعالى قد أوحى إليه، وأمره أن يرتدى اللباس الأخضر، لباس أهل الجنة.

ادعى "بها فريد" النبوة – وأعلن مبادئ عقيدته الجديدة فآمن به كثير من المجوس، وفرض على أتباعه سبع صلوات، وهى: فى توحيد الله الواحد وعبادته. والثانية: فى خلق السماوات والأرض، والثالثة: فى خلق الحيوان ورزقه، والرابعة: فى الموت، والخامسة: فى البعث والحساب، والسادسة: فى أهل الجنة وأهل النار، والسابعة: فى مدح أهل الجنة[١].

وكتب لأتباعه كتابًا – لم تذكر المصادر اسمه – باللغة الفارسية، وأمرهم بالسجود للشمس؛ كما أمرهم أن يتركوا شعورهم تطول، ونهاهم عن ذبح الأنعام إلا إذا هزلت وضعفت، وعن شرب الخمر، وأمرهم بالامتناع عن أكل الميتة[٢].

انتشرت أفكار "بها فريد" فى إقليم نيسابور، ومنها انتقلت إلى بلاد ما وراء النهر، وخاصة فى سمرقند، حتى شكا الناس إلى أبى مسلم الخراسانى من الفوضى والاضطراب الذى ساد البلاد لظهور هذه الجماعة، فأرسل أبو مسلم شبيب بن داح، وعبد الله بن سعيد إلى "بها فريد" فعرضا عليه الإسلام. فأسلم ولبس السواد شعار العباسيين. غير أنه ارتد عن الإسلام[٣]، فأرسل إليه أبو مسلم من قتله وتمكن من القبض على أتباعه فحبسهم.

أتباع بها فريد: إذا كان أبو مسلم قد نجح فى القضاء على "بها فريد" وقتله، وحبس باقى أتباعه، إلا أنه فشل فى القضاء على هذه الحركة قضاءً تامًا، لأن الأفكار عادة لا تموت بالقتل أو السجن. فقد ذكر ابن النديم: أنه مازال جماعة من أهل خراسان على مذهب "البها فريد" – وقت تأليفه للكتاب (عام 377هـ) – ويقول:

---

(١) البيرونى: الآثار الباقية، ص180.

(٢) براون: تاريخ الأدب فى إيران، م1، ج2، ص157.

(٣) الكرديزى: زين الأخبار، ص191.

"إنهم مازالوا يطبقون تعاليم ديانتهم "[١]. وبناءً على قول الشهرستانى، فإن هذه الفرقة قد اتخذت لها اسمًا آخر هو "السيسانية". ويرى أن هؤلاء القوم "أكثر خلق الله عداوة للمجوس"[٢].أتباع زرادشت.

(5) ثورة إسحاق الترك "المسلَّمية" 137هـ/ 755م

فى سنة 137هـ/ 755م، استدرج أبو مسلم الخراسانى إلى قصر الخليفة المنصور وقتل هناك[٣]، وأسند المنصور ولاية خراسان وبلاد ما وراء النهر إلى القائد أبى داود خالد بن إبراهيم الذهلى - أحد نقباء بنى العباس - وفى ولايته ثار أصحاب أبى مسلم الخراسانى فى بلاد ما وراء النهر بقيادة "إسحاق الترك".

وأما عن شخصية الثائر إسحاق، فقد اختلفت المصادر حول الحديث عنه. فيذكر الشهرستانى أنه سُمى بالترك لا لأنه من أصل تركى، بل لأنه دخل بلاد الترك؛ ودعاهم إلى قبول الدعوة العباسية. وبعد قتل أبى مسلم فرّ إسحاق إلى بلاد ما وراء النهر، وادعى أن أبا مسلم لم يمت، وإنما اختفى فى الجبال القريبة من الرى وسوف يظهر فى آخر الزمان[٤].

أما ابن النديم فقد ذكر روايتين حوله. الأولى تفيد أن إسحاق هذا من نسل الإمام يحيى بن زيد بن على. ثم فرّ هاربًا من بنى أمية إلى بلاد الترك. وادعى الإمامة هناك. واستطاع أن يستفيد من أنصار أبى مسلم، ولقى القبول بين أتباعه. والرواية الثانية ينقلها عن مؤلف مجهول صاحب كتاب "أخبار ما وراء النهر من خراسان". أن أحد البلخيين العَالِم بأمور المسلمّية - أتباع أبى مسلم الخراسانى - يقول إن إسحاق هذا، كان رجلا من أهل بلاد ما وراء النهر، وكان أميًا. وكان له تابع من الجن. وزعم أن أبا مسلم نبى أرسله زرادشت إلى الناس: وأنه حى لم يمت. وسوف يظهر ثانية فى الوقت المناسب ليعيد لديانته منزلتها السابقة[٥].

---

(١) ابن النديم: الفهرست، ص418.

(٢) الشهرستانى: الملل والنحل، جـ2 ص43- 44.

(٣) التفاصيل فى: المسعودى: مروج الذهب، جـ3، ص295- 297. الخطيب البغدادى: تاريخ بغداد، جـ10، ص210.

(٤) الملل والنحل، جـ2، ص55.

(٥) الفهرست، ص419.

على كل حال، اتسعت ثورة إسحاق الترك، وشملت بلاد ما وراء النهر وأصبح يمثل خطرًا حقيقيًا على الخلافة العباسية فى بلاد ما وراء النهر حتى عجز الوالى خالد بن إبراهيم (137- 140هـ) فى القضاء عليها، وقد استمرت الثورة حتى نجح الوالى عبد الجبار بن عبد الرحمن الأزدى (140- 143هـ) فى القضاء عليها[1].

اتباع المُسلُمية: نطرح هنا السؤال السابق، وهو هل نجح العباسيون فى القضاء على ثورة المسلمية قضاءً تامًا؟ أم ظل لهم أتباع يعتنقون مبادئ هذه الفرقة؟

وبعرض هذا السؤال على المصادر التاريخية، تتضح لنا الإجابة فقد ذكر المسعودى: أن أتباع هذه الفرقة قد ظلوا حتى عام (332هـ)، ويطلق عليهم الكردكية واللودشاهية. ويضيف قائلا: وهاتان الفرقتان أعظم فرق المسلٌمية، وأن لهم أتباعًا فى خراسان، وأصبهان وأذربيجان، وغيرها من الأمصار[2]. أما ابن النديم: فإنه يطلق عليهم "الخُرَّم دينَّية". ويقول: "بلغنى أن عندنا ببلخ منهم جماعة يخفون أنفسهم"[3]. ويضيف الشهرستانى: أن فرقة المسلمية تنتشر فى صغد سمرقند والشاش وإيلاق[4].

(6) ثورة المُبيَّضة "سبيد خامكان"

لم يكد يسعد الخليفة المنصور (136- 158هـ/ 753- 744م) بالقضاء على ثورة المسلمية بقتل إسحاق الترك زعيم الثورة، إذ سرعان ما اشتعلت ثورة "المبيضة". ويسميهم الشهرستانى "الأسبيد خامكية"[5] ومعناها: أصحاب الملابس البيضاء، ويبدو من هذا الاسم أنهم خلعوا السواد شعار العباسيين. وكانت فرقة المبيضة امتدادًا لفرقة الراوندية[6] التى حاصرت قصر أبى جعفر المنصور بعد

(١) د. فاروق عمر: العباسيون الأوائل، جـ ١ ،ص 248 .
(٢) مروج الذهب، جـ3، ص298. البغدادى: الفَرق بين الفِرق، ص155 .
(٣) المصدر السابق، ص418- 419. براون: تاريخ الأدب فى إيران، م١ ، جـ2، ص166 .
(٤) الملل والنحل، جـ2، ص55.
(٥) نفس المصدر، والجزء ، والصفحة.
(٦) ابن الجوزى: المنتظم، جـ8، ص92. ابن كثير: البداية والنهاية، جـ10، ص74.

قتله لأبى مسلم الخراسانى، لذا فإننى أرى أن المنصور كان محقًا - سياسيًا - فى التخلص من أبى مسلم، فرجل له كل هذه الشعبية كان يمثل خطرًا حقيقيًا على الدولة. ويقول المسعودى فى وصف الخليفة المنصور: "كان من الحزم، وصواب الرأى، وحُسن السياسة على ما تجاوز كل وصف"[١].

مذهبهم: أما عن مذهب المبيضة. فيقول البغدادى: "فرقة أفرطوا فى أبى مسلم الخراسانى غاية الإفراط؛ وزعموا أنه صار إلهًا بحلول روح الإله فيه؛ وزعموا أن أبا مسلم خير من جبريل وميكائيل وسائر الملائكة، وزعموا أنه حى لم يمت، وهم على انتظاره. فإذا سُئل هؤلاء عن الذى قتله المنصور، قالوا: كان شيطانًا تصور للناس فى صورة أبى مسلم"[٢]. وهكذا، أرى هذه الآراء المضللة دائمًا تطل على هذه البلاد، وتحاول أن تنشر أفكارها المسمومة بين أهلها. وعندما فشلت فى ذلك، قاموا بمهاجمة مسجد مدينة بومجكت ليلًا، وقتلوا المؤذن مع خمسة عشر مصليًا. وعلى رواية النرشخى، فإنهم قتلوا سكان المدينة جميعًا[٣].

وأما الكرديزى فإنه ينسب إلى هؤلاء قتل الوالى خالد بن إبراهيم الذهلى[٤] (137- 140هـ). ومما زاد من خطر الثورة انضمام المقنع إليهم كما سيأتى.

على كل حال، استمرت الثورة حتى كانت خلافة المهدى (158- 169هـ/ 744- 785م) الذى عهد بحكم خراسان للقائد حميد بن قحطبة (151- 159هـ) فأرسل القائد جبريل بن يحيى، وأخاه يزيد للقضاء على المبيضة فى بخارى. ونجح جبريل فى محاصرة مدينة (بومجكت) ثم استولى عليها[٥]، وقتل زعيم الثورة وسبعمائة رجل من أتباعه. بينما فر الباقون إلى المقنع. ثم واصل القائد جبريل زحفه إلى سمرقند ليقضى على فلول الثورة هناك[٦].

---

(١) مروج الذهب، جـ3، ص312.

(٢) الفَرق بين الفِرق، ص155.

(٣) تاريخ بخارى، ص103.

(٤) الكرديزى: زين الأخبار، ص196. وطبقًا لرواية الطبرى وابن الأثير وابن خلدون، فإنه قتل فى ثورة الشيعة عام 140هـ/757م.

(٥) ابن الجوزى: المنتظم، جـ8، ص226.

(٦) البيرونى: الآثار الباقية، ص181. وهو ينقل عن كتاب "فى أخبار المبيضة والقرامطة" لمؤلف مجهول.

(7) ثورة المقنع الخراسانى (150هـ/ 767م)

إذا كان الشيعة قد خمدت أنفاسهم فى بلاد ما وراء النهر، وأمن العباسيون خطرهم، فقد هبت زوبعة عاتية استمرت قرابة ربع قرن من الزمان كادت أن تقتلع الإسلام فى هذه البلاد. وتمثلت تلك الزوبعة فى ثورة المقنع الخراسانى، الذى جهر بدعوته الفاسدة فى بلاد ما وراء النهر عام 150هـ/ 767م. فكانت دعواه هذه بداية نضال استمر لفترة طويلة، وأثار فتنة ظلت آثارها فيما بعد.

يذكر النرشخى: أن المقنع كان أحد قواد خراسان فى ولاية أبى مسلم الخراسانى. وأنه صار وزيرًا للوالى عبد الجبار بن عبد الرحمن الأزدى (140- 143هـ): ثم ادعى النبوة، فأرسل إلى المنصور، فسجنه ببغداد عدة سنوات. ثم أطلق سراحه وعاد إلى مرو[١].

ويضيف فامبرى: أن المقنع قد ادَّعى النبوة فى ولاية أبى مسلم. ولما كان يعلم أن أبا مسلم لا يطيق أى سلطان - بجانب سلطانه - فقد ركن إلى الهدوء؛ حتى قتل أبو مسلم، واشتعلت ثورة المبيضة فى خراسان وبلاد ما وراء النهر، فرأى أن الفرصة قد واتته فانطلق يجهر بنبوته[٢].

مذهبه: ادَّعى المقنع الألوهية، كما ادعى أنه ظهر من قبل فى صورة آدم، ثم صورة إبراهيم وموسى وعيسى ومحمد - عليهم جميعًا الصلاة والسلام - ثم فى صورة أبى مسلم الخراسانى. وهو اليوم على الصورة التى يراها الناس؛ لأنه دخل فى صورة بشر حتى يُرى من أتباعه. فأباح لهم الأموال والنساء[٣]. ومما ساعد المقنع فى نشر مذهبه تلك الاضطرابات التى عمت منطقة خراسان وبلاد ما وراء النهر. وجعلت الطبقات الدنيا تُقبل على دعوته الباطلة.

انتشار مذهبه: اتخذ المقنع من مدينة مرو مقرًا لدعوته، فكان يرسل الدعاة إلى كل مكان. ولما ضاق عليه الحال بمرو، عبر نهر جيحون، ونزل بقرية كش ونسف (نخشب). ويذكر النرشخى، أن رجلا من العرب يسمى عبد الله بن عمر قد

---

(١) تاريخ بخارى، ص95.

(٢) تاريخ بخارى، ص81.

(٣) الرازى: اعتقادات فرق المسلمين والمشركين، ص79.

تبعه هو وأسرته، وكان يدعو لمذهبه[1]. ويضيف أن أول قرية دخلت فى دعوة المقنع هى قرية سوبخ[2] وقد قتلوا أمير المدينة عمرو السوبخى. وانضموا إلى المقنع، وبعد قليل عمت هذه الدعوة الفاسدة بلاد سمرقند، وبخارى، ثم عظمت الثورة فكان الثوار يقطعون الطريق على قوافل المسلمين، وينهبون القرى، ويخربون البيوت.

أما المقنع فقد اتخذ من قلعة سنام[3] - فى كش - مخبأ حصينًا له، أقام فيه طول مدة الثورة، وكان يدير شئونه بواسطة نوابه الأقوياء. ويصف البغدادى هذه القلعة "بأن جدارها كان من آجُرّ، ودونها خندق كبير، وقد اشترك أهل الصغد والأتراك الخُرلُخيّة[4] معه ضد المسلمين"[5].

بداية الحرب ضد المقنع

أصبح المقنع وأتباعه يمثلون خطرًا حقيقيًا على الدولة العباسية وأصبح على الأمير حسين بن معاذ أمير بخارى أن يواجه هذه الخطر المتزايد، فسار بكل قواته ومعه أهل بخارى المسلمون، وعلى رأس الجميع القاضى عامر بن عمران، وذلك فى سنة 159هـ/ 775م قاصدين قرية نرشخ، حيث مركز أتباع المقنع. وتقدم إليهم القاضى محاولًا شرح الدين الصحيح لهم، مبينًا لهم خطأ موقفهم، داعيًا إياهم إلى مقارعة الحجة بالحجة، غيرَ أنهم أجابوه بكل قسوة. قائلين: "نحن لا نفقه ما تقول" وازدادوا كفرًا ونفاقًا، ولم يتقبلوا نصيحة القاضي[6]. وهذا الموقف فيه أكبر رد على المستشرقين الذين يصورون القادة المسلمين فى صورة القتل والبطش والتنكيل بأعدائهم.

---

(١) تاريخ بخارى، ص100.

(٢) سُوْبخ: إحدى قرى نسف. ياقوت: معجم البلدان، جـ3، ص277.

(٣) سنام: قلعة بما وراء النهر. القزوينى: آثار البلاد، ص446.

(٤) الخُرلُخيّة : جنس من الترك،يعيشون فى خيام ، وأكثر ما يأكلون لحوم الصيد، والحديد عندهم قليل،ويسكنون وراء فرغانة.اليعقوبى:البلدان،ص26.

(٥) البغدادى: الفَرق بين الفِرق، ص156.

(٦) ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون. جـ3، ص207.

عندما فشلت لغة الحوار والموعظة، وخاب مسعى القاضى، وأهل الصلاح، نشب القتال، واشتدت الحرب بين المسلمين والثوار، انتهت الجولة الأولى لصالح المسلمين، الذين قتلوا ما يقرب من سبعمائة رجل من الثوار. مما اضطرهم إلى عقد صلح مع المسلمين نص على:

(1) ألا يقطع الثوار الطريق على المسلمين.

(2) ألا يقتلوا من المسلمين أحدًا.

(3) أن ينصرفوا إلى قراهم ويعودوا إلى طاعة الأمير[١].

ثم أخذوا عليهم العهد . ووقّع أعيان المدينة على هذا الصلح. ولكن بعد عودة المسلمين إلى بخارى. نقض الثوار هذا الصلح، وعادوا إلى قتال المسلمين.

وأخذوا فى تخزين الغلال فى حصونهم خوفًا من محاصرة المسلمين لهم[٢].

مواصلة الحرب ضد المقنع

عندما وصلت هذه الأنباء إلى الخليفة المهدى فى بغداد، وعلم فشل أمير بخارى فى القضاء على الثورة أرسل القائد جبريل بن يحيى لمحاربة المقنع فجاء إلى بخارى، وتحرك سريعًا إلى قرية نرشخ، وأمر بحفر خندق حولها. وأحكم الحصار عليها، ونجح فى اقتحام الحصن، وقتل كثيرًا من الثوار. مما اضطرهم إلى طلب الأمان، ثم تعاهدوا على تجديد الصلح السابق. ويذكر النرشخى - على الرغم من الاضطراب الواضح فى روايته - أن الثوار قد حملوا السلاح إلى معسكر المقنع[٣] فى سنام. ويؤكد الطبرى وابن الأثير على أن القائد جبريل قد نجح فى قتل اثنين من قادة جيش المقنع، وهما: حكيم بن أحمد، و"خشوى" بينما فر الثالث وهو "كولا رتكين" إلى المقنع فأخبره بما وقع[٤]. أما القائد جبريل بن يحيى فإنه واصل سيره

---

(١) النرشخى: تاريخ بخارى، ص103.

(٢) النرشخى: نفس المصدر ،ص 105.

(٣) د. شاكر مصطفى: دولة بنى العباس، جـ1 ، ص 292.

(٤) تاريخ الأمم، جـ4، ص548. الكامل، جـ5، ص230.

إلى سمرقند للقضاء على بقايا أنصار المقنع[١]، وعلى الرغم من عظم قواته إلا أنه فشل فى القضاء على أنصار المقنع هناك.

الخليفة المهدى يغير القيادة ويواصل القتال

لم يكن مستغربًا وحالة بلاد ما وراء النهر قد وصلت لهذه الدرجة، أن يستبد القلق بالخليفة المهدي[٢] (158- 169هـ/ 775- 785م)، خاصة وأن جيشه قد فشل فى القضاء على المقنع، مما اضطره للذهاب إلى نيسابور للقضاء على المقنع.

وهناك عزل المهدى عبد الملك بن يزيد (160- 161هـ) حاكم خراسان، وولى مكانه معاذ بن مسلم (161- 166هـ) الذى حضر إلى مرو، ومن هناك تجهز لمواصلة الحرب، وانحدر إلى صحارى جيحون قاصدًا بخارى بقوة بلغت ثلاثة آلاف جندى، مجهزين بما يلزمهم من السلاح والعتاد، ثم يمم وجهه إلى سمرقند. وبعث إليه أمير هراة سعيد الحرشى بعشرة آلاف رأس من الضأن[٣]، ليستعين بها، فى طريقه. وعلى الرغم من كل هذه الاستعدادات، فإن أنصار المقنع نجحوا فى مهاجمة المسلمين فى سهول بيكند، وقتلوا كثيرًا منهم، واضطروهم إلى التقهقر إلى صحارى بخارى مرة ثانية[٤] وعاث أنصار المقنع والأتراك فسادًا، وعادوا إلى السلب والنهب، وأثاروا الذعر بين سكان هذه البلاد.

وأمام هذه الانتصارات المتلاحقة لأنصار المقنع فقد كافأهم برؤيته، وساق لنا النرشخى حديثًا شائقًا عن هذه الواقعة لا بأس من ذكرها هنا - باختصار - لنقف على مدى عقول هؤلاء الناس؛ يقول: كان هناك خمسون ألفًا من الأتباع يرابطون بظاهر باب الحصن وكلهم فى شوق إلى رؤية زعيمهم ولو لمرة واحدة، فأبى المقنع. وبعث إليهم بغلامه ومعه رسالة جاء فيها: "نبئ عبادى أن موسى أراد أن يرانى جهرة فغشى بصره من شدة أنوارى، فلم يرنى. فمن يرنى يحترق بنورى"[٥]، وكان

---

(١) فامبرى: تاريخ بخارى، ص85.

(٢) انظر الحوار الممتع الذى دار بين المهدى وأهل بيته وقادة جيشه حول حرب المقنع فى العقد الفريد، جـ1، ص224 وما بعدها.

(٣) ابن كثير: البداية والنهاية، جـ10، ص130.

(٤) النويرى: نهاية الأرب، جـ22، ص109- 111.

(٥) شاكر مصطفى : دولة بنى العباس ، جـ 1 ص 293 - 294.

جواب أتباعه: نبذل حياتنا عن طيب خاطر فى سبيل تحقيق ما تصبو إليه نفوسنا من التطلع إليك.

ولم يجد المقنع بدًا إزاء إصرارهم من أن يحقق لهم رغبتهم بالخروج إليهم فى يوم معلوم عند الحصن. وفى هذا اليوم اصطف نساؤه داخل الحصن وبيد كل واحدة منهن مرآة تنعكس على صفحتها أشعة الشمس الضاربة. وحين أحكم الأمر، أمر المقنع بفتح أبواب الحصن وكان من الطبيعى أن ينعكس ضوء الشمس على أعين أتباعه، الذين خروا له سجدًا، وهم يصيحون ويسألونه العفو. فبعث إليهم غلامه، ليقول لهم على لسانه: "إنه قد رضى عنهم ووهبهم نعيم الدنيا"[١]. وهذا يدل على ذكاء المقنع، ويدل فى الوقت نفسه على سذاجة هؤلاء بحيث يخيل إليهم مثل هذه الأشياء. تعالى الله عما يقولون علوًا كبيرًا.

ولاية سعيد الحرشى ونهاية المقنع

هكذا، أصبح المقنع خطرًا حقيقيًا أمام الخلافة العباسية، مما اضطر الخليفة المهدى إلى تغيير القيادة للمرة الثالثة، فعزل القائد معاذ بن مسلم، وولى مكانة سعيد الحرشي[٢] - أمير هراة - وأصبح عليه أن يواجه ثورة المقنع الذى استفحل خطره.

كان سعيد على علم تام بمجريات الأمور، فأظهر نشاطًا بالغًا يفوق من سبقه. فبدأ بإقامة البيوت لجنود المسلمين، حتى يقووا على الحرب فى فصل الشتاء القارس[٣]. وطلب مددًا من الخليفة المهدى فأمده بثلاثين ألفًا. تحرك سعيد الحرشى إلى حصن المقنع، وفرض الحصار عليه. واستمر هذا الحصار لمدة عامين كاملين. حتى استسلم له أحد قادة المقنع ومعه ثلاثون ألفًا من المقاتلة. شجع هذا الاستسلام القائد سعيد على إحكام الحصار. وهكذا بات المقنع وأنصاره فى خطر

---

(١) النرشخى: تاريخ بخارى ص107- 108.

(٢) سعيد الحرشى المذكور، بخلاف القائد سعيد الحرشى الذى غزا بلاد الصغد فى خلافة هشام ابن عبد الملك عام (103هـ/ 721م) فالفرق الزمنى بين القائدين كبير جدًا. انظر: اللواء محمود خطاب: قادة الفتح الإسلامى فى بلاد ما وراء النهر، ص374 وعن أعمال هذا القائد العباسى انظر: الكرديزى: زين الأخبار، ص203.

(٣) ابن الأثير: الكامل، جـ5، ص238.

حقيقى، بسبب ما وقع بهم من شدة الجوع، وبعد وقت قصير، أعلنوا الاستسلام جميعًا دون قيد أو شرط[١]. وأصبح المقنع وحيدًا فريدًا داخل قلعته.

وقد أورد لنا النرشخى رواية لطيفة عن هلاك المقنع لا بأس من إيرادها هنا، لأنها تدلنا على هلاك الظالمين. يقول النرشخى عن أبى على محمد بن هارون أحد رجال الدين فى مدينة كش، إنه قال: "كانت جدتى من جملة النسوة اللاتى استأثر بهن المقنع لنفسه، وعندما اشتد به الحصار، ورأى أنه لا فائدة من المقاومة أمر جميع أزواجه بالشرب من الماء التى وضع فيه السُّم، فشربن جميعًا غير هذه المرأة - التى لم يعلم بحالها - ثم ذهب المقنع إلى غلامه فضربه بالسيف، ثم خلع ثيابه وألقى بنفسه فى النار[٢]، وتصاعد الدخان. ولم يُرَ له أى أثر[٣]. ثم فتحت هذه المرأة باب الحصن؛ فدخل سعيد الحرشى والمسلمون الحصن[٤]. وهذه نهاية الظالمين، فعليه غضب الله تعالى وبذلك انتهت ثورة المقنع.

أتباع المقنع

من الغريب أن تبقى هذه الأفكار الفاسدة، والمعتقدات الخاطئة فى خراسان وبلاد ما وراء النهر إلى أزمنة متأخرة. فيذكر صاحب حدود العالم (ت372هـ): أن أكبر عدد لهؤلاء يوجد بين سكان إيلاق والشاش[٥]، ويحدثنا المقدسى (ت378هـ/988م): أنه رأى فى بلاد ما وراء النهر قومًا من هؤلاء ومذهبهم الزندقة[٦]. والبيرونى (ت440هـ/ 1048م) يقول عن المقنع: "وله شيعة بما وراء النهر يدينون بدينه مستخفين فى الظاهر بالإسلام"[٧]، ويضيف الكرديزى (ت443هـ/ 1051م): أنه رأى أتباع المقنع فى بلاد ما وراء النهر[٨].

---

(١) الطبرى: تاريخ الأمم، جـ5، ص566.

(٢) تاريخ بخارى، ص109.

(٣) ابن خلكان: وفيات الأعيان، جـ3، ص231..

(٤) يذكر البيرونى: أنه وجد فى التنور، وقُطع رأسه وأرسل به إلى الخليفة المهدى فى بغداد. انظر: الآثار الباقية، ص181.

(٥) مجهول: حدود العالم، ص84.

(٦) أحسن التقاسيم، ص275.

(٧) المصدر السابق، نفس الصفحة.

(٨) زين الأخبار، ص204.

ويبدو أن هذه الطائفة قد استمرت لأكثر من ذلك. فالنرشخى (ت512هـ/ 1128م) يذكر أن أتباع المقنع فى ولايتَىْ كش ونسف (نخشب)، وبعض قرى بخاري[١]. والسمعانى (ت562هـ) يحدد إقامتهم فى سمرقند بقصر خشتوان وقصر عمير[٢]. ويضيف ابن العبرى (ت685هـ/ 1286م) أن المقنع كان قد وعد أتباعه بأن يظهر روحه فى قالب رَجُل رمادى الشعر، يركب حصانًا رمادى اللون، ثم يرجع إليهم، ويتسبَّب فى سيطرتهم على الكرة الأرضية[٣]. ومن الغريب بعد كل هذه الأحداث أن نجد المستشرق فامبرى يتهم المؤرخين المسلمين، بالافتراء على المقنع وعقيدته[٤]. وهذا - بلا شك - وهمٌ كبيرٌ منه.

وصفوة القول: إن ثورة المقنع كانت تمثل خطرًا حقيقيًا على الخلافة العباسية، وقد نجحوا فى القضاء على هذه الثورة بعد حرب استمرت ما يقرب من خمسة عشر عامًا. وبذلك انحسرت موجة الفتن الدينية بالتدريج. ومن بقى منهم توارى من القوم، وعاد الهدوء والاستقرار إلى بلاد ما وراء النهر.

وبالقضاء على هذه الثورة لا نجد أية ثورات دينية - خلال فترة البحث - فى بلاد ما وراء النهر، ولعل جهود الخليفة المهدى نجحت فى القضاء على أمثال هؤلاء. يقول صاحب الفخرى: "كان المهدى شهمًا فطنًا كريمًا، شديدًا على أهل الإلحاد والزنادقة؛ لا تأخذه فى إهلاكهم لومة لائم"[٥]. ويضيف صاحب "تاريخ الخلفاء": كان المهدى جوادًا ممدوحًا، محببًا إلى الرعية، حسن الاعتقاد، تتبع الزنادقة، وأفنى منهم خلقًا كثيرًا، وهو أول من أمر بتصنيف كتب الجدل فى الرد على الزنادقة والملحدين"[٦].

وفى ختام الثورات الدينية نسوق هنا كلامًا طيبًا للشهرستانى حول هذه العقائد الفاسدة. فيقول فيما يتعلق بهؤلاء الغلاة: "يغالون فى حق أئمتهم إلى حدّ أنهم يعتبرونهم فوق المخلوقات وينسبون إليهم الفضائل الملكوتية والصفات الإلهية،

(١) تاريخ بخارى، ص110.
(٢) الأنساب، ج5، ص10 لفظ "الكاخُشْتَوانى"، وص 189 لفظ "المُبَيِّضى".
(٣) تاريخ مختصر الدول، ص217- 218.
(٤) تاريخ بخارى، ص89.
(٥) ابن طباطبا: الفخرى، ص179.
(٦) السيوطى: تاريخ الخلفاء، ص271.

وهم فى أغلب الأحيان يشـــبِّهون أحـــد الأئمة بالله (تعالى)، وكثيـــرًا ما يرون الله (تعالى) إنسانًا، وبدءُوا يُفْرِطون ويُفرِّطون فى الغلو والتقصير؛ وهم بهذا اللون من التشـــبيهات يُبْرزون ميلهم إلى اعتناق الحلوليَّة (الاعتقاد بأن الله قابل للحلول فى جسم الإنسان) وكذلك يفعل اليهود والنصارى......، وبِدَع الغلاة محصورة فى أربع: التشبيه، والبداء، والرجعة، والتناسخ، وهم ألقاب وبكل بلد لقب[1].

---

(١) الشهرستانى: الملل والنحل، جـ١، ص173- 174.

المبحث الثانى

الثورات السياسية

لم يكد ينجح العباسيون فى فرض سيطرتهم على إقليم خراسان وبلاد ما وراء النهر حتى واجهوا كثيرًا من الثورات السياسية، والتى تزامنت مع الثورات الدينية، مما كان له أكبر الأثر على مصير الأحداث، فى بلاد ما وراء النهر. ومن هذه الثورات:

(أ) ثورة زياد بن صالح الخزاعى (135هـ/ 752- 753م)

بعد أن حقق أبو مسلم الخراسانى النصر الكبير على أعدائه الأمويين ونجح فى قيادة الثورة العباسية فى إقليم خراسان وبلاد ما وراء النهر - كما سبقت الإشارة - واجه ثورة عاتية من بعض عماله الحاقدين عليه مكانته التى تمتع بها فى قلوب أهل خراسان، الذين رأوا فيه زعيمًا دينيًا كبيرًا، بالإضافة لكونه الممثل الشرعى للخلافة العباسية. ومن هؤلاء القائد زياد بن صالح الخزاعى[1]، الذى قضى على ثورة شريك المهرى فى بخارى (133هـ/ 750م) - كما سبق القول - والذى عينه أبو مسلم حاكمًا عامًا على إقليم الصغد مكافأة له.

---

(1) زياد بن صالح الحارثى (135هـ =752 م): كان والى الكوفة عند قيام العباسيين فى خراسان والعراق. ولما عظم أمرهم خرج برجاله إلى الشام (سنة 132 هـ) فأقام إلى أن انتظم الأمر لبنى العباس، فخرج عليهم فى ما وراء النهر، وتبعة جمع كبير من أنصار الأمويين،وقتله أبو مسلم الخراسانى.البلاذرى: أنساب الأشراف،ج2،ص 31. الزركلى: الأعلام ، جـ 3 ، ص 45.

فبعد عودة أبى مسلم إلى مرو، أعلن زياد استقلاله ببخارى، وانضم إليه أهل كش وشاغر[1]. فأرسل خالد بن إبراهيم الذهلى أحد نقباء بنى العباس وحاكم طخارستان فى ذلك الوقت، نصر بن راشد للاستيلاء على مدينة ترمذ[2] وذلك لموقعها المهم على نهر جيحون، وأعلنت هى ومدينة الطالقان الانضمام إلى زياد بن صالح، فقتلوا نصر بن راشد، وغنموا متاعه، واستولوا على جيشه.

لم ييأس خالد بن إبراهيم، فأرسل إليهم القائد عيسى بن ماهان، وأمده بما يلزمه من العتاد، ونجح عيسى فى القضاء على الثورة، وأعلن استيلاءه على ترمذ. ولكن الثورة ظلت مشتعلة فى بخارى، وعندما وصلت هذه الأنباء إلى أبى مسلم فى مرو - وكان بصحبته سباع بن النعمان الأزدى - عبر نهر جيحون عند مدينة آمل، متوجهًا إلى بخارى لمواجهة زياد بن صالح.

وقبل أن نواصل الحديث عن هذه الحملة، لنا وقفة مع آراء المؤرخين فى قضية سباع بن النعمان الأزدى. فقد ذكر الطبرى وابن الأثير أن سباع هذا قد أرسله أبو العباس السفاح للقضاء على ثورة زياد بن صالح فى بخارى. وأوصاه "إن رأى فرصة أن يثب على أبى مسلم فيقتله"[3] وتمضى الرواية فتذكر أن أبا مسلم قد علم بهذه الوصية، فحبس سباعًا بمدينة آمل. وعندما تقدم إلى بخارى وسأل عن سبب ثورة زياد بن صالح، أخبره بعض قواد زياد أن سباع هو الذى أغراه بالثورة فكتب أبو مسلم إلى عامله بمدينة آمل يأمره بقتل سباع.

أقول، يبدو الاضطراب، واضحًا فى هذه الرواية من عدة وجوه:

---

(١) شاغر: من قرى بخارى. ياقوت: معجم البلدان، جـ2، ص272.

(٢) تَرمِذ: مدينة حسنة؛ تقع على الضفة الشمالية لنهر جيحون بالقرب من مصب نهر سُرْخان. ويقول السمعانى إن أهلها ينطقون باسمها تَرميذ. وفى العصر الحديث وبالتحديد فى عام 1894م بنى الروس حصن ترمذ الذى على مسيرة خمسة أميال من أطلال ترمذ القديمة. وفى عام 1916م، فُتح الخط الحديدى الممتد بين بخارى وترمذ. ودمرت المدينة أثناء الثورة الروسية ثم أعيد بناؤها من جديد، وتسمى حاليًا ترمز.السمعانى: الأنساب ،جـ1 ،ص 459. دائرة المعارف الإسلامية، مادة ترمذ، م9، جـ69، ص286-290.

(٣) تاريخ الأمم، جـ4، ص371. الكامل، جـ5، ص96.

أولًا: إن سباع بن النعمان هذا، ذكر الطبرى وابن الأثير والدينورى؛ أنه كان واليًا على سمرقند[1] من قِبَل أبى مسلم أثناء الثورة، فمتى وصل سباع إلى أبى العباس السفاح فى الأنبار؟!.

ثانيًا: لابد أن تكون وصية السفاح لسباع والذى أمره فيها بقتل أبى مسلم لا بد أن تكون قد تمت سرًا بين الاثنين. فما كان السفاح يأمن جانب أبى مسلم، خاصة وهو يعلم أن الثورة العباسية قد قامت على عاتقه، وتمت تحت سمعه وبصره، ويعلم كذلك مدى حب الجنود له[2]. ومما يقوى هذا الرأى. أن بعض المصادر ذكرت أن أبا جعفر المنصور عندما حضر إلى أبى مسلم فى خراسان سنة (132هـ)، ورأى مكانته عند الجند، عاد فأوصى أخاه السفاح بقتل أبى مسلم. فأوصاه السفاح أن يكتم هذا الأمر، ولا يحدث به أحدًا خوفًا من أن يصل الكلام إلى أبى مسلم[3]. أقول، متى وصل سباع إذًا للسفاح فى الأنبار حتى يدور بينهم هذا الحديث الذى يوصيه فيه بقتل أبى مسلم؟!

ثالثًا: من الغريب أن الرواية نفسها تذكر أن سبب ثورة زياد، إغراء سباع بن النعمان له. وهكذا يبدو لنا أن سباع هو البطل الحقيقى لهذه الثورة، فهو حاكم لمدينة سمرقند من قبل أبى مسلم الخراسانى، وفى الوقت نفسه يذهب إلى الأنبار لمقابلة الخليفة السفاح، فيأمره بالقضاء على ثورة زياد بن صالح ويقتل أبى مسلم الخراسانى، كما أنه فى بخارى يغرى زياد بن صالح بالثورة ضد العباسيين. أظن أن الرواية لا تتفق مع الأحداث، ولا مع العقل.

على كل حال، عبر أبو مسلم نهر جيحون، قاصدًا بخارى للقضاء على ثورة زياد. وعندما وصل إلى المدينة، كان من الطبيعى أن يلتف الجنود حوله – وذلك لما تمتع به من شخصية جذابة، قوية، مؤثرة، تغرى كل من خرج عليه بالوقوف معه – ويتفرقوا عن زياد، الذى صار وحيدًا، ففر إلى حاكم ياركث[4] الذى أمَّنه، وبعد قليل – خوفًا من العباسيين – قتله وأرسل برأسه إلى أبى مسلم فى بخارى[5].

(١) نفس المصدر والجزء، ص365. ابن الأثير: نفس المصدر والجزء، ص74، الأخبار الطوال، ص527.

(٢) ابن قتيبة: عيون الأخبار، جـ1، ص134. ابن خلكان: وفيات الأعيان، جـ3، ص120.

(٣) ابن قتيبة: الإمامة والسياسة، ص360– 368. ابن الجوزى: المنتظم، جـ7، ص313.

(٤) ياركث: قرية من قرى أشروسنة، ثم حولت إلى سمرقند. ياقوت: معجم البلدان، جـ1، ص320.

(٥) الطبرى: تاريخ الأمم، جـ4، ص371. ابن الأثير: الكامل، جـ5، ص96.

ثم توجه خالد بن إبراهيم الذهلى للقضاء على فلول الثورة، فنجح فى القضاء على ثورة الطالقان وكش[1]. وأرسل جنده إلى مدينة شاغر، وفرضوا عليها الحصار، حتى أعلنوا الاستسلام، وطلبوا الصلح، فأجابهم وأعطاهم الأمان، وعندما اطمأن أبو مسلم على الأوضاع فى بلاد ما وراء النهر عاد إلى مقر حكمه فى مرو.

(2) حركة أهل طخارستان (132هـ/ 750م)

نشبت ثورة أهل طخارستان ضد العباسيين، وللأسف لم تمدنا المصادر بالتفاصيل اللازمة حول هذه الثورة. ولكن يبدو من كلام الدينورى أن قائد هذه الثورة يُدعى منصور (هكذا). وقد نجح القائد المغلّس بن السَّرى فى القضاء على هذه الثورة، أما قائد الثورة، فقد فرّ مع نفر من أصحابه، حتى ماتوا عطشًا فى الصحراء[2].

(3) حركات الأمراء المحليين ضد الخلفاء العباسيين

بتولى أبى جعفر المنصور الخلافة العباسية (136- 158هـ/ 753- 774م) وتخلصه من ألد أعدائه أبى مسلم الخراسانى (ت137هـ/ 755م) كان من الطبيعى أن يوجه أنظاره إلى بلاد ما وراء النهر، فأرسل الليث بن نصر بن سيار - مولى أمير المؤمنين - إلى إقليم فرغانة، وكان أميرها يومئذ يُدعى (قبران بن أفراكفون). وكان مقيمًا آنذاك بمدينة كاشغر وبعد حروب طويلة بين الجانبين طلب ملك فرغانة الصلح. فوافق الليث بشرط أن يؤدى جزية ضخمة من الأموال. وجدير بالذكر، أن هذا الأمير أوفد من قبله سفيرًا يدعى (باتيجور) إلى الخليفة المنصور، والذى عرض عليه الإسلام. فأبى قائلا: "لا أخون الملك الذى وجَّهنى"[3]. وقد ظل فى الحبس فى سجن بغداد - لأسباب لم يذكر المؤرخون عنها شيئًا - حتى كانت خلافة المهدى فأطلق سراحه.

---

(١) ابن الجوزى: المصدر السابق، نفس الجزء، ص326. ابن كثير: البداية والنهاية، جـ10، ص56.
(٢) الدينورى: الأخبار الطوال، ص546.
(٣) تاريخ اليعقوبى، جـ2، ص271.

وفى خلافة المهدى (158- 169هـ/ 744- 785م) وفى أثناء ثورة يوسف البَرْم - التى سبق الحديث عنها - أرسل المهدى أحمد بن أسد[١] بحملة جديدة على إقليم فرغانة ففتح مدينة كاسان- والتى صارت مقرًا للملك - واستعاد نفوذ العباسيين على الإقليم[٢].

وأعقب المهدى هذه الحملة بحملات أخرى على هذا الإقليم، كان يدعوهم فيها إلى طاعته. وفى إشارة من اليعقوبى - لم نجدها عند غيره من المؤرخين - يذكر الملوك الذين أعلنوا الولاء مرغمين للخليفة المهدى، وهم: ملك كابل شاه وملك الصغد، وملك طخارستان، وملك فرغانة، وملك أشروسنة، وملك الترك الخَزْلُخية، وملك التُّبتّ، وملك التغزغز، وإمبراطور الصين[٣].

ويبدو أن هذه الطاعة لم تدم، ففى خلافة الرشيد (139- 170هـ/ 756- 786م) أرسل الوالى الغطريف بن عطاء[٤] الكندي[٥] (175- 177هـ/ 792- 793م) حاكم خراسان، القائد عمر بن جميل إلى فرغانة لمحاربة جبغويه[٦] ونجح عمر فى القضاء عليه وطرده خارج البلاد. وبعد عزل الغطريف[٧] وتولية الفضل بن يحيى البرمكى حكم خراسان (177- 179هـ/ 794- 795م) غزا بلاد ما وراء النهر. وقام بعدة حملات عسكرية كُلِّلت بالنجاح حتى دان له بالطاعة ملوك بخارى وأشروسنة

---

(١) أحمد بن أسد بن سامان (250 هـ = 864 م):
من أمراء السامانيين فيما وراء النهر،كان فاضلا،ولاه المأمون فرغانة،وكان أحسن إخوته سيرة. ومات بفرغانة فى ولاية عبد الله بن طاهر بن الحسين.ابن خلكان: وفيات الأعيان ،جـ5،ص161. الصفدى:الوافى بالوفيات،جـ2،ص 203.

(٢) اليعقوبى: نفس المصدر ونفس الجزء، ص278.

(٣) د. شاكر مصطفى : دولة بنى العباس ، جـ 2 ، ص 278 .

(٤) الغطريف بن عطاء: أخو الخيزران ،خال الهادى والرشيد،ولى خراسان للرشيد سنة(175هـ) بعد العباس بن جعفر ،ثم عزله سنة (176هـ) وولاها حمزة بن مالك بن الهيثم.الخطيب البغدادى:تاريخ بغداد،جـ1،ص 36.

(٥) عن ولايته انظر: ابن الجوزى: المنتظم، جـ9، ص10. ابن الأثير: الكامل، جـ5، ص288. ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، جـ3، ص218- 221.

(٦) الكرديزى: زين الأخبار، ص207. ويسميه (جيبويه).

(٧) يعلل اليعقوبى سبب عزل الغطريف إلى ضعف شخصيته واضطراب البلاد فى عهده، تاريخ اليعقوبى، جـ2، ص286.

"الذى لم يخضع لأحد قبل ذلك"[١] - على قول الكرديزى - أما ابن الأثير فيقول: "فحضر عنده صاحب أشروسنة وكان ممتنعًا"[٢]، ويضيف اليعقوبى: أنه أخضع ملك الطالقان وملوك الترك[٣].

وفى خلال مُقام المأمون بخراسان (198- 218هـ/ 813- 833م) بعد أن وصله كتاب أمير المؤمنين الرشيد بتوليته: "خراسان بثغورها وكورها وأجنادها وخراجها وطرازها وبريدها، وبيوت أموالها وصدقاتها وعشورها، وجميع أعمالها فى حياته وبعد موته"[٤] اضطر لإرسال جيشه لمحاربة الصغد، وفرغانة، وأشروسنة، حتى أذعن له الجميع بالولاء وقدم له الحكام المحليون فروض الطاعة [٥]. ويذكر ابن الأثير: أن المسلمين قاموا بحملة على مدينة كولان[٦] - من بلاد الترك - عام 194هـ/ 810م - وهى الآن مدينة طرطى Tartri من مركز أوليا أتا Aulie ata[7] - وقد استُشهد فى هذه الحملة الزاهد شقيق بن إبراهيم البلخي[٨].

وكان على المأمون قبل أن يبدأ صراعه مع أخيه الأمين (195هـ/ 811م) أن يواجه عدة مشكلات خارجية، ومنها: أن جبغويه حاكم فرغانة أعلن العصيان، وامتنع عن طاعة المأمون، وانضم إليه خاقان ملك التبت. أما ملك كابل فقد استعد للغارة على بلاد المسلمين التى تليه. ورفض أمير أترار دفع الجزية التى كان يؤديها للمأمون من قبل.

وهكذا؛ بات المأمون فى موقف عصيب، لدرجة جعلته يفكر فى ترك خراسان لأخيه محمد الأمين، ويذهب إلى خاقان ملك الترك يستنجده ضد أخيه. ومن

---

(١) زين الأخبار، ص208.
(٢) الكامل، جـ5، ص305 .
(٣) تاريخ اليعقوبى، جـ2، ص286.
(٤) الطبرى: تاريخ الأمم، جـ4، ص646.
(٥) البلاذرى: فتوح البلدان، ص565.
(٦) كُولان: بليدة فى حدود بلاد الترك ناحية ما وراء النهر. ياقوت: معجم البلدان، جـ4، ص494.
(٧) بارتولد: تركستان، ص323.
(٨) ابن الأثير: الكامل، جـ5، ص370.

حُسّن حظ المأمون ظهور ذى الرئاستين الفضل بن سهل[١] ووقوفه إلى جواره. حيث أشار عليه بالأصلح، فأمره أن يكتب إلى جبغويه، وخاقان فيوليهما بلادهما. وأن يبعث إلى ملك كابل بعض الهدايا من خراسان، وأن يترك لملك أترار الجزية عامًا بأكمله[٢] وهذه خطة ذكية تدل على عبقرية الفضل بن سهل. فقد أمن المأمون من أعدائه، ليتفرغ لحربه ضد أخيه الأمين. يقول ابن الأثير: "فعرف المأمون صدقه (يعنى الفضل)، ففعل ما أشار به. فرضى أولئك الملوك العصاة"[٣]. وبعد أن نجح المأمون فى التخلص من أخيه الأمين، واستقرت له الأمور فى إقليم خراسان عدل عن سياسته الخارجية - السابقة - وأعاد سيطرته على هذه الأقاليم مرة ثانية. يقول الكرديزى: "وعدل بين الناس. وكان يأتى كل يوم إلى المسجد الجامع فى مرو، ويقضى المظالم. ويستمع إلى شكاوى الناس وينصفهم"[٤].

وهكذا نستطيع القول، إن المأمون قد نجح فى سياسته الخارجية - خلال ولايته لخراسان - فقد استطاع أن يهادن أعداءه، حتى تخلص من أخيه الأمين، ثم التفت إليهم، وأعادهم إلى الطاعة. وهذا من ذكاء المأمون. يقول صاحب الفخرى: "اعلم أن المأمون كان من عظماء الخلفاء، ومن عقلاء الرجال"[٥]، ويضيف السيوطى: "كان أفضل رجال بنى العباس: حزمًا، وعزمًا، وحلمًا، ورأيًا، ودهاء، وهيبة، وشجاعة، وسؤددًا ... ولم يَلِ الخلافة من بنى العباس أعلم منه"[٦] وبعد أن اطمأن المأمون على أحوال خراسان رحل إلى بغداد.

---

(١) الفضل بن سهل السرخسى (154 -202 هـ = 771 - 818 م): وزير المأمون وصاحب تدبيره اتصل به فى صباه وأسلم على يده (سنة 190 هـ) وكان مجوسيًا. وصحبه قبل أن يلى الخلافة، فلما وليها جعل له الوزارة وقيادة الجيش معًا، فكان يلقب بذى الرياستين (الحرب والسياسة)، وكان حازمًا عاقلا فصيحًا. الجهشيارى: الوزراء والكُتّاب، ص305. ابن خلكان: وفيات الأعيان، جـ3، ص529. الذهبى: سير أعلام النبلاء، جـ1، ص 99.

(٢) ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، جـ3، ص232.

(٣) الكامل، جـ5، ص367.

(٤) زين الأخبار، ص213.

(٥) ابن طباطبا: ص216.

(٦) تاريخ الخلفاء، ص306.

أما عن أحوال خراسان وبلاد ما وراء النهر، بعد رحيل المأمون، فقد عاد إليها الاضطراب. ففي ولاية غسان بن عباد (201- 205هـ/ 816- 821م) وقعت بالبلاد مجاعة عظيمة[1] عام (201هـ/ 816م) عمت أقاليم خراسان وأصبهان والري[2]. أعقبها زلزال مدمر عام (203هـ/ 818م) عم بلاد ما وراء النهر، وبلخ، والجوزجان، والفارياب، والطالقان، وهلك فيه خلق كثير[3]. يقول ابن الجوزي: "أصاب أهل خراسان مجاعة، وعزَّ الطعام، ووقع الموت"[4].

يُفهم من كلام المؤرخين أن المجاعة التي شملت بلاد خراسان، ترجع إلى الزلزال المدمر الذي ضرب البلاد. ولكن يبدو لي أن الزلزال لم يكن وحده المسئول عن هذا الخراب الذي عم هذه البلاد. بل يرجع إلى الاضطراب الذي ساد البلاد عقب رحيل المأمون إلى بغداد. حيث امتنعت بلاد ما وراء النهر عن إرسال الغلال إلى إقليم خراسان، منتهزين ضعف شخصية الوالي غسان بن عباد. يقول اليعقوبي: "وكانت خراسان قد استقامت، وأعطى ملوكها جميعًا الطاعة، ولم تبقَ ناحية من نواحي خراسان يخاف خلافها. فلما فصل المأمون عن خراسان، قلت المداراة، وضعف الأمراء في تدبير الأمور"[5].

وجدير بالذكر: أن ظهور السامانيين - لأول مرة في التاريخ - يرجع إلى عهد الوالي غسان بن عباد الذي ولّى أبناء أسد الساماني بلاد ما وراء النهر. فقد ولى أحمد بن أسد فرغانة، وأخاه نوحًا سمرقند، وأخاه يحيى الشاش[6]. وقد نجح هؤلاء - إلى حد كبير - في القضاء على الفتن والقلاقل التي عمت الإقليم، ونجحوا - كذلك - في تجنيب البلاد خطر المجاعة.

---

(١) الطبري: تاريخ الأمم، جـ5، ص153 ويرجع توليته للحسن بن سهل، ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، جـ3، ص249.

(٢) الكرديزي: زين الأخبار، ص214.

(٣) ابن الأثير: الكامل، جـ5، ص440- 451. ابن كثير: البداية والنهاية، جـ10، ص243.

(٤) المنتظم، جـ10، ص100.

(٥) تاريخ اليعقوبي، جـ2، ص318.

(٦) الكرديزي: زين الأخبار، ص214. النرشخي: تاريخ بخاري، ص112.

وبذلك نستطيع القول، إن بلاد ما وراء النهر قد عادت إلى طاعة الخليفة المأمون مرة ثانية، ولم يشذ عن ذلك سوى إقليم أشروسنة. فقد ذكر البلاذرى وابن الأثير، فى أحداث عام (207هـ/ 823م) أن الخليفة المأمون وجه أحمد بن أبى خالد الأحول إلى بلاد ما وراء النهر لإخضاع إقليم أشروسنة، وسبب هذه الحملة[١]، أن أمير أشروسنة ويدعى كاوس (ابن الملك الذى قدم الطاعة للفضل بن يحيى البرمكي) كان يدفع الجزية للمأمون أثناء مقامه بخراسان، ولكنه امتنع بعد رحيل المأمون إلى بغداد. وبعد ذلك بقليل اندلع القتال بين أفراد الأسرة الحاكمة بسبب قتل حيدر بن كاوس رجلًا من كبار النبلاء - وكان هذا الرجل صهر أخيه الفضل، مما اضطر حيدر إلى الهروب إلى المأمون فى بغداد لطلب المساعدة منه. وكان رد أخيه الفضل أنكى فقد فتح أبواب المدينة للترك التغزغز عام (205هـ/820- 821م). وعندما علم المأمون بذلك وجه القائد أحمد بن أبى خالد بجيش عظيم إلى أشروسنة، كان دليلهم فيها حيدر بن كاوس. الذى نجح فى الوصول إلى المدينة من طرق قصيرة لم يعرفها المسلمون من قبل. وفوجئ الأمير كاوس وابنه الفضل بجيش المسلمين، الذى أجبرهم على الاستسلام[٢]. وفتح أحمد بن خالد المدينة، وأرسلهما إلى المأمون فى بغداد. فاعتنق كاوس الإسلام[٣] وتم الاعتراف به حاكمًا رسميًا على إقليم أشروسنة.

ثم خلفه فى الحكم ابنه حيدر[٤]، الذى عُرف بعد ذلك فى عصر الخليفة المعتصم (218- 227هـ/ 833- 841م) باسم الأفشين - وهو لقب أمراء أشروسنة - والذى قتل[٥] فى بلاط المعتصم العباسى سنة (226هـ/ 841م). ومع ذلك فقد ظلت أسرته تتولى مقاليد الحكم فى الإقليم حتى سنة (280هـ/ 893م)، ويذكر المستشرق الروسى بارتولد، أنه يوجد بمتحف الإرميتاج بطرسبرج حاليًا - بالاتحاد السوفيتى

(١) البلاذرى: فتوح البلدان، ص565. ابن الأثير: الكامل، جـ5، ص469.

(٢) ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، جـ3، ص252.

(٣) محمد الخضرى: الدولة العباسية، جـ2، ص282.

(٤) البلاذرى: المصدر السابق، ص566.

(٥) المسعودى: مروج الذهب، جـ4، ص60. الطبرى: تاريخ الأمم، جـ5، ص266- 268. وانظر الآراء المختلفة حول هذه القضية فى . أحمد أمين: ضحى الإسلام، جـ1، ص158.

السابق - عملة تحمل اسم آخر أفشين لأشروسنة وهو سير بن عبد الله(١)، وتاريخ سكها سنة (279هـ/ 892م).

- فإذا انتقلنا إلى خلافة المعتصم (218- 227هـ/ 833- 841م) لم أعثر على حروب تذكر ، ويبدو أن بلاد ما وراء النهر قد خضعت نهائيًا للعباسيين وبدأت سياسة نشر الإسلام بينهم تؤتى ثمارها. ونلخص السياسية الخارجية لبلاد ما وراء النهر فى خلافة المعتصم فى قول بعض المؤرخين: "إنه لم تجتمع الملوك بباب أحد قط اجتماعها بباب المعتصم، ولا ظفر ملك كظفره، أسر الأفشين ملك أشروسنة، وصار إلى بابه ملك فرغانة، وملك إسفيجاب، وملك طخارستان، وملك الصغد"(٢).

(4) ثورة رافع بن الليث بن نصر بن سيار (190هـ/ 806م)

على الرغم من قوة الخليفة الرشيد (170- 193هـ/ 876- 808م) وحزمه، وكفايته يقول صاحب الفخرى: "كانت دولته (عصره) من أحسن الدول، وأكثرها وقارًا، ورونقًا، وخيرًا"(٣). ويضيف صاحب تاريخ الخلفاء: "كانت أيام الرشيد كُلها خير، كأنها من حُسنها أعراس"(٤). ولكن ظهر فى أواخر خلافة الرشيد من عكر هذه الأعراس، خاصة فى بلاد ما وراء النهر، وأعنى بها ثورة رافع بن الليث.

نسبه: جده هو القائد الأموى نصر بن سيَّار، المشهور بالشجاعة والإقدام(٥)، والذى سقطت الدولة الأموية بعد هزيمته أمام أبى مسلم الخراسانى - كما سبق القول - أما الليث، فقد دخل فى خدمة العباسيين، حتى إنه كان يحارب فى صفوف الخليفة المهدى ضد المقنع(٦)، ويبدو أن أسرة نصر كانت قد وطنت نفسها على قبول سيادة العباسيين. فقد كان رافع - قائد الثورة - أميرًا على سمرقند.

---

(١) بارتولد: تركستان، ص335.

(٢) السيوطى: تاريخ الخلفاء، ص337.

(٣) ابن طباطبا: الفخرى، ص195.

(٤) المصدر السابق، ص286.

(٥) ابن قتيبة: عيون الأخبار، جـ1، ص115. وكتابه: المعارف، ص231.

(٦) الكرديزى: زين الأخبار، ص201.

أسباب الثورة

اختلف المؤرخون حول أسباب ثورة رافع، فيذكر الطبرى : أن سبب الثورة يرجع إلى أسباب نسائية. وملخصها: إن رافعًا تزوج بامرأة يحيى بن الأشعث بن يحيى الطائى، الذى تركها فى سمرقند وأقام ببغداد[١]، على حين يرجع الدينورى وابن خلدون سبب الثورة إلى ظلم الوالى على بن عيسى بن ماهان (180- 190هـ) حاكم خراسان، "فقد أساء للرعية، وأظهر الجور، واضطهد العرب"[٢]. أما فامبرى، فيرجع سبب الثورة إلى رغبة رافع فى الانتقام من العباسيين الذين قتلوا جده نصر بن سيار[٣] أثناء حروبه ضد أبى مسلم فى خراسان. وبتحليل هذه الروايات، فإننى أرجح رواية الدينورى للأسباب التالية:

أولًا: ليس من المعقول أن تشتعل الثورة فى بلاد ما وراء النهر وتعم إقليم خراسان - كما سيأتى - لمجرد زواج رافع من امرأة رجل غادر البلاد، وأقام فى بغداد، خاصة إذا علمنا أن المرأة قد اشتكت للقاضى، الذى حكم بطلاقها. ثم تزوجها رافع بعد ذلك زواجًا صحيحًا كما ذكر المؤرخون أنفسهم.

ثانيًا: إن رأى فامبرى لا يتفق مع الواقع، لأن عائلة رافع قد دخلت فى خدمة العباسيين. وكان منهم قادة الجيوش، حتى إن رافعًا قد حكم سمرقند. إذ لو أحس العباسيون شيئًا من هذه الكراهية ما قدموا رافعًا ولا أباه لتولى مثل هذه المناصب.

ثالثًا: إذا أضفنا إلى ما سبق، ما اشتهر عن الوالى على بن عيسى بن ماهان من القسوة والظلم، ومصادرة أموال الناس بالباطل، حتى بلغت تركته عند عزله نحو ثمانين مليون درهم[٤] - تأكد لى أن الثورة ترجع فى الحقيقة إلى ظلم وقسوة الوالى على بن عيسى كما ذكر الدينورى وابن خلدون.

---

(١) تاريخ الأمم، جـ4، ص676. ابن الجوزى: المنتظم، جـ9، ص177، ابن الأثير: الكامل، جـ5، ص341.

(٢) الأخبار الطوال، ص571. ابن أعثم : الفتوح ، جـ 4 ، ص 425- 427 .

(٣) تاريخ بخارى، ص90.

(٤) ابن الجوزى: المنتظم، جـ9، ص194.

أحداث الثورة

بدأت ثورة رافع بإعلان العصيان العام ضد الوالى على بن عيسى وعمت الثورة إقليم سمرقند، وانتقلت منها إلى نسف[1] بل إنهم أرسلوا إلى رافع يسألونه أن يوجه لهم من يعينهم على حاكم المدينة، وبالفعل أرسل إليهم الرجال والسلاح، ونجح الثوار فى قتل حاكم المدينة وذلك فى ذى القعدة عام (191هـ/ 807م).

وبمرور الوقت، عمت الثورة جميع بلاد ما وراء النهر، وشملت بلاد الشاش، وفرغانة، وخُجنْدة، وأشروسنة، والصغانيان، وبخارى، وخوارزم، وطخارستان، والختل، ويذكر اليعقوبى أن الثورة امتدت إلى بلخ، والترك الخرلخية، والتغزغز، والتُّبت، وغيرهم[٢]. وقد أرسل الجميع إلى رافع ما يلزمه من السلاح والرجال. ويقدر الدينورى هذا المدد بنحو ثلاثين ألف رجل[٣].

وهكذا، عمت الثورة جميع البلاد، وأصبح على الرشيد أن يواجه الثوار بكل ذكاء، فعزل الوالى على بن عيسى سنة (191 هـ - 807 م) - وهذا يؤكد ما أشرت إليه من أن سبب الثورة الحقيقى يرجع إلى ظلم هذا الوالى - وعيَّن مكانه القائد المحنك هرثمة بن أعين (191- 201هـ) حاكمًا على خراسان.ونجح هرثمة فى تحقيق الانتصار على رافع، حيث حاصره فى سمرقند، ونجح فى فتح بخارى، وأسر حاكمها من قِبَل رافع وهو بشير بن الليث، وبعث به إلى الرشيد الذى أمر بقتله. ولكن يبدو من سياق الأحداث أن هرثمة لم يستطع تحقيق النصر النهائى على رافع، على الرغم من نجاحه الهائل فى الجولة الأولى، بدليل، أن الخليفة هارون الرشيد خرج بنفسه - متوجهًا إلى خراسان ليتولى حرب رافع. ولكن وافته المنية[٤] عند مدينة طوس فى سنة 193هـ/ 809م.

وأصبح على المأمون الذى انفرد بحكم خراسان - على أثر الخلاف الذى نشب بينه وبين أخيه الأمين - أن يواجه رافعًا. فأحكم المأمون سيطرته على إقليم خراسان

---

(١) الطبرى: تاريخ الأمم، جـ5، ص3. ابن الأثير: الكامل، جـ5، ص348.

(٢) اليعقوبى: تاريخ اليعقوبى، جـ2، ص305.

(٣) الأخبار الطوال، ص571.

(٤) الخطيب البغدادى: تاريخ بغداد، جـ14، ص5 وما بعدها.

وبلاد ما وراء النهر. يقول ابن الجوزى: "ثم وضع على مراصد الطرق ثقات من الحراس، لا يجوز عليهم إلا مَنْ لا يدخل الظنة فى أمره، وفُتِّشتَ الكتب"[١]. وهكذا نجح المأمون فى تضييق الحصار على رافع؛ الذى حاول الاستنجاد بجبغويه، وملك الترك الخرلخيه[٢]. فلم ينجح بسبب المعاهدة التى وقعها معهم المأمون، ووهن أمر رافع، فطلب الأمان من المأمون بعد أن سمع بحسن سيرته، فى أهل عمله وإحسانه إليهم. يقول ابن الجوزى: "وبعث المأمون إلى عماله فدعاهم إلى الحق، والعمل به، وإحياء السنة، وحط عن خراسان ربع الخراج، ورد المظالم، وأقام على ولايته"[٣]. وهكذا، انتهت ثورة رافع بدخوله فى طاعة المأمون[٤].

وقبل أن أغادر ثورة رافع بن الليث أشير إلى عدم قبول رواية النرشخى، والتى جاء فيها: إن الرشيد قد عهد إلى أبناء أسد بن سامان (نوح، وأحمد، ويحيى، وإلياس) بمعاونة هرثمة فى القضاء على ثورة رافع. وتمضى الرواية فتذكر أن هؤلاء القادة قد نجحوا فى القضاء على هذه الثورة. وذلك عن طريق الصلح الذى تم بين القائد هرثمة بن أعين ورافع بن الليث. ويختم النرشخى كلامه بقوله: "وفرغ بال الرشيد من هذا الأمر، وكان يخشى أن يستولى رافع على كل خراسان"[٥].

أقول، هذه رواية تخالف جميع الروايات التاريخية التى تحدثت عن ثورة رافع. ويحمل كلام النرشخى على أن الغرض منه هو التقرب إلى السامانيين، وذلك برفع مكانتهم، فى العالم الإسلامى خاصة وقد نجحوا فى القضاء على هذه الثورة التى عمت جميع أقاليم خراسان وبلاد ما وراء النهر، ومن المعلوم أن النرشخى قد ألف كتابه وقدمه للبلاط السامانى، وذلك فى عهد الأمير نوح بن نصر السامانى (331-343هـ/ 943- 954م). ومن المعلوم كذلك أن أول ظهور للسامانيين كان فى ولاية غسان ابن عباد (201- 205هـ/ 816- 821م) وذلك فى خلافة المأمون (198- 218هـ/ 808- 813م) - كما سبقت الإشارة - وليس فى خلافة الرشيد، كما يدعى النرشخى.

---

(١) المنتظم، جـ10، ص5.

(٢) اليعقوبى: البلدان، ص305.

(٣) ابن الجوزى: نفس المصدر، جـ9، ص193.

(٤) الجهشيارى: الوزراء والكتاب، ص279.

(٥) النرشخى: تاريخ بخارى، ص111.

الفصل الثالث

" أحوال بلاد ما وراء النهر من قيام الدولة الطاهرية حتى قيام الدول السامانية "

مقدمة:

المبحث الأول : أحوال بلاد ما وراء النهر تحت حكم الدولة الطاهرية :

1- نَسَب الطاهريين .

2- قيام الدولة الطاهرية.

3- ولاية طلحة بن طاهر.

4- ولاية عبد الله بن طاهر.

5- أحوال بلاد ما وراء النهر خلال تلك الفترة.

6- ولاية محمد بن طاهر وسقوط الدولة الطاهرية.

المبحث الثانى: أحوال بلاد ما وراء النهر من سقوط الدولة الطاهرية حتى قيام الدول السامانية:

1- أصل السامانيين .

2- آل سامان تحت حكم الطاهريين.

3- قيام الدولة السامانية.

4- أحوال بخارى خلال تلك الفترة.

5- مآثر الدولة السامانية.

التمهيـد

اتبع الخلفاء العباسيون منذ بداية عهدهم نظام الحكم المركزى الذى يقضى بتبعية الولايات الإسلامية إلى سلطة الخلفاء فى بغداد، وذلك عن طريق تعيين الولاة على سائر الأمصار. منفذين ما تأمرهم به دولة الخلافة باعتبار أن الخليفة يمثل السلطتين؛ الدنيوية والدينية معًا.

وباتساع أراضى الخلافة العباسية، وتعدد ولاياتها أصبح من الصعب على الإدارة المركزية تحمل الأعباء الثقال خاصة بعد ظهور حركات المعارضة والثورات فى بلدان الخلافة المختلفة، لذا فقد حاول الخلفاء العباسيون تعديل النمط القديم فى نظام الإدارة فاستحدثوا منصب نائب الخليفة وقسموا العالم الإسلامى إلى قسمين: قسم شرقى عاصمته "مرو" فى خراسان، وقسم غربى عاصمته "دمشق" أحيانًا أو "العسكر" فى مصر أحيانًا أخرى. ثم أقرت الخلافة العباسية فى نهاية المطاف تلك النزعة الإقليمية[1]. وأدركت فوائدها فأقامت بنفسها فى إقليم القيروان دولة الأغالبة، لكى تحمل عنها هذه الدولة أعباء المغرب.

هـذا، وقد سرت نفس الروح فى المشرق الإسلامى بعد أن تأكد الخلفاء من أهمية إقليم خراسان، لذا فقد جعل الخليفة المنصور ابنه المهدى قائدًا لإقليم خراسان[2]. وجعل الرشيد المشرق الإسلامى كله لابنه المأمون فكان هذا نوعًا

---

(١) د. حسن أحمد محمود: العالم الإسلامى فى العصر العباسى ،جـ1، ص121.

(٢) فى هذا رد على الدكتور على حبيبه فيما اتهم به الخليفة المهدى حيث قال: "إنه كان شخصًا مترفًا عاش حياته فى النعيم بعيدًا عن التورط فى مسئولية الأحداث من حوله، وإذا كان أبوه حاكمًا مستبدًا أو قائدًا حازمًا لا يرى لأحد من الناس دورًا بعد إبداء الرأى فى أموره، فقد كان المهدى من جملة المبعدين عن المشاركة فى إدارة الدولة فى حياة أبيه". انظر: العباسيون فى التاريخ ، ص108.

من التقسيم يراد به إرضاء الروح الإقليمية مع ربطها بالمركز عن طريق ولاة العهود[1].

وعلى الرغم من ظهور اللامركزية فى الحكم، فإن المشرق يختلف تمامًا عن المغرب، فبينما كانت أقاليم المغرب تتجه إلى الاستقلال التام عن الخلافة العباسية، وتسعى جاهدة إلى الانفصال وإلى تكوين دولة مستقلة بل مناوئة أحيانًا لدولة الخلافة - نجد أقاليم المشرق الإسلامى على العكس من ذلك تمامًا، فنجدها حريصة على البقاء متصلة بالخلافة تتعاون معها ضد الخارجين عليها بل تسعى جاهدة فى إرضاء الخلافة، لذلك نجد أن معظم الدول التى نشأت فى المشرق ترى سلطانها الشرعى مستمدًا من دولة الخلافة، حريصة أشد الحرص على أن تصدر لهم الخلافة براءة التقليد[2].

مما سبق يتضح أن الخلافة العباسية قد حافظت على النظام اللامركزى فى الحكم، وعملت جاهدة فى المحافظة على وحدة أراضى الخلافة وهذه حقيقة لا مراء فيها. وفيها كذلك ردٌّ على قول أحد المؤرخين المحدثين الذى يرى :" أن الوحدة التى تميز بها العصر العباسى الأول لم تستمر طويلا، لأن قيام الدولة العباسية كان يحمل فى ثناياه بذور الانفصال فالدولة منذ قامت كانت تهدف إلى المساواة بين القوميات الإسلامية المختلفة[3]" أقول: إن شعار المساواة الذى رفعته الثورة العباسية ضد الأمويين لم يكن سببًا لظهور الدول المستقلة عن الخلافة العباسية.

على كل حال ، كان إقليم خراسان (وبلاد ما وراء النهر) يمثل أهمية خاصة للخلافة العباسية؛ لذا فقد عُيّن ولمرتين وليًّا العهد (المهدى والمأمون) على هذا الإقليم، الأمر الذى يعكس بوضح مدى أهمية الولاية على تلك البلاد، التى كانت معرضة بصورة مستمرة للثورات الداخلية، والحروب الخارجية.

---

(١) د. حسن أحمد محمود: المرجع السابق، نفس الصفحة .

(٢) د. أحمد الشريف، العالم الإسلامى (العصر العباسى الثانى)، ص45 .

(٣) د. أحمد الشريف: نفس المرجع، ص282.

وأُلخص مهمة ولاة خراسان فى أنهم يجب عليهم تدعيم النظام السياسىّ وجمع كلمة أنصار النظام المتعاونين مع الخلافة وقمع عناصر الفتنة والاضطراب؛ والقضاء على الثورات التى تنشب هناك فضلا عن جمع الخراج، وإرساله إلى مقر الخلافة.

المبحث الأول

أحوال بلاد ما وراء النهر تحت حكم الدولة الطاهرية

"205 - 259هـ/ 820-872م"

بزغ القرن الثالث الهجرى (التاسع الميلادى) ودولة الخلافة العباسية فى أوج ازدهارها، مترامية الأطراف تتخذ من مرو- عاصمة إقليم خراسان- مركزًا تدير منه شئون الخلافة، حيث كان المأمون يستقر هناك. وبعد ست سنوات، وبالتحديد فى عام 204هـ (819م) انتقل المأمون إلى بغداد- بعد قتل الأمين- وعهد بإدارة شئون الإقليم إلى الوالى غسان بن عباد (201- 205هـ/819-821م) الذى فشل فى القضاء على الثورات التى نشبت ضده، ولم يستطع أن يعيد الهدوء والاستقرار لهذه البلاد. لذا فقد رأى المأمون أن يعهد بإدارة شئون هذا الإقليم لقائد كفء، مشهور بإخلاصه وولائه للمأمون، وهو طاهر بن الحسين، فمن طاهر؟ وما أسباب توليته حكم خراسان؟

نسب الطاهريين:

يُنسب الطاهريون إلى رزيق بن ماهان مولى طلحة بن عبيد الله بن خلف الخزاعى والى سجستان من قبل سلم بن زياد (37-93هـ/657- 712م)، وأما مصعب ابن رزيق - جد طاهر- فكان كاتبًا لسليمان بن كثير الخزاعى (109- 111هـ) الداعية

العباسى. وكان مصعب بليغًا فصيحًا(١)، ولى إمارة بوشنج وهراة سنة 159هـ/745م مكافأة له على ما قدمه من أعمال فى نجاح الدعوة العباسية(٢).

فكان خير معين على نجاح الدعوة، وتسيير أمورها إلى النصر(٣)، وفى أثناء ولايته اشترك فى القضاء على ثورة يوسف البَرْم ، والأرجح أن ولاية بوشنج رُدت لمصعب عقب إخماد هذه الثورة.

أما الحسين بن مصعب – والد طاهر – فقد خلف أباه على ولاية بوشنج، ويبدو أن الحسين قد حقق نجاحًا هائلاً فى هذه الفترة، حتى إننى لم أعثر – على قدر علمى على أية ثورة قامت ضده . وجدير بالذكر أن الحسين على الرغم من براعته فى الحكم والسياسة، فكان فى الوقت نفسه كاتبًا بليغًا(٤) وحظى بثقة المأمون، لدرجة أنه حضر جنازته عندما توفى فى سنة 199هـ/ 814- 815م، وبعث إلى ابنه طاهر يعزيه(٥) وكان بالعراق يحاصر الأمين.

فإذا جئنا لطاهر بن الحسين، فإنه ولد فى بوشنج سنة 745/159م أثناء حكم جده مصعب للمدينة ونشأ فيها، والتحق بخدمة العباسيين، شأنه فى ذلك شأن أبيه وجده، واشتهر طاهر بالشجاعة والإقدام؛ واشترك فى ثورة رافع بن الليث، وحقق نجاحًا كبيرًا فيها ثم عهد إليه المأمون بإدارة الحرب ضد أخيه الأمين(٦). فاستطاع أن ينزل الضربات القاصمة بجيش الأمين، وأن يقتل قائده على بن عيسى بن ماهان.ويقضى على الأمين نفسه فى سنة 198هـ /813م، وأن يعيد الهدوء

---

(١) الجهشيارى: الوزراء، والكتاب، ص84.
(٢) ابن خلكان: وفيات الأعيان، حـ2،ص429.
(٣) د. أحمد شلبى: الخلافة العباسية ، جـ3 ، ص346.
(٤) الجهشيارى: المصدر السابق، ص291
(٥) ابن خلكان: المصدر السابق،نفس الجزء، ص429
(٦) يرى الدكتور حسين مؤنس أن سبب الحرب يرجع فى الأساس إلى خطأ المأمون، حيث رفض الاستجابة إلى مطالب الأمين بوصفه صار الخليفة الرسمى للبلاد ويلقى باللائمة على الفضل بن سهل وزير المأمون ويثنى على الأمين بقوله:" ونجد الأمين أمينًا كريمًا حافظًا للواجب" .انظر كتاب: تنقية أصول التاريخ الإسلامى، ص155 وما بعدها.

والسلام إلى مدينة السلام (بغداد)[1] وأن يحقق العدل بين الرعية، وأن يقضى على العبث والاضطراب الذى عم البلاد عقب فتنة الأمين.

قيام الدولة الطاهرية

اختلف المؤرخون قديمًا وحديثًا حول الأسباب الحقيقية لقيام الدولة الطاهرية أعرض بعض هذه الآراء، وأذكر فى النهاية ما يقتضيه البحث، ويتماشى مع روح هذا العصر.

يرى فريق من المؤرخين أن قيام الدولة الطاهرية يرجع إلى خوف طاهر بن الحسين من بطش المأمون، بسبب قتل طاهر لأخيه الأمين، وأن ثمة اتفاقًا عقد بين طاهر وأحمد بن خالد-وزير المأمون- ملخصه:أن يزين الوزير للمأمون خلع غسان ابن عباد،ويولى طاهرًا مكانه مقابل عشرة آلاف ألف درهم (عشرة ملايين) وتؤكد هذه الرواية أن المأمون عقد لطاهر بن الحسين على إقليم خراسان والمشرق[2].

بينما يرى فريق آخر من المؤرخين، أن تولية طاهر بن الحسين ترجع إلى الفتنة التى سادت إقليم خراسان عقب رحيل المأمون إلى بغداد؛ حيث لم يستطع الوالى غسان بن عباد أن يقضى عليها فخاف المأمون أن يضطرب ثغر بلاد ما وراء النهر، ويتهدد نفوذ العباسيين هناك، لذا فقد أصبحت الحاجة ماسة إلى تعيين قائد لإقليم خراسان قوى الشكيمة يعرف هذا المَصْر جيدًا ليعيد إليه الطمأنينة، فلم يجد المأمون سوى القائد طاهر الذى حقق الأمن لأهل بغداد[3] فولاه خراسان.

وينفرد اليعقوبى برواية ملخصها: أن الوزير أحمد بن أبى خالد، كتب على لسان الوالى غسان بن عباد والى خراسان كتابًا إلى المأمون يطلب منه أن يعفيه عن ولاية خراسان. وتمضى الرواية فتذكر أن المأمون اكتشف بعد ذلك مؤامرة وزيره أحمد

(١) ابن طيفور : كتاب بغداد، ص20، ابن الجوزى: المنتظم، جـ10، ص166.

(٢) ابن طيفور: نفس المصدر، ص23، ابن الجوزى: نفس المصدر، نفس الجزء، ص454 .

(٣) ابن الأثير: الكامل، جـ5، ص455 ، ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، جـ3، ص251.

ابن خالد، وذلك بعد حضور غسان بن عباد بين يديه فى بغداد. يقول اليعقوبى: "عندئذ وقف المأمون على تدبير الوزير أحمد بن أبى خالد"[١].

وكما اختلف المؤرخون قديمًا حول الأسباب الحقيقية لقيام الدولة الطاهرية فقد اختلفوا حديثًا. فيرى الدكتور أحمد إبراهيم الشريف: أن قيام الدولة الطاهرية يرجع إلى أسباب ثغرية بمعنى أن الدولة العباسية أقامت الدولة الطاهرية للمحافظة على الثغور الشرقية، ولرد خطر الأتراك المتزايد على تلك المنطقة؛ حيث كانت مهمة "البلاد الواقعة فى أطراف العالم الإسلامى بلاد لها وظائف خاصة، وهذه الوظائف تؤثر فى كيان الثغر؛ فالوظيفة الثغرية هى التى تنشئ فى الثغر دولاً، والحيوية هى التى تدفع الثغور وما فيها من دول إلى الأمام"[٢].

ويرى الدكتور حسين مؤنس أن تولية طاهر بن الحسين لإقليم خراسان ترجع إلى جهود الحسن بن سهل، المعروف بتأييده للفرس، ثم يقول: " وكان الحسن بن سهل أعقل وأذكى وأكثر إنسانية من ابن عمه الفضل وهو والد بوران التى تزوجها المأمون. والحسن بن سهل تمكن من تعيين طاهر بن الحسين بن مصعب واليًا على المشرق كله من العراق إلى أقصى المشرق"[٣].

بينما يرى الدكتور عبد العزيز الدورى: أن تولية طاهر بن الحسين لإقليم خراسان ترجع إلى طموحه الشخصى فى أن يتولى هذا الإقليم بوصفه أهم أقاليم الخلافة. ثم يذكر أن الاستقلال كان برغبة المأمون استجابة لرغبة الفرس فى تكوين إمارات منفصلة عن الخلافة العباسية؛ لأن فى ذلك إرضاءً لطموحهم. حيث يقول: "عرف المأمون شعور الخراسانيين الذين خيب العباسيون آمالهم بعد مجيئهم إلى الحكم ثم خيبها هو ثانية بالرجوع إلى بغداد، فصاروا يشعرون بأن خير طريقة لسعادتهم هى الانفصال"[٤].

---

(١) اليعقوبى: تاريخ اليعقوبى، جـ2، ص320.
(٢) العالم الإسلامى (العصر العباسى الثاني)،ص294.
(٣) تنقية أصول التاريخ الإسلامى، ص196.
(٤) العصر العباسى الأول، ص168.

وصفوة القول، إن هذه الروايات تُرجع تولية طاهر بن الحسين لإقليم خراسان إلى خوف طاهر من بطش المأمون بسبب قتل أخيه الأمين، أو إلى احتيال الوزير أحمد ابن أبى خالد وخداعه للمأمون، أو إلى نظرية الصراع بين العرب والفرس[1].

وبتحليل هذه الروايات يتضح أن معظمها قد خالف الصواب؛ حيث تصور الرواية الأولى المأمون فى صورة الباكى الحزين على قتل أخيه الأمين محاولا إلصاق التهمة بقائده طاهر، ولكن متى ذلك بعد سبع سنوات من قتل الأمين. ثم أيعجز الخليفة المأمون أن يبطش بطاهر بن الحسين فى أى وقت شاء، خاصة إذا علمنا أن الأمور كانت قد استقرت له فى بغداد . وما الغرابة فى ذلك؟ فقد تخلص المنصور من أبى مسلم الخراسانى، المعروف بسطوته، وطاعة الجنود له . كذلك تخلص الرشيد من البرامكة على مسمع من العالم كله وهم وزراؤه وذوو المكانة العليا فى دولته . إذًا؛ هذه الرواية غير مقنعة فلو أراد المأمون أن يبطش بطاهر لفعل، خاصة وأن الخلافة العباسية فى هذا الوقت كانت فى عنفوان شبابها وقوتها.

أما رواية اليعقوبى، فهى تصور المأمون فى صورة الغافل عما يدور فى شئون الخلافة، وتظهر الوزير أحمد بن أبى خالد بصورة الذكى اللبيب الذى استطاع أن يتحايل على المأمون بمثل هذه الدرجة التى تبدو ساذجة. أما رأى الدكتور مؤنس – رحمه الله تعالى – فهو يميل إلى نظرية الصراع بين العرب والفرس، ويُحمِّل الفرس جميع الأخطاء التى وقعت فى خلافة المأمون، بل فى العصر العباسى الأول.

أما رأى الدكتور أحمد الشريف فإننى أميل إليه، بل أضيف قائلًا: إن تولية طاهر بن الحسين لإقليم خراسان ترجع إلى اختلال الأحوال السياسية فى المشرق، وهذا الاختلال يرجع فى المقام الأول إلى تغيير الولاة المستمر[2] فى هذه المنطقة، لذا فقد رأت الخلافة العباسية أن أفضل وسيلة للقضاء على هذا الاضطراب

---

(١) ذكر الدكتور عصام عبد الرؤوف الفقى فى كتابه: الدول الإسلامية المستقلة فى الشرق، ص6 (أن سبب قيام الدولة الطاهرية يرجع إلى استياء الفرس الذين عملوا على استرداد مكانتهم فحاولوا الاستقلال ببعض بلدان الخلافة العباسية،فأقاموا فى شرق الدولة الإسلامية دولا مستقلة عنها).

(٢) اليعقوبى: البلدان، ص307، الكرديزى: زين الأخبار، ص213.

(الثورات – غارات الترك) هو تعيين حكام وراثيين من بين أبناء هذه المنطقة، ممن لديهم إلمام بظروف البلاد، ويتمتعون بثقة سكانها، فكان تعيين طاهر على إقليم خراسان، وبالفعل؛ استطاع طاهر أن يوسع سلطانه بصورة كبيرة، حتى أصبح نائبًا للخليفة على القسم الشرقى من بغداد (مدينة السلام) إلى أقصى عمل المشرق[١] كما يقول ابن الجوزى.

أحوال بلاد ما وراء النهر تحت حكم طاهر بن الحسين

تولى طاهر بن الحسين أعمال المشرق الإسلامى، واستطاع أن يقيم أسرة خاصة به حكمت هذه الأرجاء خلال الفترة من (205 -259هـ / 821 – 872م)، وظلت تعترف بالسيادة العباسية. ونجح طاهر فى جباية خراج البلاد، والقضاء على الفتن والثورات التى نشبت ضده، كما راعى حقوق الدولة فى شئون الحكم والإمارة، وشئون الرعية فى تحقيق العدل فيما بينهم.

وجدير بالذكر، أن طاهرًا أثناء ولايته على خراسان، لم يتبع سياسة العباسيين فى تثبيت الولاة فى بلاد ما وراء النهر بل بالعكس كان يقوم بتغييرهم باستمرار – باستثناء السامانيين –، ولعل ذلك يرجع إلى خوفه من أن يستقل أحدهم بالإقليم، فقد ذكر ابن طيفور أن طاهرًا عزل خالد بن حماد، والعباس بن عبد الله بن حميد ابن رزين[٢]، عندما طلب كل واحدٍ منهم أن ينفرد بحكم بلاد ما وراء النهر.

وجدير بالذكر – أيضًا – أن طاهرًا كان يستخدم مع جنوده أسلوب الشدة، فيذكر ابن طيفور، أن أحد الجنود، ويدعى "أسد بن أبى أسد" رفض الذهاب إلى خوارزم خوفًا من شدة البرد، فقال له طاهر: لعلك تريد أن تفسد عملى، ثم أمر بضرب عنقه[٣]، فاستقام الجند لأوامره.

بهذه الطريقة استطاع طاهر تأسيس دولته بخراسان، وقد وضع لها الخط الذى تسير فيه، وذلك بأن تكون خراسان مستقرًا لنفوذها. وأن يبسطوا نفوذهم

(١) ابن الجوزى: المنتظم، جـ10، ص141.
(٢) كتاب بغداد، ص64.
(٣) نفس المصدر، ص69.

على ما جاورها من البلاد؛ ولكن فى حدود طاعة الخلفاء[1]. وفى الوقت نفسه، استطاع أن يحقق لنفسه صورة من الاستقلال؛ وهى أن يتوارث أولاده السلطة من بعده.

وهكذا؛ استطاع طاهر أن يحكم بلاد المشرق، وأن يحافظ على ثغر بلاد ما وراء النهر، وأن يصد هجمات الأتراك عليه، وكان ذلك يسعد المأمون كثيرًا، حتى قال: "ما حابى طاهر فى جميع ما كان فيه أحدًا، ولا مالأ أحدًا، ولا داهن، ولا وانى، ولا قصر فى شيء، وفعل فى جميع ما ركن إليه ووثق فيه أكثر مما ظن به، وإنه لا يعرف أحدًا من نصحاء الخلفاء وكفاءتهم فيمن سلف عصره، ومن بقى فى أيام دولته على مثل طريقته، ومناصحته، وغنائه"[2].

وفـاة طاهـر

لم يمكث طاهر واليًا على إقليم خراسان وبلاد ما وراء النهر طويلًا، فقد توفى سنة 207هـ/828م، على إثر خطبته يوم الجمعة فى مسجد مرو، والتى لم يدع فيها للمأمون، ومن المعروف أن من مظاهر الولاء فى ذلك العصر، أن يُدعى للخليفة بطول البقاء والنصر على الأعداء على المنابر فى الصلاة يوم الجمعة أو غيرها[3]، وكان ذلك بمثابة إعلان العصيان على الخلافة، يروى صاحب بريد المأمون فى مرو (كلثوم بن ثابت) قال: "حضرت الجمعة فصعد طاهر المنبر فخطب، فلما بلغ إلى ذكر الخليفة أمسك عن الدعاء له"[4]، ودعا للأمة بالصلاح ومعنى هذا أنه أعلن انفصاله التام عن مركز الخلافة واستقلاله.

وتتفق أكثر المصادر على أن المأمون لام وزيره أحمد بن أبى خالد، وأمره بتنفيذ ضمانه[5]، ولكن طاهرًا لاقى حتفه فجأة. وقد اختلف المؤرخون حول طريقة وفاة

---

(١) هذه حقيقة يجب ذكرها؛ لأن فيها ردًا على مزاعم المستشرق بارتولد والذى اتهم آل طاهر بأنهم لم يهتموا إلا بمصالحهم الشخصية أكثر من اهتمامهم بمصالح الخلفاء، انظر كتاب: تركستان من الفتح العربى إلى الغزو المغولى، ص319.

(٢) ابن طيفور: المصدر السابق، نفس الصفحة.

(٣) د.على حبيبة: العباسيون فى التاريخ، ص263.

(٤) ابن طيفور: كتاب بغداد، ص74.

(٥) ابن خلكان: وفيات الأعيان، جـ2، ص427.

طاهر؛ فالبعض يذكر: أن وفاة طاهر كانت طبيعية، فقد أُصيب بالحمى ومات على إثرها[١]، والبعض الآخر: يذكر أن أحمد بن أبى خالد هو المسئول عن قتل طاهر[٢]، وقيل: إن المأمون هو المدبر لهذا الاغتيال[٣].

وعلى الرغم من تعدد الروايات حول وفاة طاهر بن الحسين فإننى أرجح أن تكون وفاة طاهر وفاة طبيعية؛ وذلك لأن آل طاهر ظلوا فى خدمة العباسيين، ولم يفكر أحد منهم فى الاستقلال عن الخلافة العباسية. يضاف إلى ذلك، أن المأمون لو أحس من طاهر ميله إلى الاستقلال ما عهد إلى ابنه طلحة بولاية خراسان والمشرق كله، وقد قابل الطاهريون "ثقة المأمون بالإخلاص من جانبهم، فلم يفكروا بعد ذلك فى الاستقلال عن الخلافة العباسية، بل حرصوا على التعاون معها والاعتراف بسلطانها"[٤]، وعلى ذلك أستطيع القول: إن الذى مكن الطاهريين من القيام بدورهم الكبير فى التمكين للإسلام فى بلاد ما وراء النهر وفاؤهم للخلافة العباسية، واحتفاظهم بعلاقات ودية قوية معها[٥].

ولاية طلحة بن طاهر (702- 312هـ/ 228-828م)

على كل حال، توفى طاهر بن الحسين؛ وخلفه فى الحكم ابنه طلحة فكان خير خلف لأبيه استطاع أن يقضى على فتنة الجنود التى أعقبت وفاة أبيه[٦]، وأن يقضى على ثورة حمزة الخارجي[٧] فى خراسان فى عام 213هـ/828م.

---

(١) د.عبد العزيز الدورى: العصر العباسى الأول، ص169.

(٢) الفخرى: الآداب السلطانية، ص214.

(٣) د.شاكر مصطفى: دولة بنى العباس، جـ2، ص742 وحول هذه الروايات انظر أحمد فريد رفاعى: عصر المأمون، جـ1، ص241 وما بعدها.

(٤) د.أحمد الشريف: العالم الإسلامى (العصر العباسى الثاني)، ص455.

(٥) د.عبد الشافى محمد عبد اللطيف: بحوث ودراسات فى السيرة النبوية والتاريخ الإسلامى، ص290.

(٦) ابن الأثير: الكامل، جـ5، ص469.

(٧) الكرديزى: زين الأخبار، ص215.

وجدير بالذكر؛ أن الحملة التى قام بها أحمد بن أبى خالد على إقليم أشروسنة، وقعت فى ولاية طلحة، وقد أمده بما يلزمه هو وجنده بالسلاح والمال، حتى وصلت نفقات الجيش ثلاثة ملايين درهم(١)، وعاد الاستقرار إلى إقليم أشروسنة.

ظل طلحة واليًا على خراسان حتى عام 213هـ/828م، وتوفى على إثر وجع فى بطنه ودفن فى مدينة بلخ، ورثاه الشعراء(٢).

ولاية عبد الله بن طاهر (213 - 230هـ / 828 - 844م)

يصف المؤرخون عبد الله بأنه "سيدٌ، نبيل، عالى الهمة، شهمٌ"(٣)، كان المأمون كثير الاعتماد عليه(٤)، ولاّه فى حياة أبيه محاربة نصر بن شبث بالرقة، وكانت هذه الثورة قد أرّقت المأمون حتى دعا عبد الله وقال له: إنى أستخير الله منذ شهر وأرجو أن يخير الله لى، ورأيت الرجل يصف ابنه ليطريه لرأيه فيه وليرفعه، ورأيتك فوق ما قال أبوك فيك، وقد رأيت توليتك محاربة نصر بن شبث" فاستجاب عبد الله لأوامر المأمون، واستطاع أن يحاصر نصر وأن يقضى على ثورته، ويرسله أسيرًا للمأمون فى بغداد وكان ذلك فى صفر سنة 210هـ/823م(٥).

وهكذا؛ كان عبد الله مثلًا فى الإخلاص والوفاء للخلافة العباسية، حتى كان المأمون يعول عليه فى القضاء على الثورات التى تنشب فى أنحاء الخلافة، ومنها مصر؛ التى كانت تغلى بالفتن، فقدم إليها عبد الله فى سنة 212هـ/825م، فقضى على الخارجين، وأصلح أحوالها. قال بعض أهل مصر: أقبل إلينا فتى حدث من المشرق (يعنى عبد الله) والدنيا عندنا مفتونة قد غلب على كل ناحية من بلادنا غالبٌ، والناس فى بلاءٍ، فأصلح الدنيا، وأمَّن البريء، وقَمع المفسدين، واستوثق له الرعية بالطاعة(٦)، ولعظم ما قدمه عبد الله للخلافة عندما عاد إلى بغداد خرج

---

(١) اليعقوبى: تاريخ اليعقوبى، جـ2، ص321، ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، جـ3، ص252.

(٢) نماذج من هذه المراثى فى ابن طيفور: كتاب بغداد، ص95- 96.

(٣) ابن خلكان: وفيات الأعيان، جـ3، ص67، البغدادى: تاريخ بغداد، جـ9، ص487.

(٤) ابن عبد ربه: العقد الفريد، جـ2، ص317.

(٥) ابن الجوزى: المنتظم، جـ10، ص149- 150. ابن الأثير: الكامل، جـ5، ص456- 474.

(٦) الكندى: ولاة مصر، ص206، ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة، جـ2، ص191.

العباس بن المأمون والمعتصم وسائر الجنود لاستقباله، وزاد المأمون فى عطائه، وولاه الشام والجزيرة[١].

وكانت خراسان (وبلاد ما وراء النهر)، قد عمتها الفتن، وأشعل الخوارج فيها الثورات، وذلك عقب وفاة طلحة بن طاهر. لذلك رأى المأمون أن يعهد بولاية الإقليم لقائده الكفء عبد الله بن طاهر وذلك فى سنة 213هـ/828م.

وبحضور عبد الله إلى خراسان تبدأ مرحلة مهمة فى تاريخ هذا الإقليم، فعبد الله بن طاهر، واسطة العقد، وغرة فى جبين هذه الدولة، وكما قضى على الفتن والثورات فى مصر، فقد استطاع أن يقضى على ثورات الخوارج، فقام بإرسال جيش قوامه عشرة آلاف مقاتل بقيادة عزيز بن نوح؛ الذى نجح فى القضاء على الثورة[٢]، كذلك حقق عبد الله العدل بين الرعية[٣] حتى سعدت به البلاد، كما سعدت به الخلافة. أورد ابن طيفور: أن المأمون قال يومًا لأصحابه: هل تعرفون رجلًا برع بنفسه حتى مد أهله، وبرز على جميع أهل دهره فى نزاهة نفسه، وحُسن سيرته، فذكر القوم ناسًا فأطروهم، فقال المأمون: ذاك عبد الله بن طاهر؛ غرس يدى وخريج أدبى[٤].

العلاقة بين المعتصم وعبد الله بن طاهر

استمرت العلاقة حسنة بين المأمون وعبد الله بن طاهر، حتى وفاة المأمون سنة(218هـ/833م) وخلفه فى الحكم الخليفة المعتصم (218 - 227هـ/ 833- 841م). ويذكر بارتولد اعتمادًا على رواية الكرديزى، أن العلاقة ساءت بين المعتصم وعبد الله لدرجة أن المعتصم هم بقتله[٥].

ولكنى لا أميل إلى تصديق هذا الرأى، وأقول: إن مكانة آل طاهر لم تهتز فى خلافة المعتصم؛ بل العكس هو الصحيح، وهو أن العلاقة بينهما ازدادت رسوخًا

---

(١) الطبرى: تاريخ الأمم، جـ5، ص166 .

(٢) ابن خلكان: وفيات الأعيان، جـ3، ص67.

(٣) الكرديزى: زين الأخبار، ص216.

(٤) كتاب بغداد، ص92.

(٥) بارتولد: تركستان، ص33، وهى إحدى روايات ياقوت فى معجم البلدان، جـ1، ص200.

وصمودًا واستطاع عبد الله أن يقف أمام الفتن والمؤامرات، والدليل على ذلك: أن عبد الله قد حقق نجاحًا كبيرًا فى القضاء على الثورات التى اشتعلت فى خراسان، وأظهر خلالها تعاونًا صادقًا فى قمع الخارجين على الخلافة، وذلك فى الوقت الذى كان يلقى فيه الدعم المستمر من الخليفة المعتصم. ومن أمثلة هذه الثورات: ثورة محمد بن القاسم بن على العلوى بالطالقان[١]، وثورة المازيار بن قارن فى طبرستان، والذى خرج بتحريض من الأفشين، واستطاع عبد الله كشف المؤامرة، وأطلع المعتصم عليها، وقبض على المازيار وأرسله إلى المعتصم فى سامراء[٢].

ودليل آخر، هو ما أورده ابن طيفور: من أن عبد الله بن طاهر كان يرعى حق الخلافة، ويثنى على بنى العباس بل ينهى آل طاهر عن التحدث فى شأن الخلافة، فكان يقول: إنما نبت شعرنا على رءوسنا ببنى العباس، ولو كان هؤلاء القوم الذى يعزى إليهم هذا الأمر (يعنى الشيعة) فى مكان هؤلاء (يعنى بنى العباس) لكانت الرحمة من الناس لهم، لأن سبيل الناس على ذلك[٣].

وأخيرًا؛ يكفى دليلًا للرد على الكرديزى وبارتولد، ما أورده الطبرى على لسان المعتصم نفسه من أنه كان يتأسف فى أواخر أيامه على اصطناع الأتراك من أمثال الأفشين، وأشناس، وإيتاخ، ويثنى على آل طاهر؛ وخاصة عبد الله بقوله: "فهو الرجل الذى لم يُرَ مثله".

وصفوة القول: إن العلاقة ظلت قوية بين الخليفة المعتصم، وعبد الله بن طاهر، وقد قدر العباسيون خدمات آل طاهر، فقربوهم؛ ومالوا إلى جانبهم، ووقفوا معهم فى صراعهم ضد أعدائهم، وأبقوا شرطة بغداد فى أيديهم حتى سنة 301 هـ على الرغم من زوال ملكهم فى خراسان[٤].

---

(١) التفاصيل فى المسعودى: مروج الذهب، جـ4، ص52- 60، ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، جـ3، ص257.

(٢) ابن الأثير: الكامل، جـ6، ص15، 50، 56.

(٣) كتاب بغداد، ص93.

(٤) د.أحمد الشريف: العالم الإسلامى (العصر العباسى الثاني)، ص456.

أحوال بلاد ما وراء النهر

أما عن أحوال بلاد ما وراء النهر خلال تلك الفترة، فقد أبدى الطاهريون عامة، وعبد الله خاصة اهتمامًا كبيرًا، بجميع مدن ما وراء النهر، وذلك لأنها صارت مدنًا ثغرية للمسلمين أقيمت فى وجه الأتراك لصد خطرهم عن ديار الإسلام. ومن ثم فقد اتخذت هذه المدن المحصنة لتكون أبراجًا لمراقبة الترك؛ وقواعد ينطلق منها المرابطون لرد غاراتهم(١)، لذلك فقد عمل آل طاهر على شحن هذه الربط بالقوة الحربية لتقوم بدور الدفاع عن إقليم خراسان، وتؤدى فى الوقت نفسه مهمتها فى حماية الإسلام على أكمل وجه.

فقد ذكرت المصادر، إنه فى خلال ولاية عبد الله انتشرت ظاهرة احتشاد المرابطين(٢) والمطوعة فيما وراء النهر للمشاركة فى جهاد الأتراك وحماية دار الإسلام؛ وأصبح لهؤلاء المرابطين طائفة تنظم شئونهم وقائد يتمتع بشهرة واسعة، يقول ابن الجوزى عن عبد الله بن طاهر (.... وعمَّر رباطات خراسان، ووقف بها الوقوف، وأظهر الصدقات...وفك أسرى المسلمين من الترك، وبلغ ما أنفقه على الأسرى ألفَىّ ألف درهم.. وكان يوصف بالإنصاف)(٣).

هذا، ولم يقتصر دور الطاهريين على بناء الربط فقط، بل قاموا بكثير من الحملات العسكرية على بلاد الترك؛ ومنها: الحملة التى قادها عبد الله بن طاهر على بلاد الغز (الغزية) واستطاع أن يفتح "أماكن لم يبلغها أحد قبله"(٤) على حد تعبير البلاذرى، ونجح كذلك فى فرض سيطرته على مدن: كاسان، وأورشت – من إقليم فرغانة – وذلك بعد نقضهم الصلح مع المسلمين، كما نجح عبد الله فى تأمين مدينة إسفيجاب؛ حيث أمر ببناء "سور ضخم يحيط بكروم أهلها ومزارعهم"(٥)، ولم تكتف جيوشه بذلك، بل بلغت أعمالهم العسكرية تأمين إقليم خوارزم(٦).

---

(١) د. عبد الفتاح مقلد الغنيمى: الإسلام فى جمهوريات آسيا الوسطى، ص70.

(٢) السمعانى: الأنساب، جـ3، ص39 – 40 لفظ "الرباطى"، وانظر: د فاروق عمر: العباسيون الأوائل، جـ2، ص49.

(٣) المنتظم، جـ11، ص159 – 160.

(٤) فتوح البلدان، ص566.

(٥) ابن الأثير: الكامل، جـ5، ص59.

(٦) د حسن أحمد محمود: الإسلام والحضارة العربية، ص142.

وهكذا؛ أستطيع القول؛ إن آل طاهر قد أدوا دورهم أحسن أداء فى حماية الأقاليم الشرقية بما فيها بلاد ما وراء النهر، وصارت مدن: بخارى، وسمرقند، وفرغانة - فى عهدهم - ثغورًا إسلامية تعيش فى حمايتهم، وذلك مما دعا الخلفاء العباسيين إلى التمسك بهم طوال أكثر من خمسين عامًا.

انعكست السياسة الخارجية الراجحة لبنى طاهر على الأوضاع الداخلية، فانصرفوا إلى الإصلاحات الداخلية بصورة لم تكن معهودة من قبل، فعملوا على كسب ولاء جماهير المسلمين لهم، وذلك لعنايتهم بالطبقات الدنيا ضد تعسف الطبقات العليا، فاهتموا بأحوال الفلاحين؛ وعملوا على رعاية مصالحهم[١]، كما شجعوا الحركة العلمية فى إقليم خراسان وبلاد ما وراء النهر على أن تمضى فى طريقها تحت رعايتهم، يقول عبد الله بن طاهر: "يجب أن يعطى العلم لأهله ولغير أهله؛ لأن العلم أمنع من أن يثبت مع غير أهله"[٢]، ولا غرابة فى ذلك، فقد عرف آل طاهر بحبهم للعلم.

نعود إلى بغداد، فنجد أن الخليفة المعتصم قد فارق الحياة فى سنة 227هـ/841م، وخلفه ابنه الواثق (227-232هـ/ 841- 846م) الذى جدد عهد عبد الله بن طاهر على خراسان، ولكن لم يستمر عبد الله فى الحكم طويلًا، فقد فارق الحياة بعد ثلاث سنوات من وفاة المعتصم، وكان عمره ثمانية وأربعين عامًا[٣]، وكان أحد الأجواد الأسخياء[٤]، "ضبط خراسان وبلاد ما وراء النهر - كما يقول اليعقوبى - ضبطًا ما ضبطه أحد مثله، ودانت له البلاد، واستقامت عليه الكلمة[٥]".

ولاية طاهر بن عبد الله بن طاهر (230 - 248هـ/ 841 - 862م)

رأى الواثق أن يستمر على سياسة الوفاق مع الطاهريين فولى طاهر بن عبد الله حكم خراسان، وما وراء النهر خلفًا لأبيه، والمؤرخون يتحدثون عن أيام

(١) د شاكر مصطفى: دولة بنى العباس، جـ1، ص146.
(٢) الكرديزى: زين الأخبار، ص217.
(٣) المسعودى: مروج الذهب، جـ4، ص76.
(٤) نماذج من كرمه فى ابن خلكان: وفيات الأعيان، جـ3، ص68- 73.
(٥) تاريخ اليعقوبى، جـ2، ص338.

حكمه، وعن أخلاقه الكريمة بقدر من التبجيل والاحترام، يقول الكرديزى: "وكان عفيفًا خيرًا"[١]، استوطن نيسابور، وظل حاكمًا على الإقليم ثمانى عشرة سنة[٢].

وعلى ذلك فيكون طاهر قد حكم طوال خلافة الواثق، والمتوكل، والمنتصر، وبعض خلافة المستعين، مما ينهض دليلًا على حُسن العلاقة بين العباسيين وآل طاهر، وذلك على الرغم من الظروف السيئة التى كانت تعانى منها الخلافة فى بغداد، بسبب تغلغل الأتراك فى شئون الحكم.

وللأسف لم تمدنا المصادر – على قدر علمى – بمعلومات وافية عن ولاية طاهر ابن عبد الله، حتى أستطيع الحكم على عصره. وكل ما أستطيع قوله: إنه توفى فى نيسابور فى رجب سنة 248هـ/862م، وله أربع وأربعون سنة، وخلفه فى الحكم ابنه محمد.

ولاية محمد بن طاهر بن عبد الله (248-259هـ / 862 – 873م):

كما هبت رياح التغيير على الخلافة العباسية فى بغداد، فقد تأثرت نيسابور – هى الأخرى – بهذ التغير، فلم يكن محمد بن طاهر، آخر حكام الدولة الطاهرية على شاكلة أسلافه، فقد كان أميرًا ماجنًا يميل إلى اللهو والعبث "غافلًا – كما يقول الكرديزى – لا يتبصر العواقب، انهمك فى شرب الخمر، وأسلم نفسه للملذات"[٣].

تذكر المصادر؛ أن الخليفة المعتمد العباسى (256 – 279هـ /869- 892م) أقطع محمد بن طاهر مدينة أشتيخن – الواقعة إلى الشمال الغربى من سمرقند – ومدينة سكجكث، فكان خراجهما يذهب إليه، ولكنه باع الأخيره لسهل بن أحمد الداغونى، والذى ابتنى لنفسه قصرًا عظيمًا واسعًا على ضفة نهر زرافشان[٤].

(١) زين الأخبار، ص219.
(٢) اليعقوبى: البلدان، ص307.
(٣) زين الأخبار، ص220.
(٤) بارتولد: تركستان، ص187.

وهكذا نرى أن محمدًا أسرف على نفسه، ولم يحفظ هذه الإقطاعات بل باعها، ولم يُقَوِّ بها جيشه الذى كان عليه أن يواجه الثورات التى كانت تهدد دولته، وتحاول جاهدة أن تقوض عرشه.

على كل حال؛ أصبح على "محمد بن طاهر" أن يواجه ثورتين، من أعنف وأخطر الثورات التى ظهرت فى خراسان، الأولى: أضعفته، والثانية: قضت عليه. ولكن؛ - والحق يقال - حاول محمد استدراك الأمر، فعهد لعمه طلحة بولاية نيسابور، وابنه منصور بن طلحة بولاية مرو، وسرخس، وخوارزم، وعمه الحسين بن عبد الله بولاية هراة وأعمالها، وعمه سليمان بن عبد الله بولاية طبرستان، والعباس بن عمه بولاية الجوزجان والطالقان[١]، ولكن هذه الإجراءات لم تكن كافية لمواجهة الخطر القادم؛ والذى أصبح يهدد الدولة الطاهرية، وأعنى بهما ثورتى العلويين، والصفاريين.

ولا بأس أن أعرض للثورتين بصورة سريعة.

الأولى: ثورة العلويين: فى طبرستان، فقد ثار الديلم، وبايعوا الحسن بن زيد[٢]، والذى نجح فى الاستيلاء على مدن: آمل، وجرجان، والرى، ثم شمل نفوذه طبرستان كلها، ووضع بذلك أساس الدولة الزيدية، والتى ظلت تحكم من (250-316هـ/ 864-928م)، يقول ابن الأثير: "ضعف محمد بن طاهر، وانتقض عليه كثير من الأعمال التى كان يُجبى خراجها إليه فلم يبقِ فى يده إلا بعض خراسان، وأكثر ذلك مفتون منتقض بالمتغلبين فى نواحيها"[٣].

---

(١) ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، جـ3، ص283.

(٢) الحسن بن زيد بن محمد بن إسماعيل الحسنى العلوى (270 هـ = 884 م): كان حازمًا ، مرهوب الجانب، فاضل السيرة، حسن التدبير . أسس الدولة العلوية فى طبرستان واستولى على آمد (ديار بكر) وقصد سارية (بقرب جرجان) فملكها بعد قتال عنيف، ووجه جيشًا إلى الرى فملكها - وذلك فى خلافة المستعين العباسى - ودامت إمرته مدة عشرين عاما، كانت كلها حروبًا ومعارك .توفى بالرى.الصفدى:الوافى الوفيات،جـ4،ص136 .الزركلى:الأعلام،جـ2،ص191 .

(٣) الكامل، جـ6، ص233.

الثانية: ثورة يعقوب بن الليث الصفار: الذى نجح فى القضاء على الدولة الطاهرية. فمن يعقوب؟ وكيف استطاع أن يقضى على الدولة الطاهرية؟ وما أحوال بلاد ما وراء النهر خلال هذه المرحلة؟

قيام الدولة الصفارية وسقوط الدولة الطاهرية

كان النصف الثانى من القرن الثالث الهجرى فرصة مواتية للمغامرين من كل صنف إذا توافرت فيهم القدرة على الحرب والإفادة من اضطراب أمور الخلافة؛ وسوء حالها؛ وذلك بسبب استيلاء الأتراك على مقاليد الحكم فى بغداد، هذا فى الوقت الذى كانت الاضطرابات تجتاح منطقة خراسان، مع سوء أحوال الدولة الطاهرية.

فى هذا الوقت؛ ظهر يعقوب بن الليث الصفار[١]، الذى كان يعمل فى البداية فى صناعة الصُفر (الأوانى النحاسية)[٢]، ويعيش من كسب يده، ثم التحق بفرقة المطوعة ، وهى تشكيلات عسكرية تعمل على حماية الأقاليم الشرقية وبخاصة إقليم سجستان، من الهجمات الخارجية على أراضى الخلافة الإسلامية، من الأتراك والديلم، بالإضافة إلى مقاومة ثورات الخوارج[٣] المستمرة فى هذا الإقليم.

وفى هذه الأثناء، ظهرت شجاعة يعقوب العسكرية، حيث تولى قيادة جماعات المطوعين، وبرهن منذ اللحظة الأولى على مقدرة وكفاءة عالية، فقد ضبط أمور الجند، ومن ثَم عظم أمره حتى إن أهل سجستان استنجدوا به ليخلصهم من الفوضى التى عمت بلادهم[٤]. وبالفعل، نجح يعقوب فى دفع الضر عنهم، ولمّا رأى

---

(١) يعقوب بن الليث الصفار (265 هـ = 879 م): كان فى صغره يعمل الصُفْر (النحاس) فى خراسان ويُظهر الزهد ثم تطوع فى قتال الخوارج ، واشتدت شوكته، فغلب على سجستان (سنة 247 هـ)، ثم امتلك هراة وبوشنج وكرمان وشيراز وفارس. وفى (سنة 259هـ) دخل نيسابور، وقبض على أميرها محمد بن طاهر وتم له ملك خراسان وفارس، توفى بجنديسابور. ابن خلكان :وفيات الأعيان، جـ6، ص 402،الذهبى:سير أعلام النبلاء،جـ12،ص 513.

(٢) ابن خلكان: نفس المصدر، جـ5، ص345.

(٣) ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، جـ3، ص394، جـ4، ص321.

(٤) د.عصام عبد الرؤوف: الدول الإسلامية المستقلة، ص8.

أهل سجستان شجاعته، وحُسن تدبيره ملَّكوه أمرهم، فضبط البلاد، وطهر الطرق وحفظها، فأطاعه الجند، وكثر أتباعه(١).

لم يكتفِ يعقوب بحكم سجستان، فاستولى سنة 253هـ/867م على بوشنج وهراة، بعد أن هزم جيش الطاهريين، ثم تقدم فاحتل كرمان سنة 255هـ/869م، ثم سار إلى إقليم فارس واحتل عاصمته شيراز، وتوسعت دولته حتى ضمت أقاليم زابلستان، ومكران، والسند، وطبرستان، والرى، وقزوين، وأذربيجان، وجنديسابور، والأهواز، وبذلك استطاع يعقوب أن يؤسس دولة كبيرة فى شرق الدولة الإسلامية، شملت معظم أراضى فارس؛ بالإضافة إلى سجستان مقر حكمه الأول(٢).

ويبدو أن يعقوب لم يقنع بكل هذه الفتوحات، بل أحس من نفسه القوة، ووجد الفرصة مواتية لضم المشرق كله تحت لوائه، فقد أدرك ضعف الطاهريين، فتقدم إلى نيسابور – عاصمة آل طاهر – وذلك فى سنة 259هـ/873م وضرب الحصار الذى لم يستمر طويلًا، وأُخذ محمد بن طاهر(٣)، وجميع أهل بيته أسرى وبذلك سقطت الدولة الطاهرية(٤). وأصبح على بلاد ما وراء النهر أن تواجه النزاع بين الدولة الصفارية الناشئة، والخلافة العباسية.

وفى ختام هذا المبحث لى عدة ملاحظات أجملها فيما يلى:

أولًا: إن الانتصارات التى حققها يعقوب بن الليث خلال تلك السنوات القلائل ترجع إلى حُسن تدبيره للأمور، ويقظته التامة، مع حسن اختياره للرجال، هذا، بالإضافة إلى تنظيم جيشه، وإمداده بالسلاح والأموال اللازمة، يقول الكرديزى:

---

(١) مجهول: تاريخ سجستان،ترجمة د.محمود عبد الكريم،المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة،ط1 ،2006م، ص 175.

(٢) مجهول:المصدر السابق،ص 178.

(٣) ظل محمد بن طاهر أسيرًا فى يد يعقوب حتى هزمته الجيوش العباسية فى سنة 262هـ، ونجا محمد ابن طاهر، وظل مقيمًا فى بغداد حتى توفى فى سنة 297هـ، الخطيب البغدادى: تاريخ بغداد، جـ5، ص377.

(٤) الطبرى: تاريخ الأمم، جـ5، ص480.

"وسبب نجابته أنه كان جوادًا بكل ما يجد وكل ما يملك، وكان يأكل مع الناس، وكان معهم ذكيًا، شهمًا"[١]، وبذلك استطاع أن يهيئ الاستقرار والأمن فى دولته، هذا فى الوقت الذى عجزت فيه الدولة الطاهرية عن الدفاع عن نفسها، وهناك نص ثمين أورده المسعودى - وإن كان فيه نوع من المبالغة - إلا إنه يثبت صحته ما أشرت إليه، يقول: "وكانت سياسة يعقوب لمن معه من الجيوش سياسة لم يسمع بمثلها ممن سلف من الملوك من الأمم الغابرة، من الفرس وغيرهم ممن سلف وخلف، وحسن انقيادهم لأمره، واستقامتهم على طاعته، لما كان قد شملهم من إحسانه وغمرهم من بره، وملأ قلوبهم من هيبته"[٢]، ثم أورد كثيرًا من النماذج التى تدل على مدى طاعة الجند لقائدهم يعقوب بن الليث.

ثانيًا: أن علاقة يعقوب بالخلافة العباسية كانت على غير ما يرام، فعلى الرغم من أن الخلافة أرسلت إليه تقليدًا بولاية خراسان، وطبرستان، وجرجان، والرى، وفارس، بل تعيينه أيضًا على شرطة بغداد، وكأنه أصبح بذلك وريثًا شرعيًا للطاهريين، إلا أن تساهل الخلافة معه كان وقتيًا، حيث لم تشأ أن تواجه فى وقت واحد قوتين مهمتين؛ أعنى بهما قوة الصفار فى فارس، وقوة صاحب الزنج[٣] فى إقليم البصرة، الذى امتدت نفوذه حتى الأهواز، لذلك فقد رأى الموفق أخو الخليفة المعتمد (ذو الشخصية القوية، والذى أصبحت الأمور فى يده[٤]، وصارت

---

(١) زين الأخبار، ص220.

(٢) المسعودى: مروج الذهب، جـ4، ص192، والنماذج فى الصفحات: 193، 194.

(٣) نسبت هذه الثورة إلى طائفة من العبيد من زنوج إفريقية ومن ثم سميت بثورة الزنج. وادعى زعيم هذه الثورة أنه(على بن محمد العلوي). ونشر أفكاره بين العبيد الذين يعملون فى المستنقعات الممتدة بين البصرة وواسط. ولقيت دعوته قبولا لدى عبيد هجر والبحرين؛ واتخذ مركزًا له فى مدينة سماها(المختارة) واستولى على البصرة سنة(257هـ) وبات يمثل خطرًا على الخلافة العباسية فاضطر الخليفة المعتمد إلى إرسال جيش بقيادة أخيه الموفق الذى حاصرهم ونجح فى القضاء عليهم وقتل زعيمهم سنة(270هـ) .الطبرى:تاريخ الأمم والملوك،جـ5،ص 441.ابن كثير:البداية والنهاية،جـ11،ص 191.

(٤) يقول ابن طباطبا: "كانت دولة المعتمد دولة عجيبة الوضع، كان هو وأخوه الموفق طلحة كالشريكين فى الخلافة، للمعتمد الخطبة والسّكة والتسمى بإمرة المؤمنين ولأخيه الموفق الأمر والنهى وقود العساكر، ومحاربة الأعداء، ومرابطة الثغور، وترتيب الوزراء والأمراء" الفخرى فى الآداب السلطانية، ص250.

له الكلمة العليا بين الأتراك) أن يكسب ولاء الصفار له ليبعده عن المعركة، ويستعد لقتال الزنج، وبعد أن نجحت الخلافة فى القضاء على ثورة الزنج وتخلصت - ولو قليلًا - من متاعبها، عملت على التخلص من يعقوب، الذى زحف بجيشه إلى العراق، ولكن الدولة العباسية وجهت إليه جيشًا هزمه شر هزيمة سنة 262هـ/875م، فانسحب يعقوب إلى حاضرته نيسابور، ثم توفى سنة 265هـ/878م[1].

(١) د.عصام عبد الرؤوف: الدول الإسلامية المستقلة، ص10.

المبحث الثانى

أحوال بلاد ما وراء النهر من سقوط الدولة الطاهرية وحتى قيام الدولة السامانية

(259 - 261 هـ / 821 - 874م)

قبل الحديث عن قيام الدولة السامانية، وكيف صارت بلاد ما وراء النهر تحت سلطانهم، نُعرّف بهم أولًا.

أصل السامانيين

يُنسب السامانيون إلى سامان بن جُبا، الذى يرجع نسبه إلى بهرام جوبين، قائد كسرى أبرويز؛ والذى ثار عليه واضطره للفرار إلى بلاد الروم، ثم استعان بهم كسرى على بهرام جوبين لاستعادة مُلكه، وعندما تمكن كسرى من عرشه قتل بهرام جوبين - الثائر عليه - واستعاد ملكه المسلوب[1]، وعلى ذلك فالسامانيون ينتسبون إلى إحدى أسر الفرس العريقة.

ولم أعثر على معلومات تفيدنى فى معرفة تاريخ هذه الأسرة ، إلا إن النرشخى يذكر أن سامان (المذكور) أصله من قرية سامان - إحدى قرى بلخ - سكنها فى ولاية أسد بن عبد الله القسرى على خراسان فى خلافة هشام بن عبد الملك (105-

(١) السمعانى: الأنساب، جـ3، ص201، لفظ "السامانى".

129هـ/ 724- 743م) وقد أحسن أسد القسرى إلى سامان وأكرمه، فأسلم على يديه، ولمّا رزق بغلام سماه أسدًا لمحبته لأسد القسري[1]، واعترافًا منه بفضله عليه.

كان لأسد بن سامان أربعة[2] من الأبناء، وهم: نوح، وأحمد، ويحيى، وإلياس، وكان أول ظهور لهم فى خلافة المأمون[3]. ونالوا الحظوة عنده، فولى أولاد أسد ابن سامان بلاد ما وراء النهر، فولى نوح سمرقند فى سنة 204هـ، وأحمد فرغانة، ويحيى الشاش وأشروسنة، وأما إلياس فقد تولى هراة[4]، وبذلك فقد رفع المأمون من شأن آل سامان.

آل سامان تحت حكم الطاهريين

عندما تولى طاهر بن الحسين إقليم خراسان؛ أقرهم على أعمالهم فظل السامانيون حكامًا لبلاد ما وراء النهر، يتعاونون تعاونًا صادقًا مع الطاهريين، ويحمون هذا الثغر الشرقى، ويمدون نفوذ العالم الإسلامى فى هذه المنطقة.

ونظرًا لكفاءتهم فقد ضم عبد الله بن طاهر، لنوح بن أسد فى سنة 211-212هـ/ 826 - 827م حكم فرغانة، وبعض مدائن الترك وعقب وفاته فى سنة 227هـ/842م أصبح أحمد - الذى صار أكبر أفراد أسرة بنى سامان - حاكمًا على جميع البلاد التى تركها أخوه[5]، ثم ضمت إليه أيضًا بلاد الشاش وأشروسنة عقب وفاة أخيه يحيى وذلك فى سنة 241هـ/856م.

---

(١) تاريخ بخارى، ص91.

(٢) يذكر ابن خلدون سبعة من الأبناء، ويضيف: يعقوب، وإسحاق، وحميد. تاريخ ابن خلدون، جـ4، ص333.

(٣) يذكر د.عصام عبد الرؤوف الفقى فى كتابه: "الدول الإسلامية المستقلة فى الشرق"، ص12، أن أول ظهور لآل سامان كان فى خلافة الرشيد، وذلك أثناء ثورة رافع بن الليث، وأنهم أعانوا الرشيد فى القضاء على ثورة رافع، ثم يقول: "وهدأ بال الرشيد من هذا الأمر، إذ كان يخشى أن يستولى رافع على خراسان"، ومن المعروف أن ثورة رافع انتهت فى خلافة المأمون، وليس فى خلافة الرشيد.

(٤) الكرديزى: زين الأخبار، ص214.

(٥) السمعانى: الأنساب، جـ3، ص201.

وعلى ذلك فقد أصبح أحمد بن أسد - كبير آل سامان - حاكمًا عامًا على بلاد ما وراء النهر، وتصفه المصادر بأنه كان عادلًا، مَرْضيّ السيرة، لا يحابى أحدًا فى الحق[1]، عالمًا؛ روى عن سفيان بن عيينة، ويزيد بن هارون، ومنصور بن عمار، وتوفى بفرغانة فى شوال سنة 250هـ/864م[2]، وخلفه ابنه نصر على أعماله ببلاد ما وراء النهر، وظل حاكمًا عليها حتى سقوط الدولة الطاهرية فى سنة 259هـ/872م.

قيام الدولة السامانية

أصبح على نصر مقاومة يعقوب بن الليث الصفار، الذى فرض سيطرته على إقليم خراسان، وبدأ يتطلع إلى ما وراء النهر، وقد اتبع فى سبيل ذلك أسلوب شن الغارات الخاطفة على حدودها، ولما كانت الخلافة العباسية غير راضية عن توسعات يعقوب، لذا فقد رأت أن تقيم حكمًا مواليًا لها فى المشرق وراء خراسان، وذلك بأن جعلت بلاد ما وراء النهر - التى كانت خاضعة لولاة خراسان ومنهم الطاهريون - إقليمًا قائمًا بذاته، فعهد الخليفة المعتمد إلى نصر بن أحمد السامانى (261- 279هـ/ 874- 892م) بحكم البلاد الممتدة من شواطئ نهر جيحون، حتى أقصى بلاد المشرق والصين، وذلك فى غرة رمضان سنة 261هـ/874م، وبذلك جعلت الخلافة لنفسها قوة موالية وراء الصفار تستخدمها عند اللزوم[3].

وجدير بالذكر، أن نصرًا اتخذ من سمرقند مقرًا لحكمه، وأسند لكل واحد من إخوته الباقين حكم مدينة من مدن ما وراء النهر[4]، وبذلك أصبح على آل سامان أن يحرسوا الثغور الشرقية المطلة على بلاد الترك والصين؛ ويمدوا لواء الإسلام فى هذه الجهات.

---

(١) ابن الأثير: الكامل، جـ6، ص253.

(٢) النرشخى: تاريخ بخارى، ص112.

(٣) د.أحمد الشريف: العالم الإسلامي (العصر العباسي الثاني)، ص461.

(٤) السمعانى: الأنساب، جـ3، ص201.

أحوال بخاري

أما عن أحوال بخارى خلال تلك الفترة، فقد مرت عليها ظروف قاسية، حيث لم تعرف ظهور حاكم قوى يبعث الطمأنينة فى نفوس الأهالى. يروى ابن الأثير أن أهل بخارى عزلوا أربعة من الولاة خلال تلك الفترة بسبب سوء تصرفهم[١].

وفى عام 260هـ/873م، وصل إلى بخارى الحسين بن طاهر بن عبد الله بن طاهر، فارًا من الصفاريين[٢]، واستولى على المدينة بعد خمسة أيام من الحصار المستمر، وارتكب جنوده كل أنواع الفساد؛ والمظالم ضد أهالى المدينة الذين خرجوا فى ثورة عارمة مطالبين بإبعاد هؤلاء عن المدينة، وبالفعل، نجح الثوار فى محاصرة الحسين فى قصره، وأجبروه على الهروب ليلًا، مخلفًا وراءه مالًا كثيرًا،استولى عليه الثوار، وتقاسموه فيما بينهم، يقول النرشخى: "واغتنى منه (المال) أشخاص كثيرون بحيث بقى أثر ذلك الغنى فى أعقابهم، وكان يقال فى المدينة (بخارى): فلان غنى دار الحسين بن طاهر"[٣].

لم يعد الهدوء والاستقرار إلى بخارى بعد رحيل الحسين بن طاهر، بل ازدادت الأمور سوءًا، وانتشرت الفوضى وعم الفساد، وبقيت المدينة بدون أمير فترة من الزمن كانت تتعرض خلالها لهجمات الصفاريين، والخوارج.

التف أهل الصلاح حول الشيخ الفقيه أبو عبد الله بن أبى حفص[٤]، الذى أرسل إلى الأمير نصر يسأله أن يوجه إليهم من يقضى على الفتن ببخارى، فبعث إليهم أخاه إسماعيل[٥] وذلك فى عام 261هـ/874م.

---

(١) الكامل، جـ6، ص254.

(٢) ابن خلكان: وفيات الأعيان، جـ5، ص353.

(٣) تاريخ بخارى، ص113.

(٤) هو: أبو عبد الله محمد بن نصر، الفقيه الشافعى، سافر إلى البلاد فى طلب العلم، وأخذ العلم بمصر من أصحاب الشافعى؛ يونس بن عبد الأعلى، والربيع بن يونس، ومحمد بن عبد الحكم، وصحب الحارث المحاسبى، وأخذ عنه، توفى سنة(294هـ) بسمرقند .ابن قاضى شهبه :طبقات الشافعية،جـ1، ص5 .الصفدى: الوافى بالوفيات،جـ2،ص 106 .

(٥) النرشخى: المصدر السابق، ص113.

خرج إسماعيل على الفور من سمرقند إلى بخارى فوصل كرمينية - التى تبعد عن بخارى بنحو ثمانية عشر فرسخًا - وعسكر بها بضعة أيام، ولم يستطع التقدم نحو بخارى بسبب استيلاء الحسين بن محمد الخارجى عليها، ويبدو من هذا الخبر الذى انفرد بذكره النرشخى ؛ أن الحسين المذكور أحد زعماء الخوارج - كما يبدو من اسمه، أو أحد رجال يعقوب الصفار، وانتهز فرصة الفوضى والاضطراب الذى عم المدينة عقب ثورة الأهالى ضد الحسين بن طاهر، ونجح فى فرض سيطرته عليها[1].

لم يكن أمام إسماعيل بن أحمد السامانى إلا أن يلجأ إلى المهادنة فدارت مراسلات بينه وبين الحسين بن محمد الخارجى، بواسطة الشيخ الفقيه أبو عبد الله أسفرت عن عقد صلح بين الطرفين، أصبح إسماعيل - بموجبه - أميرًا على بخارى، والحسين نائبًا له، وأقسم هو وجنوده يمين الولاء والطاعة، ودخل الأمير إسماعيل المدينة، وأحسن الجميع استقباله، بل قام أهل بخارى بنشر الذهب والعطايا الثمينة بين يديه، وأقروه واليًا عليهم من قِبل الأمير نصر. وفى أول جمعة من رمضان سنة 261هـ/874م، تليت الخطبة فى مسجد بخارى الكبير باسم الأمير نصر، وبعد ذلك بأيام أمر الأمير إسماعيل بسجن الحسين بن محمد، وأصبح هو الحاكم المطلق للمدينة[2]، وبذلك تخلصت بخارى من الفوضى والاضطراب، وأصبحت بلاد ما وراء النهر على أعتاب مرحلة جديدة، فقد أصبحت بخارى فى عهد الأمير إسماعيل (279-295هـ/ 892- 907م) دار الملك.ولم يقم أى أمير من أمراء خراسان من هناك،بل كان "يتبرك بالمقام فيها ولم يكن يرتاح لأية ولاية سواها"[3]، وذلك على حد تعبير النرشخى.

وهكذا، قامت الدولة السامانية، وبدأت صفحة جديدة من تاريخ بلاد ما وراء النهر، صارت فيه مركز الإشعاع فى المنطقة[4]، وكما خضعت بلاد ما وراء النهر

---

(١) النرشخى: نفس المصدر، ص114.

(٢) بارتولد: تركستان، ص349.

(٣) النرشخى: نفس المصدر، ص129.

(٤) أحمد أمين: ظُهر الإسلام، جـ1، ص262، د سرور: تاريخ الحضارة الإسلامية فى الشرق، ص82.

لنفوذ خراسان السياسى منذ الفتح الإسلامى لهذه البلاد، فقد أصبح على خراسان فى هذه المرة أن تتبع النفوذ السامانى المنطلق من بلاد ما وراء النهر(١).

وعلى ذلك، فأستطيع القول: إن الدولة السامانية تعد المتممة للمَهمَّة التى بدأها الطاهريون؛ من حفظ الأمن والنظام، ونشر الإسلام وعلومه وحضارته بين شعوب المنطقة(٢). وهكذا، أصبحت بلاد ما وراء النهر منارة العلوم، يفد إليها الطلاب للدراسة، وكتب التراجم والطبقات تغص بأسماء المئات منهم، كما تغص المكتبة العربية بمؤلفاتهم، ومن حُسن الحظ، أن الرحالة المقدسى (ت 378هـ/988م) ، زار هذه البلاد خلال تلك الفترة، وقدم لنا وصفًا رائعًا عنها، وعن حكامها فقال: "إنهم من أشد الناس تمسكًا بالحق، وهم بالخير والشر أعلم"(٣)، كما أقر بعلمهم الكثير، وحفظهم العجيب، واستقرار الأمور هناك، وانتشار الرخاء فى أرجاء هذه البلاد.

---

(١) د. حسن أحمد محمود: الإسلام والحضارة العربية، ص142.

(٢) تشمل الآن جمهوريات آسيا الوسطى المستقلة عن الاتحاد السوفيتى فى 1991م، هذه القوى الإسلامية الفعالة التى بدأت تأخذ طريقها كقوة مؤثرة على الساحة الإسلامية فى العصر الحديث.

(٣) المقدسى: أحسن التقاسيم، ص294- 296، ولمزيد من التفاصيل انظر: النويرى: نهاية الأرب، جـ25، ص333 وما بعدها.

الفصل الرابع
" استقرار العرب و انتشار الإسلام
فى بلاد ما وراء النهر "

المبحث الأول : استقرار العرب فى بلاد ما وراء النهر:

1- توطين العرب فى بلاد ما وراء النهر.

2- الأحياء التى سكنها العرب.

المبحث الثانى : انتشار الإسلام فى بلاد ما وراء النهر:

1- ترك السلطة فى أيدى حكام البلاد الأصليين.

2- الدعوة إلى الإسلام.

3- إسكان العرب مع أهل بلاد ما وراء النهر.

4- بناء المساجد .

المبحث الأول

استقرار العرب فى بلاد ما وراء النهر

قبل الحديث عن انتشار الإسلام فى بلاد ما وراء النهر، أُلقى بعض الضوء على استقرار العرب فى هذه البلاد، وذلك للدور الكبير الذى قاموا به فى سبيل نشر الإسلام، وذلك بتشجيع السكان الأصليين بالدخول فيه، بالإضافة إلى ظاهرة الاختلاط بين المسلمين الفاتحين وبين أهل هذه البلاد. ومن ثم أسهمت فى خلق مجتمع جديد، كان له أكبر الأثر فى التمكين للسيادة الإسلامية فى هذه البلاد.

بدأت سياسة توطين العرب فى بلاد ما وراء النهر منذ عهد مبكر، وبالتحديد فى عام 51هـ/671م وبتولية الربيع بن زياد الحارثى حكم خراسان، من قِبل الخليفة معاوية بن أبى سفيان (41- 60هـ/ 661- 680م). فقد ذكرت المصادر التاريخية، أن الربيع حمل إلى بلاد ما وراء النهر خمسين ألف أسرة عربية[١] من أهل البصرة والكوفة[٢]. وكان هذا بداية التوافد العربى إلى هذه البلاد.

وجدير بالذكر، أن معظم هذه الجموع قد أخذت فى سكنى شمال نهر جيحون، وبالتحديد فى مدينة آمل، تلك المدينة الحصينة التى تمثل المدخل الطبيعى لعبور نهر جيحون. وبعد فترة أخذت الجيوش العربية تعبر نهر جيحون، بقصد الفتح ونشر الإسلام. وذلك دون أن تتمركز فيما وراءه، إذ سرعان ما كانت تعود إلى خراسان للاستعداد لجولة أخرى.

---

(١) البلاذرى: فتوح البلدان، ص543. ابن الأثير: الكامل، جـ3، ص338.

(٢) عن دور هاتين المدينتين فى الفتح انظر: د. شكرى فيصل: حركة الفتح الإسلامى، ص194- 195.

ثم بدأت هذه السياسة تتطور بتولية عبيد الله بن زياد (28- 67هـ/ 648- 686م) إقليم خراسان، فينسب إليه أنه أول من قطع جبال بخارى ونسف وبيكند[1]. وفى خطوة غير مسبوقة حمل عبيد الله جمعًا كثيفًا من أهل بخارى إلى البصرة؛ وأسكنهم فى مساكن خاصة بهم، وعرف هذا الحى "بحى البخارية" أو "سكة البخارية". يقول ياقوت: "فعرفت بهم، ولم تعرف به"[2]. ويفهم من ذلك، أن عبيد الله قد حاول عملية مزج هؤلاء بالمسلمين فى البصرة، ليتعرفوا على عاداتهم وتقاليدهم، ومن ثم ينشرح صدرهم للإسلام. ويبدو أن هؤلاء البخاريين قد مارسوا حياتهم اليومية، واستطابوا الإقامة فى هذه المدينة حتى صار الحى علمًا عليهم.

ولما ولى سعيد بن عثمان بن عفان حكم خراسان سنة 56هـ/ 672م من الخليفة معاوية بن أبى سفيان، سار على سياسة سلفه عبيد الله بن زياد، فى إسكان نفر من البخاريين بين العرب. فأسكن خمسين غلامًا من أهل بخارى فى المدينة المنورة[3].

وهكذا، كان التعايش والاختلاط بين العرب المسلمين، وبين سكان بلاد ما وراء النهر، مما ساعد المسلمين على التعرف على نقاط ضعفهم، وفتح بلادهم وبلغ الأمر، أن النساء شاركن الجنود فى عبور نهر جيحون. فقد ذكرت المصادر أنه فى ولاية سلم بن زياد(37- 93هـ/ 657- 683م) على خراسان فى خلافة يزيد بن معاوية (60-64هـ/ 680-683م) أن امرأته، وتدعى أم محمد بنت عبد الله بن عثمان بن أبى العاص، كانت على رأس الجند العرب العابرين إلى بخارى[4]، مسجلة بذلك أنها أول امرأة عربية تطأ أرض بلاد ما وراء النهر.

وجدير بالذكر، أن المرأة العربية كان لها دور كبير فى تقارب العلاقات بين الجانبين، أعنى المسلمين، وسكان بلاد ما وراء النهر، حيث قامت علاقات اجتماعية وطيدة بين نساء هذا الإقليم. يفهم ذلك من الهدايا المتبادلة بين امرأة سلم بن زياد،

---

(١) ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، جـ3، ص15.

(٢) ياقوت: معجم البلدان، جـ1، ص283.

(٣) ابن الجوزى: المنتظم، جـ5، ص287، وذكر العدد (ثمانين). ابن كثير: البداية والنهاية، جـ8، ص73.

(٤) البلاذرى: فتوح البلدان، ص547.

وزوجة ملك الصغد[١]، مما ينهض دليلاً على أنه كان يواكب الفتوحات الإسلامية فرصة تبادل خلالها المسلمون مع سكان البلاد الهدايا والتحف[٢].

ومما يثبت أيضًا مدى تقدم الروابط الاجتماعية بين المسلمين الفاتحين وأهل بلاد ما وراء النهر، ما ذكره المؤرخون - على سبيل المثال لا الحصر - أن ثابت ابن قتيبة الخزاعى، الذى انضم إلى موسى بن عبد الله بن خازم فى أثناء ثورته بترمذ - كما سبقت الإشارة - كان محبوبًا عند الترك فكانوا يعظمونه ويثقون به. فكان الرجل منهم إذا أعطى عهدًا يريد الوفاء به، حلف بحياة ثابت. فلا يغدر[٣]. وهذا لا يتأتى إلا بروابط اجتماعية وطيدة.

وقد قويت هذه الروابط الاجتماعية بين المسلمين، وأهل بلاد ما وراء النهر بمرور الأيام. حتى جاء القائد المظفر قتيبة بن مسلم الباهلى (49- 96هـ/ 669- 715م) فاتخذ سياسة جديدة تعمل على إسكان القبائل العربية، واستقرار أفرادها استقرارًا حقيقيًا فى بلاد ما وراء النهر. فيذكر النرشخى، أن من شروط الصلح التى أبرمها قتيبة مع حاكم إقليم الصغد: أن يُعطى المسلمين نصف الدُّور والضياع[٤]. مما ينهض دليلًا على أن قتيبة كان يدرك مدى أهمية العامل الاجتماعى فى الترويج للدعوة إلى الإسلام بين هؤلاء الناس. ويقدر المستشرق فامبرى عدد المسلمين الذين تم إسكانهم فى المدينة بنحو واحدٍ وأربعين ألف رجلٍ[٥].

الأحياء التى سكنها العرب فى بلاد ما وراء النهر

فإذا انتقلنا إلى الأحياء التى سكنها العرب فى بلاد ما وراء النهر، نجد أن قتيبة ابن مسلم قد اتبع سياسة مرسومة فى تسكين العرب فى بخارى، وهى سياسة تنطوى على تأثيرات قبلية[٦]، كما هى عادة العرب فى البلاد التى فتحوها. وندين

---

(١) ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، جـ3، ص15.
(٢) د. محمد أحمد: بخارى فى صدر الإسلام، ص86.
(٣) ابن الأثير: الكامل، جـ4، ص229.
(٤) تاريخ بخارى، ص84.
(٥) تاريخ بخارى، ص63.
(٦) آدم متز: الحضارة الإسلامية، جـ2، ص195. د. محمد الوكيل: عناية الإسلام بتخطيط المدن، ص121.

للنرشـــخى[1] بالفضل؛ فقد أمدنا بمعلومات تفصيلية حول إســكان المســلمين فى بخارى، لم نجدها عند غيره من المؤرخين، فقد ذكر: أن قتيبة أقطع الناحية الممتدة من باب الســوق – أول أبواب المدينة – ويســمى: باب العطارين، إلى باب الحديد (باب نوه) لقبيلتَىْ ربيعة ومضر، وما تبقى أقطعه لأهل اليمن[2] (اليمنية).

وكان الداخل إلى المدينة من باب السوق يجد إلى يساره "درب الفُتّاك"[3] ويسمى: (كوى رندان). وكان أمامها شارع يحمل اسم القائد أيوب بن حسّان. وكان يسمى: شارع القصر "كوى كاخ". وأيوب المذكور، من قواد قتيبة بن مسلم. وهو أول أمير عربى لبخارى. وقد أقام فى هذا الموضع فنسب إليه. وكان هذا الشارع والقصر مِلكًا لأمير بخارى "خنية" الذى أسلم فيما بعد وتَسمّى "أحمد".

الباب الثانى: باب بنى سعد، نسبة إلى بنى حسن بن علاء السعدى – لعله أحد قادة جيش قتيبة – حيث لم تمدنا المصادر بشىء عنه، غير أنه كان له قصر فى هذه المنطقة. فنسب هذا الدرب إليه.

الباب الثالث: باب بنى أسد، كان يسكن هناك أمير خراسان أسد بن عبد الله القسرى فى قصر كبير. وكان يطلق على هذا الباب قبل الفتح الإسلامى (دَرِ مِهْرة) ومعناها: باب الخرزة. ثم نُسب إلى قبيلة بنى أسد أحد أعمدة جيش قتيبة بن مسلم[4].

الباب الرابع: باب المجوس (در كبريه). وكانت أغلب بيوت العرب فى هذه المنطقة نظرًا لحصانة هذا الباب. ويبدو أن تلك الجهة كان يسكنها المجوس والوثنيون، الأمر الذى يفهم منه رغبة قتيبة فى أن تؤدى هذه السياسة إلى إزاحة آثار هذه العقائد القديمة[5].

---

(١) تاريخ بخارى، ص84-86.

(٢) اليعقوبى: البلدان، ص294. الدينورى: الأخبار الطوال، ص514.

(٣) بارتولد: تركستان، ص201. ويسميه (درب الفساق).

(٤) ابن أعثم الكوفى : الفتوح، جـ 4، ص 201 .

(٥) د. محمد أحمد: بخارى فى صدر الإسلام، ص89.

الباب الخامس: باب حَقَره - ومعناه: باب طريق الحق، نسبة إلى الإمام أبى حفص الكبير البخاري[١]. وقد سمّوا الفتوى "الحقَ". ولهذا سموه "حقره" أى طريق الحق.

الباب السادس: الباب الجديد (دَرِ نو)[٢]؛ لأنه كان آخر أبواب المدينة.

وجدير بالذكر، أن باقى ممالك بلاد ما وراء النهر قد قُسمت بنفس الطريقة، وللأسف لم تمدنا المصادر بحديث وافٍ عنها، والمعلومات الواردة فى شأنها لا تكفى بأية حال، لذا فإننى أشير إليها كما وردت فى مصادرها.

فى مدينة سمنجان - بإقليم طخارستان - كانت تسكن قبيلة تميم، الذين بلغ عددهم فى جيش قتيبة بن مسلم نحو عشرة آلاف مقاتل[٣]. وكان أول من نزلها منهم: خبيب بن عبيد[٤]، قائد بنى تميم فى جيش قتيبة بن مسلم، وكان له عقب فى هذه البلاد. فنسبوا إليها.

وفى مدينة وذّار[٥] - من مدن سمرقند - كانت تسكن قبيلة بنى بكر بن وائل الذين بلغ عددهم فى جيش قتيبة بن مسلم نحو سبعة آلاف مقاتل[٦] وقد اشتغلوا بالزراعة، واشتهروا بكرم الضيافة، وحُسْن الاستقبال وعرفوا باسم "السباعية"[٧]. يقول ابن حوقل: "وكانت لهم بسمرقند ولايات، ودُور، وضيافات، وأخلاق حسنة، يتواصفونها ويذكرونها. وأدركت منها طرفًا دل قليله على كثير سلف منه"[٨].

---

(١) هو: الإمام أبو حفص البخارى (150- 217هـ/ 797- 822م) من مشاهير فقهاء بخارى، ومن تلاميذ الإمام محمد الشيبانى. وقد شهد له بأنه كان أقدر تلاميذه. وكان هذا الإمام معاصرًا للإمام محمد بن إسماعيل البخارى. توفى ببخارى ودفن بها. الذهبى: سير أعلام النبلاء،جـ1، ص 158. النرشخى: تاريخ بخارى، ص87- 88.

(٢) النرشخى: نفس المصدر، ص90.

(٣) ابن الأثير: الكامل، جـ4، ص295.ابن أعثم : الفتوح ، جـ 4 ، ص 199 .

(٤) السمعانى: الأنساب، جـ3، ص307. ياقوت: معجم البلدان، جـ3، ص70.

(٥) وذّار: من قرى سمرقند، على بُعد أربعة فراسخ منها. وتمتاز بكثرة بساتينها. ياقوت: نفس المصدر، جـ5، ص369.

(٦) ابن الأثير: الكامل، جـ4، ص295.

(٧) ياقوت: معجم البلدان، جـ4، ص189.

(٨) صورة الأرض، ص411.

وفى مدينة ترمذ - بإقليم طخارستان - نزل بها قوم من أهل اليمن[١]، وأما إقليم أشروسنة، فقد تميز بقلة العرب فيه. ويعلل اليعقوبى ذلك بأنهم كانوا يمنعون العرب من النزول فيها. حتى صار إليهم رجل من بنى شيبان فأقام بينهم، وتزوج منهم[٢]، فأحبوه، وأسكنوا العرب معهم. أما باقى المدن ببلاد ما وراء النهر، فقد ذكر السمعانى، أن مدينة خُست[٣] - بإقليم طخارستان - كان يسكنها قوم من أشراف العرب[٤]. غير أنه لم يذكر - لنا - من أى القبائل العربية هؤلاء. وذكر الهيثم بن عدى، أن قتيبة بن مسلم أسكن العرب أرض فرغانة والشاش[٥]، ولم يذكر لنا أيضًا من أية قبيلة هؤلاء العرب.

يضاف إلى ما سبق بعض القبائل الأخرى التى كانت فى جيش قتيبة بن مسلم فى أثناء عملية الفتح الإسلامى، غير أننى لم أعرف أين استقرت فى بلاد ما وراء النهر، حيث إننى لم أعثر على مادة علمية تفيد ذلك. ومن هذه القبائل: الأزد، باهلة، بنى عبد القيس، بنى خُبَية، بنى بلعم.

ومن يستعرض كتاب الأنساب للسمعانى - على سبيل المثال - يجد كثيرًا من الأعلام الذى ولدوا فى بلاد ما وراء النهر، ونسبوا إلى مدنها، وهم فى حقيقة الأمر، ينتمون إلى أصول عربية. ومن أمثلة ذلك:

(1) أبو محمد سعيد بن سلم بن قتيبة بن مسلم الباهلى، (150- 215هـ) حفيد القائد قتيبة، سكن بخارى، ومات بها[٦].

(2) أبو على نصر بن عثمان بن سعيد، حفيد القائد قتيبة بن مسلم، كان فاضلًا توفى بسمرقند سنة 381هـ.

---

(١) الطبرى: تاريخ الأمم، جـ3، ص659: ابن عبد ربه: المصدر السابق، جـ1، ص368.

(٢) اليعقوبى: البلدان، ص294.

(٣) خُست: ناحية من نواحى أندرابة بطخارستان، وهى قصبة تفضى إلى شعاب نزيهة، كثيرة الأشجار. ياقوت: معجم البلدان، جـ2، ص406.

(٤) السمعانى: الأنساب، جـ2، ص417.

(٥) البلاذرى: فتوح البلدان، ص567.

(٦) الأنساب، جـ1، ص275.

(3) أبو الفضل عُزير بن سليم بن منصور اليزدى. كان جده من أهل البصرة الذين قدموا مع قتيبة بن مسلم أثناء الفتح الإسلامى. وسكن نسف. وعاش وتوفى بها[١].

(4) أبو الحسن على بن الحسن، من ولد جعفر الطيار، سكن سمرقند وتوفى بها[٢].

(5) أبو بكر محمد بن على بن حيدر، من ولد جعفر الطيار أيضًا، سكن بخارى، وتوفى بها[٣].

(6) أبو الأسد أحمد بن إبراهيم بن أحمد بن الوليد بن عبد الملك، ينتهى نسبه إلى الخليفة الأموى المشهور الوليد بن عبد الملك، ودفن ببخارى[٤].

(7) أبو نصر منصور بن جعفر، حفيد المهلب بن أبى صفرة الأزدى، كان مفتى سمرقند، وإمامها بلا منازع فى عصره، توفى بسمرقند عام 352هـ[5].

(8) أبو إسحاق إبراهيم بن إسماعيل بن زياد. حفيد الصحابى الجليل واثلة بن الأسقع. من أهل بخارى. سكنها ودفن بها[6].

هذا قليل من كثير، ومن يستعرض كتب الأنساب يجد فيها الكثير، وهذا يؤكد أن العرب قد ألفُوا هذه البيئة وأحبوها، ولم يعودوا إلى ديارهم بعد إتمام الفتح الإسلامى. لأنهم اعتبروا هذه البلاد أوطانهم، حتى إن الخليفة عمر ابن عبد العزيز (99- 101هـ/ 717- 720م) كتب إلى عامله على خراسان عبد الرحمن ابن نُعَيم الغامدى يأمره بإعادة المسلمين من وراء النهر، وإسكانهم مرو، فعرض عليهم الوالى ذلك، فأبوا. فكتب إلى الخليفة "إنهم رضوا بالمقام هناك"[7] فحمد عمر بن عبد العزيز ربه على حب المسلمين لهذه المناطق.

---

(١) نفس المصدر، جـ1، ص341.

(٢) السمعانى: المصدر السابق ، جـ2، ص66.

(٣) نفس المصدر، والجزء، ص67.

(٤) نفس المصدر، والجزء، ص289.

(٥) نفس المصدر، جـ5، ص418.

(٦) السمعانى: المصدر السابق ، نفس الجزء، ص556.

(٧) اليعقوبى: تاريخ اليعقوبى، جـ2، ص211.

وصفوة القول، إن العرب المسلمين قد هاجروا إلى بلاد ما وراء النهر، وذلك ضمن سياسة عزبية تستهدف تسكين المسلمين فى هذه النواحى، بغرض نشر الإسلام فيما بينهم.

المبحث الثانى

انتشار الإسلام فى بلاد ما وراء النهر

كانت الحياة الدينية فى بلاد ما وراء النهر قبل الفتح الإسلامى تنتشر فيها نِحَلٌ وضعيةٌ مثل: الزرادشتية، والبوذية، والمانوية، والمزدكية. ولم تَعُد تقدم إلى سكان هذه البلاد الروحانيات التى كانوا يشعرون بها. وفى الحقيقة، كانت هذه البلاد فى انتظار دين جديد، يبعث فيهم الأمل، ويهديهم إلى الطريق المستقيم، طريق الله تعالى. والإيمان به عن يقين. وهذا ما قدمه الإسلام لسكان آسيا الوسطى. يقول أحد المستشرقين: "والواقع أن الذى غزا أتراك آسيا الوسطى لم يكن المسلمين، بل كان الإسلام ذاته"[1]، ثم يضيف فى مكان آخر: "لقد كان الإسلام فى القرون السابقة قد تغلب على الأديان السابقة، مثل: المسيحية - النسطورية - والمانوية. وهكذا كان التأثير الحضارى للإسلام عاملًا رئيسًا فى التطور التاريخى لآسيا الداخلية"[2].

وهكذا، يتضح لنا أن الغرض من الفتوحات الإسلامية، لم يكن كسبًا لأرض جديدة، أو الحصول على جزية، أو خلاف ذلك مما يردده بعض المستشرقين، بل كان الغرض الذى سعى المسلمون من أجله؛ وتحملوا كل هذه المشاق هو نشر الإسلام فى ربوع هذه البلاد، وهنا نسجل بكل فخر جهاد المسلمين الأوائل، فى

(١) شاخت: تراث الإسلام، جـ١، ص279.

(٢) شاخت: نفس المرجع، والجزء، ص193.

نشر الإسلام بين هذه الممالك، متحملين قسوة الجو، وجفوة الأتراك. يقول شاخت: "كان المبشرون المتجولون يتنقلون بين القبائل التى لم يتم إخضاعها فيما وراء النهر، ينشرون الدين البسيط، دين الكفاح الذى ازدهر على الحدود بين الإسلام والوثنية"[١]. ويثنى المستشرق الإنجليزى آرنولد على طريقة المسلمين فى الدعوة إلى الله تعالى بقوله: ولم تكن القوة أو العنف السبب فى اتساع نطاق تحويل الناس إلى الإسلام، بدليل هذه المعاملة التى عامل بها العرب من ظل من الفرس على تمسكه بدينه القديم"[٢]. والآن، أتتبع عوامل انتشار الإسلام فى بلاد ما وراء النهر.

(أ) ترك السلطة فى أيدى حكام البلاد الأصليين

اتجهت السياسة العربية فى بلاد ما وراء النهر بعد الفتح الإسلامى، نحو اجتذاب سكان البلاد نحو الإسلام، وأول هذه الخطوات هى إبقاؤهم السلطة فى أيدى حكام البلاد الأصليين. بغرض حثهم على الدخول فى الإسلام؛ لذا فقد تركوا الأمراء فى بيكند، وراميثن، وفرغانة يحكمون بلادهم[٣] على أن يشترك مع كل واحد منهم أمير عربى يُعَين من قِبَل الخليفة يأتى فى المنزلة التالية[٤].

وطبقًا لهذه السياسة، قام قتيبة بن مسلم (49- 96هـ/ 669- 715م) بعد فتح بخارى بإعادة الأمير طغشاده بن بيدون (بخار خدات) ، إلى عرش البلاد، حيث كان الوزير وردان خدات قد انتزعها منه أثناء الفتح الإسلامى، "وصفا لطغشاده المُلك، وكف عنه جميع أعدائه"[٥] على قول النرشخى.

وسار الولاة بعد قتيبة على هذه السياسة، فظل طغشاده حاكمًا على بخارى حتى عهد الوالى نصر بن سيار (120- 130هـ/ 738- 748م)، وعلى ذلك يكون طغشاده قد حكم بخارى فى ظل الحكم الإسلامى ما يقرب من اثنتين وثلاثين سنة.

---

(١) نفس المرجع، والجزء، ص279.

(٢) الدعوة إلى الإسلام، ص238.

(٣) د. محمد أحمد: بخارى فى صدر الإسلام، ص238.

(٤) فامبرى: تاريخ بخارى، ص67. بارتولد: تركستان، ص304.

(٥) النرشخى: تاريخ بخارى، ص24.

استمرت هذه السياسة حتى قامت الدولة العباسية (132هـ/ 750م) ونجح الوالى أبو مسلم الخراسانى فى القضاء على الدولة الأموية، وتولى حكم خراسان وبلاد ما وراء النهر، فأجلس قتيبة بن طغشاده على عرش بخارى، بعد أبيه. وظل قتيبة على عرش بخارى حتى ارتد عن الإسلام فقتله أبو مسلم، وأعطى عرش بخارى إلى أخيه بنيات طغشاده الذى ظل أميرًا على بخارى حتى انضم إلى ثورة المقنع والمبيضة فى خلافة المهدى (158- 169هـ/ 744- 785)، وبعد أن قضى المهدى على هذه الثورات - كما سبقت الإشارة - أرسل إلى الأمير بنيات من قتله عام 166هـ/ 782م. ومع هذا فقد ترك العباسيون حكم بخارى فى أسرة بخار خدات. وكان آخر مَنْ خرجت من يده، أبو إسحاق إبراهيم بن خالد[1] الذى كان يُرسل الخراج والغلات فى كل عام إلى الخليفة المقتدر العباسى (282- 320هـ/ 895- 932م).

أما إقليم أشروسنة فقد سبق الحديث عنه، وقلت، إن الخليفة المأمون والمعتصم قد أبقيا على أسرة الأفشين[2] حاكمةً لهذا الإقليم، حتى سنة 279هـ/ 892م.

ويبدو أن هذا النظام - أعنى ترك السلطة فى أيدى حكام البلاد الأصليين - قد ظل متبعًا فى باقى أقاليم بلاد ما وراء النهر، ولكن للأسف لم تمدنا المصادر بشيء عنها، ولكننى أستطيع القول، إن سياسة التسامح التى طبقها الخلفاء مع أمراء بلاد ما وراء النهر، كانت خطوة فى سبيل نشر الإسلام فى هذه البلاد.

(ب) الدعوة إلى الإسلام بالحكمة والموعظة الحسنة

سلك المسلمون مع سكان هذه البلاد، طريقة الدعوة إلى الله تعالى بالحكمة والموعظة والحسنة، وذلك بإرشادهم إلى معرفة الله تعالى، بالطرق الصحيحة، وبأنه - سبحانه - هو خالق هذا الكون، المدبر لشئونه.

فى ولاية سعيد بن عثمان بن عفان (56هـ/ 672م)، وبعد عقده الصلح مع خاتون ملكة بخارى، مرض سعيد مرضًا شديدًا. فعادته الملكة، وأحضرت إليه بعض التمرات القديمة، كانت تحتفظ بها فى كيس مملوء بالذهب، ظانة أن هذا

---

(١) النرشخى: نفس المصدر، ص24- 25.

(٢) البلاذرى: فتوح البلدان، ص566.

التمر يشفيه، وعندما رأى سعيد هذا أمر بإرسال خمسة أحمال من التمر الطازج إليها[1]. ثم أعلمها أن التمر لا يشفى وحده، بل إن الأمر كله بيد الله تعالى، فهو الذى يشفى، وهو الذى يُحْيى، وهو الذى يميت وهو على كل شىء قدير.

وفى ولاية سلم بن زياد (37- 93هـ/ 657- 712م)، وبعد تجديد الصلح مع الملكة خاتون، طلبت منه أن ترى عبد الله بن خازم – وكان ، شديد الاحمرار، فارع الطول – عندما رأته أول مرة فزعت منه، وأغمى عليها – وعندما حضر إليها سجدت له[2]. فنهاها سلم وأعلمها بأنه لا يجوز السجود لغير الله تعالى.

وفى ولاية قتيبة بن مسلم بعد أن فرغ من فتح سمرقند أُتى إليه بالأصنام. وكانت كالقصر العظيم، كما يقول ابن الأثير[3]. فأخذها قتيبة، وأمر بها فأُحرقت. فجاءه غوزك وحذره من ذلك مخوفًا إياه قائلًا: "إن شكرك علىّ واجب، لا تتعرض لهذه الأصنام. فإن منها أصنامًا مَن أحرقها هلك. فقام قتيبة، وأحرقها بيديه أمام أهل سمرقند"[4]. وهو يقرأ قوله تعالى: ﴿فكيدونى جميعًا ثم لا تُنظرون﴾[5]. وكان من أثر ذلك العمل أن دان بالإسلام عدد كبير من أهل سمرقند[6]. ويؤكد الأستاذ الدكتور عبد الشافى محمد عبد اللطيف، على أهمية هذا الحادث فى نشر الإسلام فى هذه البلاد، ويذكر "أنه قد أسلم ما يقرب من عشرين ألفًا من أهل بخارى، وكش، ونسف. وهؤلاء استعان بهم قتيبة فى فتح إقليم الشاش"[7]. على حين يشير المستشرق آرنولد، إلى أن تحول أهل بلاد ما وراء النهر إلى الإسلام كان ضئيلًا.

---

(١) النرشخى: تاريخ بخارى، ص66.
(٢) النرشخى: نفس المصدر، ص72.
(٣) ابن الأثير: الكامل، جـ4، ص275.
(٤) ابن الجوزى: المنتظم، جـ7، ص309. ابن كثير: البداية والنهاية، جـ9، ص84.
(٥) سورة، هود. الآية 55.
(٦) البلاذرى: فتوح البلدان، ص556. آرنولد: الدعوة إلى الإسلام، ص243.
(٧) العالم الإسلامى فى العصر الأموى، ص435.

وهذا خطأ تاريخى ، فإسلام عشرين ألفًا ليس بالعدد القليل. والحقيقة، إنّ الله تعالى قد شرح صدور أهل هذه البلاد إلى الإسلام، واشتراكهم فى فتح إقليم الشاش، ينهض دليلا على حسن إسلامهم.

وبتولى الخليفة عمر بن عبد العزيز (99-101هـ/717-720م) الخلافة الأموية عمل على نشر الإسلام فى بلاد ما وراء النهر، فقد طبق مبدأ التسامح مع الترك، فى ظل سياسة مرسومة لترغيب الناس فى الإسلام، فأسقط الجزية عمن أسلم، وأمر عماله بنشر الإسلام بينهم، وقرر العطاء لمن دخل فى الإسلام. وكان من نتائج هذه السياسة أن حضرت وفود التُبت إلى الجراح بن عبد الله الحكمى - والى خراسان - يسألونه أن يبعث إليهم مَنْ يعرفهم بالإسلام[1]. وعندما علم عمر بعسف وظلم الوالى الجراح (ت112هـ/ 730م)، وأنه أخذ الجزية ممن أسلم أمر بعزله، وولى مكانه عبد الرحمن بن نُعيم الغامدى[2]. وكتب عمر إلى جميع عماله: "والله لوددت أن الناس كلهم أسلموا حتى نكون أنا وأنت حراثين نأكل من كسب أيدينا"[3]. ويبدو أن الوالى عبد الرحمن قد أحسن السيرة بين سكان بلاد ما وراء النهر، فازدادوا رغبة فى الإسلام.

استمرت الدعوة إلى الإسلام بالحكمة والموعظة الحسنة، بين سكان بلاد ما وراء النهر، ففى ولاية أشرس بن عبد الله السُّلمى على خراسان (108- 110هـ/ 727- 729) من قِبل الخليفة هشام بن عبد الملك (105-125هـ/ 724- 743م)، أرسل الدعاة إلى هذه البلاد، ليدعوهم إلى الإسلام. وكان على رأس هؤلاء الدعاة أبو الصيداء صالح بن طريف[4] والذى نجح فى مهمته، وأثمرت دعوته نتائج طيبة فأقبل أهل ما وراء النهر على اعتناق الإسلام، وصحت عقيدتهم، وبنوا المساجد[5].

ولمّا تولى نصر بن سيار (120- 130هـ/ 738- 748م) حكم خراسان، خطا خطوات واسعة فى سبيل نشر الإسلام فى بلاد ما وراء النهر، ونجح فى حل مشكلة الجزية المفروضة على من أسلم من أهل هذه البلاد. بأن أُلقيت عنهم ووضعت على

---

(١) اليعقوبى: تاريخ اليعقوبى، جـ2، ص211.

(٢) البلاذرى: فتوح البلدان، ص516.

(٣) ابن الجوزى: سيرة عمر بن عبد العزيز، ص90.

(٤) ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، جـ3، ص87- 88.

(٥) ابن الجوزى: المنتظم، جـ7، ص135.

المشركين فقط. فلم يمض أسبوع حتى أتاه ثلاثون ألف مسلم[١]؛ كذلك نجح نصر في عقد الصلح مع أهل الصغد الذين فروا إلى بلاد الترك سنة 123هـ/ 741م، وسمح لهم بالعودة إلى ديارهم، وقبل شروطهم، ومنها[٢]:

(1) ألا يعاقب مَن ارتد منهم عن الإسلام.

(2) ألا يؤخذ أسير المسلمين منهم إلا بقضية قاضٍ، وشهادة عدول.

(3) أن يعفو عن ديونهم السابقة.

(4) أن يعفو عن الخراج المتأخر عليهم.

وعلى الرغم من إنكار بعض المسلمين لهذه الشروط، فإن جواب نصر، كان واضحًا حين قال: "والله لو عاينتم شوكتهم في المسلمين مثل ما عاينت ما أنكرتم ذلك"[٣]. وأمضى الخليفة هشام بن عبد الملك هذا الصلح رغم معارضته لبعض شروطه.

ويبدو أن سياسة نصر بن سيار قد حققت نجاحًا كبيرًا بين سكان بلاد ما وراء النهر، حتى إنَّ النرشخي ذكر أن دهاقين بخاري قد أعلنوا إسلامهم على يد نصر، لمّا رأوا عدله بين الناس[٤]. ويثني المستشرق فامبري - على غير عادته - على نصر، ويصفه بأنه كان "عادلًا بين الرعية"[٥].

وخلاصة القول : إن فتح بلاد ما وراء النهر وتثبيت ذلك الفتح وتهيئة أهلها لقبول الإسلام ، عقيدة وفكرًا وسلوكًا يعتبر من أهم منجزات العصر الأموي.

وإذا انتقلنا إلى الدولة العباسية - فترة البحث - فنجدها قد خطت خطوات ثابتة في سبيل نشر الإسلام في هذه البلاد. وإن كان الفضل يرجع إلى الأمويين في ضم بلاد ما وراء النهر إلى رقعة الدولة الإسلامية، فإن الفضل يرجع إلى

---

(١) ابن الأثير: الكامل، جـ4، ص448.

(٢) ابن كثير: البداية والنهاية، جـ9، ص318.

(٣) ابن قتيبة: عيون الأخبار، جـ1، ص115.

(٤) تاريخ بخارى، ص89- 90.

(٥) تاريخ بخارى، ص77.

العباسيين فى أن تصبح هذه البلاد ديار إسلام. فقد قدموا من الجهود لنشر الإسلام، ما لا يقل عن جهود سلفهم الأمويين.

فالخليفة المأمون (198- 218هـ/ 813- 833م) كان يهتم بإرسال الدعاة إلى بلاد ما وراء النهر. وفى الوقت نفسه، كان يُرغّب ملوكهم للدخول فى الإسلام ويفرض لمن دخل فى الإسلام، و يستميلهم بالرغبة. وعند وصولهم إلى بغداد يوزع عليهم الهدايا الثمينة[1]. وفوق كل ذلك كان يكتب إلى عماله على خراسان، بغزو مَنْ لم يدخل فى طاعته، أو يُعرض عن الإسلام.

وقد اتبع هذا التقليد نفسه، وعلى نطاق واسع الخليفة المعتصم (218-227هـ/833-841م) الذى اتخذ من الأتراك حرسًا خاصًا به، وكان معظمهم من أهل الصغد وفرغانة وأشروسنة والشاش. يقول السيوطى: "كان المعتصم أول خليفة أدخل الأتراك الديوان.. وبلغت غلمانه الأتراك بضعة عشر ألفًا"[2]. وقد أسهمت هذه الظاهرة بصورة فعالة فى نشر الإسلام فى بلاد ما وراء النهر تقربًا للخليفة فى بغداد[3].

وصفوة القول، إن الإسلام قد شق طريقة إلى قلوب أهل بلاد ما وراء النهر بالحكمة والموعظة الحسنة منذ قيام الدولة الأموية. وتحولوا بالتدريج من عقائدهم القديمة إلى الدين الإسلامى السمح. وقد حَسُن إسلام هؤلاء منذ خلافة المعتصم. وأستطيع القول، إن اهتمام الخلفاء منذ ذلك الوقت بأمر هذه المنطقة قد يرجع إلى وجود عدد من أكابر بلاد ما وراء النهر ببلاط الخلافة العباسية ببغداد.

(ج) إسكان العرب مع أهل بلاد ما وراء النهر

استخدم المسلمون فى طريقة الدعوة إلى الإسلام الحكمة والموعظة الحسنة، ولكنهم حين أدركوا أن كثيرًا ممن اعتنق الإسلام - ظاهريًا - يمارسون طقوسهم

(١) البلاذرى: فتوح البلدان، ص566.
(٢) تاريخ الخلفاء، ص335.
(٣) آرنولد: الدعوة إلى الإسلام، ص244.

الدينية القديمة فى سكون الليل، أو فى تكتم بالغ، رأى قتيبة بن مسلم أن يساكن كل واحد من أهل بلاد ما وراء النهر أحد المسلمين فى منزله، ليعلمهم شعائر الإسلام، ويفقههم فى أمور الدين. وليس كما يقول فامبرى "ليكونوا عينًا على الأسـرة التى يسكنها، ويراقب سـلوك هؤلاء"[١]. ولكن النرشخى يثنى على طريقة قتيبة ويقول: "فأظهر الإسـلام بهذه الطريقة، وألزمهم بأحكام الشـريعة، وبنى المساجد، وأزال آثار الكفر، ورسم المجوسية، وكان يبذل فى ذلك جهدًا عظيمًا ويعاقب كل من قصر فى أحكام الشريعة "[٢].

فإذا انتقلنا إلى الدولة العباسية، فإننا نجد أن العرب قد استقروا فى هذه البلاد – كما سبق القول – وبنوا لهم بيوتًا خاصة بهم. ولم نعد نسمع بهذه الطريقة التى اتبعها قتيبة فى أول الفتح الإسلامى لبلاد ما وراء النهر.

(د) بناء المساجد فى بلاد ما وراء النهر:

وجاءت الخطوة الأخيرة فى سبيل نشر الإسلام فى بلاد ما وراء النهر وهى بناء المساجد فى جميع أنحاء البلاد، فلم يغفل قتيبة بن مسلم أهمية بناء المسجد، كرمز للسيادة الإسلامية، حيث أقام أول مسجد جامع فى بلاد ما وراء النهر فى سنة 94هـ/ 712م[٣].

هذا، وقد رغّب قتيبة أهل بلاد ما وراء النهر فى صلاة الجمعة، فكان مَن يحضر منهم إلى الصلاة يعطيه درهمين [٤]. فكان من أثر ذلك أن ازدادت رغبة الناس فى الإسلام. بالإضافة لهذا، فقد يسر عليهم أمر الصلاة، وقراءة القرآن. فسمح لهم بالقراءة والصلاة بالفارسية. وقد وكّل رجلًا يقف وراءهم يصيح فيهم بالفارسية: الركوع أو السجود[٥]. يقول البلاذرى: "واتخذ فيها (سمرقند) مسجدًا.

---

(١) تاريخ بخارى، ص67.

(٢) تاريخ بخارى، ص77.

(٣) ابن الأثير: الكامل، جـ4، ص275.

(٤) النرشخى: تاريخ بخارى، ص 77.

(٥) فامبرى: تاريخ بخارى، ص68.

وخلّف بها جماعة من المسلمين، فيهم الضحاك بن مزاحم ، صاحب التفسير"[1].
ويفهم من كلام البلاذرى أن دور المسجد لم يقتصر على العبادة فقط، بل كان نواة لحركة علمية ظهرت آثارها فيما بعد. كذلك أقام قتيبة مصلى للعيد بالقرب من المسجد الجامع[2]. وقد أدى المسلمون الصلاة فى هذا المكان لعدة سنوات، وفى هذا - بلا شك - إظهار لشعائر المسلمين بين سكان المدينة.

هذا، وقد قامت عدة مساجد أخرى فى إقليم الصغد - ومما يؤسف له أننى لم أعثر على تاريخ بناء هذه المساجد - نذكر منها:

(1) مسجد بنى حنظلة: كان يقوم بالقرب من باب سوق العطارين[3].

(2) مسجد الشام: نسبة إلى جماعة من أهل الشام. وكان يدعى فقهاؤه بلفظ "شامي" ونسب إليه كثير من العلماء[4].

(3) مسجد بنى سعد: كان يقع خلف باب بنى أسد، أحد أبواب بخارى.

(4) مسجد القرشيين: كان يقع على يمين الداخل من الباب الجديد (باب دَرِنو) - أحد أبواب بخارى - وبناه مقاتل بن سليمان القرشى، فنسب إليه[5]. ومقاتل المذكور كان أحد أئمة التفسير أيضًا، مما يؤكد أن مساجد ما وراء النهر قد ظهرت فيها نواة لحركة علمية ازدهرت عبر العصور.

(5) مسجد ماخ: يقع فى الحى الجنوبى الشرقى للمدينة. وقد اختلف المؤرخون حول تسميته. فيذكر النرشخى ويتبعه بارتولد: أن المسجد نسب إلى سوق "ماخ روذ" المخصص لبيع الأصنام قديمًا، ثم تحول بعد ذلك فصار معبدًا للبوذيين. وبعد الفتح الإسلامى تحول إلى مسجد[6]. وصار من أكبر مساجد بخارى. على حين

---

(١) فتوح البلدان، ص555.
(٢) عن توسعات هذا المصلى عبر العصور، انظر النرشخى: المصدر السابق، ص82- 83.
(٣) النرشخى: نفس المصدر، ص84.
(٤) السمعانى: الأنساب، جـ4، ص387. ياقوت: معجم البلدان، جـ3، ص315.
(٥) النرشخى: تاريخ بخارى، ص89. بارتولد، تركستان، ص201.
(٦) بارتولد: نفس المرجع، ص202.

يذكر السمعانى وياقوت الحموى: أن ماخ هذا، كان رجلًا مجوسيًا، وبعد دخوله فى الإسلام حوّل داره إلى مسجد. ويؤكد السمعانى على أنه كانت توجد على عهده (ت562هـ) سوق دائمة فى حى "باب مسجد ماخ"[١].

(6) مسجد بيكند: اشتهر هذا الجامع بمحرابه الذى كان مذهَّبًا ومرصعًا بالأحجار الكريمة. وقد تفنن أهل هذه البلاد فى بنائه وزخرفته حتى وصف بأنه: "لا يوجد بما وراء النهر محراب مثله، ولا أحسن زخرفة منه"[٢] وهذا يؤكد لنا أن أهل هذه البلاد قد اعتنوا ببناء المساجد وزخرفتها.

(7) مسجد أفشنة: بناه قتيبة بن مسلم بعد الفتح الإسلامى لمدينة بخارى.

(8) مسجد محمد بن واسع: أحد قادة الفتح الإسلامى فى جيش قتيبة، وقد اشتهر بالشجاعة، وحُسْن العبادة. يروى صاحب عيون الأخبار: أن قتيبة بن مسلم عندما رأى جيوش الترك، وهاله أمرهم، سأل عن محمد بن واسع، قالوا: هو فى أقصى الميمنة متكئٌ على قوسه يشير بإصبعه نحو السماء. فقال قتيبة تلك الإصبع أحب إلىَّ من مائة ألف سيف[٣]. ثم صار هذا الموضع مسجدًا بعد ذلك.

(9) مسجد كرمينية: يقع بالقرب من السوق.

هذا، بالإضافة لبعض المساجد الأخرى، مثل: مسجد نور، والطواويس، وزندنة[٤]، وغيرها. وبالجملة: فقد أقيمت كثير من المساجد فى بلاد ما وراء النهر، أو بمعنى آخر، لم تخلُ قرية أو مدينة فى بلاد ما وراء النهر من مسجد أو مسجد جامع.

وهنا أسجل عدة ملاحظات حول مساجد بلاد ما وراء النهر:

أولًا: إن المساجد كانت تقام فى الأماكن التى يكثر فيها السكان، رغبة فى إظهار رسالة المسجد فى مجال الدعوة، بالإضافة إلى التيسير على الناس فى إقامة الشعائر.

---

(١) المصدر السابق، جـ5، ص159.

(٢) ابن حوقل: صورة الأرض، ص403.

(٣) عيون الأخبار، جـ1، ص123.

(٤) النرشخى: تاريخ بخارى، ص27- 28.

ثانيًا: إن المساجد كانت تقام غالبًا فى الأسواق، أو قريبًا منها[1]، الأمر الذى يعكس لنا أهمية التجارة فى مجال الدعوة إلى الإسلام. خاصة وأن معظم الأسواق كانت تقام فى يوم جمعة. ثم ظهرت المساجد على الطرق التى تربط بين مدن وقرى بلاد ما وراء النهر.

ثالثًا: وصل عدد المساجد فى بلاد ما وراء النهر نحو ثلاثة وسبعين مسجدًا، وهو عدد ضخم، يعكس لنا أهمية هذه المساجد، ويؤكد فى الوقت نفسه أن معظم هذه المساجد قد تكون من بناء أهل هذه البلاد، مما ينهض دليلًا على حسن إسلامهم.

ونعود إلى المسجد الجامع الذى أسسه قتيبة بن مسلم عام 94هـ/ 712م والذى يعد - بحق - تاج الجوامع[2]. وقد تميز هذا المسجد بالبساطة حيث استخدم فى بنائه الآجُرّ - كما هى عادة البناء فى آسيا الوسطى[3] - ثم أضيفت إليه الأبواب الخشبية، التى نقلت إليه من قصور الأغنياء الذين فروا من الفتح الإسلامى إلى خارج بخارى. يقول النرشخى: "فلما اتسع المسجد الجامع استخدموا تلك الأبواب، وكشطوا وجوه الصور، وتركوا بقيتها وأقاموها"[4]. أما عن تصميم المسجد فى بخارى فى تلك الفترة المبكرة، فلا يختلف عن تصميم المساجد الأولى فى الإسلام، فكان يشتمل على رواق القبلة، وساحة عظيمة للصلاة[5].

(١) المقدسى: أحسن التقاسيم، ص376- 377.

(٢) يعتبر هذا المسجد من أهم آثار بخارى الإسلامية. وقد تحول بعد الثورة البلشفية 1917م إلى متحف ومكتبة، ووضعت أمامه التماثيل، وسميت المكتبة باسم الشيخ الرئيس ابن سينا. التفاصيل فى د. خالد عزب: بخارى الشريفة، ص61.

(٣) د. زكى محمد حسن: الفنون الإيرانية، ص18-330. وأحمد أمين جمعه: المؤسسات الإسلامية فى منطقة آسيا الوسطى، دراسة حضارية معمارية أثرية، رسالة دكتوراه، معهد الدراسات الآسيوية، جامعة الزقازيق، 2002م، ص115 وما بعدها.

(٤) تاريخ بخارى، ص78. وعن تطور هذا المسجد عبر العصور الإسلامية، انظر بارتولد: تركستان، ص204، وما بعدها.

(٥) لمزيد من التفاصيل انظر د. يحيى وزيرى: العمارة الإسلامية والبيئة، ص68، 70، 141، د. محمد الوكيل: عناية الإسلام بتخطيط المدن، ص87- 88. ومصطفى شوقى إبراهيم: التراث الحضارى الإسلامى فى جمهوريات وسط آسيا الإسلامية - دراسة للعمارة والفنون - من القرن 3-10هـ/ 9-16م، رسالة ماجستير، معهد الدراسات الآسيوية جامعة الزقازيق، 2001م، ص04 وما بعدها.

فإذا انتقلنا إلى الدولة العباسية، فإننا نجد التطور قد دخل على مساجد بلاد ما وراء النهر عامة، والمسجد الجامع خاصة. فنجد الوالى الفضل بن يحيى البرمكى (147- 193هـ/ 764- 808م) الذى تولى حكم خراسان (178- 179هـ) للخليفة هارون الرشيد (170- 193هـ/ 876- 808م) قد اهتم بهذا المسجد اهتمامًا كبيرًا. فقام بتوسعته، وأمر بإدخال القناديل فيه لإضاءته. ولم يقتصر دور الفضل على هذا، بل قام بإنشاء كثير من المساجد فى بلاد ما وراء النهر. ومن أهمها: المسجد الجامع الذى أسسه داخل المدينة. ويسمى مسجد الحصار (الحصن)(١) فكان إذا تعطلت الصلاة فى المسجد العتيق، فإنها تؤدى فى مسجد الحصار. وقد أوقف عليه الفضل كثيرًا من الأموال والضياع(٢). والإدريسى يثنى على هذا المسجد بقوله: "وفيها مسجد جامع عديم المثال، كثير الاحتفال به"(٣).

وصفوة القول، إن المسجد كان له دور كبير فى نشر الإسلام فى بلاد ما وراء النهر. وكان يؤدى وظيفته فى مجال الدعوة الإسلامية، وكان فى الوقت نفسه نواة لحركة علمية ظهرت ثم ازدهرت بمرور الأيام. حتى أخرجت لنا عددًا هائلًا من العلماء المسلمين، مازلنا ننهل من مؤلفاتهم. وهكذا، غدت مدن بلاد ما وراء النهر كبخارى وسمرقند وترمذ ونسف وغيرها، من أهم مراكز الحضارة الإسلامية(٤).

وفى الختام نقرر، أن الفتح الإسلامى كان فيه الخير العظيم لسكان بلاد ما وراء النهر، وإن كانت الدولة الأموية قد نجحت فى فتح هذه البلاد وعملت على نشر الإسلام بينهم، فإن "الفضل يرجع إلى العباسيين فى أنهم مكنوا لهذه الحركة الإسلامية العميقة من أن تمضى فى سبيل نجاحها ليكتسب إقليم ما وراء النهر فى مستهل القرن الثالث الهجرى طابعًا إسلاميًا واضحًا. كذلك يرجع الفضل للعباسيين فى حماية الإقليم من الأخطار الداخلية والخارجية التى هددته، وحمايته من خطر الصين، والأتراك الشرقيين. ثم القضاء على ثورات الأمراء المحليين، وثورات

---

(١) النرشخى: تاريخ بخارى، ص79.

(٢) الجهشيارى: الوزراء والكُتّاب، ص191.

(٣) نزهة المشتاق، جـ1، ص494.

(٤) د. عبد الشافى محمد: بحوث فى السيرة النبوية والتاريخ الإسلامى، ص 289.

الخارجين، بالإضافة لنشر الأمن فى ربوع البلاد التى خضعت لسيطرة العباسيين، مما ساعد على إعلاء شأن الحكم العربى فى نظر سكان أهل هذه المناطق. وساعد فى الوقت نفسه على التمكين للحركة الإسلامية من أن تمضى فى طريقها حتى أثمرت هذه البلاد خيرة علماء الإسلام"[1].

(١) د. حسن محمود: الإسلام والحضارة العربية، ص136.

القسم الثانى

الحياة الاقتصادية

الفصل الخامس
"الزراعة والثروة الحيوانية
فى بلاد ما وراء النهر"

المبحث الأول: الأحوال الاقتصادية قبل الفتح الإسلامى:

1. الزراعة.

2. التجارة.

3. العملة (السّكة)

المبحث الثانى: الأنهار ونظام الرى:

1- اهتمام الخلفاء والولاة بنظم الرى.

2- قنوات الرى الرئيسة.

3- وسائل الرى الأخرى.

المبحث الثالث: نظام الزراعة:

1. نظام الخراج.

2. الأساليب الزراعية وطرق العمل.

3. الحاصلات الزراعية.

المبحث الرابع : الثروة الحيوانية:

1- الدواب والأنعام.

2- الأسماك والطيور.

3- الحيوانات البرية.

المبحث الأول

الأحوال الاقتصادية قبل الفتح الإسلامى

أولًا: الزراعة

عُرِفَت بلاد ما وراء النهر بالخصب، وعلى الرغم من وجود الجبال والصحارى التى تحيط بها، إلا إن نهر الصغد (جيحون) كان العامل الأساسى وراء خصوبة أراضيها. كانت الزراعة فى أطوارها بدائية تعتمد على نقر الأرض بالفأس ووضع بذور النباتات، ثم تطورت باستخدام المحراث فتحسن إنتاج الحبوب. وأصبحت مراكز الاستقرار أطول أجلاً وأكثر ثباتًا.

وكان الرى فى بدء استخدامه بدائيًا،وعرف منذ الألف الأول قبل الميلاد.فقد حفرت الأرض بالقرب من مجارى الأنهار لتوجيه المياه من سطح الأرض إلى الأرض المزروعة المطلوب ريها .كما استخدمت مياه العيون والآبار، كما استخدمت السدود - أيضًا - لتجميع المياه[1]. وقد أفرد النرشخى فصلا فى كتابه "تاريخ بخاري" لأنهار المدينة، وذكر من هذه الأنهار، نهر يسمى "شابور كام"[2]، ويختتم النرشخى

(١) د. مصطفى كسبة: المسلون فى آسيا الوسطى، جـ1، ص 73-74 .

(٢) قيل فى سبب تسميته بذلك، أن أحد أبناء كسرى من آل ساسان - لم تذكر الراوية اسمه - غضب من أبيه، وجاء إلى هذه الولاية. فأكرمه حاكمها، وأعطاه المكان ليعمره، فحفر شابور نهرًا عظيمًا، وسماه الناس باسمه. وأقام على ذلك النهر رساتيق، وبنى قصرًا له. وبقيت هذه الرساتيق من بعده ميراثًا لأولاده حتى جاء قتيبة بن مسلم فرد عليهم هذه الرساتيق من أسرة "بخاراخداه" والتى اغتصبتها منهم.النرشخى: تاريخ بخارى،ص 54.

كلامه بعد أن ذكر اثنى عشر نهرًا فى بخارى بقوله: "ولكل نهر ذكرناه رساتيق كثيرة، وماء غزير، ويروى أن كل هذه الأنهار حفرها الناس ماعدا نهر (علو ختفر) فإنه نهر طبيعى حفره ماؤه دون جهد من الأهالي"[١].

ويذكر الإصطخرى وابن حوقل الأنهار التى تتفرع من نهرَىْ جيحون وسيحون[٢]- سوف نتكلم عنها فى فصل الرى والزراعة - مما أدى إلى خصوبة التربة وتقدم الزراعة فى هذه المنطقة.

أما عن الحاصلات الزراعية فى بلاد ما وراء النهر فهى كثيرة ومتنوعة منذ قديم الزمان وظلت وتطورت بعد الفتح الإسلامى، ومنها: القطن، والفواكه بجميع أنواعها، ومنها: العنب، والتفاح، والتين، والبطيخ ، الرياحين: الورد، والبنفسج والزعفران[٣]. كذلك اهتموا بالبساتين اهتمامًا كبيرًا، فقد ذكر النرشخى عن (آل كثكثة) - سبقت الإشارة إليهم - "إنهم أقاموا القصور، وكانت على أبوابها البساتين الجميلة الناضرة. وكانت ضياعهم عزيزة للغاية"[٤].

والجدير بالذكر، أن بلاد ما وراء النهر قد عرفت الأعياد المرتبطة بالزراعة. ومنها: عيد السمسم، ويسمى (هرو داذ). حيث كان يزرع السمسم فى هذا الوقت من كل عام، فصار عيدًا لهم. ومنها: عيد الحنطة، وكان يأتى فى فصل الخريف. وأخيرًا، عيد النيروز ويسمونه "نوروز الفلاحين"[٥]. وكان يأتى فى آخر شهور السنة، فى اليوم الحادى والعشرين[٦] وكان الفلاحون يحافظون على هذا العيد ويعتمدون عليه.

---

(١) النرشخى: نفس المصدر، ص 55.
(٢) المسالك والممالك، ص166، ابن حوقل، صورة الأرض، ص393.
(٣) القلقشندى: صبح الأعشى، جـ4، ص432.
(٤) النرشخى: تاريخ بخارى، ص52.
(٥) النرشخى: نفس المصدر، ص36، وهذا العيد يعرف حاليًا "بعيد الفلاح" وهو بخلاف عيد النيروز الخاص بالمجوس كما نبه النرشخى. وكذلك القلقشندى فى كتابه، صبح الأعشى، جـ2، ص380.
(٦) البيرونى: الآثار الباقية، ص205.

ثانيًا: التجارة

أخذت التجارة نصيبًا كبيرًا من عناية الأهالى، نظرًا لموقع بلاد ما وراء النهر على طرق التجارة الدولية. لذا فقد أوردت لنا مصادرنا الإسلامية الكثير عن التجارة الداخلية، على حين اهتمت المراجع الأجنبية بالتجارة الخارجية.

(أ) التجارة الداخلية

كان مركز هذه التجارة الأسواق، ومنها: سوق الطواويس، وهو سوق يعقد من قديم الزمان، ومن تقاليده أن تباع به سنويًا لمدة عشرة أيام فى فصل الخريف بقايا السلع المعيبة. ولم يكن فى الإمكان ردها ثانية، وكان يزدحم الناس فى هذا السوق، حيث كان يحضره أكثر من عشرة آلاف تاجر. ومنها سوق شرغ: وهو سوق قديم كان التجار يأتون كل سنة من الولايات البعيدة لحضوره، وكان يعقد لمدة عشرة أيام فى فصل الشتاء، وكانت معظم السلع فى هذا السوق من الحلوى والسمك المملح والطازج، والفراء... إلخ. وكانت التجارة به رائجة. ومنها سوق ورخشه: كان يعقد كل خمسة عشر يومًا. وحين يأتى هذا السوق آخر العام يجعلونه عشرين يومًا[١]. ومنها سوق "ماخ روز"، وهو ينسب إلى ملك من ملوك بخارى اسمه "ماخ"، هو الذى أمر بإقامته، وكان يأمر النجارين، والنقاشين بنحت الأصنام ، حيث كانت تباع فى هذا السوق، وقد وصلت جملة ما يباع منها ما قيمته خمسون ألف درهم فى اليوم الواحد[٢]. وكانت هناك بعض الأسواق الأخرى يقول عنها البيرونى: "ولهم أسواق فى القرى فى الأيام التى أسماؤها فى كل شهر واحدة، تستعمل فى رساتيق بخارى والصغد"[٣].

ولا يخفى علينا أهمية الطرق البرية التى يسرت على التجار طريق الوصول إلى المدن والقرى ذات الأسواق. ولا يخفى علينا كذلك أهمية هذه الأسواق فى الناحية الاجتماعية، فقد أسهمت فى اندماج أهالى القرى، الأمر الذى كان من شأنه أن

---

(١) النرشخى: تاريخ بخارى، ص28، 30، 36، 40. البيرونى: نفس المصدر، ص204.

(٢) مجهول: حدود العالم، ص84، السمعانى: الأنساب، جـ5، ص159 .

(٣) البيرونى: المصدر السابق، ص40.

يربط بين سكان بلاد ما وراء النهر، بحيث صار يعول على التجارة أملًا فى الوصول إلى الوحدة بين سائر سكان المنطقة[1].

(ب) التجارة الخارجية

تمتعت بلاد ما وراء النهر بموقع جغرافى ممتاز، ساعد على تقدم وازدهار التجارة الخارجية بها. خاصة بعد ظهور تجارة الحرير، وهذا يحتاج إلى وقفة سريعة ألقى الضوء فيها على هذه التجارة المهمة.

من قديم الزمان كانت صناعة الحرير مزدهرة فى بلاد الصين، وكان سر هذه الصناعة مكتومًا بحرص شديد، وكانت بلاد الصغد - بخارى وسمرقند - حلقة الوصل بين إمبراطورية الصين، والإمبراطورية البيزنطية[2]. وكان يطلق على الحرير اسم سيرس Series، ومن ثَم أطلق على سكان الصغد الذين كانوا يحملونه إلى الغرب اسم سيرس.

أثر ظهور الترك على تجارة الحرير

يصف المؤرخ الاقتصادى هايد، قيام الإمبراطورية التركية بأنه كان "بمثابة ركن غائر بين الصين وفارس"[3] وذلك بحكم موقع الأتراك الجغرافى المهم، والذى ساعدها على أن تتحكم فى طرق التجارة الدولية التى تربط بين الشرق والغرب، وهذه الطرق باختصار هي[4]:

1- طريق الشمال:

يبدأ من الحدود الصينية، ويمر بصحراء جوبى ويصل إلى نهر سيحون، ومنها إلى الإمبراطورية البيزنطية، وهذا الطريق أقل الطرق خصوبة، وأكثرها وعورة.

---

(١) د. محمد أحمد محمد: بخارى فى صدر الإسلام، ص11.

(٢) جيبون: اضمحلال الإمبراطورية الرومانية وسقوطها، ترجمة د . محمد سليم سالم ،الهيئة العامة للكتاب، 1997م ،جـ 2، ص285، سانت موسى: ميلاد العصور الوسطى، ترجمة عبد العزيز جاويد،الهيئة العامة للكتاب، 1998، ص160.

(٣) هايد: تاريخ التجارة فى الشرق الأدنى فى العصور الوسطى، ترجمة أحمد محمد رضا، الهيئة المصرية للكتاب، 1985م، جـ1، ص26.

(٤) ديفيد براونستون: طريق الحرير، ترجمة أحمد محمود، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، 1997م، ص23 وما بعدها. هايد: المرجع السابق، جـ1، ص27.

2- الطريق الأوسط[1]:

يمتد من حدود الصين، ثم يمر بجبال تيان شان ثم يصل إلى مدينة كاشغر، ومنها يتجه إلى إقليمَىْ فرغانة، وأشروسنة، مارًا بأسواق بلاد الصغد - بخارى وسمرقند - ومن هناك ينحرف صوب الجنوب الغربى حتى يصل إلى بلاد فارس. وكان هذا الطريق أكثر الطرق ثراء وخصوبة واستخدامًا.

3- الطريق الجنوبى

ويبدأ من الصحراء الشاسعة على الحدود الصينية، حتى مدينة يوغنك[٢]، ثم يجتاز هضبة البامير، ثم إقليم بذخشان وطخارستان، ثم يصل أخيرًا إلى الهند[٣].

يتضح لنا من هذه الطرق الثلاثة، أن التجارة التى تريد الوصول إلى الغرب، كان لابد لها من المرور على الإمبراطورية التركية، المشهورة بمهارة التجار[٤]، وكان من الطبيعى أن تقف الإمبراطورية الفارسية (الساسانيون) من الأتراك موقف العداء، إذ كان فى مقدور جيش تركى أن يتوغل فى إقليم فارس بحجة حماية القوافل الصغدية؛ لذلك فقد منع ملك فارس - لم تذكر المصادر اسمه - دخول الحرير إلى بلاده مطلقًا[٥]، بل قام بحرق الحرير أمام أنظار المبعوث التركى بعد أن دفع له ثمنه.

وهكذا بات الموقف عصيبًا، فرأى أهل الصغد ضرورة البحث عن أسواق جديدة لتصريف تجارتهم. فكان عليهم التوجه إلى الإمبراطورية البيزنطية، فهم أكثر الأمم استهلاكًا للحرير والتوابل. ونجحت السفارة التى أرسلت إلى الإمبراطور جستيان الذى أحسن استقبالها وأرسل مبعوثًا من قِبله إلى الأتراك.

(١) اليعقوبى: تاريخ اليعقوبى، جـ1، ص158، انظر الملحق رقم (4).

(٢) يوغنك: من قرى سمرقند: السمعانى: الأنساب، جـ5، ص71، ياقوت: معجم البلدان، جـ4، ص513.

(٣) د. حسن إبراهيم: تاريخ الإسلام السياسى، جـ3، ص332.

(٤) شاخت: تراث الإسلام، جـ1، ص176.

(٥) هايد: تاريخ التجارة، جـ1، ص28، براونستون: طريق الحرير، ص215.

وبالفعل؛ راجت التجارة بين الجانبيين. وبمرور الوقت ارتفع عدد الأتراك (من أهل الصغد) فى القسطنطينية، بحجة مزاولة التجارة، إلى بضع مئات فى زمن وجيز.

أثر سقوط الإمبراطورية التركية على تجارة الحرير

لم تستمر العلاقات بين الجانبيين - الأتراك والبيزنطيين - طويلًا، إذ إنه فى النصف الأول من القرن السابع الميلادى - كما سبقت الإشارة - انهارت الإمبراطورية التركية أمام هجمات الصينيين، وابتهجت القبائل التى كانت تمارس التجارة فى إقليم الصغد لهذا التغير، إذ أصبح فى مقدورها أن تصل إلى الصين دون أن تصادف أى عوائق[1].

وعادت قوافل الساسانيين والبيزنطيين تجوب الطرق للحصول على الحرير الخام من الصين بأقل الأسعار. وإذا كانت التجارة الداخلية قد ربطت بين سكان بلاد ما وراء النهر، فإن التجارة الخارجية قد ربطت بين بلاد ما وراء النهر والعالم الخارجى، يقول المستشرق جب: "وكان أقوى ما يصل بين الولايات من رباط إنما هو تجارة الحرير مع الصينيين، وأهم مراكزها: سمرقند، وبيكند، وكش. وكانت سمرقند أوفرها حظًا من النجاح فى عالم التجارة، ومنها كانت ترسل البعوث التجارية الكثيرة إلى بلاط ملك الصين"[2].

هذا، ولم تقتصر التجارة الخارجية لبلاد ما وراء النهر على الحرير فقط، بل شملت بعض السلع الأخرى نكتفى بالإشارة إليها. ومنها: القصدير، والحديد، والفضة، والألماس، والجواهر، والمنسوجات الصوفية، والعقاقير والتوابل، والعطور، وبعض الأدوات المنزلية، وغيرها[3].

---

(١) هايد: تاريخ التجارة، جـ1، ص30، براونستون: طريق الحرير، ص217.

(2) Gibb: The Arab Conquests -.P 5-6

(٣) براونستون: طريق الحرير، ص78، 85، 67، 103، 104.

أما عن وسائل النقل المستخدمة فى نقل السلع على الطريق البرية، فمنها: الخيل، والبغال، والحمير، والجمال . وكانت هذه الحيوانات تسير فى نظام القوافل. وكان التجار يتبعون طرقًا رئيسة، وضعت عليها العلامات الإرشادية لمساعدتهم على مواصلة السير[١].

ثالثًا: العملة (السِّكة): كانت العملة المتداولة فى بلاد ما وراء النهر قبل الإسلام، من الفضة (الدراهم). ووفقًا لقول النرشخى، فإن الملك (بخارا خداه) هو أول من سك عملة من الفضة الخالصة[٢] فى هذه البلاد ثم بدأ تداول هذه النقود بين الناس.

وقد ذكر المستشرق الروسى بارتولد، أن علماء النُّمِّيات (المسكوكات) قد عثروا على كثير من النقود المتداولة فى آسيا الوسطى قُبيل الفتح الإسلامى، فى مدن سمرقند، وخجنده، وخيوه. والعلماء يقسمون هذه النقود إلى قسمين، هما:

(أ) النقود الخوارزمية

وكانت تحمل على وجهها صورة لرأس ملك وصدره، ونقش على ظهرها مذبح به النار المقدسة. وعليها كتابة رأى المستشرق (ماركوف): إنها تعنى الحاكم المطلق، بينما قرأها المستشرق (دونر): الملك العادل[٣].

(ب) النقود الصغدية.

كانت من أنواع شتى، ولكنها تحمل صورة الملك الساسانى بهرام جور (420-438م). لذا فإن بارتولد يرجح أن ملك الصغد (بخارا خداه) قد اقتبس شكل العملة من جيرانه الساسانيين[٤]. هذا؛ وقد ظلت هذه العملة مستعملة فى بلاد ما وراء النهر حتى القرن الثانى الهجرى (الثامن الميلادى).

---

(١) د محمد جمال الدين سرور تاريخ الحضارة الإسلامية فى الشرق ،ص 148.

(٢) تاريخ بخارى، ص21 -61.

(٣) بارتولد: تركستان، ص329.

(٤) بارتولد: نفس المرجع، ص330.

المبحث الثانى

الأنهار ونظام الرى

أولًا: اهتمام الخلفاء والولاة بنظم الرى

استمر اهتمام الخلفاء العباسيين – كالأمويين – بالنشاط الزراعى فقد حرصوا على تنميته وتطويره، إدراكًا منهم بأهمية الزراعة كمصدر مهم من مصادر الدخل القومى للدولة حينذاك.

بدأ اهتمام العباسيين بالزراعة منذ قيام دولتهم، فقد أمر الخليفة المنصور – المؤسس الحقيقى للدولة العباسية – إدراكًا منه بأهمية المياه، بإنشاء "ديوان الأكرية"، والذى كانت مهمته الأساسية: الاهتمام ببناء السدود، وحفر الترع، وشق القنوات، وكرى الأنهار[1]. كذلك جعل العباسيون لمياه الرى، ديوانًا خاصًا يسمى "ديوان الماء" كان يشرف على هذا الديوان مهندس كبير يسمى "المَلّاَّح" يعاونه أكثر من عشرة آلاف عامل. وكانت مَهمَّة هذا الديوان كما يقول الخوارزمى: "يحفظ فيه خراج كل من أرباب المياه، وما يزيد فيه وينقص... ويحتفظ فيه بما يملكه كل منهم (المهندسين) من الماء وما يباع وما يشترى منه"[2].

---

(١) عصام عباس نقلى: تحليل الفكر الاقتصادى فى العصر العباسى الأول، مكة المكرمة، 1416هـ، ص66.

(٢) الخوارزمى: مفاتيح العلوم، ص 69.

وبخصوص خراسان وبلاد ما وراء النهر، فإن الخليفة المعتصم العباسى (218-227هـ/ 833- 841م) أمر بحفر قناة للرى من نهر سيحون بتكلفة تصل إلى مليونَىْ درهم - ألفَىْ ألف درهم - من ماله الخاص[١]. وفى ولاية عبد الله بن طاهر (213- 230هـ/ 828- 844م) لخراسان نظم إدارتها. حتى قال عنه اليعقوبى: إنه حكم خراسان كما لم يحكمها أحد من قبله، ودانت له البلاد[٢] واهتم بأمور الرى، حيث استدعى بعض فقهاء خراسان، وبعض فقهاء العراق، ووضعوا قوانين تنظم استعمال الماء فى الرى، وذلك بسبب كثرة المنازعات بين الأهالى. وصار هذا الكتاب، والذى أطلق عليه الفقهاء كتاب "القنى" هو المرشد فى حل المنازعات التى تقع بسبب مياه الرى.

والجدير بالذكر، أن هذا الكتاب ظل يُعمل به لمدة قرنين من الزمان. حتى إن الكرديزى قال: "وهم يعملون على حسب الأحكام التى وردت فيه، وهذا الكتاب موجود حتى الآن (443هـ/ 1051م) وأحكام القنى والقنيات التى تدور حول هذا المعنى تسير بموجب هذا الكتاب"[٣].

نعود إلى بلاد ما وراء النهر، فنجد أن بخارى كان بها أميرٌ للمياه، يهتم بشئونها، ويشرف عليها. وشغل هذا المنصب - لفترة طويلة - أبو الفضل محمد بن يوسف الريحانى[٤]. ونقرأ فى ترجمة القاضى سعيد بن خلف البلخى، أنه تولى قضاء بخارى عام 213هـ، (828م). وقد مارس القضاء على وجه كان يُضرب به المثل فى العدل والإنصاف، وأنه سن سننًا حسنة، منها: أنه وضع نظام عسس (شرطة) للمياه، وتقسيم الماء بين أهل بخارى بالعدل والإنصاف حتى لا يجور القوى على الضعيف[٥]. وكان على نهر الصغد عامل يقيم فى سمرقند ومعه جماعة مهمتهم إصلاح وصيانة السدود ومجارى الأنهار[٦].

---

(١) الطبرى: تاريخ الأمم والملوك، جـ5، ص272.

(٢) اليعقوبى: تاريخ اليعقوبى، جـ2، ص338.

(٣) الكرديزى: زين الأخبار، ص218.

(٤) السمعانى: الأنساب، جـ3، ص113، لفظ "الريحانى".

(٥) النرشخى: تاريخ بخارى، ص17.

(٦) ابن حوقل: صورة الأرض، ص409.

ثانيًا: قنوات الرى الرئيسة

كان حفر القنوات[١] يحتاج إلى مهارة كبيرة، حيث كان على المهندسين المشرفين على الحفر، أن يعالجوا طبيعة الأرض التى يجرى بها الماء؛ كما كان لابد لهم أن يجعلوا أثناء الحفر ميلًا فى انحدار القناة بحيث يساعد الماء على سرعة الجريان عند ازدياده ، ولكى تستعمل قوة جريان مائها فى إدارة الطواحين[٢].

الجدير بالذكر أن الأرض فى بلاد ما وراء النهر أرض جبلية، صخرية فى مناطق كثيرة. وهذا يجعل العمل فيها شاقًا جدًا. وذلك على عكس التربة فى مصر والعراق مثلًا. يقول فامبرى عن أسباب تقدم الزراعة فى بلاد ما وراء النهر: "وذلك لطريقة الرى الفذة التى كانوا يستخدمونها"[٣]، بينما يثنى المستشرق شاخت على عبقرية العلماء المسلمين حين يقول: "وكان هناك أسلوبٌ (هيدروليكىٌّ) ينتمى بصورة واضحة – نوعًا ما – إلى التراث الإسلامى. هذا الأسلوب هو القنوات"[٤].

وأعرض الآن لقنوات الرى فى بلاد ما وراء النهر، وهى كالتالى:

(١) إقليم الصغد

(أ) بخارى: تمتعت بخارى بموقع ممتاز على نهر زرافشان – أحد روافد الصغد – مما أكسبها طبيعة خاصة. يقول ابن حوقل: "وأرض بخارى كلها قريبة إلى الماء لأنها مغيض ماء الصغد"[٥]. ويذكر النرشخى أن القناة الرئيسة التى كانت تجلب الماء إلى بخارى تحمل اسم (رود زر) – ومعناها النهر الذهبى – قام أهالى بخارى بشق القنوات التى تتشعب داخل المدينة متفرعة من هذه القناة الكبرى[٦].

هذا، وقد حفظ لنا الإصطخرى وابن حوقل[٧] أسماء هذه القنوات، وهى:

---

(١) القناة : مجرى أفقى تقريبًا يمتد داخل الأرض، وفيه تنساب المياه من المناطق الغنية بها إلى الأماكن التى تفتقر إليها.المعجم الوسيط ، جـ2، ص 518.

(٢) دونالد هيل :العلوم والهندسة فى الحضارة الإسلامية،عالم المعرفة، الكويت،ص 235. آدم متز: الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى، جـ2، ص248– 250.

(٣) تاريخ بخارى، ص29.

(٤) تراث الإسلام، جـ1 ، ص307.

(٥) صورة الأرض ، ص 402.

(٦) تاريخ بخارى، ص55.

(٧) المسالك والممالك، ص172، صورة الأرض، ص399.

(١) قناة فَشِيدِيَزه: تخرج من مكان يعرف بالوزع، ثم تجرى فى درب المردقشة ثم تجتاز فى طريق مجرى أبى إبراهيم، حتى تنتهى إلى باب الشيخ أبى الفضل، ثم تصب فى قناة نوكنده. وهذه القناة تسقى الأرضى ، ويصل طولها نحو نصف فرسخ (عند ابن حوقل فرسخ).

(2) قناة جُوَيْبَار بكار (معناها المجرى الذى تعم به الفائدة): تخرج من موضع يعرف بمسجد (أحيد) فى وسط المدينة، وتصب فى قناة نوكنده وكانت تسقى الأراضى.

(3) قناة جُوَيْبَار القَوارِيرِيِين – معناها صناع الزجاج -: تخرج من موضع يعرف بمسجد (العارض). فتسقى بعض الريض. وكانت هذه القناة أغزر وأعمر من القناة السابقة، لذا فهى تروى عددًا أكبر من البساتين.

(4) قناة جوغشج (المعروف بُجوَيْبَار العارض): تخرج أيضًا من أمام مسجد العارض، فتسقى بعض الريض. وتصب فى قناة نوكنده.

(5) قناة بيكند: كانت تأخذ من القناة الرئيسة (رود زر) عند رأس سكة ختع – ومعناها المرشد – فتسقى بعض الريض، ثم تصب فى قناة نوكنده.

(6) قناة نوكنده (معناها المحفورة حديثًا) :تخرج من أمام دار حمدونة وكانت تعد مصبًا لبقية القنوات، وبعد أن تسقى البساتين، تضيع فى الصحراء دون أن تستعمل فى رى الأراضى. يقول ابن حوقل: "وهى مفيض للمياه، وعليها شرب بعض الريض، ويفيض فى المفازة (الصحراء) الباقى وليس عليها شرب لأحد"[١].

(7) قناة الطاحونة: تخرج من بخارى عند موضع يعرف بالنوبهار، وتسقى بعض الريض، وتنتهى عند مدينة بيكند. وكانت تستعمل فى سقى الأهالى.

(8) قناة كشنه: تخرج من المدينة من نفس الموضع السابق (النوبهار) وعليها ربض هذه الناحية، ثم تسقى القصور والضياع والبساتين الكثيرة حتى تصل إلى مدينة (ما يمرغ).

---

(١) ابن حوقل المصدر السابق، ص400.

(9) قناة رَيَاح: تخرج من القناة الرئيسة، فتسقى بعض الربض وتنتهى عند قصر رياح. وكانت تسقى ألف بستان على الأقل.

(10) قناة الريكَستان: تخرج من القناة الرئيسة بقرب الريكستان وعليها شربهم، وأهل القلعة ودار الإمارة، وتنتهى إلى قصور جلال ديزه.

(11) قناة لم تسم: تخرج من المدينة قرب قنطرة حمدونه، وكانت تجرى تحت الأرض لتسقى الأراضى القريبة من باب بنى أسد - أحد أبواب بخارى - ثم يذهب الفائض منها فى خندق القلعة.

(12) قناة زغار كنده: تخرج من القناة الرئيسة عند (بورغ). ثم تجرى حتى تصل إلى باب سمرقند، وتجاوره بنحو فرسخ. وكانت تسقى القصور والبساتين والأراضى الواقعة هناك.

هذا بالإضافة إلى بعض القنوات الأخرى التى تسقى الرساتيق ونكتفى بذكر أسمائها، وهى كالتالى[1]:

1- قناة شابوركام: عند الإصطخرى (سافرى كام)، وابن حوقل (شافرى كام).

2- قناة خرقان رود: عند(الإصطخرى وابن حوقل) خرغان روذ.

3- عاو ختفر: عند الإصطخرى (بنجار جفر)، ابن حوقل (بنجار ختفر).

4- سامجن: عند (الإصطخرى وابن حوقل) جرغ.

5- بيكان رود: هكذا ذكرها الإصطخرى وابن حوقل.

6- فراواز العليا: عند الإصطخرى (فراور العليا).

7- فراواز السفلى: عند الإصطخرى (فراور السفلى).

8- أروان: عند (الإصطخرى وابن حوقل) أزوان.

---

(1) الإصطخرى: نفس المصدر، ص173- 174، ابن حوقل: نفس المصدر، ص401- 402، النرشخى: تاريخ بخارى، ص54- 55.

9- كيفر: عند السمعانى (ختفر)، وعند ياقوت (جيفر)[1].

10- رود زر: القناة الرئيسة، وعند الإصطخرى، وابن حوقل (الذر).

11- نوكنده: عند (الإصطخرى وابن حوقل) بنوكنده.

12- فرخشه: عند (السمعانى وياقوت) د خفندون[2]

13- الراميثة. 14- كرمينية. 15- خامه.

(ب) سمرقند: كذلك تمتعت سمرقند بمجموعة من القنوات المائية التى ساعدت على خصوبة تربتها، وتقدم الزراعة بها. وهذه القنوات هى[3]:

1- قناة سمرقند: سبق القول - فى العرض الجغرافى للمدينة - إن خندقًا كبيرًا كان يحيط بسمرقند. ولإيصال الماء عبر هذا الخندق بنيت "مُسَنَّأَة" عالية من الحجر يجرى عليها الماء عند موضع (الصفارين). وكان الماء يدخل المدينة من باب كش عند موضع يعرف برأس الطاق، وكان جانبا هذه القناة مكسوَّيْن بالرصاص[4]، وعلى حافاتها غلات موقوفة على صيانة وحفظ هذه القناة. وموكل بحراستها شتاء وصيفًا عمال من أهل سمرقند، وفى نظير ذلك كان لا يؤخذ منهم الخراج.

2- قناة برش: تخرج من أمام سد ورغسر، وتمر على سمرقند، وتسقى البساتين والقرى، وهى من أكبر قنوات المدينة.

3- قناة بارمش (وينكى اريق حاليًا): تلى القناة السابقة من ناحية الجنوب، وتقع القرى على جانبى هذه القناة، فكانت تُسقى منها.

4- قناة يشمين (قازان اريق حاليًا): تخرج من جنوب بحيرة بارمش السابقة، وإن كانت أصغر منها، إلا أنها تسقى قرى كثيرة، وقد يقع بها الجفاف فى بعض السنوات. وكان يتشعب من هذه القنوات، قنوات أخرى كثيرة يصعب إحصاؤها،

(1) السمعانى: الأنساب، جـ1، ص226 لفظ "الأودانى"، وانظر ياقوت: معجم البلدان، جـ1، ص221.

(2) [..]معانى: نفس المصدر، جـ2، ص463، لفظ "حفندونى"، ياقوت: نفس المصدر، جـ2، ص293.

(3) الإ[..]خرى: المسالك والممالك. ص177، ابن حوقل: صورة الأرض، ص406.

(4) القزوي[..] آثار البلاد، ص536. السمعانى: المصدر السابق، جـ1، ص242، لفظ "البابكسى". ياقوت: المصدر ال[..] جـ3، ص67.

تعمر بها القرى والمزارع. من أول رستاق ورغسر إلى آخر رستاق درغم، فى مسافة تصل إلى عشرة فراسخ طولاً، فى أربعة فراسخ عرضًا. كما يقول الإصطخرى.

5- قناة السناواب: تخرج من نهر جوبار - أحد روافد نهر الصغد - فتسقى القرى حتى رستاق اشتيخن.

6- قناة بوزماجن: (عند الإصطخرى بوزماجز): تخرج من جهة المشرق، فتسقى القرى والأراضى حتى تصل إلى رستاق وذّار.

7- قناة اشتيخن: تُعد أطول وأهم هذه القنوات[1]، حيث كانت تجرى لمسافة أربعة فراسخ، فتسقى الأراضى والبساتين، ثم يتفرع منها قنوات أخرى صغيرة، فتجرى مقدار تسعة فراسخ. وبذلك تعم المياه جميع الأراضى.

8- قناة فيّ: تخرج من قناة اشتيخن، على بُعد مرحلتين من سمرقند والمنطقة التى ترويها هذه القناة تعد من أخصب نواحى الصغد، وأكثرها سكانًا "وهى ثلث الصغد" كما يقول ابن حوقل.

9- قناتا ارينجن والدبوسية: وتنتهيان إلى بخارى.

10- قناتا يَارْكَث وبُورْنَمذَ: لم تبلغ إليهما مياه نهر الزرافشان؛ لذا فهما تعتمدان على مياه العيون والأمطار، ومع ذلك فهذه المنطقة كثيرة القرى، عظيمة المراعى، واسعة، خصبة.

11- قناة كينجكث: (عند الإصطخرى بنجيكث): تعد من أطول القنوات؛ حيث تصل من ورغسر إلى بخارى، حيث تتفرع منها عدة قنوات أخرى فتسقى القرى والبساتين.

ويتفق كل من الإصطخرى وابن حوقل على أن "عدد الأنهار (القنوات) برستاق سمرقند كثيرة، لكثرة عدد قراها وتعددها، وربما كان للقرية الواحدة منها نهران وثلاثة، ويكثر فى المدينة انشعاب الأنهار الصغار، بحسب عدد الدُّور والبساتين والقصور"[2].

---

(١) ياقوت: معجم البلدان، جـ1، ص160، الإدريسى: نزهة المشتاق، جـ1، ص499.

(٢) الإصطخرى: المسالك والممالك، ص179، ابن حوقل: صورة الأرض، ص409.

(ج) كش: تمتعت ..دينة كش بعديد من القنوات الصناعية، وأهمها[١]:

١- قناة القصارين (كشكه دريا): تخرج من جبال سيام، وتجرى حتى جنوب المدينة.

2- قناة أسرود (عند ابن حوقل والإدريسى أسروذ): تخرج من رستاق (كشك روذ) وتجرى فى شمال المدينة.

3- قناة كُشْك روذ: (أى النهر الجاف): تخرج من بُعد فرسخ من المدينة على طريق بلخ، وتسقى الأراضى.

4- قناة خروذه: تخرج من بُعد فرسخ من سمرقند.

وهذه القنوات بعد أن تسقى رساتيق كش تجتمع فضلاتها فتصير نهرًا واحدًا يصل إلى مدينة نسف.

(د) نسف (نخشب):

لم يكن لها سوى قناة واحدة تجرى فى وسطها، وهى قناة القصارين - كشكه دريا - السابقة الذكر - لذا فإن المياه كانت لا تكفى الزراعة وسقى الأراضى، مما اضطر أهل نسف إلى الاعتماد على مياه الآبار والعيون[٢].

(2) إقليم خوارزم: الإقليم الثانى من أقاليم بلاد ما وراء النهر، وهو واحة جميلة، يقع فى الأراضى المنخفضة على نهر جيحون، وهو يتميز بعدة قسمات جذابة. فزراعة الدلتا فى خوارزم كانت تتطلب مجهودًا كبيرًا؛ لشق عدة قنوات تغطى هذه الدلتا[٣]. وأهم هذه القنوات ما يلى[٤]:

'لإصطخرى: نفس المصدر، ص281، ابن حوقل: نفس المصدر، ص412، الإدريسى: نزهة المشتاق،
(٢) ،ص499.
(٣) لسترتركستان، ص241.
(٤) الإصطخرى ان الخلافة الشرقية، ص496، هيل: العلوم والهندسة، ص229.
'سالك والممالك، ص169- 170، ابن حوقل: صورة الأرض، ص396.

1- قناة هزارأسب: تخرج من غرب نهر جيحون مما يلى مدينة آمل، وتسقى الرساتيق، وتجرى فيها السفن. وكانت هذه القناة تعود مرتدة فى انعطاف دائرى. ولو تابعت اتجاهها لوصلت إلى مدينة آمل.

2- قناة كَرْدُرَان خُواش: (عند المقدسى دران خاس)[١]: كانت على بُعد فرسخين من شمال هزارأسب، تأخذ من نهر جيحون، وهى أكبر من القناة السابقة.

3- قناة خِيوَه: تقع إلى الشمال من القناة السابقة، وهى أكبر منها، وتجرى فيها السفن الآتية من نهر جيحون إلى هذه المدينة.

وأسفل مخارج هذه القنوات عند الموضع المعروف باسم (أبو قشة) يمر نهر جيحون بخانق جبلى، فيضيق مجرى النهر إلى نحو الثلث، ويصبح خطرًا على السفن[٢]. ويسميه المقدسى (مضيق النهر). ويصير عرض جيحون فى هذه المنطقة نحو ثلاثمائة واثنتين وتسعين ياردة[٣]، ويقدرها الإصطخرى بنحو أربعة أيام[٤].

4- قناة مَدْرا (عند المقدسى مدرى، وابن حوقل والإدريسى مذرى): تخرج من شمال خيوه، من الضفة اليسرى لنهر جيحون، وكانت تسقى المدينة التى تحمل اسمها[٥] وما جاورها. وكان يفصل هذه القناة نحو ثلث فرسخ (عند المقدسى نصف فرسخ) من قناة خيوه.

5- قناة وَذَاك (عند ابن حوقل والإدريسى وذاك): وتعرف حاليًا باسم (قنيا دريا)، تخرج من الضفة الغربية لنهر جيحون، على مسافة فرسخين تقريبًا شمال مدينة كاث. وكانت هذه القناة صالحة للملاحة - تسير فيها السفن - حتى الجرجانية عاصمة خوارزم.

---

(١) المقدسى: أحسن التقاسم، 229ص.
(٢) ابن رسته: الأعلاق النفيسة، ص92- 93.
(٣) بارتولد: تركستان، ص249.
(٤) الإصطخرى: المسالك والممالك، ص170.
(٥) لم تذكر المصادر موقع المدينة بالتفصيل. ولكن السمعانى وياقوت عند كلامهما عن قرية (فرنيفثان) قالا: إنها تقع على مسافة فرسخين من مدرا. السمعانى: الأنساب، جـ4، ص373، لفظ "الفرنيفثاني". وياقوت: معجم البلدان، جـ3، ص431.

6- قناة بُوّه: تخرج من يسار نهر جيحون، ويجتمع ماؤها، وماء قناة وداك السابقة عند قرية أندرستان. وهذه القناة أصغر من سابقتها. ومع ذلك فهى صالحة للملاحة، حيث تجرى فيها السفن حتى الجرجانية.

7- قناة كاو خواره: (عند ابن حوقل غاو خواره) - ومعناه ما يأكل البقر[١] - كانت تأخذ من ضفة جيحون اليمنى - الشرقية - ثم تجرى شمالاً حتى تسقى المزارع فى كاث. وهذه القناة أكبر من قناة هزارأسب بمقدار الضعف. وتبعد عن خوارزم باثنى عشر فرسخًا.

8- قناة كُرْدَرَ: تخرج من الضفة اليمنى لنهر جيحون، على بُعد أربعة فراسخ شمال مدينة كاث. يصف ابن رسته هذا الموضع بقوله: "فإذا انحدرت من المدينة انشعبت منها أنهار (قنوات) وفيوض ذات اليمين، وذات الشمال، فصارت بطائح وآجام ومروج"[٢]. وبعد أن تجرى هذه القناة قليلا تلتقى بعدة قنوات أخرى صغيرة، حتى تصير قناة واحدة، فتصبح فى قدر قناة بوه ووداك معًا.

(3) إقليم طخارستان

نظرًا لقرب هذا الإقليم من نهر جيحون، فإن القنوات الصناعية كانت قليلة، وأهم قنواته: قناة كرى[٣]، التى تخرج من نهر الصغانيان وتصب فى نهر جيحون. وكان أهل ترمذ يشربون منها. أما ضياعهم فتسقى من نهر جيحون نفسه.

(4) إقليم فرغانة: فإذا انتقلنا إلى نهر سيحون وأهم القنوات التى تتفرع منه، فيأتى إقليم فرغانة فى المقدمة، وأهم قنواته[٤]:

١ - قناة أوزكند (قرا دريا حاليًا): تخرج من نهر سيحون من طرفه الشرقى، ثم تمر أمام باب المدينة. وكانت ضحلة بحيث كانت مخاضة للناس لعدم وجود جسر عليها[٥].

---

(١) ياقوت: معجم البلدان، جـ4، ص116.
(٢) ابن رسته: الأعلاق النفيسة، ص92.
(٣) ابن حوقل؛ صورة الأرض، ص419، لسترنج: بلدان الخلافة الشرقية، ص520.
(٤) المقدسى: أحسن التقاسيم، ص272، بارتولد: تركستان، ص268- 277.
(٥) ياقوت: معجم البلدان، جـ1، ص223.

2- قناة قُبا: تقع على مجرى مائى (قناة) تتفرع من نهر سيحون، وتحمل اسم المدينة.

3- قناتا خرشاب وأُورسَتْ: كانتا تخرجان من نهر سيحون، وتسقيان كثيرًا من البساتين والقرى.

4- قناة جِدغل (نرين حاليًا): تخرج من نهر سيحون، وتسقى رساتيق فرغانة.

5- قناة خجندة: كانت تجرى وسط المدينة. وتخرج من غرب سيحون.

6- قناة لم تسم: يقول المقدسى عن مدينة كند: إن بها قناة تجرى وسط السوق.

(5) إقليم أشروسنة:

عند الحديث عن عاصمة الإقليم بومجكث ذكر المقدسى والإصطخرى أن المدينة بها ست قنوات تخرج من عين واحدة، على بُعد فرسخ من المدينة. وأسماء هذه القنوات، هي[1]:

1- سارين: وهى تسقى المدينة من الداخل.

2- إبرجن.

3- بما جن.

4- سنكجن.

5- رويجن.

6- ستينسكجن.

(6) إقليم الشاش

كان يخترق إقليم الشاش، قناتان مهمتان، هما[2]:

1- قناة برك (جرجك حاليًا): تقع جنوب شرق مدينة الشاش تخرج - على ما ذكر ابن حوقل - من شمال قناة جدغل، ومن بلاد الترك الخُزلَخية، وتسقى البساتين حتى مدينة بخاكث.

---

(١) المقدسى: المصدر السابق، ص277، الإصطخرى: المسالك والممالك، ص183، وياقوت: المصدر السابق، جـ1، ص280.

(٢) ابن حوقل: صورة الأرض، ص417، لسترنج: بلدان الخلافة الشرقية، ص520.

2- قناة إيلاق (آنكران حاليًا): كانت تجرى فى جنوب القناة السابقة، وتسقى البساتين فى مدينة بناكث. ومنها كان شربهم، ثم تصب فى وادى الشاش.

وهكذا يتضح لنا أن بلاد ما وراء النهر تمتعت بوجود كثير من قنوات الرى، فى كل الأقاليم مما ساعد على توافر المياه العذبة، وخصوبة التربة، يقول ابن حوقل: "وأما مياههم فإنها أعذب المياه، وأبردها، وأخفها قد عمت جبالها وضواحيها ومدنها"[١]. ويضيف القزوينى: "وترابها أطيب الأتربة"[٢].

ثالثًا: الجسور (القناطر)

عرفت الحضارة الإسلامية نوعان من الجسور[٣]، هما:

(أ) الجسور السلطانية: وهى الجسور العامة للبلاد الكبيرة، وكان يشرف على صيانتها فى كل عام أمير، ومعه جماعة من المهندسين والعمال، وكانت مهمتهم الإشراف على الجسور، وكانت نفقاتهم تخرج من بيت المال.

(ب) الجسور البلدية: وهى الخاصة ببلد دون بلد، ويتولى عمارتها والى الإقليم، أو أمير المدينة. وكان ينفق عليها من بيت مال الولاية.

ويفرق القلقشندى بين الاثنين بقوله: "إن الجسور السلطانية: جارية مجرى سور المدينة الذى يجب على السلطان الاهتمام بعمارتها والنظر فى مصلحة وكفاية أمر العامة الفكرة فيه، والجسور البلدية: جارية مجرى المساكن التى داخل السور. كل صاحب دار منها ينظر فى مصلحتها، ويلتزم تدبير أمره فيها"[٤]. ويذكر المقريزى أنه كان على كل ناحية عامل للجسور يسمى "مقرر الجسور" مهمته ملاحظة الجسور والإشراف على صيانتها، وكان يجبى من كل منطقة عشرة دنانير، وتصرف جميع الأموال على صيانة الجسور[٥].

---

(١) ابن حوقل: نفس المصدر، ص402.

(٢) القزوينى: آثار البلاد، ص557، أبو الفدا: تقويم البلدان، ص484.

(٣) الجسر: القنطرة ونحوها مما يُعبر عليه. المعجم الوسيط، جـ1، ص127.

(٤) القلقشندى: صبح الأعشى، جـ3، ص448.

(٥) أبو يوسف: الخراج، ص123، المقريزى: الخطط، جـ1، ص162- 178.

وأما عن أشكال الجسور، فهى متنوعة، وتختلف باختلاف المكان، وانحدار الأنهار، ومن أمثلتها[1]:

1- **الجسر البدائى:** وهو عبارة عن جزء من جذع شجرة، أو لوح محصن بالحجارة، موضوع لعبور قناة أو مجرى مائى صغير، وهذا النوع هو أقدم أنواع الجسور.

2- **الجسر الكابولى:** وكان بناؤه فى المناطق ذات الهضاب ، وقد أقيم فى سمرقند وبذخشان.

3- **الجسر العائم:** وكان يقام على الأنهار الواسعة والعميقة، كما هو الحال على نهر جيحون.

4- **الجسر المقوس:** وكان يبنى من الحجارة أو الآجر، على مجارى الأنهار.

5- **الجسر المعلق:** وكان يستخدم فى المناطق الجبلية، كما فى وسط آسيا. وقد انفرد المطهر المقدسى بذكر جسر ختن فى بلاد ما وراء النهر، وقال عنه: "كانت هذه القنطرة من رأس جبل إلى جبل"[2].

هذا، وقد ظهرت فى بلاد ما وراء النهر أمثلة لهذه الجسور، فيذكر المقدسى، أنه أقيم فى بخارى قنطرة حسان على نهر الصغد، وقدم لنا وصفًا رائعًا لها فقال: "وقد سُجّر (أى أغلق نهر الصغد) وجُعل له مفتتح واسع، وأقيم فيه الخشب، فإذا كان الصيف وغزر الماء رفعوا تلك الأخشاب واحدة بعد واحدة على قدر زيادة الماء، حتى ينقلب أكثره فى المفتح، ثم يمد إلى بيكند؛ ولولا هذه الحيلة لقلب الماء على القصبة ويسمى هذا الموضع فاشون، وبأسفل المدينة - أيضًا - مُفتّتح آخر يسمى رأس الورغ على هذا العمل"[3]. وكان هذا النهر يشق البلد، ويتخلل الأسواق ثم يتشعب فى الشوارع، ولأهل المدينة حياض فى البلد واسعة مكشوفة، قد اتخذ على حافتها بيوت من الألواح بأبواب يغتسل فيها، "وربما غلب ماء النهر المنقلب

---

(١) هيل: العلوم والهندسة فى الحضارة الإسلامية، ص196، 199، 202، 207.

(٢) المطهر المقدسى: البدء والتاريخ، دار صادر، جـ4، ص92.

(٣) أحسن التقاسيم، ص331.

إلى بيكند فغرق الضياع فى الصيف، وغلب فى السنة التى أتيت ثم على ضياع كثيرة وافتقر أقوام وخرج المشايخ إلى سده، وبذلوا أموالاً جمة احتسابًا"[١]. ويبدو لنا من وصف المقدسى أن قنطرة حسان المذكورة كانت تقف على القناة فى القسم الشرقى من المدينة. ويرى بارتولد أن موقع القنطرة - حاليًا - قرب باب شير كيران الحالى[٢].

فإذا انتقلنا إلى مدينة سمرقند، فإننا نجد "قنطرة جرد". وهى قنطرة من الحجارة بُنيت على نهر الصغد، بسبب أن مياه الفيضان كثيرًا ما كانت تغمر المنطقة كلها، فتؤدى إلى إغراق السدود، وانهيارها. وقد زارها ابن حوقل[٣]، وقدم لنا وصفًا تفصيليًا لها. وقد ذكرها - كذلك - السمعانى ويسميها (غا نفر)، وهى تقع بالتحديد عند قرية خشوفغن، ووصفها بأنها أطيب موضع بالصغد، وذكر جماعة من العلماء[٤] سكنوا بها.

كذلك بنيت قنطرة أخرى على نهر وخشاب فى مكان ضيق على مجرى هذا النهر، وصفه ابن رسته بقوله: "لا يُعلم ماء فى كثرته يضيق مثل ضيقه فى هذا الموضع"[٥]؛ كذلك وجدت قنطرة على نهر مدينة نسف[٦] تقع بالقرب من دار الإمارة.

أما إقليم خوارزم، فقد أقيم عند مدينة هزارأسب جسر يربطهما بباقى المدن الأخرى، حيث كان الماء يحيط بجميع المدينة ولم يوجد لها "إلاّ طريق واحد على ممر قد وضع عليه جسر يُقبل إليها من نواحى أركنج قاطعًا السهلة الممتدة من ضفاف جيحون"[٧]. كذلك أقيمت عند مدينتَىّ نوزوار وزمخشر جسور صغار عند باب المدينة، كانت ترفع كل ليلة، على قول المقدسى[٨].

---

(١) المقدسى: نفس المصدر، ص 332.

(٢) تركستان، ص198- 199.

(٣) صورة الأرض، ص410، الإدريسى: نزهة المشتاق، جـ1، ص500.

(٤) الأنساب، جـ2، ص370، جـ3، ص991، وعن العلماء انظر، جـ4، ص553- 554، ياقوت: معجم البلدان، جـ2، ص236، جـ4، ص95.

(٥) ابن رسته: الأعلاق النفيسة، ص92.

(٦) المقدسى: أحسن التقاسيم، ص283.

(٧) ياقوت: معجم البلدان، جـ4، ص476.

(٨) المقدسى: المصدر السابق ، ص289.

وفى إقليم أشروسنة وبالتحديد عند مدينة زامين - التى يشقها النهر نصفين - عدة جسور صغار تربط بين طرفى المدينة.

رابعًا: السدود

تعد السدود[1]، إحدى وسائل الرى المهمة، والغرض الرئيس من إنشائها هو تحويل الأنهار لتغذية قنوات الرى. هذا، وقد أقيمت السدود فى بلاد ما وراء النهر، ومن أمثلتها:

عند مدينة ورغسر - معناها رأس السد - وعلى مسافة أربعة فراسخ من سمرقند، أقيم سد عظيم، كانت تتشعب منه ماء النهر، ومن هذا النهر كانت تتفرع قنوات المدينة المختلفة. وكانت المهمة العظمى لأهل ورغسر، هى صيانة السد[2]، فى مقابل إعفائهم من الخراج كما سبقت الإشارة.

وأما مدينة الجرجانية - عاصمة خوارزم - فلقربها من مصب نهر جيحون ،فكثيرًا ما كانت تتعرض للفيضان والتدمير. لذا فقد قام سكان المدينة بعمل سد ضخم من الخشب والحطب، واحتالوا فى ذلك حتى استطاعوا أن يصل الماء إلى صحراء فراتكين. ثم شقوا منه عدة جداول لشربهم. يقول الإصطخرى: "ولا يدخل الماء (إليهم) إلا من موضع ضيق هناك"[3].

خامسًا: وسائل الرى الأخرى

إلى جانب ما سبق من وسائل الرى، فقد اعتنى الخلفاء العباسيون بإقامة مقاييس على الأنهار للوقوف على مقدار ارتفاع الماء وانخفاضه لمعرفة تقدير الخراج. وكان هذا المقياس يسمى (البَسْت) وهو: مخرَج للماء من ثقب طوله شعيرة وعرضه شعيرة وكان شرب اليوم والليلة ينقسم إلى ستين جزءًا، الواحد منها يسمى (السَّرِفَة)[4]. وقد يزيد وينقص على حسب الحاجة.

---

(١) السد: هو البناء فى مجرى الماء ليحجزه، ويسمى سِكْر ومُسَنَّاة، المعجم الوسيط، جـ1، ص438.

(٢) ابن حوقل: صورة الأرض، ص409، ياقوت: معجم البلدان، جـ4، ص453.

(٣) الإصطخرى: المسالك والممالك، ص169.

(٤) الخوارزمى: مفاتيح العلوم، ص70.

كذلك اهتم الخلفاء والولاة بإنشاء الآلات التى تساعد على رفع المياه إلى الأراضى التى لا يصل إليها. ومن أمثلة هذه الآلات: الدولاب، والدالية، والنواضح (السواقي)، وعُرفت الأراضى التى تسقى بهذه الآلات باسم (السقى)، أما الأراضى التى كانت تسقى بماء المطر فتسمى (البخس)[١].

ومما هو جدير بالذكر، أن بلاد ما وراء النهر على الرغم من كثرة أنهارها، فإنها عرفت استخدام النواضح (السواقي) لرفع المياه لرى الأراضى. ومن أمثلة ذلك مدينة نسف التى يقول عنها ابن حوقل: "وليس بنسف ورساتيقها ماء جارٍ إلا نهرًا ينقطع فى بعض السنة وسقيهم بالنواضح"[٢].

أما مدينة أخسيكث – عاصمة فرغانة – فكانت تسقى بساتينها وأراضيها عدد كبير من القنى (الآبار) التى تصب فى حياض جميلة بنيت جوانبها من الحجارة والجص، وكانت مصهرجة، فى حين أن معظم مبانى المدينة كانت من الطوب اللّبِن، كما يقول المقدسى[٣].

وأما مدينة بزده – من إقليم فرغانة أيضًا – فكان لها نهر جاف يأتى فيه الماء فى بعض السنوات، لذا فقد اضطر أهلها إلى استخدام الآبار، ونصبوا عليها الدواليب لرى أراضيهم[٤].

وخلاصة القول، إن الخلفاء، والأمراء، والولاة، قد اهتموا بشئون الرى فى بلاد ما وراء النهر، فقاموا بشق القنوات، وكرى الأنهار، وإقامة الجسور، وبناء السدود، كما استخدموا الدولاب، والنواضح لرفع المياه؛ لذا فقد قال أبو الفدا عنهم: «والغالب على أهل الأموال بما وراء النهر، صرف أموالهم إلى الرباطات، وعمارة الطرق، ووجوه الخير، وعقد القناطر"[٥].

---

(١) آدم متز: الحضارة الإسلامية، جـ2، ص247.
(٢) صورة الأرض، ص413.
(٣) أحسن التقاسيم، ص289.
(٤) مجهول: حدود العالم، ص85.
(٥) تقويم البلدان، ص487.

المبحث الثالث

"نظام الزراعة"

كانت بلاد ما وراء النهر تابعة إداريًا لخراسان، التابعة بدورها للخلافة الإسلامية في دمشق، أو بغداد، أو سامرَّاء؛ ومن ثَم فإن جميع الأوامر والتشريعات التي تصدر من مقر الخلافة تسرى على بلاد ما وراء النهر.

أولًا: نظام الخراج

اهتم الخلفاء بأمر الفلاح، لأن على يديه تقوم الزراعة. لذا فكان الخليفة عمر ابن الخطاب - رضى الله عنه يقول: "اتقوا الله فى الفلاحين[1]"، كما كان الخليفة الراشد عمر بن العزيز (99- 101هـ/ 717- 720م) يوصى ولاته بقوله: "لا تقتلوا راهبًا، ولا أكارًا"[2]. وزياد بن أبيه يوصى عماله بقوله: "أحسنوا إلى المزارعين فإنكم لا تزالون سِمَانا ما سَمِنوا"[3]. وكما اهتم خلفاء الدولة العباسية بنظام الرى، فقد اهتموا كذلك بتخفيف الخراج عن الفلاحين، وساروا فى ذلك على سياسة حكيمة ترمى إلى عدم إرهاق المزارعين. وقد ذكر الإمام الماوردى ثلاثة أوجه لجباية الخراج، أحدها: أن يضعه الخليفة على مسائح الأرض، فيراعى فى ذلك أن يجمع على السنة الهلالية.

---

(١) يحيى بن آدم: الخراج، تحقيق: أحمد محمد شاكر، دار التراث، القاهرة، ص49.

(٢) يحيى بن آدم: نفس المصدر ، ص 50.

(٣) ابن قتيبة: عيون الأخبار، جـ1، ص10.

الثانى: أن يضعه على الزرع، فيراعى حينئذ أن يُجمع على السنة الشمسية.

الثالث: أن يجعلها مقاسمة، ويراعى فيه كمال الزرع وتصفيته. ثم يقول: "فإذا استقر الرأى على أخذها مقدرة بالشروط المعتبرة فيه، صار ذلك مؤبدًا، لا يجوز أن يزاد فيه، ولا ينقص منه، ما كانت الأرضون على أحوالها فى سقيها ومصالحها"(١).

كانت الضرائب تُقدر على مساحة الأرض وخراجها منذ عصر الدولة الفارسية، وظل العمل بهذا النظام حتى خلافة أبى جعفر المنصور (136- 158هـ/ 735- 774م)، فعمل على تخفيف الضرائب عن الفلاحين فألغى الضرائب النقدية التى كانت تفرض على الزرع، واستمر العمل فى خلافته على نظام المساحة (المحاسبة). ويشير أحد الباحثين المحدثين، إلى أن أبا جعفر المنصور قد طبق نظام المقاسمة(٢) فما الفرق بين النظامين، أعنى نظام المحاسبة، ونظام المقاسمة؟ وأى النظامين كان فى صالح الفلاح؟ وهل حقًا أن أبا جعفر المنصور هو أول من طبق العمل بنظام المقاسمة فى الإسلام؟

بدايةً، يُفهم من كلام الإمام الماوردى السابق، أن العمل بنظام المساحة (المحاسبة): يكون الخراج مقررًا معينًا على مساحة محددة من الأرض تجبيه الدولة فى كل عام دون النظر إلى ما يحدث من اختلاف كميات المحصول، سواء بالزيادة أو النقصان. أما نظام المقاسمة: فهو أن يكون الخراج على مقدار المحصول الذى تنتجه الأرض فقط، ولا ينظر فى هذه الحالة إلى مساحة الأرض.

وأظن أن العمل بالنظام الأول (المحاسبة): فيه ظلم كبير للفلاح، وذلك لأن الخراج كان يجبى منه نقدًا على مساحة الأرض، زرعت أم لم تزرع، بالإضافة إلى ذلك، إذا أصاب الزرع آفة فى إحدى السنوات، فإنه يضر بالمحصول ويصبح إنتاج الأرض لا يفى بخراجها، أما النظام الثانى (المقاسمة): فكان الأصلح للفلاح حيث

---

(١) الأحكام السلطانية، ص154. وانظر أبو يوسف: الخراج، ص61.

(٢) د/ حسن إبراهيم: تاريخ الإسلام السياسى، جـ2، ص250.

كان عليه أن يدفع الضرائب على الأرض بنسبة معلومة من المحصول الذى تنتجه الأرض قل أو كثر[١].

والرأى عندى، أن نظام المقاسمة، كان الأصلح للفلاح والدولة معًا، فبالنسبة للفلاح: أوجد لديه نظامًا موحدًا فى جميع الولايات وهى طريقة عادلة ومفهومة لجباية الخراج، وأصبح الخراج متناسبًا مع المحصول المنتج بالفعل، وفى الوقت نفسه منع الولاة من العبث أو التعنت فى جباية الخراج، حيث تذكر المصادر أن بعض الولاة كانوا يعذبون الفلاحين الذين يعجزون عن سداد الخراج بصنوف مختلفة من العذاب[٢]، وأن الخليفة المهدى (158- 169هـ/ 744- 785م) هو الذى أمر برفع العذاب عن أهل الخراج العاجزين عن السداد. أما بخصوص الدولة فكان هذا النظام مفيدًا لهم، لأنه سهل لها الحصول على حقوقها؛ وجعل هذه الحقوق واضحة ومحددة وبلا شك فإن طمأنينة الناس - حتمًا - تؤدى إلى زيادة الإنتاج وكثرة الخراج[٣].

وأما الإجابة عن السؤال الثانى، وهو هل طبّق أبو جعفر المنصور نظام المقاسمة؟ أقول: إننى لا أنكر مطلقًا عبقرية المنصور فى تأسيس الدولة العباسية، والعمل على ازدهارها حيث عهد إلى حماد التركى بتخفيف الضرائب عن الفلاحين، ومنعه تحويل الأرض الخراجية إلى أرض عشرية، مما زاد من إيراد الدولة. والطبرى يصف لنا كيف كان المنصور يقضى نهاره، فذكر: "أن شغله فى صدر نهاره بالأمر والنهى والولايات والعزل، وشحن الثغور والأطراف، وأمن السبل، والنظر فى الخراج والنفقات، ومصلحة معاش الرعية لطرح عالتهم، والتلطف لسكونهم وهدئهم فإذا صلى العصر جلس إلى أهل بيته"[٤]. كما اهتم المنصور بأمر الخراج، وقد ذكر فى حديث له: أن أركان المُلْك أربعة لا يصلح المُلك إلا بهم، وعَدَّ منهم القاضى، وصاحب الشرطة العادلين، والثالث: "صاحب الخراج يستقصى ولا يظلم الرعية فإنى عن

---

(١) د/ محمد ضياء الدين الريس: الخراج والنظم المالية، ص403.

(٢) الجهشيارى: الوزراء والكُتّاب، ص142، والقلقشندى: صبح الأعشى، ج6، ص205.

(٣) د/ محمد ضياء الدين الريس: المرجع السابق ، ص407.

(٤) تاريخ الأمم، ج4، ص225، وانظر: ابن الجوزى: المنتظم، ج7، ص342.

ظلمهما غنى"[١]، ثم ذكر الرابع: وهو صاحب البريد الذى يكتب إليه بخبر هؤلاء جميعًا على الصحة. واهتم المنصور كذلك بأحوال الناس المعيشية، وكان يسأل عن الأسعار أولًا بأول، فإذا زاد السعر فى إحدى الولايات كاتَب واليها فى ذلك، مما يؤدى إلى رخصها[٢]. كما كان يحث ولى عهده - المهدى - بالعدل، فيقول: "لا يصلح السلطان إلا بالتقوى، ولا تصلح الرعية إلا بالطاعة، ولا تعمر البلاد بمثل العدل، ولا تدوم نعمة السلطان وطاعته إلا بالمال"[٣].

ومع كل ما سبق فإننى لا أرجح أن يكون الخليفة أبو جعفر المنصور قد طبق نظام المقاسمة، وإنما طُبّق فى عهد الخليفة المهدى. ولدينا الدليل. فقد ذكر البلاذرى: "قال يحيى بن آدم: وأما مقاسمة السواد، فإن الناس سألوها السلطان فى آخر خلافة المنصور فقُبِض قبل أن يتقاسموا، ثم أمر المهدى بها فقوسموا فيها"[٤]. ويقول صاحب الفخرى فى ترجمة الوزير أبى عبيد الله معاوية بن يسار[٥] (ت170هـ): "فلما مات المنصور وجلس المهدى على سرير الخلافة، فوض إليه تدبير المملكة، وسلّم إليه الدواوين وكان مقدمًا فى صناعته، فاخترع أمورًا، منها: أنه نقل الخراج إلى المقاسمة، وكان السلطان يأخذ الغلات خراجًا مقررًا ولا يقاسم. فلما ولى أبو عبيد الله الوزارة قرر أمر المقاسمة وجعل الخراج على النخل والشجر، واستمر الحال فى ذلك إلى يومنا"[٦].

يفهم من النصوص السابقة أن العمل بنظام المقاسمة (نسبة من المحصول) قد طبقه الخليفة المهدى (158- 169هـ/ 744- 785م)، وإننى أتفق تمامًا مع رأى الأستاذ الدكتور/ محمد أحمد حسب الله فى قوله: "وإذا كان التفكير فى العمل بهذا النظام قد بدأ فى عصر المنصور، إلا أنه لم يتم إلا فى عصر المهدى"[٧].

---

(١) الطبرى: نفس المصدر، نفس الجزء، ص520، ابن الجوزى: نفس المصدر، نفس الجزء، ص347.

(٢) الطبرى: نفس المصدر، نفس الجزء، ص536، الجهشيارى: الوزراء والكتاب، ص117.

(٣) الطبرى: نفس المصدر، نفس الجزء، ص523، ابن عبد ربه: العقد الفريد، جـ1، ص48.

(٤) البلاذرى: فتوح البلدان، ص379، ولم أعثر على هذه الفقرة فى كتاب الخراج ليحيى بن آدم المطبوع بين أيدينا.

(٥) الجهشيارى: الوزراء والكتاب، ص141.

(٦) ابن طباطبا: الفخرى فى الآداب السلطانية، ص182.

(٧) دراسات فى تاريخ دولة بنى العباس، ص104.

على كل حال، بدأ المهدى فى أول خلافته بتطبيق نظام المقاسمة وجعل الخراج يجبى على المحصول، وإذا كانت الأرض خصبة لا تحتاج إلى العمل الشاق، فإن الفلاح كان يقدم للدولة نصف غلة الأرض، أو الثلث، أو الربع، وربما الخُمس. وذلك تبعًا لحالة الأرض. أما البساتين والفاكهة، فكانت تُقوَّم غلتها بالمال ويدفع عنها النصف أو الثلث[١].

وفى عهد الخليفة المأمون (198- 218هـ/ 813- 833م)، خفف الضرائب مرة أخرى. يقول الطبرى فى أحداث عام (204هـ): "وفيها قرر (أى المأمون) تخفيض الخراج عن السواد، فأمر بمقاسمة أهل السواد على الخُمّسين، وكانوا يقاسمون على النصف"[٢]، أما صاحب الفخرى فإنه يقول: "اعلم أن المأمون كان من عظماء الخلفاء ومن عقلاء الرجال، وله اختراعات كثيرة فى مملكته. ومنها: مقاسمة أهل السواد بالخُمس ، وكانت المقاسمة المعهودة النصف"[٣].

وفى ولاية عبد الله بن طاهر (213- 230هـ/ 828- 844م) لم يغفل حال الفلاحين، فأوصى عماله برعاية مصالحهم. ومن حُسْن حظ الباحثين أن الكرديزى قد حفظ لنا صورة كتابه التى أرسلها لعماله، والتى جاء فيها: "لقد أخذت الحجة عليكم حتى تستيقظوا من سُباتكم وتتخلصوا من الحيرة، وتجدُّوا فى صلاح أنفسكم، وتداروا عظماء ولايتكم، وتساندوا الفلاح الذى صار ضعيفًا، امنحوه القوة، وأعيدوه إلى ما كان عليه، فإن الله – سبحانه وتعالى – جعل الطعام من أيديهم، والسلام من ألسنتهم، وحرم الظلم عليهم"[٤].

كذلك ظهر اهتمام الخلفاء بأمر الفلاحين فى تخفيف الخراج على مناطق الثغور والمرابطة، فقد أجمعت المصادر على أن مدينة أسفيجاب – من إقليم الشاش – لا خراج عليها، لأنه ثغر من ثغور المسلمين[٥] أمام قبائل الترك. وأما مقدار الخراج،

---

(١) د. حسن إبراهيم: تاريخ الإسلام السياسى، جـ2، ص251.

(٢) الطبرى: تاريخ الأمم، جـ5، ص151، ابن الجوزى: المنتظم، جـ10، ص131.

(٣) الفخرى فى الآداب السلطانية: ص216.

(٤) زين الأخبار، ص812، وانظر ابن خلكان: وفيات الأعيان، جـ3، ص67.

(٥) المقدسى: أحسن التقاسيم، ص273، ياقوت: معجم البلدان، جـ1، ص147.

فسوف أفرد له المبحث الثالث من الفصل السابع والذى يحمل عنوان "النظام المالى".

أما وقت جباية الخراج فإنها كانت تؤخذ كل عام فى عيد النيروز[١] وبمرور الوقت، واختلاف السنة الشمسية عن السنة القمرية كان يحل النيروز والثمار مازالت على أشجارها، مما كان يعرض الفلاحين للعجز عن سداد الخراج، وفى خلافة الرشيد (170- 193هـ/ 876- 808م) اجتمعت الرعية إلى يحيى بن خالد البرمكى - الذى كان يقول: «الخراج عمود الملك»[٢] - وسألوه فى تأخير الخراج شهرًا عن النيروز - حيث كانت الثمار على أشجارها - فعزم على ذلك. ولكن أعداءه اتهموه بالتعصب للمجوسية، فأعرض عن ذلك[٣]. وظل الحال هكذا حتى خلافة المتوكل (232- 247هـ/ 846- 861م) فأمر إبراهيم بن العباس الصولى ، أن يكتب عنه كتابًا فى تأخير النيروز[٤] وتم ذلك بعد أن حسبت أيام الفرق بين السنة الشمسية والقمرية.

ثانيًا: الأساليب الزراعية وطرق العمل

كانت نظم الزراعة متنوعة فى الدولة الإسلامية، حتى كان لكل إقليم نظام ينفرد به عن باقى الأقاليم. وذلك نظرًا لظروفه الطبيعية وإن كانت جميع الأقاليم تشكل فى النهاية منظومة واحدة هى أراضى الدولة الإسلامية.

من المعلوم أن الأرض الطيبة هى: الحارة الرطبة، وسواد الأرض دليل على حرارتها، ومن ثم خصبها. وبلاد ما وراء النهر كانت تتميز بذلك لكثرة أنهارها. يقول ابن حوقل عن تربة سمرقند: "أصح تربة وأيبسها، ولولا كثرة البخارات

---

(١) نيروز: كلمة فارسية معناها اليوم الجديد وتطلق على أكبر أعياد الفرس، وهو عيد الربيع، ويبدأ مع بداية السنة الفارسية وأولها شهر"فرودين". البيرونى: الآثار الباقية،ص184. وانظر: بطليموس الحكيم: ما جاء فى النيروز وأحكامه، ص47- 48، نوادر المخطوطات، تحقيق عبد السلام هارون، مكتبة الخانجى 1392هـ - 1972م، جـ2.

(٢) ابن قتيبة: عيون الأخبار، جـ١، ص13.

(٣) المقريزى: الخطط، جـ2، ص41، القلقشندى: صبح الأعشى، جـ3، ص55-56.

(٤) البيرونى: الآثار الباقية، ص34.

من المياه الجارية بها فى سككهم ودورهم... لأضرَّ بهم فرط يُبْسها"[١]. ويضيف القزوينى عن الصغد: "إحدى جنات الدنيا، قرى متصلة خلال الأشجار والبساتين، وهى أطيب أرض الله. كثيرة الأشجار، متجاوبة الأطيار، غزيرة الأنهار، وزادت على غيرها بلطافة الهواء، وعذوبة الماء، وإنها على وادٍ يمينًا وشمالاً، ومقدارها خمسة أيام مشتبك الخضرة والبساتين"[٢].

كانت الزراعة تتم عادة بتقليب الأرض الزراعية، بحيث يتعرض باطن الأرض للشمس والهواء ليدفع عنها العفونة، وطبقًا للمحصول يتحدد وقت زراعته، فالبلاد الشتوية – كبلاد ما وراء النهر – كان يتم الزرع فيها فى آخر فصل الربيع، حيث تكون الأرض رطبة جدًا وليست يابسة، ثم يتمد تسميد الأرض بالزبل لأنه يفتح مسام الأرض ويجودها. وكانوا يستخدمون فى التسميد[٣] زرق الحمام، أو مخلفات الحيوانات، مثل: الحمير والماعز والضأن.

وكان يفضل السقى فى فصل الصيف بالليل؛ حيث تتفتح الأشجار بالورق والزهر. وكانت تسقى الأشجار حتى يصل الماء إلى أصولها. كذلك اهتموا بالعناية بالزرع، فكانوا يختارون لكل زرع ما يصلح له من الأرض. فعلى سبيل المثال: كان يختار للبساتين أطيب الأرض بقعةً، وأعذبها ماءً، وهى الأرض المستوية[٤]، وإن لم تكن مستوية، سُوِّيت ولكن قبل الغرس لِئلاَّ تتكشف بعض أصول شجرها.

ولا نعجب إذا عرفنا أن علماء الحضارة الإسلامية – ومنها بلاد ما وراء النهر – قد توصلوا إلى كثير من الأساليب التى تساعد على زيادة المحصول، ومنها: تهجين الأشجار، وتذكيرها، وحفظ الثمار، وتطعيم الأشجار، وعلاج الأمراض الخاصة

(١) صورة الأرض، ص407.

(٢) آثار البلاد، ص543. وانظر ياقوت: معجم البلدان، جـ3، ص48.

(٣) د. عبد العزيز الدورى: موجز تاريخ الحضارة العربية، ص67، د. حسن إبراهيم: تاريخ الإسلام السياسى، جـ3، ص327.

(٤) عبد الغنى النابلسى: عَلَم الملاحة فى عِلْم الفلاحة، بيروت، 1981م، ص29.

بالنبات والأرض والثمار، كما عرفوا تشكيل الفواكه، وتلوين الورد، والكتابة عليه، كما قاموا بتخزين الفاكهة[1] مثل: العنب، والتين، والتفاح، والكمثرى، ومن الحبوب: القمح، والذرة...إلخ.

ولحماية الزرع من الطيور، كانوا يقيمون ربوة من الطين، ترتفع قليلًا عن الأرض وسط الحقل، بها صبيان عملهم طوال النهار طرد الطيور، بأن يضربوا طبلاً أو وعاءً معدنيًا قديمًا. وكان كل منهم يحاول أن يتفوق على الآخر، وبذلك تسود المزارع من الصباح إلى المساء ضوضاء مزعجة، يكاد الإنسان منها يُجَن. كما يقول آدم متز[٢].

أما أدوات الفلاحة، فهى مختلفة. ومنها: المحراث الذى تجره الثيران أو الأبقار لحرث الأرض. وعرفوا كذلك المسحاة، والمنجل للحصاد، وعرفوا غيرها من الآلات الزراعية. هذا، وقد ظهرت جماعة من العلماء فى بلاد ما وراء النهر كانوا يعملون بالزراعة، ومنهم: أبو عبد الله عبد الرحمن بن أحمد العجنَّسي[٣]، من أهل بخارى، سمع أباه، وأخذ العلم عن شيوخ البلد، ولم يشتغل بتدريس الحديث، بل كان يعمل فى عمارة الكروم وغرس الأشجار(توفى364هـ).

وفى الختام، نؤكد أن كل هذه الأساليب ساعدت على تقدم الزراعة فى بلاد ما وراء النهر، وعملت على وجود فائض كبير يسمح بالتصدير.

وهذا ما يؤكده الإصطخرى بقوله: "ومن عمارة بخارى أن الرجل ربما قام على الجريب الواحد من الأرض فيكون فيه معاشه وكفافه، مع جماعة من شمله، وعدة من أهله"[٤].

---

(١) عبد الغنى النابلسى: نفس المصدر، ص340 وما بعدها.

(٢) الحضارة الإسلامية ، جـ2، ص254.

(٣) السمعانى: الأنساب، جـ4، ص162، لفظ "العجنَّسي".

(٤) المسالك والممالك، ص174.

ثالثًا: الحاصلات الزراعية

يقول المقدسى: "اعلم أن هذا الجانب أخصب بلاد الله تعالى، وأكثرها خيرًا، وفقها وعمارة، قل ما يقحطون"[١]. يفهم من كلام المقدسى أن الخصب والنماء كان متوافرًا فى بلاد ما وراء النهر، وفيما يلى عرض تفصيلى لأهم الحاصلات الزراعية فى هذه البلاد.

(1) إقليم الصغد

(أ) بخاري

أشاد الرحالة الجغرافيون القدامى بذكر بساتين بخارى الفسيحة، وما كان يزينها من أشجار الفاكهة الممتازة بثمارها، وخاصة البرقوق، الذى ذاعت شهرته فهو أفخر ثمر من نوعه بقارة آسيا[٢]. ويذكر ياقوت: أن بخارى مدينة واسعة الفواكه. وكانت تحمل إلى مرو ثم يقول: "وليس بما وراء النهر وخراسان بلدة أهلها أحسن قيامًا بالعمارة على ضياعهم من أهل بخارى، ولا أكثر عددًا على قدر المساحة، وذلك مخصوص بهذه البلاد"[٣]. ويثنى ابن حوقل على فواكه بخارى بأنها أصح فواكه بلاد ما وراء النهر، وألذها طعمًا[٤]. ومن الفاكهة أيضًا: العنب، وكان يشتغل بزراعته: أبو زرعة محمد بن سهل العُنَّابى[٥]. ومنها: التين، والرُّمان، والتفاح والكمثرى، والخوخ والمشمش، والتوت، والبطيخ بنوعيه: الأصفر والأخضر، والخيار[٦].

كذلك اشتهر إقليم بخارى بإنتاج كثير من الحبوب، ومنها: القمح، والشعير، والحمص، والأرز، وسائر الحبوب، ومن البقول: اللفت، والجزر، والكرنب،

---

(١) أحسن التقاسيم، ص261.

(٢) فامبري: تاريخ بخارى، ص25.

(٣) ياقوت: معجم البلدان، حـ1، ص280.

(٤) صورة الأرض، ص 402.

(٥) [illegible]

(٦) [illegible]

والباذنجان، والقرع، وسائر أنواع البقول. ومن الرياحين: الورد، والبنفسج، والآس، وغيرها، ومعظم هذه الأشياء كانت تحمل من بخارى إلى سائر الآفاق(١).

(ب) سمرقند

أما سمرقند فقد انتشرت بها البساتين، فليس فى المدينة طريق ولا دار إلا وفيها ماء جار، وقل دار تخلو من بستان، حتى إن الشخص إذا صعد أعلى القلعة لم تبدُ المدينةُ للنظر لاستتارها بالبساتين والأشجار. أما رستاق بورغسر: فقد اشتهر بكثرة الكروم والضياع والبساتين. وأما رستاق أبغر: فليس بنواحى سمرقند رستاق أصح هواءً، ولا زرعًا، ولا فاكهةً منه. وقيل: إن زرع هذا الرستاق إذا سلم كفى الصغد بأجمعها. على حد قول ابن حوقل، أما المقدسى فيقول: "يكفى الصغد كله .وبخارى سنتين"(٢) وكان أهل هذا الرستاق أصح الناس ألوانًا وأبدانًا، لطيب هوائهم.

واشتهر رستاق الدرغم: بزراعة العنب الذى يحمل منها إلى سائر البلاد، وكان رستاق كبوذ نجكث: يمتاز بكثرة أشجار الفاكهة. ومدينة كش: كانت فاكهتها كثيرة تدرك قبل غيرها. وأما رستاق اشتيخن: فكان فى غاية النزهة، مع الخصب والرياض والمتنزهات والغياض(٣). واشتهرت خشوفغن - (رأس القنطرة) - بإنتاج الجوز، وكان المحدث أبو حفص البُجَيرِى(٤) يفتخر بأشجاره ويعقد دروسه تحتها(٥).

وامتازت سمرقند عن باقى الأقاليم بإنتاج "شاهسفرم"، وهو: نبات دقيق الورق جدًا، عطر الرائحة، يطلق عليه ملك الرياحين، كان يستخدمه الملوك والأمراء(٦)،

---

(١) النرشخى: تاريخ بخارى، ص48، عبد الغنى النابلسى: عِلْم الفلاحة، ص34.

(٢) صورة الأرض، ص114، المقدسى: أحسن التقاسيم، ص279.

(٣) الإصطخرى: المسالك والممالك، ص179- 181، والقزوينى: آثار البلاد، ص554، ياقوت: معجم البلدان، جـ4، ص137، جـ1، ص160.

(٤) عمر بن محمد بن بجير بن حازم السمرقندى البجيرى (223 - 311 هـ = 838 - 923 م): الحافظ، محدث ما وراء النهر، ومصنف " الصحيح " و " التفسير " كان من قرية بسمرقند، يقال لها رأس القنطرة، ورحل إلى خراسان والبصرة والكوفة والشام ومصر والحجاز من كتبه " الجامع المسند". الذهبى: تذكرة الحفاظ،جـ2،ص 719 .السيوطى:طبقات الحفاظ،جـ1 ،ص16.

(٥) السمعانى: الأنساب، جـ3، ص544، لفظ "البجيرى".

(٦) الخوارزمى: مفاتيح العلوم، ص172، النويرى: نهاية الأرب، جـ1، ص371.

لذا فكان يُصدَّر من سمرقند إلى سائر الآفاق؛ كذلك اشتهرت سمرقند بإنتاج نوع خاص من البطيخ وصف بأنه: "مفلطح الشكل، مدور، يميل باطنه إلى الحمرة، لين اللحم، طرى القشر، فواح"[١]. كان يحمل إلى الشام، ويطلق عليه هناك الشمام.

(2) إقليم خوارزم

هذا الإقليم: "من أحسن بلاد الله تعالى، وأكثرها عمارة، وقلَّما يقع النظر فى رستاقها على أرض لا عمارة فيها. هذا مع كثرة الأشجار"[٢] بهذه الكلمات افتتح القزوينى كلامه عن إقليم خوارزم. الذى اشتهر بإنتاج نوع خاص من البطيخ يسمى "البارنج"[٣] قدم لنا القزوينى وصفًا رائعًا حول زراعته. وأثنى عليه بقوله: "لا يوجد مثله فى شىء من البلاد حلاوةً وطيبًا، ويكون رخيصًا جدًا لكثرته وقلة مؤنته"[٤]. والجدير بالذكر، أن هذا البطيخ كان يُحمل إلى الخليفة المأمون (198- 218هـ/ 813- 833م) ومن بعده الخليفة الواثق (227- 232هـ/ 841- 846م) فى بغداد، وذلك فى قواليب الرصاص معبأة فى الثلج. وكانت تُقوَّم البطيخة الواحدة منها إذا وصلت سليمة بنحو سبعمائة درهم"[٥].

ومن محاصيل خوارزم أيضًا: البندق، والعنب، والعناب، والسمسم، والقطن، وانتشرت بها أشجار التوت الذى تربى على أوراقه دود القز المستخدم لإنتاج الحرير[٦]، وأشجار الخلاف، المستخدم فى عمارة البيوت، كما وجدت فى خوارزم المحاصيل الغذائية، ومنها: القمح، والأرز، والشعير، والدُّخن - ويسمى عندهم الأرزن - والماش، والذرة - الجاروس - وهو أكثر حبوبهم ومنه أكلهم[٧]. واشتهر رستاق درغان، بأن به خمسمائة كرمة، طول موضع الكرمة الواحدة فرسخان، كما

(١) عبد الغنى النابلسى: علم الفلاحة، ص135- 137.
(٢) القزوينى: آثار البلاد، ص520- 525.
(٣) الثعالبى: لطائف المعارف، ص226، النويرى: نهاية الأرب، جـ1، ص368.
(٤) القزوينى: المصدر السابق، ص521.
(٥) الثعالبى: المصدر السابق، نفس الصفحة، النويرى: نفس المصدر، ونفس الجزء، ص371.
(٦) الإدريسى: نزهة المشتاق، جـ2، ص699.
(٧) القلقشندى: صبح الأعشى، جـ4، ص470.

أن بها كثيرًا من الزبيب[١]. وبالجملة، فياقوت يقول عن خوارزم: "وما ظننت أن فى الدنيا بقعة سعتها سعة خوارزم، وأكثر من أهلها"[٢].

(3) إقليم طخارستان

يصف الإصطخرى هذا الإقليم بقوله: "وجميع مدن طخارستان ذات أنهار، وأشجار، وزروع كثيرة، عامرة خصبة"[٣]. وقد اشتهر الإقليم بإنتاج الزعفران الذى كان يحمل منه إلى سائر الآفاق[٤] وقد فضله السمعانى على سائر الأنواع الأخرى[٥]. وكان لوالى المدينة سهم فيه، وربما بيع المحصول وهو فى الأرض[٦] لزيادة الطلب عليه.

واشتهرت مدينة سمنجان: بإنتاج القمح والقطن والعنب، أما مدينة الطالقان، فكانت فى غاية الخصب والنزهة، ويكثر فيها زراعة القمح، والفواكه، ومنها: العنب، والتين والخوخ والفستق. وكذلك امتازت ترمذ بإنتاج: الجوز واللوز والفستق والكمثرى، بالإضافة إلى الأرز والسمسم، وكان العنب والسفرجل بها فى منتهى الطيب. واشتهرت الختل بإنتاج: القمح والفواكه. وأما القواذيان: فكان بها القطن والكمون، وأخيرًا، مدينة واشجرد كانت تنتج الزعفران والعنب. وبالجملة، فسائر منتجات الإقليم كانت تصدر إلى باقى الآفاق[٧].

(4) إقليم فرغانة

اشتهر هذا الإقليم منذ القِدَم بالبساتين الكثيرة الملتفة، واشتهرت قرية شكث: بإنتاج الجوز الذى ربما بيع ألف منه بدرهم[٨]، وأما قرية كند: فإنها عرفت منذ القدم باسم (كند بادم) – ومعناها مدينة اللوز – ويثنى ياقوت عليه بقوله: "نوع

---

(١) المقدسى: أحسن التقاسيم، ص289.

(٢) معجم البلدان، جـ2، ص253.

(٣) المسالك والممالك، ص156.

(٤) الإدريسى: نزهة المشتاق، جـ2، ص696.

(٥) الأنساب، جـ3، ص471، لفظ [illegible].

(٦) ابن حوقل: صورة الأرض، ص[illegible].

(٧) [illegible]

(٨) [illegible]

عجيب خفيف القشر، يتقشر إذا فرك باليد"[1] وتعرف هذه المدينة حاليًا - كِن بدم Kan-i Badam- واشتهرت مدينة زاركان: بإنتاج كميات كبيرة من الأرز، وكان على باب جامعها بستان كثير الشجر. وأما مدينة خجندة: فقد اشتهرت بكرومها وبساتينها. ولكثرة سكانها فإنها كانت تستورد القمح من فرغانة وأشروسنة. وأخيرًا، اشتهرت المدينة بإنتاج الرمان[2].

وتجمع المصادر الإسلامية على أن إقليم فرغانة كان يصدر: الأعناب، والجوز، والفستق، والتفاح، وسائر الفواكه، هذا بالإضافة إلى الورد، والبنفسج، وجميع أنواع الرياحين الأخرى[3].

(5) إقليم اشروسنة

تأتى قرية مرسمنده فى مقدمة الإقليم، ويقول عنها ابن حوقل: إن زراعة الكروم والبساتين استحالت فيها، ولكن الأهالى وفقوا فى زراعة الحبوب والأزهار[4]. وكانت مدينة بنكث: أطرافها تزخر بالبساتين والكروم. كما كان بالمدينة الريحان والورد غريب الألوان، بحيث يكون باطن الورقة بلون، وظاهرها بغيره، مع صفرة ظاهرة بالسواد ومن حمرة تخالطها زرقة[5].

(6) إقليم الشاش

تأتى مدينة تونكث - عاصمة إيلاق - فى مقدمة أراضى الإقليم المنزرعة بالغلات والبساتين والكروم. وامتازت مدينة طراز بكثرة بساتينها، وأما مدينة واطلخ فقد اشتهرت بإنتاج كميات كبيرة من العنب. وكذلك فاراب: كانت ذات غياض ومزارع، وأما رستاق أسفيجاب، فإنه لا خراج عليه، وكان أهله لا يعرفون القحط[6].

---

(١) بارتولد: تركستان، ص269.

(٢) الإدريسى: نزهة المشتاق، جـ2، ص706.

(٣) الإصطخرى: المسالك والممالك، ص165، ابن حوقل: صورة الأرض، ص392.

(٤) نفس المصدر، ص415.

(٥) عبد الغنى النابلسى: علم الفلاحة، ص138.

(٦) المقدسى: أحسن التقاسيم، ص275، الإدريسى: نزهة المشتاق، جـ2، ص703.

وصفوة القول؛ إن بلاد ما وراء النهر الإسلامية قد تمتعت بخصوبة التربة، وكثرة المياه العذبة، مع نشاط السكان وإبداعهم بالإضافة إلى تخفيف الولاة الخراج عنهم. كل هذه العوالم وغيرها ساعدت هذه البلاد على تقدم الزراعة، بما يسد حاجاتهم، ويسمح لهم بالتصدير إلى باقى الآفاق. ويجمع الرحالة أمثال الإصطخرى وابن حوقل الذين دخلوا هذه البلاد بأنها: "من أخصب أقاليم الأرض منزلة، وأنزهها، وأكثرها خيرًا. فأما الخصب بها فليس من إقليم – من أقاليم الأرض – إلا يقحط أهله مرارًا قبل أن يقحط ما وراء النهر مرة واحدة، ثم إن أصيبوا ببرد أو بحرق أو آفة تأتى على زرعهم وغلاتهم، ففى فضل ما يُسلم فى عروض بلادهم ما يقوم بأودهم حتى يستغنوا به عن شىء ينتقل إليهم من غير بلدهم، وليس بما وراء النهر مكان يخلو من مدن أو قرى تسقى، أو مباخس، أو مراعٍ لسوائمهم، وليس شىء لابد للناس منه إلا وعندهم منه ما يقوم بأودهم، ويفضلُ عنهم لغيرهم. فأما أطعمتهم فى السنة والكثرة فعلى ما ذكرناه"[١]،[٢].

---

(١) المسالك والممالك، ص161، صورة الأرض، ص384، وانظر: ياقوت: معجم البلدان، جـ4، ص199.

(٢) والجدير بالذكر، أن بلاد ما وراء النهر مازالت إلى الآن تشتهر بالتقدم والنمو فى مجال الإنتاج الزراعى، فقد بلغت مساحة الأراضى الزراعية فى أوزبكستان – التى تشغل معظم بلاد ما وراء النهر قديمًا – أكثر من (7,5) مليون فدان. ووفقًا لإحصاء عام 1990م، بلغ إنتاجها من القطن (4.5) مليون طن. وتعد أوزبكستان من أكبر مراكز إنتاج القطن فى العالم. وبلغ إنتاجها من الخضراوات والبطاطس: (13) مليون طن. ومن الحبوب (1.1) مليون طن. ومن العنب وأنواع الفاكهة الأخرى (1,3) مليون طن. د. محمود أبو العلا: المسلمون فى الاتحاد السوفيتى سابقًا، ص62، د. مصطفى رمضان: المسلمون فى آسيا الوسطى، ص246.

المبحث الرابع

الثروة الحيوانية

تمهيد

للثروة الحيوانية أهمية كبيرة فى الاقتصاد الزراعى. وقد أشـار القرآن الكريم فـى آيات كثيرة إلـى المراعى الطبيعية التى تربى عليها الماشـية والأغنام والماعز، وغيرهـا من الحيوانات التى نحصل منها على الجلود والألبان ونسـتخدم بعضها كوسـيلة للتنقل[١]. وفيما يلى عـرض تفصيلى للثروة الحيوانيـة فى بلاد ما وراء النهر:

(١) إقليم الصغد

(أ) بخارى

اشتهرت بخارى منذ القِدَم بإنتاج الخيول التى ما زال لها شهرة عالمية فى قارة آسيا. بالإضافة إلى إنتاج الإبل التى تمتاز بسلالتها الجيدة، وممن اشتهر بتربية الجمال وإكرائها للناس فى طرقات بخارى: أبو الحسن محمد بن محمد الجمال. حدَّث ببخارى، وروى عنه جماعة من أهل العلم. كذلك امتازت بخارى بإنتاج الضأن الذى لم يكن له - حينئذٍ - مثيل فى العالم كله[٢].

---

(١) د. راشد البراوى: التفسير القرآنى للتاريخ ، ص11- 12.

(٢) القزوينى: آثار البلاد، ص543، فامبرى: تاريخ بخارى، ص33.

واشتهرت بخارى كذلك بكثرة الأسماك، والتى كان مصدرها الأنهار، والبحيرات والتى من أشهرها بحيرة (آوازه بيكند)[١]، وقد امتازت هذه البحيرة بمائها العذب وبكثرة الأسماك بها. وكان الصيادون يسكنون بالقرب منها. ومن البحيرات المهمة أيضًا بحيرة (سامجن) – تعرف حاليًا باسم قراكول ومعناها البحيرة السوداء – وقد بلغت مساحتها عشرين فرسخًا. وكان يتجمع بها فائض نهر زرافشان؛ لذا فقد وجد بها كثير من الحيوانات المائية، والطيور البرية. ويذكر النرشخى، أن بخارى كانت تصدِّر الأسماك إلى خراسان[٢].

(ب) سمرقند

كانت مراعى السوائم على جانبَىْ نهر زرافشان، واشتهر رستاقا أبغر وياركث: بالمراعى الواسعة الخصبة، وكثرة الماشية[٣]. وأما مدينة كش: فقد اشتهرت بتصدير البغال والخيول[٤] الجيدة إلى خراسان.

(2) إقليم خوارزم

اشتهر سكان إقليم خوارزم بالثراء، بسبب اقتناء المواشى، فكانت الأغنام والماشية تربى على المراعى الطبيعية، وكان يحمل منها كثير من الجبن واللبن[٥]. وكذلك اشتهر الإقليم بإنتاج الخيول والبغال والحمير، التى كانت تستخدم كوسيلة للمواصلات[٦]. والإقليم كان ينتج كذلك دود القز – المصدر الرئيس للحصول على الحرير الطبيعى – وقد أشار القزوينى إلى طريقة تربيته، ثم أثنى عليهم بقوله: "فإن لهم يدًا باسطة فى تربيتها"[٧].

كذلك كان إقليم خوارزم مصدرًا كبيرًا للحصول على الأسماك، وذلك لكثرة الأنهار والمستنقعات والبحيرات مثل بحيرة خوارزم، وكثر صيد الأسماك فى موضع

(١) مجهول: حدود العالم، ص17.
(٢) تاريخ بخارى، ص37. بارتولد: تركستان، ص218.
(٣) الإصطخرى: المسالك والممالك، ص180، ابن حوقل: صورة الأرض، ص410.
(٤) المقدسى: أحسن التقاسيم، ص279.
(٥) ياقوت: معجم البلدان، جـ4، ص129.
(٦) براونستون: طريق الحرير، ص26- 133.
(٧) آثار البلاد، ص525.

يسمى خليجان[١] - وهو بالقرب من مصب نهر جيحون - والجدير بالذكر أن الصيادين الذى يعملون فى صيد الأسماك كانوا يقطنون فى هذه المنطقة. ومن ثَم فقد كثر إنتاج خوارزم من الأسماك، ومنها كان يُصدر إلى سائر بلاد العالم الإسلامى[٢].

ونظرًا لانخفاض درجة الحرارة فى إقليم خوارزم فى الشتاء إلى حد التجمد، فقد اشتهر الإقليم بإنتاج الأوبار[٣] التى تتخذ من الحيوانات البرية، مثل: السمَّور[٤]، والسنجاب[٥] والفنك[٦]، والقاقم[٧]، وغيرها.

وجدير بالذكر أن ولاة خراسان كانوا يوزعون الوبر على عمالهم، وذلك عند حلول الشتاء. بسبب انخفاض درجة الحرارة، فقد ذكر ابن طيفور أن مهزم بن الفرز خرج مع طاهر بن الحسين (ت207هـ) إلى خراسان. فلما حل الشتاء عليهم. قسم طاهر الوبر على أصحابه، وأغفل حظ مهزم حتى اشتكى إليه، فأمر له طاهر بعشرة أثواب وبر بالخز والوشى فباع مهزم منها تسعة أثواب، بتسعين درهمًا[٨]، وهذا يدلنا على مقدار غلاء هذا الوبر.

---

(١) ابن رسته: الأعلاق النفيسة، ص92.

(٢) الثعالبى: لطائف المعارف، ص226.

(٣) الثعالبى: لطائف المعارف، ص226.

(٤) السمّور: حيوان برى يشبه السِّنور (الهر) وقد يكون أكبر منه. قال عبد اللطيف البغدادى: ومنه يتخذ نفيس الفراء التى لا يلبسها إلا الملوك وأكابر الأعيان. وامتاز هذا الحيوان بالوبر الكثيف الناعم. الجاحظ: الحيوان، ج5، ص484، ج6، ص27 .القلقشندى: صبح الأعشى، ج2، ص49.

(٥) السنجاب: حيوان أكبر من الفأر، وبره فى غاية النعومة، وجلده فى نهاية القوة. ويتخذ من جلده الفراء النفيسة التى يلبسها أعيان الناس ورؤساؤهم.الجاحظ: نفس المصدر، نفس الجزء ونفس الصفحات. القلقشندى: المصدر السابق، نفس الجزء، ص50.

(٦) الفنك: دويبة لطيفة لها وبر حسن، أبيض، يخالطه بعض حمرة، يتخذ من جلوده الفراء. قال ابن البيطار: وفروه أبيض أطيب من جميع الفراء، ويصلح للأبدان المعتدلة. الجاحظ: نفس المصدر، ج5، ص484، ج6، ص27- 305، القلقشندى: نفس المصدر، والجزء، ص49.

(٧) القاقم: دويبة فى قدر الفأر، ولها شعر أبيض ناعم، ومنه يتخذ الفراء، ولونه أبيض. وهو أغلى من السنجاب .القزوينى:آثار البلاد،ص 518.

(٨) كتاب بغداد، ص66.

(3) إقليم طخارستان

تتمثل ثروة هذا الإقليم الحقيقية فى الثروة الحيوانية، حيث المناطق الرعوية الخصبة فى مناطق السهوب الشاسعة[1]. وكان رستاق الخُتَّل: ينتج كثيرًا من الدواب والماشية والخيول، التى تُصدر منه إلى سائر البلدان. وكان الغالب على رستاق أخسيسك: تربية الماشية والإبل والغنم. ويقول عنها المقدسى: "حشيشها عجب يغيب فيه الدواب"[2].

وأما الصغانيان: فكانت بها كثير من الطيور الجميلة، بالإضافة للحيوانات البرية مثل: السَّمور والسنجاب[3] واشتهر رستاق بذخشان: بكثرة دوابها ومن أهمها الخيول والبغال. وممن اشتهر بتربية الحيوانات فى هذا الإقليم: قتيبة بن سعد ابن جميل (148- 240هـ) روى عنه الإمام أحمد بن حنبل، والبخارى ومسلم فى صحيحيهما[4]. وحدث ببغداد عام 216هـ. ويذكر ياقوت أنه من الأئمة الثقات، المكثرين من المال والبقر والغنم والإبل. وتوفى بطخارستان[5].

(3) براذين[6] طخارستان:

وهى من أشهر الحيوانات التى تربى فى طخارستان وتستحق أن أفرد لها كلمة موجزة.

---

(١) شاخت: تراث الإسلام، جـ1، ص182.

(٢) المقدسى: أحسن التقاسيم، ص283. ياقوت: معجم البلدان، جـ3، ص191.

(٣) البكرى: المسالك والممالك، جـ1، ص442.

(٤) انظر على سبيل المثال:مسند الإمام أحمد :جـ1،ص87،رقم (83) .جـ2،ص 48، رقم (542).صحيح البخارى:كتاب الإيمان باب (37)، كتاب العلم باب (52). صحيح مسلم:كتاب الطهارة باب (4)، كتاب الإيمان باب (168).

(٥) المصدر السابق، جـ2، ص369.

(٦) البِرْذَوْنُ: يطلق على غير العربى من الخيل والبغال، عظيم الخلقة، غليظ الأعضاء قوى الأرجل، عظيم الحوافر، المعجم الوسيط، جـ1، ص50. ذكر القلقشندى أنواع الخيل بأنها ثلاثة: الأول: العرّاب، وهى أفضلها وأعلاها قيمة، وأغلاها ثمنًا، وتوجد ببلاد الغرب. الثانى: العجميات، وهى البراذين، ويقال لها الهماليج، وتجلب من بلاد الترك، وتطلب للصبر على السير وسرعة المشى. والثالث: المولد بين العراب والبراذين، وهى وسط بين الاثنين . (صبح الأعشى، جـ2، ص17). وذكر القزوينى، أن الخيل الهماليج كانت تجلب من طخارستان. ولا يوجد فى البلاد مثلها.(آثار البلاد، ص523) . ووصفها الجاحظ بأنها: من الحيوانات التى لا شعر لها كالبغال والحمير وغيرها.(الحيوان،جـ3،ص 202. وكتابه: القول فى البغال،ص115) .

من الجدير بالذكر، أن الخلفاء والولاة كانوا يهتمون بهذه الخيول. فقد ذكر صاحب العقد الفريد، أن أمية بن عبد الله بن خالد بن أُسَيد والى خراسان، أهدى إلى الخليفة عبد الملك بن مروان (65- 86هـ/ 684- 705م) برذونين. كان عبد الملك يفتخر بهما[١]. والطبرى يذكر أن الوليد بن خليد مَرَّ على الخليفة هشام ابن عبد الملك (105- 125هـ/ 724- 743م) وهو يركب برذونًا طخاريًا. فقال له هشام: ما هذا البرذون؟ قال: حملنى عليه الجنيد بن عبد الرحمن - والى خراسان عام 112هـ - فقال هشام: والله لقد كثرت الطخارية - يعنى الخيول - لقد مات عبد الملك بن مروان. فما وجدنا أحدًا إلا يرى أنه إن لم يأخذ برذونه لم يرث من عبد الملك شيئًا[٢].

وكان أبو مسلم الخراسانى يكتب إلى عماله ببلاد ما وراء النهر، أن أنفذ إلىَّ الخيل من طخارستان[٣]. وقيل فى المدح: عليك بسرارى بخارى، ووصائف سمرقند، وبراذين طخارستان[٤]. وكان الخليفة المهدى العباسى (158- 169هـ/ 744- 785م) يهتم بالبراذين ويستمع لوصفها[٥]. وكان للقائد طاهر بن الحسين (ت207هـ) برذونٌ يعتز به، حتى قال له الخليفة المأمون، ما أطول صحبة هذا البرذون لك؟ فأجاب طاهر بن الحسين بفصاحته المعهودة، يا أمير المؤمنين: بركة الدابة طول صحبتها وقلة علفها. فقال المأمون: فكيف سيره قال: سيره أمامه، وسوطه عنانه، وما ضرب قط إلا ظلمًا. فأعجب المأمون بالبراذين، واتخذ له برذونًا أشهب اللون[٦]. وكان طاهر بن عبد الله بن طاهر بن الحسين (230- 248هـ) يكتب إلى وكلائه: إذا وجدتم البرذون الطخارى، فاشتروها، ولا تستطلعوا رأينا فيها"[٧]. وهكذا، نرى أن خيول طخارستان قد احتلت مكانة رفيعة عند الخلفاء والولاة، وهذا لا يتأتى إلا إذا كانت

---

(١) ابن عبد ربه: العقد الفريد، جـ4، ص24.
(٢) الطبرى: تاريخ الأمم، جـ4، ص220. وانظر البلاذرى:أنساب الأشراف،جـ3،ص 137.
(٣) الثعالبى: لطائف المعارف، ص207.
(٤) النويرى: نهاية الأرب، جـ1، ص370.
(٥) ابن قتيبة: عيون الأخبار، جـ1، ص154.
(٦) ابن طيفور: كتاب بغداد، ص21- 57.
(٧) الثعالبى: لطائف المعارف، ص219.

هذه الخيول تستحق ذلك. وأخيرًا، بقى أن أقول، إلى جانب شهرة طخارستان بإنتاج الخيول. فقد اشتهرت كذلك بإنتاج الإبل الذى يسمى البخاتى: وهى جمال طويلة الوبر، ذات سنامين[١].

(4) إقليم فرغانة

يذكر الرحالة الإصطخرى: أن قرى فرغانة كانت تتميز بالاتساع، وربما بلغت القرية الواحدة مقدار مرحلة، وذلك لكثرة أهلها، وانتشار مواشيهم ومزارعهم. ثم يقول فى موضع آخر: "إن الرجل العادى منهم كان يمتلك ما بين مائة دابة إلى خمسمائة"[٢]. ويثنى ابن حوقل على كثرة أموالهم، وجودة جمالهم، ويُرجع ذلك إلى كثرة المروج والمراعي[٣]. بينما يرى القزوينى أن السبب فى ذلك دفء هذا المكان[٤].

(5) إقليم أشروسنة

كانت قراها عامرة، ويغلب على أهلها تربية الأغنام والأبقار والخيول[٥].

(6) إقليم الشاش

كان إقليم الشاش عبارة عن أرض سهلة كثيرة المراعى والرياض[٦] ويعمل معظم سكانها فى تربية الحيوانات، مثل: الأغنام والماشية، والبغال والخيول[٧]. ويؤكد القلقشندى على أن إنتاج هذا الإقليم من الماشية كان يكفى ويُصدَّر إلى باقى الأقاليم. ويقول: ولولا أن الموت يقع بها فى بعض السنوات، لما بيعت، ولا وجد من يشتريها[٨].

---

(١) القلقشندى: صبح الأعشى، جـ2، ص33.
(٢) المسالك والممالك، ص163- 187. وانظر: ياقوت: معجم البلدان، جـ3، ص428.
(٣) صورة الأرض، ص387- 420.
(٤) آثار البلاد، ص603. وانظر لسترنج: بلدان الخلافة الشرقية ، ص521.
(٥) الإدريسى: نزهة المشتاق، جـ1، ص506.
(٦) الإصطخرى: المسالك والممالك ، ص184. ياقوت: معجم البلدان، جـ3، ص114.
(٧) مجهول: حدود العالم، ص90-91.
(٨) القلقشندى: صبح الأعشى، جـ4، ص442.

وصفوة القول. إن إنتاج بلاد ما وراء النهر من الدواب والأنعام من أمثلة: الخيل، والبغال، والحمير، والماعز، والأغنام، والإبل، بالإضافة إلى الأسماك، كان يكفى الإنتاج، ويصدر الباقى إلى بعض أمصار الدولة الإسلامية[1].

(١) مازالت هذه البلاد تتمتع - حتى الآن - بشهرة عالمية فى الإنتاج الحيوانى. فقد بلغ إنتاجها من الماعز والأغنام (8,7) مليون رأس، ومن الماشية (4.1) مليون رأس. ومازالت جمهورية أوزبكستان تهتم بتربية دودة القز خاصة فى وادى فرغانة. د. محمود أبو العلا: المسلمون فى الاتحاد السوفيتى، ص63. د. مصطفى رمضان: المسلمون فى آسيا الوسطى، ص246.

الفصل السادس

"التعدين والصناعة"

المبحث الأول: المعادن والأحجار الكريمة:

1- الحديد.

2- النحاس.

3- الزنك.

4- الزئبق.

5- النوشادر.

6- القصدير.

7- البجادى.

8- الياسب.

9- الحجر المكى.

10- المادينج.

11- الذهب.

12- الفضة.

13- اللَّعل.

14- اللاَّزْوَرْد.

المبحث الثانى: الصناعة:

1- المنسوجات.
2- الصناعات الغذائية.
3- الخشبية.
4- المعدنية.
5- الكَتَّان.
6- الفَخَّار.
7- الورق.
8- البناء والزخرفة.
9- العطور.
10- استخدام الطواحين فى الصناعة.

المبحث الأول
" المعادن والأحجار الكريمة "

التمهيد

للصناعة أهمية كبرى فى اقتصاد الدول، وقد أشار القرآن الكريم – مصدر المسلمين الأول – فى آيات كثيرة إلى بعض الصناعات اللازمة للبشرية فى مختلف مراحلها. ومن ذلك: بناء السفن. فقال تعالى مخاطبًا نوح (عليه السلام): ﴿وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا﴾[١].

وفى القرآن الكريم إشارة إلى صناعة المنسوجات. قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلْأَنْعَٰمِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ ۙ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَآ أَثَٰثًا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٨٠﴾ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْجِبَالِ أَكْنَٰنًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ﴾[٢]. كما أشار القرآن الكريم إلى الحرير فقال تعال فى حق أهل الجنّة: ﴿وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾[٣]. وقال أيضًا: ﴿وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُوا۟ جَنَّةً وَحَرِيرًا﴾[٤] وغيرها من الآيات

---

(١) سورة هود، آية 37.

(٢) سورة النحل، آيات 80- 81.

(٣) سورة الحج، آية 23.

(٤) سورة الإنسان، آية 12.

التى تحث على تعلم الصناعة، وتحث المسلمين على التقدم بما يحقق فائضًا لديهم يسمح لهم بالتصدير، ويجعلهم يستغنون عن باقى دول العالم[١].

هذا، وقد اهتم الخلفاء العباسيون بالتعدين فاستخرجوا الحديد والنحاس والرصاص من المناجم، واستغلوا هذه الثورة المعدنية أحسن استغلال. كما اهتموا بالبحث عن الأحجار الكريمة، وبيعها فى أسواق بغداد - حاضرة العباسيين - بل أحيانًا كان الخليفة يوكل من ينوب عنه فى بيع هذه الأحجار الثمينة[٢]. ومن مظاهر اهتمام الخلفاء بهذه الأحجار، أن أبا مسلم الخراسانى حين وجه زياد بن صالح إلى بلاد الصين (133هـ/ 751م) بعث إليه الأخير بفص من الياقوت النادر. الذى أرسله أبو مسلم إلى الخليفة أبى العباس السفاح، وظل هذا الخاتم يتنقل بين خلفاء بنى العباس حتى وصل إلى الرشيد، وسقط منه فى ماء دجلة ولم يعثر عليه، فاغتم لفقده. ثم اشترى فصًا آخر من الياقوت بعشرين ألف دينار. فكان يقول: "وأين هذا من فصي"[٣].

كذلك ذكر عمرو بن مسعدة، أن المأمون حين دخل بغداد أهدى إليه الفضل ابن الربيع فص ياقوت لم يَرَ مثله. قال: وأحب المأمون هذا الفص، وجعل يقلبه بين يديه ويطيل النظر إليه، وهو يقول: متى رأيت فصًا أحسن من هذا؟![٤] من هذا يتضح لنا مدى اهتمام الخلفاء العباسيين بهذه الأحجار الكريمة، ومعرفة قدرها.

والآن، أستعرض أهم المعادن والأحجار الكريمة فى أقاليم بلاد ما وراء النهر، وهى كالتالى:

(١) إقليم الصغد

(أ) بخارى: إلى جانب شهرة بخارى الزراعية - والتى تحدثت عنها - فقد وجد بها كثيرٌ من المعادن والتى يأتى فى مقدمتها: الحديد والنحاس والزنك والزئبق

---

(١) د. راشد البراوى: التفسير القرآنى للتاريخ، ص41 وما بعدها.

(٢) د. سرور: تاريخ الحضارة الإسلامية، ص5.

(٣) ابن طيفور: كتاب بغداد، ص13.

(٤) ابن طيفور: نفس المصدر، ص12.

والنفط والنوشادر الخام، وزيت الزاج، والفحم الحجري[١]. هذا إلى جانب الذهب والفضة.

وتجمع المصادر الإسلامية على غنى بخارى بالمعادن: يقول ابن حوقل: "وببلادهم من معادن الحديد ما يفضل عن حاجتهم وينيف على تجارتهم، وبها معادن الذهب والفضة والزيبق (الزئبق) الذى لا يقاربه فى الغزارة والكثرة معدن . ولم أعلم أن فى شىء من بلد الإسلام النوشادر إلا فى ما وراء النهر. حتى رأيت منه شيئًا بصقلية وليس كنشادرهم فى القوة"[٢]. ويأتى فى مقدمة هذه المعادن: النحاس الأصفر، الذى كان يستعمل فى طلاء المنائر، ويدخل فى سك العملات المحلية، وفى تغطية بوابات المدينة. بالإضافة لصناعة الأوانى النحاسية، مثل: الغلايات والأباريق، وغيرها من الأوعية المختلفة[٣]؛ كذلك كان النحاس يدخل فى صناعة القصدير والزنك مكونًا سبائك البرُنز التى تدخل فى صناعة الأدوات الثقيلة والأسلحة[٤].

ومن معادن بخارى أيضًا معدن الزنك (التوتيا) والفحم الحجرى، الذى وصفه أحد الرحالة الجغرافيون بأنه "حجارة تحترق كالفحم"[٥].

وأما عن الأحجار الكريمة: فقد اشتهرت بخارى بإنتاج نوع جيد من هذه الأحجار يسمى البجادى، عده الجوهريون العرب من أشباه الياقوت لأنه مثله فى اللون، وفى بعض الصفات[٦]، وهو يتميز عن الياقوت بأنه لا يضىء – غالبًا – حتى يقصر من تحته الحفر، كذلك فالبجادى أقل حرارة ويبسًا من الياقوت[٧]. ومن أنواع البجادى: الأحمر، وهو أجوده ويسمى الدهن، ومنه الأصفر ويسمى الزردوف، ومنه نوع قريب من الصفرة يسمى الناريام. وكان البجادى يباع فى أسواق بغداد بعشرة دنانير[٨].

---

(١) فامبرى: تاريخ بخارى، ص33.

(٢) صورة الأرض، ص380، البكرى: المسالك والممالك، جـ١، ص442.

(٣) المقريزى: رسالة المقاصد السنية فى معرفة الأجسام المعدنية، ص221.

(٤) هيل: العلوم والهندسة فى الحضارة الإسلامية، ص273.

(٥) ابن حوقل: صورة الأرض، ص402، آدم متز: الحضارة الإسلامية، جـ2، ص238.

(٦) التيفاشى: منافع الأحجار، مخطوط، ورقة 38، ومجهول: رسالة فى خواص الأحجار، مخطوط، ورقة 4.

(٧) التيفاشى: أزهار الأفكار فى جواهر الأحجار، ص39 .

(٨) يحيى بن ماسويه: الجواهر وصفاتها، ص63.

كذلك اشتهرت بخارى بإنتاج نوع آخر من الأحجار الكريمة يسمى: الياسب أو (اليشب). وأهل بخارى يسمونه (الشب أو آشب). وكان يخرج من معادن الزمرد؛ لذا فهو قريب الشبه منه فى خضرته وصلابته، ولا يكاد يفرق بينهما إلا الجوهرى البصير الناقد. وكان ثمن الياسب - غالبًا - دينارًا إلى ثلث دينار(١).

(ب) سمرقند: وأما سمرقند فإن المعادن بها قليلة مقارنة ببخارى، وإن اشتهرت المدينة بإنتاج نوع جيد من النوشادر والزئبق(٢). وكانت معظم شوارع المدينة مرصوفة بالحجارة التى حصلوا عليها من جبل كوهك، الذى يقع بالقرب منها. كذلك وجدت بالمدينة بعض المعادن، كالذهب والفضة، على قول الإصطخرى(٣).

(2) إقليم طخارستان

اشتهر هذا الإقليم بإنتاج كثير من المعادن والأحجار الكريمة، فمن مدينة الختل: كان يستخرج الذهب والفضة(٤). والحجر المكى: وهو حجر أخضر يشبه الزمرد، وثمنه نصف دينار إلى سدس دينار(٥) وحجر المادينج: وهو حجر نحاسى لونه أحمر(٦)، ويميل إلى السواد. وله أربعة أنواع، وهى: الآفرندى، والهندى، والكرمانى والكركى، وأجوده: الأخضر الشبيه بالزمرد، ويصل ثمن المثقال(٧) الخالص منه بمقدار مثقالين من الذهب.

وحازت مدينة بذخشان، قصب السبق فى إنتاج المعادن، والأحجار الكريمة. فقد اشتهرت منذ القدم بإنتاج معدن البلخش، ويسمى اللَّعْلَ(٨). وذكر التيفاشى أنه على ثلاثة أنواع، وهى: الأحمر. ويسمى المعقرب، لأن حمرته مشوبة بحمرة العقرب،

---

(١) التيفاشى: المصدر السابق ، ص 39.

(٢) الثعالبى: لطائف المعارف، ص219.

(٣) المسالك والممالك، ص178. ياقوت: معجم البلدان، جـ4، ص164.

(٤) مجهول: حدود العالم، ص92.

(٥) يحيى بن ماسويه: الجواهر، ص57.

(٦) الخوارزمى: مفاتيح العلوم، ص261.

(٧) المثقال: أحد الأوزان، ويساوى درهما وثلاثة أربع أى (4.49) جرام. وينقسم إلى ستة دوانق، (22) قيراطا،(72 حبة)، والمثقال لم يتغير فى جاهلية ولا إسلام. الخوارزمى: مفاتيح العلوم، ص11، المقريزى: النقود الإسلامية، ص158- 159، القلقشندى: صبح الأعشى، جـ3، ص440، د. محمد ضياء الدين الريس: الخراج والنظم المالية، ص353.

(٨) القزوينى: آثار البلاد، ص306. السمعانى: الأنساب، جـ1، ص30.

وهو أجوده. ثم الأخضر، ويليه الأصفر[1]. وجدير بالذكر، أن هذا المعدن كان قليل الوجود فى الطبيعة؛ لذا فكان الحصول عليه يتطلب كثيرًا من الأموال والأيدى العاملة. وكانت قيمته – غالبًا – نصف قيمة الياقوت الخالص[2].

كذلك وجد فى بذخشان حجر البجادى – سبق التعريف به – وحجر اللاّزوَرْد[3] وهو حجر رخو طينى، وأجوده وأشده إشراقًا وصفاء هو السماوى اللون. وكان يصنع منه خواتم الملوك[4]. وكانت القطعة منه بمقدار مَنٍّ[5]. وذكر القلقشندى أنه يدخل فى صناعة الحبر. ويكتب به فواتيح الكلام من الأبواب والفصول ونحوها[6].كذلك اشتهرت بذخشان بإنتاج حجر الفتيلة، وقد سمى بذلك؛ لأنه كان يستعمل فى فتيلة المصابيح. ومنه كان ينسج غطاء الموائد، حتى إذا اتسخ أو أرادوا غسله طرحوه فى النار فيعود نظيفًا[7]. وآخر ما اشتهرت به بذخشان معدن البلور الخالص (الكريستال) وهو: حجر أقل جودة من الياقوت. وأجوده: الأبيض الصافى. وثمن القطعة الواحدة التى تزن رطلا، وذلك إذا كانت شديدة الصفاء سالمة من العيوب، كانت تساوى عشرة دنانير[8].

وأما مدينة سمنجان: فقد اشتهرت بأن أحجار جبالها بيض تشبه الرخام. لذا فكانت تستخدم فى بناء المنازل والمساجد[9].

(3) إقليم فرغانة:

ذكر الرحالة الجغرافيون أن إقليم فرغانة كان ينتج: الحديد والزئبق والنحاس، والرصاص (الآنك)، والذهب والفضة والنفط والزفت والنوشادر[10] وامتاز حديد

---

(١) التيفاشى: أزهار الأفكار، ص10 .

(٢) القلقشندى: صبح الأعشى، ج2، ص99.

(٣) مجهول: حدود العالم، ص82. الإصطخرى: المسالك والممالك، ص156.

(٤) يحيى بن ماسويه: الجواهر، ص62.

(٥) المَنّ: أحد الأوزان، يساوى رطلين (816) جرامًا. والرطل الشرعى يساوى (12) أوقية أى يساوى (408) جرامات. المقريزى: النقود الإسلامية، ص158، القلقشندى: صبح الأعشى، ج3، ص445، د محمد ضياء الدين الريس: الخراج والنظم المالية، ص367.

(٦) نفس المصدر، ج2، ص467.

(٧) القزوينى: آثار البلاد، ص306. ياقوت: معجم البلدان، ج1، ص286.

(٨) القلقشندى: صبح الأعشى، ج2، ص108.

(٩) مجهول: حدود العالم، ص78.

(١٠) أبو الفدا: تقويم البلدان، ص486.

فرغانة بليونته، فهو قابل للسحب والطرق، لذا فكان يستخدم كمادة خام لتصنيع الفولاذ، وربما صنعت منه السيوف، والخوذات ورءوس الرماح. وباقى أدوات القتال[١].

ومن جبل (أسبره) الواقع على حدود فرغانة كان يستخرج الفحم الحجرى الذى يستخدم لإضاءة المنازل ليلًا. ويذكر الإصطخرى: أن الفحم رخيص بهذا الإقليم حتى كانت تباع ثلاثة الأوقار (حمل بعير) بدرهم[٢]. واشتهر جبل (اليتُّم) بإنتاج نوع جيد من النوشادر[٣]، يصفه الرحالة بأنه جبل ضخم يرتفع منه بخار شديد، ولا يستطيع أحد الدخول فيه من شدة الحر إلا أن يلبس جلودًا مرطبة بالماء ثم يدخل بسرعة فائقة للحصول على قدر بسيط من هذا النوشادر. وقد قدم لنا المسعودى وصفًا رائعًا للحصول على هذا المعدن. ثم قال: "ورأيت عدة من الناس ممن سلك من بلاد الصغد على جبال النوشادر إلى أرض التُّبت والصين ببلاد خراسان"[٤].

وإلى جانب المعادن السابقة، فقد اشتهر إقليم فرغانة بإنتاج الأحجار الكريمة، ومنها: الفيروزج، وهو حجر أزرق أصلب من حجر اللازورد[٥] وهو نوعان: سنجابى، وخلنجى، وأجوده: الأزرق الصافى اللون المشرق[٦] وتختلف قيمته على حسب جودته. وربما وصل وزن الفص الواحد من دينار إلى خمسين دينارًا[٧]. وهناك أيضًا حجر الباذرهر: وهو حجر خفيف هش، وله ألوان كثيرة. ومنها: الأصفر، والأغبر المشرب بالحمرة والمشرب بالبياض. وأجوده: الأصفر الخفيف. وذكر الجوهريون العرب طريقة يستدل بها على جودته[٨]، وهى: "كونه ذا طبقات رقاق متراكمة - كما فى اللؤلؤ - وبه نقط خفيفة سود، وأن يكون مُر المذاق. وذكر التيفاشى، أن الهنود كانوا يصنعون أصنامهم من هذا المعدن[٩].

---

(١) هيل: العلوم والهندسة، ص283.

(٢) المسالك والممالك، ص187. وانظر: الخوارزمى: مفاتيح العلوم، ص260.

(٣) ياقوت: معجم البلدان، جـ1، ص267.

(٤) المسعودى: مروج الذهب، جـ1، ص141.

(٥) ياقوت: معجم البلدان، جـ1، ص142.

(٦) التيفاشى: منافع الأحجار، ورقة 58 .

(٧) يحيى بن ماسويه: الجواهر، ص27. القلقشندى: صبح الأعشى، جـ2، ص107.

(٨) مجهول: حدود العالم، ص87.

(٩) منافع الأحجار، ورقة 59.

(4) إقليم اشروسنة

اشتهر الإقليم بإنتاج الحديد الذى تصنع منه الآلات. وكان يصدر منه إلى خراسان والعراق. كما ظهر بالإقليم بعض المعادن، مثل: النحاس والرصاص والقصدير الذى يستخدم فى تبطين القنوات، وفى تسقيف المبانى العامة(١) بالإضافة لإنتاج النفط والقير والزفت(٢) وغيرها من المعادن، وينفرد اليعقوبى بذكر الذهب بهذا الإقليم. فقال: "يوجد به سبائك الذهب وليس بخراسان ذهب بموضع من المواضع إلا بلغنى أنه يوجد فى هذا الوادى"(٣).

(5) إقليم الشاش: امتاز هذا الإقليم بإنتاج معادن الذهب والفضة، والحديد والنحاس الأصفر والرصاص(٤). واختصت مدينة السوج - إحدى مدن الإقليم - بإنتاج معدن الزئبق الذى يحمل منها إلى باقى الأمصار(٥).

ومن الأحجار الكريمة التى وجدت بهذا الإقليم: حجر الفيروزج(٦)، والياقوت، وهو حجر ذهبى اللون. وله أنواع ثلاثة: الأحمر، وهو أعلى أصناف الياقوت وأفضلها وأغلاها ثمنًا. والأصفر، وله أنواع كثيرة وآخرها الأبيض. وهو أقلها ثمنًا. وأما قيمته فقد ذكر التيفاشى، أن الأحمر الخالص إذا كان زنته نصف درهم كانت قيمته ستة مثاقيل من الذهب الخالص. والحجر الذى زنته درهم، قيمته ستة عشر دينارًا، والحجر الذى زنته مثقال قيمته بدينارين(٧)، (٨).

---

(١) هيل: العلوم والهندسة فى الحضارة الإسلامية، ص273.

(٢) ابن حوقل: صورة الأرض، ص402.

(٣) اليعقوبى: البلدان، ص294.

(٤) السمعانى: الأنساب، جـ١، ص238.

(٥) القزوينى: آثار البلاد، ص538.

(٦) يحيى بن ماسويه: الجواهر، ص72.

(٧) القلقشندى: صبح الأعشى، جـ2، ص96.

(٨) مازالت هذه البلاد تتمتع حتى الآن بوجود ثروة معدنية ضخمة، ومنها: النحاس والزنك والرصاص والذهب. بالإضافة إلى امتلاكها احتياطيًا ضخمًا من الغاز الطبيعى، والنفط والفحم. كما أن المجارى المائية فى إقليم المرتفعات فى جمهورية أوزبكستان تمدها بالقوة الكهربائية الهائلة التى تستغل فى الصناعة . د. محمود أبو العلا: المسلمون فى الاتحاد السوفيتى، ص63.

المبحث الثانى

" الصناعة "

تمهيد

كانت الصناعة فى خلافة الراشدين، والدولة الأموية معظمها صناعات خفيفة، باستثناء الصناعات الحربية من سيوف ودروع.... إلخ - وذلك لقرب هذا العهد بالبداوة، والاعتماد على البساطة فى المأكل والمشرب والمسكن، وسائر شئون الحياة. فإذا انتقلنا إلى الدولة العباسية فإننا نجد العكس تمامًا. حيث ظهرت حياة الترف والنعيم، واتسعت الدولة، وبنيت القصور، وكثر بها الرقيق والجوارى، واتصلت الحضارة الإسلامية بباقى حضارات العالم، وخاصة الحضارة الساسانية المشهورة بالتأنق فى شئون الحياة المختلفة، فكان من الطبيعى أن تستغل الدولة العباسية موارد الثروة الطبيعية لديها فقاموا بإنشاء المصانع المتنوعة لسد حاجات الشعوب الإسلامية؛ ومن ثَم أقيمت حرفة المنسوجات القطنية والصوفية. واهتموا بصناعة البُسُط والزجاج والصابون والعطور والأصباغ، بالإضافة إلى إنشاء مصانع الورق والفخار وغيرها.

كذلك اهتم الخلفاء العباسيون بأمر الصنّاع، فعملت الدولة على استقدام عدد من الصناع من الخارج - الدولة البيزنطية - مثلاً للاستفادة من مهاراتهم وخبراتهم، ولإعطاء الفرصة لصناع البلاد الإسلامية للاستفادة من تلك الخبرات[1].

---

(١) عصام نقلى: تحليل الفكر الاقتصادى فى العصر العباسى الأول، ص70.

وبداية أُذكّر بأمور مهمة تخص الصناعة فى بلاد ما وراء النهر، وهى:

أولًا: اتسمت الصناعة فى هذا العصر - فترة البحث - بالاعتماد فى معظم الأحيان - على الصناعات اليدوية، التى تتسم بالمهارة. مع مساعدة الآلات والأدوات الإنتاجية ذات الطابع البسيط.

ثانيًا: اتسمت الصناعة بالفردية، أو باشتراك عدد محدد من العمال فى صناعة واحدة.

ثالثًا: تأثرت الصناعة فى بلاد ما وراء النهر بصناعة أهل الصين، الذين اشتهروا منذ القدم بمهارة ودقة التصنيع. يقول المسعودى: "أحذق خلق الله كفًا بنقش وصنعة، وكل عمل لا يتقدمهم فيه أحد من سائر الأمم، والرجل منهم يصنع بيده ما يقدر أن غيره يعجز عنه"[1]؛ لذا فكانت العرب تقول لكل طرفة من الأوانى وما أشبهها: صينية، لاختصاص أهل الصين بصناعة هذه الطرائف[2]. ونظرًا لقرب بلاد ما وراء النهر بهذه البلاد فكان من الطبيعى أن يتأثروا بهم، ويأخذوا عنهم بعض الصناعات الدقيقة، ولا غرابة فى ذلك، فمازلنا إلى يومنا هذا نستخدم الكثير من الأدوات الصينية، ونحاول تقليدها.

رابعًا: اشتهرت بعض أقاليم بلاد ما وراء النهر بإنتاج نوع معين من الصناعات، كصناعة المنسوجات ببخارى، وصناعة الورق بسمرقند، بينما عمت صناعات أخرى جميع الأقاليم كصناعة العطور مثلًا.

خامسًا: يواجه الباحث فى التاريخ الإسلامى فى منطقة البحث صعابًا هائلة فى معرفة سعر السلعة ،حيث كانت السلع تقدر بموازين أو معايير تختلف حسب المكان والزمان، بالإضافة إلى اختلاف القيمة النقدية للسلعة من مكان لآخر، واختلاف مسميات العملة، وعدم معرفة قيمتها.

والآن نتعرف على صناعات كل إقليم من أقاليم بلاد ما وراء النهر بالتفصيل:

---

(١) مروج الذهب، جـ1، ص131.

(٢) الثعالبى: لطائف المعارف، ص220، النويرى: نهاية الأرب، جـ1، ص663.

(ا) إقليم الصغد

(أ) بخارى: شهد العصر العباسى تطورًا كبيرًا فى صناعة النسيج، حيث تتطلب هذه الصناعة فنًا فى أشكالها وطرق زخرفتها واختلاف أنواعها. وقد اشتهرت معظم المدن الإسلامية بإنتاج أنواع مختلفة من المنسوجات، كما اختصت بعض هذه الأقاليم بإنتاج أنواع منها دون غيرها.

هذا، وقد ازدهرت هذه الصناعة فى بلاد العراق - مقر الخلافة العباسية - وذلك لما سنه الخلفاء العباسيون والأمراء من مكافأة أكابر رجال الدولة بالخِلَع الثمينة، ولاعتناء الناس بصورة عامة بالملابس، مما شجع الصناع على تحسين إنتاجهم والإكثار من أنواعه، فكان لكل طبقة لباس خاص بهم، ولكل صنف زيه[١] حيث كانت الملابس تدل على منزلة الشخص وعلو مقامه، كما كانت كل مناسبة تتطلب نوعًا خاصًا من الملابس[٢].

(ا) صناعة المنسوجات: إلى جانب شهرة بغداد فى صناعة المنسوجات، فقد اشتهرت أقاليم المشرق الإسلامى - لاسيما بخارى - بهذه الصناعة. يقول ابن حوقل: "ويرتفع من بخارى ونواحيها ما يحمل إلى العراق وسائر البقاع ثياب تُعرف بالكرابيسى - ثقال الوزن غليظة السلك مبرمة الغزل - فيرغب العرب فيها"[٣]. ويقول الإصطخرى عن زى أهل بخارى: "ويغلب على زيهم الأقبية والقلانس"[٤].

وإلى جانب شهرة بخارى، فقد اشتهرت مدينة الطواويس: بإنتاج القطن الذى تصنع منه المنسوجات الذى يُحمل منها إلى العراق لكثرتها[٥]. وكان يرتفع من

---

(١) ديماند: الفنون الإسلامية، ص249.

(٢) د. سامية توفيق: تطور صناعة المنسوجات بالمشرق الإسلامى فى العصر العباسى، ص495، لسترنج: بلدان الخلافة الشرقية، ص331.

(٣) صورة الأرض، ص409.

(٤) المسالك والممالك، ص176.

(٥) الإدريسى: نزهة المشتاق، جـ1، ص495.

كرمينية: المناديل، واختصت الدبوسية بإنتاج نوع من الثياب يسمى الديباج[١] ومن أرينجن، المصليات وأزر النساء[٢]، ونسب إلى مدينة الزندنة: نوع من الثياب يسمى الزندنيجى الذى أشار السمعانى وياقوت إلى شهرة تلك الثياب فى الآفاق، حيث كان التجار يأتون من مختلف الولايات ويحملون الزندينجى إلى الشام ومصر وغيرها من الأقطار[٣]، وكان الأمراء والملوك يتخذون منه ثيابًا لهم، ويشترونه بثمن الديباج على قول النرشخى[٤]. كذلك اشتهرت مدينة اسكجكت: بإنتاج نوع من الثياب يسمى الكرباسى.

دار الطراز ببخارى

اهتم الخلفاء العباسيون، وأمراء الأقاليم بدور الطراز[٥]، فأُنشئت تلك الدُّور فى سائر أقاليم الدولة العباسية – والمشرق الإسلامى بصفة خاصة – حيث كانت تصنع هناك ملابس الخلفاء والأمراء. وجدير بالذكر، أن هذه الصناعة قديمة، وهى معروفة منذ أيام الدولة الساسانية، وعنهم نقلها الأمويون، واستمر العمل بها – مع تطويرها – فى ظل الدولة العباسية[٦].

هذا، وقد ظهر نوعان من دور الطراز، أولهما: دور الطراز الخاصة، وهى التى كانت تصنع فيها المنسوجات الخاصة بالخلفاء. والأقمشة التى كان يخلعها

---

(١) الديباج: نسيج من الحرير مختلف الأجناس استعمل كثيرًا فى العصور الوسطى. وكان لباسًا للرجال فى الدولة الإسلامية. والكلمة فارسية مركبة من مقطعين هما (ديو)؛ أى الجن، و(باف) أى نسيج، وعلى ذلك يكون معنى الكلمة نسيج من الحرير الخالص، دقيق الصنمة ولا يستطيع نسجه إلا الجن كناية عن امتيازه. د. سعاد ماهر: الفنون الإسلامية، ص159.

(٢) المقدسى: أحسن التقاسيم، ص326، لسترنج: بلدان الخلافة الشرقية، ص515.

(٣) الأنساب، جـ3، ص172. معجم البلدان، جـ2، ص485.

(٤) تاريخ بخارى، ص31.

(٥) طراز: كلمة فارسية الأصل ومعناها التطريز، ثم أصبحت تطلق على الثوب الموشى، فكان هذا اللفظ يطلق على كل قطعة نسيج عليها كلمات منقوشة ثم صارت تطلق على المكان الذى تصنع فيه هذه الأشياء. ديماند: الفنون الإسلامية، ص249. د. سعاد ماهر: الفنون الإسلامية، ص117. دائرة المعارف الإسلامية، جـ15، ص121 مادة "طراز". وللمزيد انظر، ابن خلدون: المقدمة، جـ2، ص176.

(٦) د. حسن إبراهيم: تاريخ الإسلام السياسى، جـ2، ص253. د/ سامية توفيق: تطور صناعة المنسوجات، ص515.

الخليفة على كبار رجال الدولة، وأفراد حاشيته، ووصل اهتمام الخلفاء بهذا النوع من الثياب أن أُطلق اسم بعضهم عليها. ومن هؤلاء الخليفة المتوكل (206- 247هـ/ 821- 861م) الذى أَطلق على نوع من الثياب اسم "المتوكلية"، والتى يصفها المسعودى بقوله: "إنها نوع من ثياب الملحم نهاية فى الحسن، والصبغ وجودة الصنع"[1]. ثانيهما: دور الطراز العامة، وهى الخاصة بأفراد الشعب، وكان لبعض أجهزة الدولة (كالمحتسب) حق الإشراف، والمراقبة عليها.

ونعود إلى المشرق الإسلامى، فنقول، عرف الصينيون طرق غزل ونسيج الخيوط المستخرجة من شرانق الحرير منذ ثلاثة آلاف سنة قبل الميلاد، أو يزيد. واحتفظوا بسره حقبة طويلة من الزمن، وعنهم أخذ أهل بخارى إتقان صناعة الحرير. وقد أشار النرشخى إلى وجود دار صناعة الطراز بالقرب من المسجد الجامع[2]. وكانت هذه الدار تنتج كميات ضخمة من الوسائد والبسط والسرادقات واليزديات[3]، وسجاجيد الصلاة والبُرُد. وكان يقوم بهذه الصناعة جماعة من أمهر الصناع المخصصين لهذا العمل. وكانت تنتج ألوانًا مختلفة من الثياب، منها: الأحمر والأبيض والأخضر "ولم يكن هناك ملك أو أمير أو رئيس أو صاحب منصب لا يوجد عنده شىء منها"[4].

وممن اشتهر بصناعة الثياب فى بخارى الإمام الحجاج أبو محمد بن عبد الجبار الكسائى كان يعظ ويجلس للعامة، واشتهر بالعلم والخير. توفى ودفن ببخارى. وممن اشتهر بغزل الصوف وعمل الأكسية ابنا الخرعونى ؛ بعث بهما أبوهما إلى سمرقند عام (233هـ/ 848م) طلبًا للعلم. وفى خلال ثلاثة أعوام جوَّدا العلوم، بينما كانت أمهما تنفق عليهما من عملها فى غزل الصوف[5].

---

(١) مروج الذهب، جـ4، ص83.

(٢) تاريخ بخارى، ص39.

(٣) اليزديات: نوع من القماش الفاخر: النرشخى: نفس المصدر، ص37، حاشية (2).

(٤) النرشخى: نفس المصدر، ص93، فامبرى: تاريخ بخارى، ص25.

(٥) السمعانى: نفس المصدر، جـ2، ص346.

وخلاصة القول، إن صناعة المنسوجات بجميع أنواعها كانت متقدمة ومزدهرة فى بخارى، مما زاد الإقبال عليها، ومن ثم كانت تصدر إلى سائر الآفاق الإسلامية.

(2) الصناعات الحيوانية:إلى جانب صناعة المنسوجات ظهرت فى بخارى بعض الصناعات المتنوعة التى لا يمكن الاستغناء عنها، ومن أمثلة هذه الصناعات، صناعات قائمة على الثروة الحيوانية، ومنها:

صناعة الجبن الذى يصنع من اللبن. وذلك لكثرة الثروة الحيوانية – التى سبق الحديث عنها – فى بخارى، وممن اشتهر بهذا العمل خطيب بخارى أبو إبراهيم إسحاق بن محمد الجبنى. وصناعة الحذاء (النعال) من جلود الحيوانات، وممن اشتهر بهذا العمل: أبو عمرو أحمد بن محمد الحذاء، وأبو القاسم بكر بن الفضل، وابنه محمد، من أهل بخاري[١]. وصناعة دبغ الجلود، ويطلق على صاحبها اسم السَّبخى، ومنهم: أبو عبد الله محمد، وأبو حفص عمر، ابنا أبى بكر بن عثمان السبخى، كانا من أهل الخير والصلاح والعفاف، واشتهرا بتدريس علم الحديث وسكنا بخاري[٢]. ومنها: صناعة خياطة الفرو المتخذ من جلود الحيوانات البرية، وممن اشتُهر بهذا العمل: أبو إسحاق إبراهيم بن أحمد الفراء، سمع الحديث ببخارى، وكان من الثقات[٣]. ومنها: حرفة الجزارة، وكان يسمى القصَّاب. ومنهم: على بن الحسن بن تَوْبَة، من أهل بخارى، روى عنه جماعة من أهل العلم، توفى عام 276هـ ببخاري[٤]. ومنها: صناعة الجوالق التى تلبس فى القدم وكانت – عادة – تتخذ من جلود الحيوانات، وذلك لشدة البرد فى فصل الشتاء فى هذه البلاد، وممن اشتهر بهذا العمل، أحمد بن محمد الجوالقى، من أهل بخارى، جود العلم واشتهر بطلبه، وتوفى ببخارى.

---

(١) السمعانى: نفس المصدر، جـ3، ص533- 534.

(٢) السمعانى: نفس المصدر، نفس الجزء، ص212.

(٣) السمعانى: نفس المصدر، جـ4، ص352.

(٤) السمعانى: نفس المصدر، نفس الجزء، ص507.

(3) الصناعات الغذائية:اشتهرت مدينة شرغ – إحدى مدن بخارى – بإنتاج الحلوى المحشوة[1] التى كانت لها شهرة فائقة فى نواحى بخارى كلها، وممن اشتهر بصناعتها:

أبو محمد عبد العزيز الملقب بشمس الأئمة، وهو من أشهر علماء الرأى ببخارى. ونظرًا لكثرة الحبوب الغذائية فى بخارى فقد قامت بها صناعة الخبز، وممن اشتهر بهذا العمل: أبو بكر بن يزداذ الخباز. سكن بخارى، وحدث بها عن جماعة من أهل العلم. وظهر نوع رقيق من الخبز يطلق عليه (دغول) واختص بأكله أثرياء المدينة. واشتهر بصناعة هذا النوع من الخبز: أبو العباس محمد بن عبد الرحمن، من أهل بخارى، وعمه: أبو الحسن على بن محمد ابن عبد الرحمن قدم بخارى، وسكنها، وحدث بها.

(4) صناعة البناء: تقدمت صناعة البناء فى مدينة بخارى، ونظرة سريعة على الوصف الجغرافى للمدينة من حيث أسوارها وقلاعها، يتضح لنا مدى تقدم هذه الصناعة. والجدير بالذكر أن سكان المدينة كانوا يحصلون على هذه الأحجار من جبل (وركه) الواقع بالقرب من بخارى. كما اهتموا برصف طرقات المدينة، وتزيين المبانى بالجص[2].

(5) الصناعات الخشبية: انتشرت فى بخارى أشجار الخلاف الضخمة التى كانت تستخدم فى صناعة البناء، حتى إن ابن حوقل وصف بخارى بقوله: "وبناؤها من الخشب المشبك"[3]، وممن اشتهر بهذا العمل – أعنى قطع الأخشاب وصناعتها – أبو محمد أحمد بن محمد الجيلانى، واشتهر درب الخشابين ببخارى بصناعة الأثاث، وكان يسكن فيه الإمام أبو عبد الله محمد بن الفضل الشرفدنى. وكان يعمل فى هذا الدرب بصناعة الأثاث[4].

---

(١) النرشخى: تاريخ بخارى، ص30.

(٢) ابن حوقل: صورة الأرض، ص402، الإدريسى: نزهة المشتاق، جـ1، ص495.

(٣) ابن حوقل: نفس المصدر، ص398.

(٤) السمعانى: نفس المصدر، جـ3، ص416.

(6) الصناعات المعدنية: سبق الحديث فى المبحث السابق، عن غنى بخارى بالمعادن، ومنها الحديد الذى قامت عليه كثير من الصناعات. ومنها: صناعة السيوف والرماح، وغيرها من أدوات القتال، هذا إلى جانب الصناعات الأخرى، وممن اشتهر بالحدادة أبو الفضل محمد بن الحسين الحدادى، كان فقيهًا فاضلًا من أصحاب الرأى، ومنهم: أبو عبد الله طاهر بن محمد المطوعى، كان أجداده يعملون فى صناعة الحديد، وورث هذه الصناعة. روى عنه جماعة من أهل العلم، ومن أشهر مؤلفاته: "عيون المجالس وسرور الدارس"[١]. كذلك اشتهرت بخارى بإنتاج النحاس الأصفر، الذى تصنع منه الأوانى النحاسية مثل: الغلايات والأباريق وغيرها من الأوعية. وممن اشتهر بهذا العمل: أبو نصر إسحاق بن أحمد بن شيث الصفار. كان من أهل الحديث، ورحل إلى الطائف وتوفى بها. وابنه إسماعيل بن أبى نصر، كان إمامًا فاضلًا، قوالًا للحق، توفى ببخاري[٢].

(7) صناعة الكَتَّان: كان الكتان قليلا ببخارى، مقارنةً بالقطن، ومع ذلك فقد قامت عليه بعض الصناعات، مثل: صناعة الخيام وخياطتها. وممن اشتهر بهذا العمل: أبو صالح خلف بن محمد بن إسماعيل. كان من أهل الحديث وتوفى ببخارى[٣]. ومنها صناعة الحبال، ويسمى (القَلَّاس) واشتهر بهذا العمل: أبو إبراهيم إسحاق ابن عبد الله القلاس، من أهل بخارى، حدث عن جماعة من أهل العلم[٤].

(ب) سمرقند: قامت فى سمرقند صناعات متطورة، لا تقل روعة وفنًا وجمالًا عن بخارى، ومن أمثلة هذه الصناعات:

(1) صناعة المنسوجات:ازدهرت صناعة المنسوجات فى سمرقند[٥]، ومن أشهر مدنها الصناعية مدينة وذَّار: التى اشتهرت بإنتاج الثياب الوذَّارية القطنية، والتى سُميت باسم المدينة. وكانت تلك الثياب تصدر إلى كل من فارس والعراق وسائر

---

(١) السمعانى: نفس المصدر، جـ2، ص182.

(٢) السمعانى: نفس المصدر، جـ3، ص547.

(٣) السمعانى: نفس المصدر، جـ2، ص427.

(٤) السمعانى: نفس المصدر، جـ4، ص569.

(٥) ديماند: الفنون الإسلامية، ص261. د. زكى محمد حسن: الفنون الإيرانية، ص247.

أقطار العالم الإسلامى، لدقة صناعتها[1]. وبلغ من شهرة هذا النوع من الثياب أنه لم يوجد بخراسان أمير، أو وزير، أو جندى، إلا والثياب الوذارية ظاهرة على ما يلبسه من فاخر الثياب، ووصل ثمن الثوب الواحد من دينارين إلى عشرين دينارًا[2]. وهذا ما يؤكده المقدسى بقوله: "إن الثياب الوذارية على لون المصمت، كان يسميها بعض السلاطين ببغداد بديباج - حرير - خراسان"[3]، وقد امتدح الجاحظ هذه الصناعة[4]، ووصفها الإدريسى: "بأن لونها يشبه الزعفران، لينة الملمس، يعمر الثوب منها كثيرًا، ويستخدم لمدة طويلة"[5].

كذلك اُشتهر أهل سمرقند بصناعة الملابس الصوفية، وذلك عن طريق غزل الصوف، ومن أشهر مَنْ عمل بهذه الصناعة: أبو الحسن على بن محمد الفلكى، كان شيخًا صالحًا، سديد السيرة، كثير تلاوة القرآن الكريم، وكان يتكسب من عمل المغازل[6]. كما عرف أهل سمرقند صبغ الثياب بالألوان المختلفة[7] واستخدموا فى ذلك بعض المواد الكيمائية. وممن عمل بهذه الصناعة: أبو بكر محمد بن إسحاق العَصفُرى، كان من أفاضل الناس، وروى عنه جماعة من أهل العلم. وأخوه: أبو عمرو محمد بن إسحاق. سمع العلم بسمرقند، وكان من خيار عباد الله الصالحين فضلًا وورعًا[8].

(2) صناعة الزجاج:كان أهل سمرقند يحصلون على الرمال الصالحة لصناعة الزجاج من جبل كوهك، الواقع شرق المدينة[9]. وكانت تصنع منه الأدوات الزجاجية مثل: الكئوس والأطباق وغيرها. وقد عُثر على كميات كبيرة من هذه المصنوعات تدل على دقة صناعتها، وجمال زخرفتها، فضلًا عن إتقانها[10].

---

(١) الثعالبى: لطائف المعارف، ص219، ابن عبد ربه: العقد الفريد، جـ6، ص254.
(٢) ابن حوقل: صورة الأرض، ص407، بارتولد : تركستان، ص186.
(٣) أحسن التقاسيم، ص324. لسترنج: بلدان الخلافة الشرقية ، ص515.
(٤) المقريزى: الخطط، جـ1، ص40، ابن الجوزى: المنتظم، جـ8، ص71.
(٥) نزهة المشتاق، جـ1، ص501.
(٦) السمعانى: الأنساب، جـ4، ص400.
(٧) د. سرور: تاريخ الحضارة الإسلامية، ص138.
(٨) السمعانى: المصدر السابق، نفس الجزء، ص203.
(٩) الإصطخرى: المسالك والممالك، ص178. ياقوت: معجم البلدان، جـ4، ص164.
(١٠) ديماند : الفنون الإسلامية، ص230. د. زكى محمد حسن: الفنون الإيرانية، ص296.

(3) صناعة الفَخّار: تعد من أشهر الصناعات فى سمرقند، وكانت تصنع منه القلال، التى تستخدم فى سَقى الماء، فى شوارع المدينة. فقد ذكر ابن حوقل أن بسمرقند "ألفىْ مكان يسقى فيها ماء الجمد (المثلج) مُسبّل، عليه الوقوف من بين سقاية مبنية، وحباب نحاس منصوب، وقلال خزف مثبتة فى الحيطان المبنية"[١]. وتثنى الدكتورة سعاد ماهر على خزف سمرقند بقولها: "ويمتاز هذا النوع من الناحية الصناعية أن جميعه مطلى بطبقة من البطانة ذات اللون الفاتح، الأبيض، أو السمنى. ثم تأتى الزخارف ذات اللون الواحد التى تكون عادة داكنة سوداء، أو بُنية، أو زخارف متعددة الألوان"[٢] وهكذا تبدو هذه الأدوات الفخارية فى غاية الجمال والإتقان[٣].

(4) الصناعات الخشبية: تقدمت صناعة الأخشاب بسمرقند تقدمًا كبيرًا؛ حيث صنع منها الأثاث، المتأنق الصنعة[٤]. وممن اشتهر بصناعة الأخشاب، وخاصة الدقيقة منها: أبو الحسن على بن عثمان الزاط، كان عالمًا، فاضلًا، يأكل من كسب يده، وكان محترفًا فى صناعة الخشبة التى تصلح للحلاجين، ولم يكن أحد من الخراطين يعمل هذه الخشبة بسمرقند غيره، حتى إذا طلب من أحد الصناع عمل تلك الخشبة امتنع كرامة للشيخ[٥].

(5) الصناعات المعدنية:كذلك قامت فى سمرقند كثير من الصناعات الحديدية، وذلك لتوافر خام معدن الحديد هناك - كما سبقت الإشارة، ومن ثم فقد ظهرت صناعة الأقواس والنشاب، وكان يتم التدريب عليها فى المدينة . وممن اشتهر بهذه الصناعة، أبو سعيد محمد بن العباس الغازى، كان شديد المحبة لأهل العلم. وكان هذا الشيخ المعلم الأول للرمى فى سمرقند. وتتلمذ على يده فى العلم والرمى والصناعة خلق لا يحصى من أهل المدينة[٦]. وممن اشتهر بصناعة صقل الحديد،

---

(١) بارتولد : تركستان، ص181.

(٢) الفنون الإسلامية، ص38.

(٣) ديماند : الفنون الإسلامية، ص168، د. زكى محمد حسن: الفنون الإيرانية، ص179- 315.

(٤) ديماند: نفس المرجع، ص123- 124.

(٥) السمعانى: الأنساب، جـ2، ص339.

(٦) السمعانى: نفس المصدر، جـ3، ص31.

وصناعة السيوف، والرماح والدروع[١] وغيرها، أبو سهل نصر بن أبى عبد الملك، نزل سمرقند، وحدث بها، وروى عنه جماعة من أهل العلم[٢].

(6) صناعة الورق:إن كانت بخارى قد فاقت سمرقند فى صناعة الطراز، فإن سمرقند قد فاقت الدنيا فى صناعة الورق، لذا، فلا يعد استطرادًا أن ألقى بعض الضوء على تطور صناعة الورق، وأهميته للعلم والعلماء.

تذكر المصادر الإسلامية أن أهل الصين من أوائل الدول التى استخدمت الورق فى الكتابة[٣]، حيث كان يصنع من الحشيش والكلأ، وقد ظهرت هذه الصناعة فى بلادهم منذ القرن الثانى للميلاد، وذلك وفقًا لرأى المستشرق الروسى (مارك أوريل) الذى عثر على كميات كبيرة من هذا الورق فى أثناء اكتشافاته الأثرية فى آسيا[٤]. وأما بلاد الهند فإنهم قاموا بصناعة الورق من الحرير الأبيض. وكان الفرس فى البداية يكتبون فى الجلود المدبوغة من جلود الحيوانات، وكتبوا كذلك فى اللِّخاف - حجارة بيض رقاق - وفى النحاس، وغيرها، وفى عُسُب النخيل - الجريد الذى لا خوص عليه - وفى عظم أكتاف الإبل والغنم[٥]. ويثنى ابن النديم على اهتمام الفرس بحفظ الورق والاهتمام به[٦]. وعن هؤلاء أخذ العرب - لقربهم منهم - طريقة الكتابة على هذه الأشياء. ومن نافلة القول أن أذكر أن العرب أمة أمية كان معظمهم لا يقرءون ولا يكتبون، ويعتمدون على الذاكرة، وعلى الروايات الشفوية فى نقل أشعارهم ورواياتهم.

استمر العمل على ذلك حتى بعثة النبى (صلى الله عليه وسلم)، فكان أصحابه (رضى الله عنهم) يكتبون القرآن الكريم على الأشياء السابقة. فعن زيد بن ثابت (رضى الله عنه) أنه قال عن جمعه للقرآن الكريم: "فجعلت أتتبع القرآن من العُسُب واللِّخاف". وفى حديث الزهرى "قُبض رسول الله والقرآن فى العُسُب". وربما كتب

---

(١) د. زكى محمد حسن: الفنون الإيرانية، ص285.

(٢) السمعانى: المصدر السابق، نفس الجزء، ص575.

(٣) الثعالبى: لطائف المعارف،ص 218 .النويرى: نهاية الأرب، جـ1، ص 367.

(٤) بارتولد: تركستان، ص367.

(٥) القلقشندى: صبح الأعشى، جـ2، ص475.

(٦) الفهرست، ص972. ابن خلدون: المقدمة، جـ2، ص889.

النبى (صلى الله عليه وسلم) بعض مكاتباته فى الأَدَم (الجلد)[١]. وفى خلافة أبى بكر الصديق (١١- 13هـ/ 632- 634م) وأثناء جمع القرآن الكريم، استقر رأى الصحابة على كتابة القرآن فى الرَّق، لأنه كان موجودًا لديهم بكثرة، ولطول بقائه.

وبعد قيام الدولة الأموية (41هـ/661م) اعتنى الخليفة معاوية بن أبى سفيان بأمر الورق، فأصدر قرارًا باستعمال القراطيس التى كانت تصنع فى مصر والمعروفة بورق البردى[٢] للكتابة عليها. وحدد لكل طائفة مقدار الورق فكان يكتب للملوك فى قرطاس من ثلثى طومار (الورقة الكاملة)، وإلى الأمراء من نصف طومار، وإلى العمال والكُتَّاب من ثلث، وإلى التجَّار وأشباههم من ربع، وإلى الحساب والمسَّاح من سدس[٣]. وفى خلافة عبد الملك بن مروان (65- 86هـ/ 684- 705م) كانت الدولة الإسلامية تصدر الورق إلى دولة الروم ، ولأسباب كثيرة - اختلف المؤرخون[٤] حولها ولا محل هنا لذكرها - قام عبد الملك بتعريب الدواوين. ومنع تصدير الورق إلى الخارج، وأخذت صناعة الورق تزدهر نوعًا ما.

ولكن يبدو أن صناعة الورق لم تكفِ الاستهلاك بسبب اتساع الدولة الإسلامية؛ لذا فإننا نجد الخليفة عمر بن العزيز (99- 101هـ/ 717- 720م) يوصى عماله: "بألا تكتبوا فى طومر (وهو الطومار وهى الورقة الكاملة) بقلم جليل، ولا تمدن (الخط) فيه". كما أرسل إلى أبى بكر بن حزم يوصية" ... فأدق قلمك، وقارب بين سطورك، واجمع حوائجك، فإنى أكره أن أخرج من أموال المسلمين ما لا ينتفعون به"[٥]. وإن كان فى هذا الخبر إشارة إلى شدة ورع عمر بن عبد العزيز، ومحاسبته لعماله، ولكنه يثبت فى الوقت نفسه قلة الورق فى الدولة الإسلامية حينئذ.

---

(١) القلقشندى: صبح الأعشى، جـ1، ص91، جـ2، ص475.

(٢) الكندى: فضائل مصر المحروسة، ص49. د. سيدة كاشف: مصر فى فجر الإسلام من الفتح العربى إلى قيام الدولة الطولونية، ص292.

(٣) القلقشندى: صبح الأعشى، جـ3، ص446، جـ6، ص189- 190.

(٤) انظر: البلاذرى: فتوح البلدان، ص341 وما بعدها، والجهشيارى: الوزراء والكتاب، ص38 وما بعدها، الماوردى: الأحكام السلطانية، ص208، المقريزى: الخطط، جـ1، ص159.

(٥) ابن الجوزى: سيرة عمر بن عبد العزيز، ص75.

استمر الوضع هكذا حتى قامت الدولة العباسية (132هـ/ 750م) وصارت سمرقند جزءًا أصيلًا من كيانها. فنقلت الدولة عنهم صناعة الورق(١). يقول ابن الأثير فى أحداث عام (134هـ/ 752م): "وفيها غزا خالد بن إبراهيم مدينة كش وأخذ عنهم الأوانى الصينية المنقوشة المذهبة ما لم ير مثلها، ومن السروج ومتاع الصين كله من الديباج والطُّرَف شيئًا كثيرًا، فحمل إلى أبى مسلم (الخراسانى) وهو بسمرقند"(٢). هذا، وقد أخذ خالد بن إبراهيم أسارى من الصين ووضعوا فى سمرقند، ثم بدءُوا يصنعون الورق الصينى هناك(٣). ويشير ابن النديم إلى أنواع الورق المستخدم فى أيام الدولة العباسية، ومنها: "الورق السليمانى (نسبة إلى سليمان بن راشد عامل الخراج على خراسان لهارون الرشيد)، والورق الطَّلْحى (نسبة لطلحة بن طاهر)، والورق الفرعونى (نسبة إلى فرعون مصر ولعله ورق البردى)، والورق الجعفرى (نسبة إلى جعفر بن يحيى البرمكى)، والورق الطاهرى (نسبة إلى طاهر بن الحسين)"(٤). ويذكر ابن النديم أنه رأى الورق الصينى والخراسانى عند رجل يدعى محمد بن الحسين ويصفه بأنه "كان جَمَّاَعة للكتب له خزانة لم أرَ لأحد مثلها"، وقد احتال عليه ابن النديم حتى نجح فى قراءة بعض هذه الكتب على حد قوله(٥).

ولما ولى هارون الرشيد الخلافة (149- 193هـ/ 766- 809م) أشار عليه الفضل بن يحيى البرمكى بإقامة مصانع الورق (الكاغد)، ومن ثم فقد كثر بين الناس، وعم استعماله، فأمر الرشيد: "أن يكتب الناس فى الكاغد، لأن الجلود وغيرها تقبل المحو والإعادة فتقبل التزوير بخلاف الورق فإنه إن محى منه فسد"(٦) ثم انتشرت الكتابة فى الورق فى سائر أقطار الدولة الإسلامية، وأقيمت مصانع الورق فى مصر ودمشق وفلسطين وطرابلس الشام(٧).

---

(١) د. زكى محمد حسن: الفنون الإيرانية، ص22- 67.

(٢) ابن الأثير: الكامل، جـ5، ص94 وانظر: ابن الجوزى: المنتظم، جـ7، ص324.

(٣) القزوينى: آثار البلاد، ص536.

(٤) الفهرست، ص36. أحمد أمين: ضحى الإسلام، جـ2، ص22- 24.

(٥) ابن النديم: نفس المصدر، ص26.

(٦) القلقشندى: صبح الأعشى، جـ2، ص475. ابن خلدون: المقدمة، جـ3، ص974.

(٧) فيليب حتى: تاريخ العرب، ص415، د/ صفى محمد عبد الله: مدن مصر الصناعية، ص196.

والسؤال الآن: هل تأثرت صناعة الورق فى سمرقند بانتشار مصانع الورق فى بلدان الخلافة العباسية؟ والجواب: قطعًا، لا. ونسوق الأدلة من كلام المؤرخين القدامى والمستشرقين المحدثين، أجمعت المصادر الإسلامية على أن "من خصائص سمرقند الكواغيد (الورق) التى عطلت قراطيس مصر (البردي). والجلود التى كان الأوائل يكتبون فيها، لأنها أحسن وأنعم وأرفق وأوفق ولا تكون إلا بها وبالصين"[١]. ويقول الإصطخرى وابن حوقل - مع اختلاف قليل فى اللفظ: "ولهم الكاغد الذى لا نظير له فى الجودة والكثرة"[٢]. وأما عن شهادة المستشرقين فنكتفى بشهادة آدم متز الذى يقول: "وكان أجود الورق فى ذلك العصر بمملكة الإسلام هو الكاغد الذى نُقلت صناعته من الصين وناله على أيدى المسلمين التغير المهم الذى يعتبر حادثًا فى تاريخ العالم". ثم يؤكد الحقيقة التى قلتها وهى: "أن سمرقند ظلت أكبر مركز لصناعته (أى الورق) دائمًا"[٣].

ومما سبق يمكننى القول: إنّ الصينيين هم أول من صنعوا الورق من الحرير ولا خلاف بين مؤرخى العلوم فى ذلك، وإنما يرجع فضل العرب فى هذه الصناعة إلى أنهم استطاعوا أن يستبدلوا بالحرير فى صناعة الورق مواد أخرى أكثر توافرًا، وأقل تكلفة. مثل: القطن، وبذلك تمكنوا من إنتاج الورق بكثرة ووفرة. ومن حُسن الحظ أنه عُثر على مخطوطة فى مكتبة الإسكوريال ترجع إلى سنة (1009م)[٤]، وأهمية هذه الوثيقة ترجع إلى أنها تثبت أن العرب هم أول من صنع الورق من القطن والكتان، وعنهم انتقلت هذه الصناعة إلى أوربا. وظلت سمرقند المركز الأول فى صناعة الورق فى العالم الإسلامى، ولا أبالغ إن قلت: فى العالم كله حتى القرن الرابع الهجرى (10م).

على كل حال: كان لتقدم صناعة الورق أثر كبير فى القرنين الثالث والرابع الهجرى. ونلخص هذا الأثر فى ناحيتين: أولاهما: الناحية العلمية؛ حيث أدى

---

(١) الثعالبى: لطائف المعارف، ص218، السمعانى: الأنساب، ج5، ص18، النويرى: نهاية الأرب، ج1، ص367.

(٢) المسالك والممالك، ص162 ، صورة الأرض، ص385.

(٣) الحضارة الإسلامية، ج2، ص269، وهيل: العلوم والهندسة، ص150 .

(٤) ول ديورانت: قصة الحضارة، م7، ج13، ص170 وما بعدها. د. سعيد عاشور: المَدَنية الإسلامية وأثرها فى الحضارة الأوربية، ص185- 186 .

انتشار مصانع الورق فى العالم الإسلامى، إلى رخص أثمانه، وكثرته. وأخذ طلاب العلم يقبلون على الكتابة، وبعد أن كان العلم يتناقل شفويًا، وكان من العيب الكتابة فى الصحف[١]، أصبح الأمر على العكس تمامًا، فأخذ طلاب العلم يُدوّنون العلم عن شيوخهم. ومن ثم كثرت المؤلفات فى هذا العصر الزاهر. وانتشرت المكتبات لخدمة طلاب العلم. ومنها - على سبيل المثال - خزانة الحكمة[٢] - أو بيت الحكمة - التى وضع أساسها الرشيد، وازدهرت فى خلافة المأمون. ويقال إن المغول عندما دمروا بغداد كان بها ست وثلاثون مكتبة عامة. وعدد لا يحصى من الكتب.

وإلى جانب بغداد انتشرت المكتبات فى باقى أمصار العالم الإسلامى، فيقال: إن فهارس الكتب التى اشتملت عليها مكتبة الرى بلغت عشرة مجلدات، وقد استفاد العلماء من هذه المكتبات استفادة كبيرة حتى إن ياقوت الحموى[٣] عندما أراد أن يؤلف كتابه: "معجم البلدان" قضى فى مكتبتَىْ مرو وخوارزم ثلاث سنين يجمع المعلومات اللازمة للكتاب. والشيخ الرئيس ابن سينا (370- 428هـ/ 980- 1037م) قضى فى مكتبة بخارى وقتًا طويلًا قرأ فيه كتب الطب التى بها[٤].

وإلى جانب المكتبات العامة، أصبح للعلماء مكتباتهم الخاصة التى لا يمكن الاستغناء عنها. فيقول ثعلب النحوى: "رأيت لإسحاق الموصلى ألف جزء من لغات العرب وكلها سماعه"[٥]. وكان لمحمد بن عمر الواقدى (ت207هـ) المؤرخ الشهير: "ستمائة قِمَطْر (صندوق) كتب، وأراد أن ينتقل من جانب من بغداد إلى جانب آخر فحمل كتبه على عشرين ومائة وقر"[٦]. والأمر يطول لو فصلنا القول فى ذلك. ونكتفى بهذه النماذج. وننتقل إلى الأثر الثانى لظهور الورق.

---

(١) جورج عطية: الكتاب فى العالم الإسلامى، ص50 وما بعدها.

(٢) انظر التفاصيل فى أحمد أمين: ضحى الإسلام، جـ2، ص261 وما بعدها، أحمد رفاعى: عصر المأمون، جـ1، ص295.

(٣) ابن خلكان: وفيات الأعيان، جـ5، ص104.

(٤) القزوينى: آثار البلاد، ص300.

(٥) الأصفهانى: الأغانى، جـ5، ص1912.

(٦) ابن الجوزى: المنتظم، جـ10، ص170. د. عبد الشافى محمد عبد اللطيف: أوائل المؤلفين فى السيرة النبوية، ص75. والوقر: حمل البغل والحمار وهو يساوى تقريبًا (90) كيلوجرامًا. الخوارزمى: مفاتيح العلوم، ص11.

وهو: ظهور صناعة (حرفة) جديدة أطلق عليها الوراقة: وهى صناعة كان يقوم أصحابها بنسخ الكتب وتصحيحها وتجليدها. وفى بغداد كان أكثر من مائة بائع للكتب، استُخدمت حوانيتهم فى نسخ الكتب وبيعها. ويذكر ياقوت أن فى بغداد دربًا يُسمى "درب القراطيس" نُسب إليه كثير من العلماء[1] والجاحظ (163- 255هـ/ 780- 869م) كان يكترى دكاكين الوراقين ويبيت فيها للقراءة.

وفى سمرقند تقدمت هذه الحرفة كثيرًا، وازدهرت. ومن أشهر من اشتغل بها: محمد بن أحمد الحزام، كانت صناعته حزم الأوراق (الكاغد)، وقد حدث عن جماعة من أهل العلم. ثم انتقل إلى إسفيجاب وسكنها ومات بها. وممن عمل فى خزن الكتب (المكتبات): أبو عبد الله محمد بن أحمد الخازن انتقل إلى فرغانة، وتوفى بها[٢]. وممن عمل فى نسخ وبيع الورق: أبو تَوْبَة سعيد بن هاشم الكاغدى، طاف الآفاق فى طلب العلم، وتوفى بسمرقند عام 259هـ.

والجدير بالذكر، أن هذه الصناعة قد ازدهرت فى سمرقند، واستطاع العاملون بها تطوير الورق، حتى نسب إليه بعضهم. ومن هؤلاء: أبو الفضل منصور بن نصر ابن عبد الرحيم الكاغذى، وإليه ينسب الورق المنصورى المشهور بخراسان. ومنهم: أبو على الحسن بن ناصر الكاغذى. وإليه ينسب الورق الحسنى، والذى يوصف بأنه "لم يلحقه من سبقه فى جودة الصنعة، ونقاء الآلة، وبياضها"[٣]. وكان هذا الشيخ صَدُوق اللهجة، فقيهًا توفى بسمرقند.

(ج) كش: المدينة الثالثة من مدن أقاليم الصغد، وقد اشتهرت بصناعة الملح[٤] والعقاقير والمن[٥] المسمى (الترنجبين). ومنها كان يصدر إلى باقى بلدان الخلافة الإسلامية

---

(١) ياقوت: معجم البلدان، جـ1، ص360. الأصفهانى: الأغانى، جـ23، ص193 فى ترجمة إسماعيل القراطيسى.

(٢) نفس المصدر، نفس الجزء، ص307.

(٣) نفس المصدر، نفس الجزء، ص19.

(٤) مجهول: حدود العالم، ص85. كيرلانسكى: تاريخ الملح فى العالم،عالم المعرفة،الكويت، ص87.

(٥) المَنُّ: ينزل على أطراف الشجر ليلا ويلتقط منها ويستخدم فى علاج السعال وأمراض الصدر.ابن البيطار:الجامع لمفردات الأدوية والأغذية،جـ2،ص 200.

(د) نسف (نخشب): المدينة الرابعة من مدن أقاليم الصغد، وقد اشتهرت بصناعة الذهب وصياغته، وكان الطريق الرئيس بالمدينة يسمى (سكة الصاغة) وذلك لكثرة دكاكين الصاغة هناك. وممن اشتهر بهذا العمل: أبو على محمد بن عثمان، كان عالمًا، فاضلًا، بارعًا فى صنعته. رحل فى طلب علم الحديث إلى مصر والحجاز (ت344هـ).

(2) إقليم خوارزم: تمتع إقليم خوارزم - المستقل عن باقى الأقاليم - بتقدم الصناعة وإن كان إقليم الصغد قد اشتهر بكثرة المصنوعات، فإن إقليم خوارزم قد اشتهر بدقتها وجودتها. ومن أمثلة هذه الصناعات:

(1) صناعة المنسوجات: تقدمت صناعة المنسوجات فى هذا الإقليم تقدمًا كبيرًا، فصنعت المنسوجات الطويلة والقصيرة من القطن والحرير، كما صُنعت الأُزُر والمقانع والثياب الملونة. بالإضافة إلى صناعة البسط، وثياب اللحف. واشتهر الإقليم كذلك بإنتاج نوع من الثياب يسمى الكرابيسى - وهو ثوب من القطن الأبيض - وكان النساء يعملن بالإبرة صناعات مليحة؛ كالخياطة والتطريز[١]، والأعمال الدقيقة الأخرى. وممن اشتهر بصناعات الثياب وتقصيرها فى هذا الإقليم: أبو طاهر أحمد بن محمد القصارى رحل فى طلب العلم إلى بغداد. وروى عنه جماعة من أهل العلم.

والجدير بالذكر، أن صناعة النسيج بخوارزم قد تأثرت بالصناعة المصرية. وإن كانت كواغد سمرقند قد عطلت قراطيس مصر. فإن المنسوجات المصرية قد غزت خوارزم، ومن ثم أطلقوا على بعض منسوجاتهم اسم الدبيقى - نسبة إلى بلدة دبيق بمصر - وهى: ثياب تنسج من الكتان ويضم إليه أحيانًا الذهب والحرير، كما أطلقوا على نوع آخر: الثياب الأشمونية[٢]، مأخوذة من بلدة أشمون المصرية.

(2) الصناعات الحيوانية: عرفت خوارزم الصناعات الحيوانية، ومنها: الجلود المدبوغة، مثل: جلود الماعز والأرانب البرية والحمر الوحشية. وذلك لحماية الناس من البرد الشديد الذى يتعرض له الإقليم فى فصل الشتاء. كما استخدموا ريش

---

(١) الثعالبى: لطائف المعارف، ص226، مجهول: حدود العالم، ص94.

(٢) المقريزى: الخطط، جـ1، ص583. د. صفى على: مدن مصر الصناعية، ص57- 82.

طائر السمندل[1] فى صناعة المناديل. ويمتاز ريش هذا الطائر بأنه إذا دخل النار عاد أنظف مما كان. وقد ذكر ابن خلكان – فى ترجمة يعقوب بن صابر المنجنيقى (754– 626هـ) – أنه رأى منه قطعة منسوجة على هيئة حزام الدابة. ثم قال: فألقيت فى النار فما أثرت فيها، فغمس أحد جوانبها فى الزيت وجعل فى النار فاشتعل وبقى زمانًا طويلًا ثم أطفئ، وهو على حاله لم يتغير"[2].

(3) الصناعات المتنوعة: ظهرت بعض الصناعات المتنوعة فى إقّليم خوارزم، ومنها الصناعات الحديدية. ومن أمثلتها: السيوف والدروع والقِسِىّ والأقفال. ومنها: الصناعات الخشبية: حيث كانت تصنع السفن من جذوع الأشجار، وكانت تستخدم فى الملاحة النهرية. بالإضافة لصناعة البناء والحلى والزخرفة[3]. وبالجملة، فقد اشتهر أهل خوارزم بأنهم أهل الصناعات الدقيقة، حيث كانت تصنع الآلات الدقيقة من العاج والآبنوس، ما لا تُصنع فى غير هذا الإقليم[4]؛ لذلك فإن ياقوت الحموى الذى زار خوارزم عام 616هـ/ 1219م يثنى عليهم بقوله: "لعمرى فهى بلاد طيبة، وأهلها علماء، فقهاء، أذكياء، أغنياء، المعيشة بينهم موجودة، وأسباب الرزق عندهم غير مفقودة... وأهلها ذوو ثروة"[5].

(3) إقليم طخارستان

اشتُهر إقليم طخارستان بصناعة المنسوجات ناصعة البياض[6]. وكانت ترمذ: تنتج الصابون الجيد، والجبن، والسمن، ونوعًا من الحصر يسمى البوارى. ويذكر الإدريسى أن مدينة الطالقان: قامت بها كثير من الصناعات، ولكنه لم يقدم لنا أمثلة لها[7].

---

(١) هو: طائر ببلاد الهند يدخل ريشه النار فلا يحترق . الجاحظ: الحيوان، جـ2، ص111، جـ5، ص309، جـ6، ص434.

(٢) ابن خلكان: وفيات الأعيان، جـ5، ص407– 408.

(٣) المقدسى: أحسن التقاسيم، ص289. لسترنج: بلدان الخلافة الشرقية، ص502.

(٤) ابن حوقل: صورة الأرض، ص397. القزوينى: آثار البلاد، ص520.

(٥) ياقوت: معجم البلدان، جـ2، ص255، جـ4، ص477.

(٦) لسترنج: بلدان الخلافة الشرقية ، ص472.

(٧) الإدريسى: نزهة المشتاق، جـ1، ص481– 484.

(4) إقليم فرغانة

اشتهر هذا الإقليم بصناعة الذهب والفضة والفيروز، وقامت بتصدير الحجر الخاص بصناعة الرحاء؛ وقد امتاز هذا الحجر بنعومته وصلابته. وكانت تنتج الفحم الحجرى الذى يستغل فى الوقود[١].

كذلك اشتهر الإقليم بصناعة العقاقير، التى كان لها تأثير عجيب، بالإضافة لصناعة الآلات الحديدية، وخاصة الأسلحة التى اشتد إقبال الناس عليها فى بغداد. وذلك لما امتاز به حديد فرغانة من ليونة سهلت على الصناع صياغته وتشكيله.

(5) إقليم أشروسنة

اشتهر هذا الإقليم بالصناعات الجلدية والخشبية. وممن اشتهر بهذا العمل أبو يوسف يعقوب بن مِعبد الخراط، ولد بمدينة بومجكث - عاصمة الإقليم - وكان ثقةً، روى عنه جماعة من أهل العلم، توفى عام 261هـ.

(6) إقليم الشاش

قامت فى إقليم الشاش، صناعة الثياب الرقيق. واشتهر إقليم إسفيجاب بإنتاج الثياب الكرابيسي[٢]، واشتهر الإقليم كذلك بعمل الإبريسم (الحرير). وممن اشتهر بهذه الصناعة: أبو شريح إسماعيل بن أحمد النقاضى كان عالمًا فاضلًا، ثقة مشهورًا. كما ظهرت فى الإقليم الصناعات الجلدية، مثل: دبغ الجلود، وخاصة الحمر الوحشية وتسمى (الكيمخت)[٣]. والجعاب (الخرائط) المستخدمة فى حفظ السهام. ومن الصناعات المهمة أيضًا الصناعات المعدنية، مثل: صناعة السيوف والسهام والسلاح، والآلات النحاسية. كما صنعوا الإبر والمقاريض والقدور[٤].

---

(١) المقدسى: أحسن التقاسيم، ص289.

(٢) المقدسى: أحسن التقاسيم، ص272، لسترنج: بلدان الخلافة الشرقية، ص531.

(٣) هو: جلد البقر الوحشى. الفيروزآبادى: القاموس المحيط، ص 27.

(٤) مجهول: حدود العالم، ص90- 91.

وممن اشتهر بعمل الصناعات الحديدية الدقيقة الإمام: محمد بن إسماعيل القفال (ت365هـ) إمام عصره بلا مدافعة، كان علاَّمةً فى التفسير والفقه والحديث والأصول، واشتهر بصناعة الأقفال. وقد عمل قفلًا وزنه دانق مع المفتاح. فتعجب الناس من حذقه فى الصناعة.

والآن، ننتقل إلى صناعتين مهمتين انتشرتا فى جميع بلاد ما وراء النهر، لذا فلم أخص بهما إقليمًا بعينه، وهما:

أولًا: استخدام الطواحين فى الصناعة

عرفت الحضارة الإسلامية نوعين من الطواحين، وهما: طواحين الهواء، وطواحين الماء. أما عن النوع الأول: فترجع فكرة استخدام طواحين الهواء إلى عصر الخليفة الراشد عمر بن الخطاب (13- 23هـ/ 586- 644م) - رضى الله عنه - الذى أشار عليه أبو لؤلؤة المجوسى بعمل طواحين الهواء[1]، ولكن المشروع لم ينفذ بسبب خيانة هذا المجوسى، واشتراكه فى قتل أمير المؤمنين.

وأما عن النوع الثانى: طواحين الماء، فقد سبقت الإشارة عند الحديث عن القنوات المائية، إلى أن علماء الحضارة الإسلامية قد راعوا فى حفر القنوات أن تكون منحدرة بحيث تساعد على سرعة انسياب الماء. وتستعمل فى الوقت نفسه فى إدارة الطواحين. وجدير بالذكر، أن نهر دجلة بالعراق، كانت عليه كثير من هذه الطواحين. فقد ذكر ابن طيفور، أنه فى غرة ذى الحجة عام 215هـ، زاد نهر دجلة بالماء زيادة كبيرة حتى صار الماء على ظهور بيوت الرحى، وتقطعت جسور بغداد[2].

ومن حُسْن الحظ، أن مصادرنا الإسلامية ذكرت كثيرًا من أمثلة هذه الطواحين ومنها: عشرة على نهر جيحون، وكان هناك نهرٌ يسمى "الطاحونة" وذلك لكثرة الأرحية عليه[3]. ويقدم لنا العالم العظيم البيرونى (362- 440هـ) فى رسالة له،

(١) المسعودى: مروج الذهب، جـ2، ص302.

(٢) كتاب بغداد، ص143.

(٣) ابن حوقل: صورة الأرض، ص399، 400، 401. ياقوت: معجم البلدان، جـ1، ص280.

وصفًا رائعًا لمعالجة خامات الذهب. ذكر فيها بوضوح أن خامات الذهب كانت تسحق بالمطارق التى تدار بالماء، وكان نفس الشىء يحدث فى سمرقند عند طرق الكتان لصناعة الورق[١]. كذلك توجد براهين كثيرة تؤكد لنا أن أهل بخارى وسمرقند قد استخدموا الأرحية فى طحن الحبوب بطاقة المياه[٢].

ويؤكـد المستشـرق (هيل) أن سـكان الصغد - بخـارى وسـمرقند - قامت علـى أكتافهم صناعة الطواحين فى العالم الإسـلامى. وعـن طريقهم انتقلت إلى أوربا[٣].

ثانيًا: صناعة العطور

حث الإسلام أتباعه على النظافة فى الملبس والمأكل والمسكن، ودعا إلى استخدام السواك، وتهذيب الشعر، وتقليم الأظافر، كما حث الإسلام على استخدام الطِّيب. فقال صلى الله عليه وسلم: "وأحب طيب الرجال ما ظهر ريحه وخفى لونه؛ وطيب النساء ما ظهر لونه وخفى ريحه"[٤]. وأوصى علماء الأمة باستعمال الطيب، فقال الإمام الشافعى: "من نظف ثوبه قل همه، ومن طاب ريحه زاد عقله"[٥].

وبخصوص بلاد ما وراء النهر - فقد سبقت الإشارة - إلى كثرة الورد والبنفسج والـزعفران، وغيرها مـن الـرياحين المـزروعة بها، هذا إلى جانب ما اشتهر به سكـان بـلاد مـا وراء النهـر من المـروءة والمحـافظة علـى جمـال ونظـافة ثيـابهم. يقـول ابن حوقل: "... وهم يرجعون إلى جمال، وكانوا من الإفراط فى إظهار المروءات، وتكلف النفقات، والقيام على أنفسهم بما يزيدون به على أكثر بلاد خراسان"[٦] لهذا، فقد

---

(١) الخوارزمى: مفاتيح العلوم، ص71. آدم متز: الحضارة الإسلامية، جـ2، ص266.

(٢) هيل: العلوم والهندسة فى الحضارة الإسلامية، ص150، وصور هذه الآلات، ص143.

(٣) نفس المرجع، ص156.

(٤) أخرجه: أبو داود: السنن رقم الحديث (2174)، الترمذى: السنن رقم (2787)، النسائى: السنن رقم (5117) من حديث أبى هريرة.

(٥) الغزالى: إحياء علوم الدين، جـ1، ص162- 214. وابن عبد ربه: العقد الفريد، جـ6، ص226 فصل "التزين والتطيب".

(٦) صورة الأرض، ص407.

تقدمت صناعة الطيب (العطور) فى هذه البلاد تقدمًا كبيرًا. وقد قدم لنا العالم العظيم الكندى وصفًا لجهاز التقطير فى مؤلفه "الكيمياء والعطور والتقطير"، وهى رسالة تحتوى على (107) طريق ووَصفات، لتحضير وصناعة العطور(١).

ومن أمثلة الطيب المستخدم فى بلاد ما وراء النهر:

(1) المسك : وهو من أجلّ الأنواع(٢)، وقد فضل المسعودى: المسك التُّبتى على باقى الأنواع الأخرى، لأنه طبيعى، وأوصى أن ينتقل عن طريق البر - عبر سمرقند - لأن البحر يؤثر فيه. ويأتى فى المرتبة الثانية مسك الصغد، وكان يُصدر إلى خراسان، ثم يأتى المسك الصينى فى المرتبة الثالثة(٣). يقول ياقوت: "... ومنها من المسك الذى يجلب إليها من التُّبت، ما ينقل إلى سائر الأمصار الإسلامية كلها. ويرتفع إلى الصغانيان، وإلى واشجرد، الزعفران ما ينقل إلى سائر البلدان"(٤). وممن اشتهر بتجارة المسك فى سمرقند: أبو يزيد حامد بن إسماعيل العطار المعروف بالمسكى. كانت له تجارات واسعة مع الهند والصين، روى عنه جماعة من أهل العلم وتوفى بسمرقند عام 234هـ.

(2) العود: وكان يستورد من بلاد الهند، عن طريق سمرقند. فكان أهل بلاد ما وراء النهر ينتفعون به، وأجود العود: ما كان صُلْبًا، ظاهر الرطوبة. وكان التجار فى الجاهلية حتى آخر الدولة الأموية يعرضون عن شرائه نظرًا لكثرة نفقاته، ولمرارته. وفى رسالة ملك الهند إلى الخليفة عمر بن عبد العزيز، يفتخر بأن بلاده تصدر إلى العالم: العود، الذى يوجد ريحه على مسافة اثنى عشر ميلًا(٥).

وبعد قيام الدولة العباسية أمر المنصور أن يُحمل إليه نبات العود من الهند فاشتهر هذا النبات بين الناس، وغلا ثمنه واحتمل الناس ما فيه مرارة الرائحة

---

(١) هيل: العلوم والهندسة فى الحضارة الإسلامية، ص121.

(٢) المسك: يخرج من دابة أشبه بالظبى الصغير، يجتمع عند سرتها، فتحك نفسها على الصخور والأحجار حتى يخرج منها، ثم يأتى التجار للحصول عليه من تلك الصخور. ابن عبد ربه: العقد الفريد، جـ6، ص254.

(٣) المسعودى: مروج الذهب، جـ1، ص143.

(٤) معجم البلدان، جـ4، ص199.

(٥) القلقشندى: صبح الأعشى، جـ2، ص113.

تشبهًا بأمير المؤمنين[١]، ثم كثُر استعمال هذا النوع من الطيب، حتى إن المأمون أُهدى إليه فى يوم العيد سفط (صندوق) ذهب، فيه قطعة عود هندى بطول وعرض السفط[٢].

(3) **الصندل:** كان يؤتى به أيضًا من بلاد الهند عن طريق بلاد الصغد، وله أنواع كثيرة أشهرها: المقاصيرى، الذى يشبه رائحة الزعفران الذكية، ويقال إن بعض خلفاء بنى العباس - لم تذكر المصادر اسمه - اتخذ لبعض أمهات أولاده وجواريه هذا النوع[٣]. وقد اهتم المنصور بهذا النوع من الطيب، فقد ذكر الهيثم بن عدى أن الخليفة المنصور كان يبخل فى كل شىء إلا فى الطيب، فإنه كان يأمر أهله به، فكان يشترى فى كل سنة اثنى عشر ألف مثقال. فيتطيَّب كل شهر بألف مثقال[٤].

(4) **العنبر:** وكان له أنواع كثيرة[٥]، وقد عم استخدامه جميع بلاد ما وراء النهر.

وهكذا: كانت بلاد ما وراء النهر الطريق الموصل بين بلاد الهند والصين وبين الخلافة الإسلامية فى بغداد. فكانت هذه البلاد تنتفع بهذا الطيب.

وفى ختام هذا المبحث نستطيع القول، إن الصناعة كانت متعددة ومتنوعة فى بلاد ما وراء النهر، وكانت من أرقى صناعات ذلك العصر، حيث بلغت مستوى رفيعًا من الجودة والإتقان، ومن ثَم فقد أصبح لها شهرة واسعة، ومكانة خاصة فى إنتاج أنواع عديدة من المنسوجات المختلفة التى لاقت رواجًا كبيرًا فى الأقطار الإسلامية الأخرى، بالإضافة إلى صناعة الورق والعطور، والصناعات المعدنية والخشبية وغيرها من الصناعات، كل هذا شجع الصناع على رفع مستوى إنتاجهم، والإكثار

---

(١) ابن عبد ربه: المصدر السابق، جـ3، ص405.
(٢) القلقشندى: المصدر السابق، جـ2، ص121.
(٣) الثعالبى: لطائف المعارف، ص215.
(٤) ابن الجوزى: المنتظم، جـ7، ص346.
(٥) انظر التفاصيل فى القلقشندى: صبح الأعشى، جـ2، ص116 و ما بعدها.

من الأنواع التى تتسم بالذوق الرفيع فى صناعتها[1]. مما جعل سائر بلدان العالم الإسلامى تقبل على شرائها[2].

---

(١) د. سامية توفيق: صناعة المنسوجات، ص522. بوريس يزييف (محمدين ميرزا محمدوف): كنوز العبقرية البشرية - التراث الثقافى الإسلامى فى الاتحاد السوفيتى، ص41 وما بعدها.

(٢) من نعم الله عز وجل على أهل هذه البلاد كثرة المواد الخام بها - حتى الآن - وتقدم الصناعة فيها. حيث تذكر الإحصائيات التالية، مدى ما تتمتع به البلاد من تقدم فى الصناعة ، ومنها: الغاز الطبيعى (39,900) مليون قدم مكعب، الفحم (5,5) طن، صناعة الورق (600 . 25) طن صناعة القوى (55,700) طن. صناعة البلاستيك (158.100) طن، صناعة الأسمدة (2) مليون طن د. محمود أبو العلا: المسلمون فى الاتحاد السوفيتى، ص36. د. مصطفى رمضان: المسلمون فى آسيا الوسطى، ص247.

الفصل السابع

"التجارة"

المبحث الأول: التجارة الداخلية:

1- الأسواق.

2- المكاييل والموازين.

3- الحسبة والمحتسب.

4- وظيفة أمين التجار.

المبحث الثانى: طرق التجارة ووسائل النقل:

1- الطرق البرية الداخلية.

2- الطرق البرية الخارجية.

3- المنشآت التجارية.

4- الملاحة النهرية.

المبحث الثالث: التجارة الخارجية:

1- التجارة مع الممالك الشرقية.

2- التجارة مع الممالك الشمالية.

3- التجارة مع بلدان العالم الإسلامى.

المبحث الرابع: الصادرات والواردات:

1- أهم الصادرات.

2- أهم الواردات.

المبحث الأول

التجارة الداخلية "الأسواق"

كانت المدينة الإسلامية تمتاز بخصائص لم تتوافر لغيرها من المدن، حيث كان المسجد هو محور العمارة ومركزها. وتليه فى المكانة دار الإمارة ثم السوق. هذه المرافق الثلاثة كانت تحتل مكانها أولًا فى أية مدينة إسلامية[١]. وما عدا ذلك كان يتفرع منها وينبنى عليها، فلماذا كان للسوق كل هذه الأهمية؟

لأن السوق فيه منافع الناس، وقربه منهم يسهل لهم قضاء حوائجهم، ويوفر لهم أوقاتهم، فيمارس السكان البيع والشراء فى يسر دون أن يتجشموا مشقة السفر إلى مكان بعيد، أو يتحملوا أعباء نقل البضاعة من الأسواق البعيدة، وتوفر الدولة بذلك الجهد المبذول؛ ليتوافر فى أعمال اقتصادية أخرى، بما يعود بالنفع على أفراد المجتمع.وجدير بالذكر أن محاولة التعرض لذكر الأسعار أو الأوزان ستكون محاولة غير صادقة لاختلاف الأسعار والأوزان من مكان إلى آخر بل من زمن لآخر أيضًا،حتى إذا صادفتُ سعرًا فلن أستطيع تقييمه بأسعارنا الحالية، كما أن سعر السلعة يختلف حسب جودتها، وحسب المكان المصدرة منه أو إليه،بالإضافة إلى أنه لم توجد إحصائيات تبين كَمَّ وقيمة السلعة ،على أنه إذا حدث وتعرضت لسعر أو وزن فسيكون كدلالة فقط.

---

(١) د.محمد السيد الوكيل: عناية الإسلام بتخطيط المدن، ص7- 125.

والآن أعرض لأسواق بلاد ما وراء النهر بالتفصيل

كانت التجارة فى بلاد ما وراء النهر تعتمد على إقامة الأسواق، حيث كانت تقيم كل طائفة من التجار فى مكان معين من هذه الأسواق، ويمكثون إلى ما بعد الظهر، ولا يعودون إلى منازلهم إلا فى المساء. وكانت الحوانيت (الدكاكين) تكون صفوفًا فى مكان واحد، وذلك بعكس مصر وبلاد الشام، حيث كانت الحوانيت تمتد على طول الشارع من الجانبين، وكانت أسواق المدن الكبرى تقام أسبوعيًا فى أيام معينة. وكانت هذه الأسواق فى غاية الحُسن والنظافة حيث بُلِّطت أراضيها، وظُلِّلت سقوفها، لتقى الناس حرارة الشمس صيفًا والبرد شتاءً. كما كان عليها دروب تغلق كل ليلة بأقفال[١] حتى لا تتعرض للسرقة.

(1) إقليم الصغد

(أ) بخارى: لم تكن بخارى مدينة فخمة، تمتاز بخصائصها الطبيعية العظيمة فحسب، بل كانت كذلك سوقًا رئيسًا تلتقى فيها البضائع من سائر جهات آسيا، فضلا عما كان بها من مصانع كبيرة للحرير، والمنسوجات القطنية، وأجود أنواع الأبسطة[٢] والمصنوعات الفضية والذهبية من كل نوع.

وهذه الأشياء ساعدت على جذب التجار إليها من الأنحاء كافة، يقول الإدريسى: "وبها من الخلائق ما لا يحصى لهم عددٌ،ولا يحيط بهم خبر، وجلة أهلها أغنياء مياسير، أولو أموال طائلة، وأحوال صالحة، وتجارات واسعة"[٣].

وأما عن السلع المتبادلة فى الأسواق - إلى جانب ما سبق - فكان هناك مكان مخصص لبيع العلف، وإليه نسب باب بخارى المسمى (علف فروشان)، وسوق البقالين المسمى (جويه بقالان)، ويقع بالقرب من سور المدينة. وسوق الفستقيين المسمى (بسته شكنان)، ويقع إلى جوار السوق السابق وسوق (دروازجه) الذى تمر عليه قناة (زغار كنده). وكان هذا السوق يمتد حتى باب سمرقند[٤].

---

(١) آدم متز: الحضارة الإسلامية، جـ2، ص283. د. سرور: تاريخ الحضارة الإسلامية، ص142.

(٢) فامبرى: تاريخ بخارى، ص25.

(٣) الإدريسى: نزهة المشتاق، جـ1، ص494.

(٤) الإصطخرى: المسالك والممالك، ص173- 176، بارتولد: تركستان، ص200.

أسواق مدن بخارى

(1) سوق الطواويس: كان هذا السوق منذ قديم الزمان. وقد استمر العمل فيه بعد الفتح الإسلامى، ومما ساعد على تقدم التجارة فى هذه المدينة موقعها الجغرافى على الطريق الرئيس إلى سمرقند، فهى تبعد عن بخارى سبعة فراسخ. كان هذا السوق يعقد سنويًا لمدة عشرة أيام. وكان أكثر ما يباع فيه الثياب المصنوعة من القطن، وكان يقصده التجار من فرغانة والشاش وخراسان والعراق، ويعودون بأرباح طائلة، لذا فقد امتاز أهل المدينة بالغنى، ويعلل النرشخى ذلك باشتغال السكان بالتجارة[١].

(2) سوق اسكجكت (سكجكت): تقع المدينة على الطريق الرئيس المؤدى إلى سمرقند[٢]، مما جعلها مركزًا مهمًا لأهل الحرف والتجار. الأمر الذى ساعد على ثراء سكانها، وكان سوق المدينة يعقد كل يوم خميس. ومعظم السلع المبيعة فيه الثياب القطنية المعروفه بالكرابيسى[٣].

(3) سوق شرغ (جرغ):تقع المدينة بالقرب من بخارى، وكان سوقها يعقد منذ القدم؛ واستمر العمل به بعد الفتح الإسلامى، وكان يعقد فى صباح كل يوم جمعة، وأهم السلع فى هذا السوق: الأخشاب، والسمك المملح، والطازج، وفراء الحيوانات وجلودها[٤].

(4) سوق زندنة:إحدى مدن بخارى، كان سوقها يقام كل يوم جمعة، لذا فإن الصلاة كانت تؤدى فى الأسواق، وقد اشتهر هذا السوق ببيع الثياب الزندنيجى وثياب الكرباسى، الذى كان يُصدر إلى العراق وفارس وكرمان والهند وغيرها[٥].

(5) سوق وردانة (وردانة):إحدى قرى بخارى. كان السوق يعقد كل أسبوع، وكانت التجارة فيه رائجة، ومن أشهر السلع المتبادلة فى هذا السوق: الثياب الزندنيجى

---

(١) تاريخ بخارى، ص28.

(٢) السمعانى: الأنساب، جـ3، ص265. ياقوت: معجم البلدان، جـ3، ص53.

(٣) النرشخى: المصدر السابق، ص28. بارتولد : تركستان، ص192.

(٤) النرشخى: تاريخ بخارى، ص30.

(٥) النرشخى: المصدر السابق، ص31.

والرقيق والمواشى وغيرها. بالإضافة إلى الأوانى النحاسية، والبُسُط، والثياب الصوفية والمصليات[١].

(6) سوق بيكند :تقع المدينة على بُعد خمسة فراسخ من بخارى، والمدينة مشهورة بمركزها التجارى المهم، لذا فقد أطلق عليها مدينة التجار؛ حيث كانت لها تجارات واسعة مع بلاد الصين، والهند، والبلاد الواقعة وراء بحر قزوين. وكان للمدينة سوقان: أحدهما فى القصبة، والآخر: فى الربض[٢]، وكانت بيكند تقع على حد المفازة (الصحراء)؛ لذا لم توجد قرى إلى جوارها .والجدير بالذكر:أن أهل بيكند كانوا يفخرون بها، فإذا ذهب الواحد منهم إلى بغداد وسئل من أين أنت؟ قال: من بيكند،ولا يقول من بخارى افتخارًا ببلده[٣].

(7) سوق ورخشة: من قرى بخارى، وكان سوقها يعقد منذ القدم، وظل العمل به بعد الفتح الإسلامى وكان هذا السوق يعقد كل خمسة عشر يومًا. وفى آخر العام يجعلونه عشرين يومًا.

(8) سوق بمجكث (نموجكث):إحدى قرى بخارى كان بها سوق متسع، نفيس البضائع، ومن أشهر تجار هذا السوق: عباد بن هشام الشامى، روى عنه جماعة من أهم العلم وتوفى يوم سوق المدينة، فاجتمع عليه خلق لا يعلم عددهم إلا الله تعالى، وذلك عام 279هـ.

(9) سوق مغكان: من قرى بخارى تبعد عن الطريق المؤدى إلى بيكند بنحو تسعة أميال[٤]. وعلى الرغم من صغر هذه المدينة، فإن أسواقها رائجة، وتجاراتها قائمة.

(10) سوق أفشنة: من قرى بخارى، كان هذا السوق يقام يومًا فى كل أسبوع، وكانت معظم ضياع هذه القرية وقفًا على طلاب العلم[٥].

---

(١) الإصطخرى: المسالك والممالك، ص176. ابن حوقل: صورة الأرض، ص404.
(٢) اليعقوبى: البلدان، ص292. ابن الفقيه: مختصر كتاب البلدان، ص325.
(٣) النرشخى :تاريخ بخارى،ص 36.
(٤) الإدريسى: نزهة المشتاق، جـ1، ص495.
(٥) النرشخى: تاريخ بخارى، ص31.

(11) سوق غجدوان: من قرى بخارى، تبعد عنها بنحو ستة فراسخ. وكان هذا السوق يعقد لمدة يوم واحد من كل أسبوع، وكان يجتمع فيه أهل القرى المجاورة للبيع والشراء(١).

(12) سوق خجادة:إحدى قرى بخارى، وتبعد عن الطريق الرئيس بنحو ثلاثة أميال، وهى مدينة عامرة، ولها أسواق حسنة(٢).

أشهر تجار بخارى: وممن اشتهر بالتجارة فى أسواق بخارى: أبو الحسن على بن محمد الزراد، كان يتاجر فى سوق السراجين ببخارى، وكان من أهل الحديث. ومنهم: أبو إسحاق إبراهيم بن عمران، اشتهر بتجارة العنب والفاكهة. ومنهم: أبو العباس الحسين بن الحسن ، سكن بخارى، وتوفى بها. ومنهم: أبو بكر محمد بن أحمد اللؤلُئىّ، وكان يقول: كان من أجدادنا من يبيع اللؤلؤ فنسبت إليه. وكان من أشهر علماء بخارى فى علم الحديث(٣).

(ب) أسواق سمرقند: كذلك قامت فى مدن سمرقند مجموعة كبيرة من الأسواق، أهمها:

(1) سوق إشتيخن: إحدى قرى سمرقند، وكانت بها أسواق كبيرة، مفترشة بالحجارة. وجدير بالذكر، أن خراج أسواق هذه المدينة كان يذهب إلى القائد عجيف بن عنبسه – أحد قواد المأمون – الذى قُتل بأمر الخليفة المعتصم عام 223هـ/ 778م، واستصفى الخليفة أملاك هذا القائد(٤). وفى خلافة المعتمد (256- 279هـ/ 869- 892م) أقطعها للقائد محمد بن طاهر (248- 259هـ/ 862- 873م) حاكم خراسان(٥).

(2) سوق رأس الطاق:كانت هذه المدينة مجمع الأسواق، وفرضة بلاد ما وراء النهر، ومجمع التجار، وطرقها مفترشة بالحجارة. وكانت منتجاتها تصدر إلى سائر الآفاق(٦).

---

(١) السمعانى: المصدر السابق، جـ4، ص282.
(٢) الإدريسى: نزهة المشتاق، جـ1، ص495.
(٣) السمعانى: نفس المصدر، جـ3، ص331.
(٤) الطبرى: تاريخ الأمم، جـ5، ص234. ابن الأثير: الكامل، جـ6، ص39.
(٥) الإصطخرى: المسالك والممالك، ص181، ابن حوقل: صورة الأرض، ص411.
(٦) مجهول: حدود العالم، ص84.

أشهر تجار سمرقند

اشتهر مجموعة من العلماء بالتجارة فى أسواق سمرقند، ومن أشهر مَنْ اشتغَلَ ببيع الثياب: أبو شعيب إسماعيل بن مُخلَّد، وأبو عثمان سعيد بن عثمان الوزاغرى، كان يبيع الثياب الكرابيسى، وعاش وتوفى بسمرقند، واشتهر: أبو أحمد محمد ابن يحيى السمرقندى ، ببيع العباءات، ورحل فى تجارته إلى بغداد.

وممن اشتهر بتجارة الزبيب: أبو الحسن على بن عمر، من أهل سمرقند، وأخذ العلم عن مشايخ خراسان، وبخارى. وعمل أبو المظفر ناصر بن نصر السمرقندى، بتجارة الغلال. وقد ورث ناصر عن أبيه ثلاثمائة بعير كانت تحمل غلاته وأمواله. وحين وقعت المجاعة بسمرقند فى إحدى السنوات، وكانت له حنطة كثيرة، ففرقها على أهل سمرقند حتى شبعوا. كذلك اشتهر بتجارة الذهب: أبو القاسم على بن أحمد بن الحسن، كان شيخًا ثقة صدوقًا. وكان يعمل كذلك فى الصرافة.

واشتهر بتجارة اللؤلؤ: أبو إسحاق يعقوب بن يوسف المعروف بالجوهرى، كان حسن الحديث، مستقيم الطريقة، توفى عام (265هـ). وممن اشتهر بتجارة المسك: أبو يزيد حامد بن إسماعيل المعروف بالمسكى، روى عنه جماعة من أهل العلم، توفى يوم الخميس سنة (234هـ). كذلك ظهرت فى أسواق سمرقند تجارة الجلود - ويقال لها اللبود - وعرفت بالمدينة محلة تعرف بسكة اللبادين كانت مخصصة فى تجارة الجلود.

(ج) اسواق كش

مدينة جليلة، كثيرة الأهل، عامرة بالناس والتجار، وكانت لها أسواق كثيرة بالريض[1] واشتهرت أسواقها ببيع الفاكهة التى كانت تحمل منها إلى بخارى وسمرقند ، وببيع البغال الفارهة، والملح الأحمر الذى كان يصدر منها إلى سائر الآفاق[2].

---

(١) ابن حوقل: صورة الأرض، ص241، بارتولد: تركستان، ص238.

(٢) المقدسى: أحسن التقاسيم، ص282، مجهول: حدود العالم، ص85.

(د) أسواق نسف (نخشب)

كانت هذه المدينة محطة رئيسة على الطريق بين بلخ وبخارى، ولأن أرضها أقل خصبًا من باقى بلاد ما وراء النهر[١] فقد عمل أهلها بالتجارة وكانت أسواق المدينة تقع بين دار الإمارة والمسجد الجامع[٢]، وممن اشتهر ببيع الخرز - ويقال له الفارز - الشيخ الواعظ: يوسف بن محمد بن يوسف الفارزى، من أهل نسف، تعلم بها، وتوفى بها، ودفن بمقبرة قنطرة رأس غاتفر بسمرقند[٣]. واشتهرت مدينة كسبة التى تبعد أربعة فراسخ عن نسف[٤] بأسواقها العامرة. كما كانت محطة للتجار.

(2) إقليم خوارزم

اشتهر هذا الإقليم بالتجارة منذ قديم الزمان، ونجمل أسواقه فيما يلي[٥]:

فى مدينة (كاث): كانت تقام الأسواق على جانبَى القناة الرئيسة التى تشق المدينة. ومدينة (فراتكين أو براتكين): فكان السوق يقع وسط المدينة وكان سوقًا عامرًا . ومدينة (نوزوار): متوسطة المساحة، والجامع يقع على طرف السوق، وكان مغطى كله إلا قليلا . ومدينة (زمخشر): مدينة صغيرة، والجامع يقع بطرف السوق، والطريق الرئيس يشقها. ومدينة (روزوند): متوسطة المساحة، ويشقها الطريق الرئيس، والمسجد الجامع يقع على طرف السوق. ومدينة (جكربند): سوقها كبير عامر. ومدينة (بيز): مدينة صغيرة، والجامع وسط السوق. ومدينة (ساوكان): كانت عامرة، آهلة بالسكان، بها سوق كبير[٦]. ومدينة (شكث): كبيرة، لها جامع وسوق، واشتهرت ببيع الجوز الذى ربما بيع ألف منه بدرهم. واشتهرت مدينة (أرثخشميثن): بأنها مدينة كبيرة، ذات أسواق عامرة، وأهلها يعيشون فى نعمة

---

(١) فامبرى: تاريخ بخارى، ص29.

(٢) ابن حوقل: صورة الأرض، ص413.

(٣) السمعانى: الأنساب، جـ4، ص331- 332.

(٤) ياقوت: معجم البلدان، جـ4، ص137.

(٥) انظر: المقدسى: أحسن التقاسيم، ص287، 288، 289، 290، بارتولد: تركستان، ص251، 253، 256.

(٦) السمعانى: الأنساب، جـ3، ص206. ياقوت: معجم البلدان، جـ3، ص14.

كبيرة[١]. ومدينة (هزار أسب): كانت جليلة، وتقام فيها الأسواق الكثيرة، واشتهرت ببيع الثياب، وأهلها ذوو ثروة طائلة[٢].

وعلى الجملة: فقد اشتهر إقليم خوارزم بتجارة الثياب المصنوعة من القطن والصوف، وسائر الأمتعة، وكانت تصدر السمك المستخرج من بحيرة خوارزم. كما امتاز الإقليم بكثرة الخيرات، والأسواق، وفى النادر أن تجد قرية لا يعقد فيها سوق، هذا كله مع أمن وطمأنينة تامة، كما يقول ياقوت[٣]. ومن أشهر تجار خوارزم، بيت البرقى. يقول عنهم السمعانى: إنه بيت كبير، انتقلوا إلى بخارى وسكنوها، واشتغلوا بتجارة الحملان[٤]. ويصف الإصطخرى أهل خوارزم بقوله: "وامتاز أهلها بالغنى واليسار، والقيام على أنفسهم بالمروءة الظاهرة"[٥].

أسعار خوارزم

وأما عن الأسعار فى إقليم خوارزم فكانت رخيصة، ما عدا مدينة كركانج (الجرجانية) – عاصمة الإقليم – فكانت أسعارها مرتفعة قليلًا، وأما عن متوسط الأسعار فهى: كان القمح: يباع كل رطلين بدينارين ونصف. والشعير: بدينارين، وربما زاد قليلًا. ولحم الضأن: كل ثلاثة أرطال بدرهم، وحمل الحطب بدرهمين[٦]. وغالب أكلهم لحوم الطير، واللبن والسمن، وإذا مرض لأحد منهم بقرة أو شاة، ذبحها وأكل هو وأهله منها، وأهدى لجيرانه، فلهذا لا تكاد بيوتهم تخلو من اللحم[٧].

وهذا يدلنا على مدى ما تمتع به الإقليم من رخاء اقتصادى، شهد به الرحالة العرب الذين دخلوا هذا الإقليم، وكما هو معلوم فإن الرخاء وسعة الرزق ينعكس

---

(١) ياقوت: نفس المصدر، جـ1، ص119، مجهول: حدود العالم، ص94.
(٢) ياقوت: نفس المصدر، جـ4، ص477.
(٣) ياقوت: نفس المصدر، جـ2، ص253.
(٤) الأنساب، جـ1، ص325.
(٥) المسالك والممالك، ص170.
(٦) القلقشندى: صبح الأعشى، جـ4، ص471.
(٧) ابن فضلان: الرحلة، ص84.

على جوانب الحياة الأخرى ، فكثر العلم فى إقليم خوارزم، يقول المقدسى: "إنه قل أن التقى بإمام فى الفقه والأدب والقرآن، إلا وله تلميذ خوارزمي"(١).

(3) إقليم طخارستان

كانت أسواقها متعددة، وهى كالتالى:

اشتهرت مدينة (ترمذ): بأسواقها المفروشة بالآجُرّ، وكانت أسواقها عامرة، آهلة بالتجار، فرضة لهم على نهر جيحون(٢). واشتهرت مدينة (بذخشان): بأسواقها المشهورة ببيع المسك(٣). وكانت مدينة (الصغانيان): رخيصة الأسعار، وجامعها يقع وسط السوق وجميع أسواقها مغطاة مظللة. ويصفها المقدسى بقوله: "خبز رخيص ولحم كثير"(٤). وفى مدينة (الطالقان): كان يقام سوق يسمى رمنجن، يصفه السمعانى بأنه "غاية فى السعة والأمانة"(٥).

(4) إقليم فرغانة: امتازت بأسواقها المتنوعة، وهى كالتالى(٦)

مدينة (أوش): تعد ثالث مدن الإقليم من حيث المساحة، وكان بها سوق مشهور. ومدينة (أوزكند): كانت مركزًا للتجارة مع الترك. ومدينة (كند): لها بابان، أحدهما: فى السوق، والآخر فى الميدان. ومدينة (أشتيقان): الجامع يقع وسط السوق. ومدينة (مرغينان): بها أسواق عامرة، والجامع يقع على ضفة النهر. ومدينة (قُبا): يذكر المقدسى: أن فى وسطها الميدان، والجامع فى الأسواق(٧)، أما ابن حوقل فيذكر: أن الأسواق بالربض(٨). ومدينة (أخسيكث): كانت أسواقها تقام فى المدينة، والربض،

---

(١) أحسن التقاسيم، ص284.

(٢) ابن حوقل: صورة الأرض، ص394.

(٣) ياقوت: معجم البلدان، جـ1، ص441، فامبرى: تاريخ بخارى، ص30.

(٤) المقدسى: أحسن التقاسيم، ص283.

(٥) السمعانى: الأنساب، جـ4، ص35. ياقوت: معجم البلدان، جـ3، ص239.

(٦) الإصطخرى: المسالك والممالك، ص187. الإدريسى: نزهة المشتاق، جـ1، ص507.

(٧) أحسن التقاسيم، ص270.

(٨) صورة الأرض، ص420.

إلا أن أسواق المدينة كانت أوسع وأعمَر. ومدينة (ونجد): بها جامع لطيف، وسوق الإسكافية تقع بالقرب منه. وقرية (وتسخان): كبيرة، آهلة بالسكان، وجامعها فى سوق تجار الأنسجة القطنية، وأخيرًا مدينة (خجندة): كان يباع فى أسواقها القمح، وكان لا يكفى الاستهلاك، فتستورد من إقليم أشروسنة.

(5) إقليم أشروسنة: أسواقه متعددة، وأهمها[1]

مدينة (بونجكث أو بومجكث):كانت الأسواق تقام بالشهرستان (المدينة)، وبعضها بالربض (ضاحية المدينة). ومدينة (زامين أو مرسنده): كانت أسواقها تقام على جانبَى الطريق، ومدينة (مرسمنده): بها سوق مشهور، كان يفد إليه الناس من مختلف الآفاق وكان يعقد فى أول كل شهر، وكان المسجد بجوار السوق. ويذكر صاحب كتاب "حدود العالم": أن المعاملات التجارية فى هذا السوق تزيد قيمتها على مائة ألف دينار[2].

(6) إقليم الشاش: أهم أسواق هذا الإقليم

مدينة (نبكث): كان بها سوق كبير، واشتهر عن أهلها الشغب فى الأسواق. ومدينة (شتوركث أو اشتوركث): حصينة، وكانت أسواقها حصينة أيضًا. ومدينة (بنكث): كانت بعض أسواقها فى الشهرستان، وأكثرها فى الربض ويقدر سوقها بنحو فرسخ. أما مدينة (تونكث): عاصمة إيلاق، فكانت أسواقها فى الشهرستان، وفى الربض[3]. وأما مدينة (أسفيجاب أو أسبيجاب) فيقع السوق داخل الحصن، وقد خصصت هذه الأسواق فى بيع الأنسجة القطنية ويسمى سوق الكرابيسى، وأوقفت غلته ومقدارها سبعة آلاف درهم فى الشهر على الفقراء والمحتاجين. ومدينة (كدر): معظم أسواقها كانت بالربض. ومدينة (شاوغر): كانت ذات رستاق واسع[4] وجامعها بالسوق.

---

(١) المقدسى: المصدر السابق، ص277، ابن حوقل: نفس المصدر، ص414 - 416.

(٢) مجهول: حدود العالم، ص87.

(٣) الإصطخرى: المسالك والممالك، ص185- 187.

(٤) المقدسى: أحسن التقاسيم، ص274. ابن حوقل: صورة الأرض، ص417- 418.

ومدينة (فاراب): كانت معظم أسواقها بالريض، وبالحصن حوانيت قليلة. ومدينة (ووسيج): كانت صغيرة، والجامع فى السوق، ومدينة (بلاج): كانت صغيرة أيضًا، والجامع فى وسط السوق. ومدينة (بورخ): جامعها فى السوق. ومدينة (نوجكث): مدينة صغيرة، لها سوق يعقد ثلاثة أشهر أيام الربيع. وكان يباع فيه اللحم أربعة أَمْنَاء بدرهم[١].

مكاييل وموازيين بلاد ما وراء النهر

أما عن المكاييل والموازين المستخدمة فى أسواق بلاد ما وراء النهر، فهى مختلفة عن باقى الأمصار الإسلامية، وهى تتكون من:

(النَّغْنَجة)[٢]: وعياره خمسة وسبعون مِنًا، و(المِنّ):وزن مائتين وسبعة وخمسين درهمًاوسُبع درهم، وبالمثاقيل: مائة وثمانون مثقالًا، وبالأواقى: أربع وعشرون أوقية وهو يساوى (816) جرامًا. واستخدمه أهل بخارى. (الرطل)[٣]: وزنته عندهم ثلاثمائة وثلاثون درهمًا، واستخدمه أهل خوارزم وطخارستان[٤]. (السُّخ): وعياره أربعة وعشرون منًا، وهو قفيزان، وكان يُستخدم فى جميع أقاليم بلاد ما وراء النهر.و(الغُور): وهو اثنا عشر سُخًا، وكان يستخدم فى خوارزم. و(الغار): وهو مائة قفيز[٥]. و(القفيز): عياره تسعة أمناء ونصف، وهو مكيال أهل نسف.

---

(١) الإدريسى: نزهة المشتاق، جـ2، ص 703- 705.

(٢) الخوارزمى: مفاتيح العلوم، ص67.

(٣) الرطل: أحد الموازين، وهو يختلف من مكان إلى آخر، والرطل الشرعى البغدادى يساوى (128.7) درهم، فهو يساوى (408) جرامات. أما الرطل المصري، فإنه يساوى (144) درهمًا، أى (450) جرامًا، انظر، المقريزى: النقود الإسلامية، ص158، القلقشندى: صبح الأعشى، جـ3، ص445، د/ الريس: الخراج والنظم المالية، ص367.

(٤) القلقشندى: نفس المصدر، جـ4، ص407.

(٥) القفيز: أحد الأوزان، وكان يساوى فى عهد عمر بن الخطاب (12) صاعًا، وهو يساوى (64) رطلًا، يساوى (2) كيلة مصرية، يساوى (3) دراهم. وزاد فى الدولة الأموية فأصبح يساوى (4) دراهم، أى صار يساوى (8) أرطال. ثم أصبح فى الدولة العباسية (5) دراهم. الخوارزمى: مفاتيح العلوم، ص15. د. الريس: الخراج، ص 321، 325، 326.

مراقبة الأسواق

كانت الرقابة على الأسواق من عمل المحتسب [1]، وكان دوره يتجلى فى ذهابه إلى الأسواق، وتفتيشه - أو أعوانه - على بضائع التجار، من حيث جودتها أو رداءتها، ومنعهم من الغش، أو التطفيف فى المكاييل والميزان.

ومراقبة البيع بالسعر المحدد فى السوق، وكان يفتش على المكاييل والموازين والصنج الخاصة بذلك، كما كان له مساعدون يشرفون على البقالين، والسماكين، وتجار البزّ والخياطين، والصيارفة، وسائر المهن والتجارات التى تباع فى الأسواق [2].

أشهر من تولى الحسبة فى بلاد ما وراء النهر

تولى هذه الوظيفة جماعة من أهل العلم والفضل، ومنهم: أبو عبد الله محمد ابن الحسن بن الأشعث. ومنهم: الفقيه أبو حفص أحمد بن أحيد الأبرحينى، ومنهم: أبو نصر منصور بن محمد بن أحمد، الذى ظل متولى الحسبة فى بخارى لمدة طويلة.

أمين التجار

وظهرت فى بلاد ما وراء النهر وظيفة أمين التجار، والذى كانت مهمته الإشراف على التجار، والمحافظة على أموالهم، وحل مشكلاتهم، وأشهر من شغل هذا المنصب:

---

(١) الحسبة لغة: اسم من الاحتساب، وهو ادخار الأجر والثواب عند الله تعالى، وفى الشرع: هى الأمر بالمعروف إذا ظهر تركه، والنهى عن المنكر إذا ظهر فعله.ابن الأخوة: معالم القربة فى أحكام الحسبة، ص15، لقوله تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (سورة آل عمران، آية 104). ومن شروط المحتسب:أن يكون حرًا، عدلًا، ذا رأى وصرامة، وعلى علم بالمنكرات الظاهرة؛ لذا فقد شرط العلماء ألا يتولى هذه الوظيفة إلا رجل وجيه فى دينه ودنياه، وللمحتسب أن يتخذ الأعوان الذين ينوبون عنه فى المدن وسائر الأعمال. لمزيد من التفاصيل انظر: الماوردى: الأحكام السلطانية، ص247. والغزالى: إحياء علوم الدين، جـ2، ص933. ابن تيمية: الحسبة ومسئولية الحكومة الإسلامية، ص18 وما بعدها. وابن خلدون: المقدمة، جـ2، ص611.

(٢) د. سهام مصطفى: الحسبة فى مصر الإسلامية من الفتح العربى إلى نهاية العصر المملوكى، ص165.

أبو الهيثم نصر بن أبى يعلى أحمد بن محفوظ من أهل نسف، كان ثقة، فاضلًا، من أصلح عباد الله تعالى. ومنهم: الفقيه محمد بن أحمد السُّويخى، اشتهر بتجارة اللؤلؤ فى بخارى، وكانت داره مجمع التجار[١].

(١) السمعانى: نفس المصدر، ونفس الجزء، ص214، جـ3، ص331.

المبحث الثانى

الطرق التجارية ووسائل النقل

عندما تولى العباسيون الخلافة الإسلامية، أعطوا التجار حافزًا قويًا على مواصلة نشاطهم، ومن ثَم قاموا بحفر الآبار، وإقامة المحطات التجارية فى طرق القوافل، وأصبحت قوافل المسلمين تجوب البلاد. ولم تكن العناية بهذه الأشياء فقط، بل وكلوا مَنْ يحرس هذه الطرق، ويقوم بتأمينها، كما أنشئوا الفنادق، والقياسر، والخانات والسُّبل، والربط، كل ذلك لخدمة التجار[١].

أولًا: الطرق البرية الداخلية

استعمل التجار فى الطرق البرية الحيوانات فى نقل بضائعهم، ومن أمثلتها: الخيل والبغال والحمير والجمال، وكانت تسير فى نظام القوافل، وكان التجار يتبعون طرقًا تجارية رئيسة، وضعت عليها العلامات الإرشادية لمساعدة التجار على مواصلة سيرهم.

---

(١) آدم متز: الحضارة الإسلامية، جـ2، ص298، د. حسن إبراهيم: تاريخ الإسلام السياسى، جـ2، ص255.

ومن حُسن الحظ، فقد أمدتنا المصادر الجغرافية[1] الإسلامية بمادة غزيرة حول هذا الموضوع،وسوف أُقصر الحديث على الطرق الرئيسة فقط.

(1) إقليم الصغد

بعد عبور المسافر لنهر جيحون يصبح في بلاد ما وراء النهر، وقد سبق الحديث (في العرض الجغرافي) إلى أن المعبر الرئيسي على نهر جيحون كان مما يلي آمويه (آمل)، ثم إلى مدينة فربر، ومنها يسير الطريق إلى بيكند، ثم يتجه إلى بخارى، ثم يسير الطريق بمحاذاة نهر الصغد حتى يصل سمرقند، ثم توجد شبكة من الطرق البرية التي تغطي هذا الإقليم بالكامل وتربط بين مدنه المختلفة.

(2) إقليم طخارستان

كان هناك معبر آخر على نهر جيحون عند مدينة ترمذ، وعندها يتشعب الطريق الرئيسي إلى طرق مختلفة، أهمها:

(أ) **طريق الشمال:** يسير هذا الطريق حتى يصل إلى الصغانيان، ومنها إلى قباذيان، ثم واشجرد. ومن هناك كان يعبر قنطرة الحجارة التي يقول عنها ابن حوقل: "وهي الواقعة بين الختل وواشجرد على نهر وخشاب"[2]، ثم يصل إلى الختل والوخش.

(ب) **الطريق الشمالي الغربي:** يبدأ من ترمذ، إلى هاشم جرد، ثم إلى باب الحديد ومنها إلى مدينة كندك، ثم يتشعب هذا الطريق: فإلى الشمال: (الطريق الأيمن): يذهب إلى مدينة كش، ومنها يبلغ سمرقند، وإلى الشمال الغربي ينتهي الطريق الأيسر إلى نسف (نخشب). ومن هناك يسير الطريق شرقًا مرورًا بمدينة نوكند، حتى يصل إلى مدينة كش مرة ثانية.

---

(1) ابن خرداذبة: المسالك والممالك، ص25 وما بعدها، قدامة بن جعفر: الخراج، ص203 الإصطخري: المسالك والممالك، ص187، ابن حوقل: صورة الأرض، ص422، المقدسي: أحسن التقاسيم، ص341-342. ولسترنج: بلدان الخلافة الشرقية، ص531- 532.

(2) المصدر السابق، ص393.

ونعوذ إلى الطريق الرئيسى نفسه من نسف (نخشب) يقطع طريق المفازة (الصحراء)، حتى يصل إلى كسبه، ومنها إلى بزدة، ثم يصل فى النهاية إلى بخارى.

(3) إقليم خوارزم

ومن بخارى كان يسير الطريق بمحاذاة الضفة اليسرى لنهر جيحون حتى يصل إلى مدينة الطاهرية، وهى بداية إقليم خوارزم، ثم يسير إلى جكربند، ومنها إلى درغان، ثم يصل إلى مدينة هزار أسب. وعند هذه المدينة يتشعب الطريق إلى قسمين:

(أ) الجهة الشرقية: (اليسرى): فيمر على مدينة خيوه، ثم أرتخشيمثن، ثم أندرستان، ثم زمخشر حتى يصل فى النهاية إلى الجرجانية - أركنج - عاصمة إقليم خوارزم.

(ب) الجهة الغربية: (اليمنى): ومن مدينة هزار أسب، كان الطريق ينعطف حتى يصل إلى مدينة كاث - ترتكل حاليًا - وهى آخر حدود خوارزم، ومن كاث كانت تخرج عدة طرق قصيرة تنحدر نحو الجنوب، حتى تصل وايخانه، ثم ينتهى الطريق عند مدينة خيوه.

وجدير بالذكر، أنه كان هناك طريق آخر يصل من بخارى إلى مدينة كاث رأسًا، من الضفة اليمنى لنهر جيحون، وذلك بدون المرور على المدن السابقة ويبدو أن هذا الطريق كان يستخدم فى الأغراض الحربية، أو طريق البريد السريع للأمور المهمة.

(4) إقليم أشروسنة

من طريق خراسان - السابق - الذى انتهى عند سمرقند، يتجه الطريق شمالاً حتى يعبر نهر الصغد، ثم يمر على مدينة أشتيخن، ومنها إلى كشفغن، ثم خرقانة، ومنها إلى زامين - وهى بداية إقليم أشروسنة - وفى هذه المدينة يتشعب الطريق إلى:

(أ) الطريق الأيسر: ويمر على ساباط، وخاوسر وبناكث، وهناك يعبر نهر سيحون إلى إقليم الشاش، وجدير بالذكر: أنه وجد طريق أقصر من السابق يتجه من سمرقند إلى الشاش رأسًا، ويمر فى طريقه على مدينة بديزك، وجيزن، ويقطع المفازة (الصحراء)، حتى يصل إلى وينكرد، ومن هناك يعبر نهر سيحون إلى شتوركث. وفى هذه المدينة يلتقى هو والطريق القادم من بناكث إلى الشاش.

(5) إقليم فرغانة

(ب) الطريق الأيمن: وعند زامين - السابقة - ينحرف الطريق إلى الجهة اليمنى فيمر بمدينة بونجكث - عاصمة إقليم أشروسنة - فإذا غادرها فإنه يمر إلى مدينة خجندة الواقعة على نهر سيحون - وهى بداية إقليم فرغانة - ومنها يسير الطريق محاذيًا ضفة النهر الجنوبية، صاعدًا معها حتى يمر على مدينة نسيا، ثم خوقند، ومنها إلى إخسيكث - عاصمة فرغانة - ومن العاصمة ينحرف الطريق إلى أشتيقان، ومنها إلى قبا، ثم أوش، وينتهى عند مدينة أوزكند، آخر مدن الإقليم، ومن هناك تبدأ بلاد الترك حتى حدود الصين.

(6) إقليم الشاش

ذكرت أن الطريق القادم من أشروسنة كان ينتهى عند مدينة الشاش وعند هذه المدينة، كان الطريق ينقسم إلى شعبتين، وهما:

(أ) الجهة الشرقية: من الشاش إلى مدينة تونكث - عاصمة إيلاق.

(ب) الجهة الغربية: من الشاش إلى أسفيجاب (أسبيجاب)، وعندها يتشعب الطريق مرة أخرى إلى اليمين (الشرق): فيمر على مدينة الطراز، ومنها إلى كيلان، وينتهى عند مدينة ميركى، آخر مدينة إسلامية على حدود الترك، ومن هناك يصل الطريق إلى حدود الصين.

وعند مدينة أسفيجاب - السابقة - إذا أخذ السالك الجهة اليسرى (الغرب): فإنه يمر على سبانيكث، ومنها إلى فاراب (أترار)، ثم يعبر نهر سيحون ويتجه نحو الشمال حتى يصل إلى مدينة يسى، ومنها إلى مدينة صبران، ومن هناك يصل الطريق إلى بحيرة خوارزم (بحر آرال). وهى آخر حدود الإقليم. ويقع إلى الشمال منها. بلاد الخزر والصقالبة.

وهكذا: يتضح لنا أن بلاد ما وراء النهر كانت تمتلك شبكة من خطوط المواصلات البرية الداخلية، التى تربط بين جميع مدن الإقليم، وقد ساعدت على تقدم النشاط التجارى فيها.

ثانيًا: الطرق البرية الخارجية (الدولية)

وكما اهتم الخلفاء العباسيون بالطرق الداخلية، فقد اهتموا كذلك بالطرق الخارجية، والتى تعرف بالطرق الدولية، والتى ساعدت على ربط بغداد بمختلف دول العالم حينذاك. وبذلك أضحت هذه العاصمة العباسية ملتقى طرق المواصلات العالمية.

ولا يلزمنا أن نذكر الطرق الرئيسة التى تصل إلى بغداد شرقًا وغربًا[١] وإنما أركز بوجه خاص على الطرق الشرقية التى تمر ببلاد ما وراء النهر، حتى تصل إلى بغداد (عاصمة الدنيا) فى هذا الوقت.

كان هناك ثلاثة طرق تربط بعضها ببعض؛ طرق فرعية بحيث كان من السهل المرور من طريق إلى آخر. وقد سبق الحديث عن هذه الطرق، وأوضح هنا بشىء من التفصيل الطريق الأوسط المسمى "بطريق الحرير"؛ نظرًا لأهميته فى التجارة الخارجية (الدولية).

(أ) الطريق الأوسط "طريق الحرير"

وهو أهم الطرق التى تمر بآسيا، وكان يبدأ من بلاد الصين، فيمتد جنوبًا بمحاذاة جبال تيان شان، ثم يتجه إلى كاشغر، ومنها يصل إلى إقليمَى فرغانة وأشروسنة، مارًا بأسواق الصغد (بخارى وسمرقند) وقد ذكر المسعودى: أن الطريق عند سمرقند يتفرع إلى فرعين، أحدهما: طويل يستغرق اجتيازه أربعة أسابيع، غير أن المسعودى لم يحدد لنا اتجاهه بالضبط، والآخر: يمر عبر هضبة التُّبت[٢]، وهو الأسهل، ولكنه محفوف بالصعوبات والمخاطر؛ لذا فلم يستخدم إلا فى القليل النادر.

---

(١) ابن خرداذبة: المسالك والممالك، ص18، قدامة بن جعفر: الخراج، ص197، الإصطخرى: المسالك والممالك، ص58- 59، لسترنج: بلدان الخلافة الشرقية، ص23 وما بعدها

(٢) مروج الذهب، جـ1، ص143.

ونعود إلى الطريق الرئيسى، فبعد مرور الطريق من سمرقند، كان ينحرف صوب الجنوب الغربى حتى يصل إلى إقليم خراسان[1]، ويمر بمدينة مرو، ثم طوس، ومنها إلى نيسابور، ثم مدينة بسطام، ومنها يمر على مدينة قومس، ثم يتجه نحو الشرق حيث مدينة الرى. ويمر بهمذان حتى يصل إلى كرمنشاه – قاعدة كردستان – ثم يجتاز إقليم الجبال (إيران)، ومنها إلى حلوان، ثم يقطع السهل عابرًا أنهارًا عديدة فوق القناطر، ثم يدخل من باب خراسان الشرقى أحد أبواب بغداد.

(ب) الطريق الجنوبى

كان هناك الطريق الجنوبى، الذى يجتاز القسم الجنوبى من قبائل الترك، ثم يمر عبر الصحراء لمسافة طويلة جنوب غرب بحيرة لوب، ثم يجتاز هضبة البامير، ثم يصل إلى مدينة بذخشان – إحدى مدن إقليم طخارستان – ثم يجتازها ليصل إلى الهند عبر ممر باميان ومدينة غزنة[2] التى يقول عنها الإصطخرى: "وليس فى هذه المدن التى فى نواحى بلخ أكثر مالاً وتجارة منها، فإنها فرضة الهند"[3]، ومن هناك كانت القوافل تسير نحو خراسان غربًا، ثم تأخذ الطريق السابق إلى بغداد، أو تسير نحو بخارى شمالاً حيث إقليم الصغد.

ثالثًا: المنشآت التجارية

رأينا فيما سبق اهتمام العباسيين بالطرق الداخلية والخارجية، ونظرًا لبُعد بلاد ما وراء النهر عن مقر الخلافة العباسية، أصبح من اللازم تهيئة السُّبل أمام التجار، وخاصة الأجانب منهم، حتى يستطيعوا مزاولة أعمالهم دون عناء كبير، وحتى يتسير للولاة أداء واجب الإشراف عليهم على الوجه الأكمل، لذا فقد أقيمت فى بلاد ما وراء النهر عمائر تجارية مختلفة. ومع اختلاف أسماء وطرز وعمارة هذه المنشآت إلا أنها أقيمت لتحقيق غرض واحد، ألا وهو خدمة الحركة التجارية[4]. وأهم هذه المنشآت: القيسارية، والخان، والفندق، والرباط. وفيما يلى التفصيل:

---

(١) اليعقوبى: تاريخ اليعقوبى، جـ1، ص158، هايد: تاريخ التجارة، جـ1، ص26، براونستون: طريق الحرير، ص66.

(٢) د. حسن إبراهيم: تاريخ الإسلام السياسى، جـ3، ص332، جـ2، ص265.

(٣) المسالك والممالك،ص 156.

(٤) د. عطية القوصى: تجارة مصر فى البحر الأحمر، ص192.

(1) القيسارية: وهي: تتكون من مجموعة من المباني العامة. بها حوانيت ومصانع ومخازن ومساكن وبها كذلك أروقة مختلفة، وكان في بعض القياسر مساجد للتجار المسلمين[1] ويعلوها رباع ذات مساكن خصصت للتجار مقابل أجر معين.

(2) الخان: هو: مبنى ضخم يحتوي على مجموعة من الحوانيت الكبيرة والصغيرة، ومستودعات البضائع. ويتوسط الخان فناء كبير على هيئة رواق مغطى؛ حيث يحفظ التجار بضائعهم. وفي هذا الخان يجد التجار المأوى لهم ولدوابهم[2].

وكان الخان في بلاد ما وراء النهر يسمى تيم[3] أو جوبق، والدكان الواحد يسمى مخزن والمخزن الكبير يسمى خانبار، وجمعها خانبارات[4]. وفي سمرقند ونسف وجدت هذه الخانات، فيذكر صاحب كتاب "الأنساب" أنه رأى بعضها هناك، وكانت تباع فيها الخضراوات والفاكهة[5]. ويخبرنا ياقوت: أنه زار بلدة أرثخشميثن - إحدى مدن خوارزم - وكتب على حائط الخان الذى نزل به أبياتًا ذمَّ فيها المدينة بسبب ما عاناه من شدة البرد[6]. ويذكر الإصطخرى: أنه رأى في مدينة ديزك - بإقليم أشروسنة - خانات كثيرة[7].

---

(١) ياقوت: معجم البلدان، جـ2، ص211، المقريزى: الخطط، جـ3، ص140.

(٢) د. سرور: تاريخ الحضارة الإسلامية، ص161.

(٣) المقدسى: أحسن التقاسيم، ص272، السمعانى: الأنساب، جـ1، ص496.

(٤) آدم متز: الحضارة الإسلامية، جـ2، ص284.

(٥) السمعانى: الأنساب، جـ2، ص109.

(٦) الأبيات هي:

ذَممنا أرَثخشَميثَنَ إذ حللنا ... بساحتها لشدة ما لقينا
أتيناها ونحن ذوو يسار ... فعدنا للشقاوة مُفلسينا
فكم بردًا لقيت بلا سلام ... وكم ذلا وخُسرانًا مبينا
رأيتُ النار تَرعُدُ فيه بردًا ... وشمسَ الأفق تَحذَرُ أن تبينا
وثلجًا تنطر العينان منه ... ووحلًا يعجز الفيلَ المتينا
وكالأنعام أهلًا فى كلامٍ ... وفى سمتٍ وأفعالًا ودينا

انظر: معجم البلدان، جـ1، ص19.

(٧) المسالك والممالك، ص183.

(3) الفندق: هو: بناء ضخم مربع على شكل حصن، تقع خارجه حدائق غرست بالأشجار، والفندق - غالبًا - يتألف من عدة طوابق، وفى الدور الأرضى منه كانت توجد المخازن والحوانيت التى تطل على فناء داخلى فسيح، يسمح بتعبئة البضائع وتفريغها، بينما تضم أدواره العليا مساكن التجار التى كانوا ينامون فيها، ويغلقون غرفهم بأقفال[١].

هذا، وقد أقيمت الفنادق فى مدينة بذخشان - إحدى قرى طخارستان - كما وجدت فى سمرقند. وفى مدينة كشميهن إحدى مدن فرغانة[٢].

(4) الرباط: أقيمت الرُبُط فى بلاد ما وراء النهر على الطرق الصحراوية، ومع أن هذه الربط أُنشئت فى الأساس لتكون مقرًا للزهاد، أو للدفاع عن البلاد من خطر الأعداء إلا أنها أصبحت تأوى التجار المسافرين عبر هذه الطرق. يذكر الإصطخرى: أنه كان ببلاد ما وراء النهر ما يزيد على عشرة آلاف رباط "فى كثير منها إذا نزل النازل أقيم علف دابته وطعام نفسه إن احتاج إلى ذلك"[٣]. ويثنى أبو الفدا، على أهل هذه البلاد بقوله: "والغالب على أهل الأموال بما وراء النهر صرف أموالهم إلى الرباطات، وعمارة الطرق، والوقوف على سبيل الجهاد ووجوه الخير"[٤].

هذا، وقد أمدتنا المصادر بمعلومات وافيه عن الربط التى تم إنشاؤها فى نواحى بلاد ما وراء النهر منذ فتحها المسلمون، وكان أكثرها فى مدينة بيكند، وأسفيجاب، حيث أقيم هناك رُباط عرف باسم رباط البخاريين[٥]. وفى ولاية أشرس بن عبد الله السُّلمى (108- 110هـ/ 727- 729م) والى خراسان للخليفة هشام بن عبد الملك، إهتم بإنشاء الربط وعمل على تثبت أقدام المسلمين فى تلك النواحى. يقول ابن الأثير: "كان أشرس فاضلًا، خيرًا، وكانوا يسمونه الكامل

---

(١) المقريزى: الخطط، جـ3، ص149، متز: تاريخ الحضارة الإسلامية، جـ2، ص284.

(٢) الإدريسى: نزهة المشتاق، جـ1، ص487، 497، 695.

(٣) المسالك والممالك، ص163.

(٤) تقويم البلدان، ص487.

(٥) المقدسى: أحسن التقاسيم، ص272- 273.

لفضله"[1]. ويضيف ابن كثير: "وكان أول من اتخذ المرابطة بخراسان... وتولى هو الأمور بنفسه كبيرها وصغيرها. ففرح به أهلها"[2].

والجدير بالذكر أن هذه السياسة - أعنى إقامة الرباطات - قد استمرت حتى ولاية الفضل بن يحيى البرمكى (147- 193هـ/ 764- 808م) والى خراسان من قِبل الخليفة هارون الرشيد، فاهتم ببناء الربط فى ثغور بلاد ما وراء النهر للدفاع عنها وحمايتها. يقول الجهشيارى: "فلما وصل إلى خراسان أزال سيرة الجور، وبنى المساجد والحياض والربط، وأحرق مراكز البغايا وزاد الجند"[3]. وذكر ابن الجوزى فى ترجمة عبد الله بن طاهر، أنه عمَّر الرباطات، ووقف بها الوقوف[4].

وصفوة القول: إن الأسواق، والمنشآت التجارية التى قامت ببلاد ما وراء النهر، خدمت حركة التجارة الداخلية والخارجية، حيث كانت الحاصلات التجارية تُجلَب إلى هذه المنشآت، ومنها تطرح مع غيرها من السلع فى الأسواق، وفى الوقت نفسه يسرت سُبل الراحة للتجار المسافرين.

رابعًا: الملاحة النهرية

سبق الحديث عن نهرى سيحون وجيحون، وما يتفرع منهما من أنهار وقنوات لخدمة الزراعة، والسؤال الآن: هل نجح سكان بلاد ما وراء النهر فى استخدام هذه الأنهار فى الملاحة النهرية؟

يذكر المستشرق آدم متز: أن الملاحة فى نهرى جيحون وسيحون، كانت صعبة للغاية، بسبب وجود الشلالات فى بعض المناطق، ويؤكد على استحالة استخدام النهرين فى الملاحة[5].

---

(١) ابن الأثير: الكامل، جـ4، ص381.

(٢) ابن كثير: البداية والنهاية، جـ9، ص245، السمعانى: الأنساب، جـ3، ص40.

(٣) الوزراء والكتاب، ص191، ابن خلكان: وفيات الأعيان، جـ3، ص465- 466.

(٤) ابن الجوزى: المنتظم، جـ11، ص160.

(٥) آدم متز: الحضارة الإسلامية، جـ2، ص289.

على حين تؤكد المصادر الجغرافية الإسلامية على استخدام هذين النهرين، وما يتفرع منهما من أنهار فى الملاحة النهرية خاصة فى فصل الصيف . يقول الإصطخرى: "إن السفن كانت تُحمل على الأنهار الكبيرة وما يتشعب منها". ثم يعدد الأنهار التى تحمل السفن وتستخدم فى الملاحة النهرية، ومنها: نهر كاوخواره ونهر هزار أسب، وخيوه، وذاك، وأنهار بخارى، وأنهار بارمش، وبرش فى سمرقند، ونهر كند فى أسفيجاب. ويقول عنه: "لها نهر عظيم يسافر فيه بالمتاجر والمير"(١). ويذكر ابن حوقل: أن سكان إقليم الصغد كانوا يستخدمون نهر الصغد فى نقل الأخشاب من بخارى إلى سمرقند(٢). وابن فضلان يذكر لنا فى رحلته من بخارى إلى خوارزم أنه ركب سفينة عبرت به نهر جيحون فى مسافة تصل إلى أكثر من مائتى فرسخ(٣). ويؤكد ياقوت الحموى: أنه وصل إلى مدينة أرثخشميثن – إحدى قرى خوارزم – بالسفينة التى تجرى فى نهر جيحون، وذكر لنا ما لاقى فيها من الشدائد العظيمة(٤).

مما سبق يتضح لنا: أن المسلمين قد استطاعوا تذليل أنهار بلاد ما وراء النهر، واستخدموها فى الملاحة النهرية بأنواعها المختلفة، مثل: نقل الأشخاص، والبضائع والأخشاب وغير ذلك.

---

(١) المسالك والممالك، ص168- 169، الإدريسى: نزهة المشتاق، جـ١، ص179.

(٢) صورة الأرض، ص395- 409.

(٣) الرحلة، ص31.

(٤) معجم البلدان، جـ١، ص119.

المبحث الثالث

التجارة الخارجية

بعد انتشار الفتوحات الإسلامية فى مشارق الأرض ومغاربها كان على سائر الأمم أن تسلم بأن هذه الأمة الجديدة - أعنى أمة الإسلام - قد بلغت بالفعل درجة عالية من المدنية، وأنها قادرة على مزيد من التقدم والرقى. وأصبحت التجارة الإسلامية فى ظل الدولة العباسية مظهرًا من مظاهر أبهة الإسلام، وصارت هى السيدة فى بلادها، وكانت سفن المسلمين وقوافلهم تجوب كل البحار والبلاد، وأخذت تجارة المسلمين المكانة الأولى في التجارة العالمية. وكانت الإسكندرية وبغداد، هما اللتان تقرران الأسعار للعالم[١] - فى ذلك العصر - فى البضائع الكمالية على الأقل.

وبخصوص بلاد ما وراء النهر، فنظرًا لموقعها الجغرافى، وكثرة منتجاتها - كما سبقت الإشارة - فقد لعبت دورًا كبيرًا فى ربط بلاد الصين والهند شرقًا، وبلاد الروس والصقالبة والخزر شمالًا، بالخلافة العباسية فى بغداد. وأستطيع القول، إن بلاد ما وراء النهر كانت بمثابة مركز توزيع - أو مستودع بضائع - على طريق الحرير الرابط بين هذه البلاد وبغداد، ثم إلى سائر بلدان العالم حينئذ.

---

(١) آدم متز: الحضارة الإسلامية، جـ2، ص272. د. حسن إبراهيم: تاريخ الإسلام السياسى، جـ3، ص333.

وعلى ذلك، فقد امتدت العلاقات الخارجية لبلاد ما وراء النهر مع الممالك الشرقية: وتشمل بلاد الصين، والهند، والهند الصينية. والممالك الشمالية: وتشمل بلاد الخزر، والصقالبة، والروس. والبلاد الغربية: وتشمل العراق، ومصر، ومنهما إلى سائر بلدان العالم الإسلامى. ونفصل القول فيما يلى:

أولًا: التجارة مع الممالك الشرقية

(أ) العلاقة التجارية مع بلاد الصين: قامت علاقات اقتصادية طيبة تربط بلاد ما وراء النهر ببلاد الصين منذ أقدم العصور - كما سبقت الإشارة - حيث إن "طريق الحرير" الذى كان يمر عبر قلب آسيا، يربط بين بخارى وبكين.

أما عن العلاقات العربية الصينية، فهى قديمة أيضًا، حيث استخدم العرب الطريق البرى عبر قلب آسيا والطريق البحرى عبر شواطئ بلاد العرب، وموانئ الخليج الفارسى (العربى حاليًا) ثم المحيط الهندى، وذلك للوصول إلى بلاد الصين بحرًا. وتؤكد المراجع الأوربية، على أن طريق البحر كان قليل الاستخدام، حيث كان التجار يفضلون عليه الطريق البرى - طريق الحرير - بواسطة القوافل؛ لأنه أعظم يُسرًا، وأكثر استعمالًا، وأقل تكلفة[1].

أما الجيوش العربية الإسلامية، فقد اتصلت بالحضارة الصينية أثناء فتحها لبلاد ما وراء النهر، حيث تذكر المصادر العربية، أنه كان لملك الصين ممثلون تجاريون فى تلك البلاد، وقد اعتادوا التدخل فى الشئون السياسية والعسكرية لأمراء هذا الإقليم، بما يخدم أهدافهم التجارية. وعندما فرض العباسيون سيطرتهم على بلاد ما وراء النهر - كما سبق القول - استنجد أمراء فرغانة والشاش بالحاكم الصينى؛ الذى أمدهم بمائة ألف مقاتل. فأرسل أبو مسلم الخراسانى، زياد ابن صالح لمحاربته، فالتقى الجيشان عند نهر طراز ووقعت معركة أترار عام 133هـ/ 751م. وظفر المسلمون فيها، وقتلوا منهم زهاء خمسين ألفًا، وأسروا نحو

---

(١) لوبون: حضارة العرب، ص554 د. فاروق عمر:العباسيون الأوائل،جـ2، ص 50-45

عشرين ألفًا[١]. وهرب الباقون إلى الصين. وكان من أهم نتائج هذه المعركة أنها وضعت حدًا لنهاية السيادة الصينية فى آسيا الوسطى.

ومع ذلك فإن الخليفة أبا جعفر المنصور، أقام علاقات ودية مع الصينيين فقد ذكرت المصادر التاريخية ، سلسلة من السفارات العربية المتعاقبة بعد معركة أترار. وتؤكد هذه المصادر - أيضًا - على أن أبا جعفر المنصور أمد إمبراطور الصين بكتيبة مؤلفة من أربعة آلاف جندى للقضاء على الثورة التى نشبت ضده[٢]. وبعد القضاء على هذه الثورة، سمح لهم الإمبراطور بالإقامة بأهم مدن الصين، مكافأة لهم على ما قدموا من نصرة الإمبراطور. وبمرور الوقت تزوج هؤلاء العرب من الصينيات، ثم ظهر جيل جديد كان منهم مسلمو الصين[٣].

وعلى إثر هذه العلاقات الطيبة بين الجانبين - العباسيين والصينيين - استقر التجار العرب فى بلاد الصين، وكان لهم قاضٍ يُصدر أحكامه طبقًا للشريعة الإسلامية؛ ويقيم الصلوات، ويؤدى شعائر الإسلام. وكانت الإمبراطورية الصينية تمنح العرب تسهيلات خاصة لبيع بضائعهم، بل كان الإمبراطور نفسه يأمر بشراء بعضها لحسابه الخاص. وهكذا، صار العرب فى مقدورهم التغلغل داخل البلاد، وممارسة التجارة بكامل حريتهم. ولقى العرب هناك - لزمن طويل - كل الترحيب، حتى إن حوانيت كبار التجار الصينيين كانت تزود التجار العرب بكل ما يحتاجونه من منتجات بلادهم، ومصنوعاتها الدقيقة لتشحن فى القوافل العربية عند عودتها إلى ديار الإسلام[٤].

أما عن السلع المتبادلة، فهى كثيرة، نذكر منها أن التجار العرب كانوا يحملون معهم (الصادرات): الأحجار الكريمة، والخيل العربية الأصلية والمنسوجات القطنية والصوفية وغيرها من المنتجات. على حين كانوا يستوردون: المنسوجات الحريرية، وخاصة الديباج، والقاشانى، والشاى، ومختلف المستحضرات الصيدلية، بالإضافة

---

(١) ابن الأثير: الكامل، جـ5، ص90-91. المقدسى:البدء والتاريخ،جـ4،ص74.

(٢) د شاكر مصطفى:دولة بنى العباس ،جـ1، ص 349 وما بعدها. فهمى هويدى: الإسلام فى الصين، ص50..

(٣) هيل: العلوم والهندسة فى الحضارة الإسلامية، ص23.

(٤) هايد: تاريخ التجارة، جـ2، ص74، ديورانت: قصة الحضارة، م2، جـ4، ص245.

إلى الأوانى الصينية، والسنجاب، واللبود[١]. ومن المعروف أن معظم هذه البضائع كانت تنقل عن طريق بلاد ما وراء النهر.

وممن أُشتهر بالتجارة مع بلاد الصين: أبو عبد الله محمد بن الحسن الأرزكيانى، من أهل بخارى؛ خرج منها ومعه متاع كثير بغرض التجارة، فدخل بغداد، وباع معظم تجارته هناك، ثم انحدر منها إلى البصرة، ثم ركب البحر حتى أتى إلى بلاد عُمان ثم دخل المحيط الهندى، وواصل سيره حتى وصل إلى بلاد الصين، ومن هناك عاد ثانية إلى بلدته بخاري[٢]. وإن صحت هذه الرحلة فهى تدل على استخدام الطريق البرى فى الذهاب إلى بغداد، لأنه أكثر أمنًا، وأقل تكلفة وكانت العودة تتم عن طريق البحر. كذلك نقرأ فى ترجمة إبراهيم بن إسحاق الصينى، أنه نُسب إلى بلاد الصين، لأنه كان يخرج من البصرة فى التجارة إلى بلاد الصين، ولذا فقد نُسب إليها[٣].

(ب) العلاقة التجارية مع بلاد الهند

ترجع صلات العرب ببلاد الهند إلى أقدم العصور، وبعد الفتح الإسلامى لهذه البلاد[٤]، وانتشار الإسلام فيها، سرعان ما اتسع أفق الصلات التجارية بين المسلمين والهنود. وما لبث العرب أن وصلوا فى تجارتهم إلى شواطئ ملابار وسومطرة وخليج سيام[٥]. وكان العرب يتصلون ببلاد الهند عبر طريقين، أحدهما: برى، وهو يربط بلاد الهند ببغداد عن طريق سمرقند وذلك بواسطة القوافل المارة بوسط آسيا الوسطى. والآخر: بحرى، وكان عبر المحيط الهندى، ومنه إلى الخليج الفارسى، ثم إلى بغداد برًا[٦].

(١) الثعالبى: لطائف المعارف ص220، رحلة أبى دلف، ص45.

(٢) المسعودى: مروج الذهب، جـ1، ص126.

(٣) مما يدل على عظمة الإسلام فى هذه البلاد، وعلى سعة صلات المسلمين التجارية بهم، وجود أكثر من عشرين مليون مسلم، منتشرين فى أنحاء بلاد الصين، ووجود ما يقرب من مائة ألف مسلم، واحد عشر مسجدًا فى مدينة بكين وحدها د. مصطفى رجب: المشكلات التعليمية لدى الأقلية المسلمة فى الصين، مجلة منبر الإسلام، العدد (5) السنة 66، جمادى الأولى 1428هـ ، ص82-84.

(٤) د/ حسن أحمد محمود: الإسلام والحضارة العربية، ص178 وما بعدها.

(٥) أبى دلف: الرحلة، ص61، ياقوت: معجم البلدان، جـ4، ص318.

(٦) لمزيد من التفاصيل انظر د.شوقى عثمان تجارة المحيط الهندى فى عصر السيادة الإسلامية ،عالم المعرفة ،الكويت،1990،،ص 45 وما بعدها.

وقد أكد المؤرخون العرب على أن الكثير من ملوك القارة الهندية كانوا يرعون مصالح العرب، كما أنهم أذنوا للتجار بإقامة المنشآت، وبناء المساجد[1]. ويذكر المسعودى، أنه عندما زار الهند التقى فيها بجالية كبيرة من المسلمين تصل إلى قرابة عشرة آلاف مسلم. وأكد لنا أن هؤلاء لم يأتوا من سيراف أو عمان أو بغداد، أو غيرها من الأمصار الإسلامية، بل إن أكثرهم ولد فى أرض الهند من آباء عرب، وكان من بين هؤلاء المستوطنين تجار كبار. وقد عهد الملك إلى أحد المسلمين بتولى السلطة القضائية لهم. ومن ثَم ازدهرت أسواقهم، وزاد تصدير منتجاتهم إلى بغداد[٢].

وأما عن هذه المنتجات فهى: الفيل والكركدن (وحيد القرن)، والطاووس والببغاء، والدجاج الهندى، بالإضافة إلى الياقوت الأحمر، والعاج، والقرنفل والصندل الأبيض، والثياب الجميلة، والكافور، والمسك[٣]، وغيرها من المنتجات.

وكانت معظم هذه المنتجات وخاصة التوابل والعطور تصدر عن طريق البر – عبر آسيا الوسطى – لأن البحر يؤدى إلى إفسادها. كما يقول المسعودي[٤] وكانت مدينة الباميان – إحدى مدن طخارستان – أكثر مدن بلاد ما وراء النهر، تجارة مع بلاد الهند. حيث يذكر الإصطخرى أن المدينة كانت فقيرة فى الزراعة، ومع ذلك فهى أكثر مدن الإقليم مالاً وتجارة، ويعلل ذلك بأنها كانت "فرضة بلاد الهند"[٥].

وعن قوة العلاقات التجارية بين بخارى والهند، يذكر الشريف السمرقندى: أن شخصًا من بخارى – لم تذكر الرواية اسمه – فى خلافة هارون الرشيد قدَّم للسلطان الهندى، اثنتين وعشرين حبة من البطيخ الأصفر، حملها إليه من بخارى، فأكرمه السلطان، وأمر له بثلاثة آلاف مثقال من الذهب[٦]. وهذا يثبت شهرة بطيخ بخارى أولاً، ويؤكد لنا عمق العلاقات التجارية القائمة بين البلدين، ثانيًا.

---

(١) د.عبد العزيز الدورى: العصر العباسى الأول،ص 116 ، د.شاكر مصطفى:دولة بنى العباس،جـ1 ، ص 343 .

(٢) المسعودى: مروج الذهب، جـ1، ص79- 80.

(٣) هايد: تاريخ التجارة، جـ1، ص50 د.شوقى عثمان:تجارة المحيط الهندى،ص 61-69 .

(٤) المسعودى: مروج الذهب، جـ1، ص143.

(٥) الإصطخرى: المسالك والممالك، ص156.

(٦) القلقشندى: صبح الأعشى، جـ5، ص90. ابن عبد ربه:العقد الفريد،جـ2،ص 203-204 .

(ج) العلاقة التجارية مع بلاد الهند، الصينية

قامت علاقات تجارية مهمة بين هذه البلاد وبين الدولة العباسية، ولعبت بخارى وسمرقند الدور الرئيسى فى هذه العلاقة، حيث كانت هذه البلاد المصدر الرئيسى للحصول على الحرير الخام.

ويحدثنا المسعودى أنه فى عام (264هـ) اندلعت ثورة كبرى فى هذا الإقليم، واستمرت تسع سنوات، لم يسلم من أيدى الثوار شىء حتى أشجار التوت، الذى يربى عليه دود القز؛ لذا فقد توقف تصدير الحرير لعدة سنوات وقد عانى المستوطنون المسلمون، والنصارى، واليهود، وغيرهم من أهل البلاد معاناة شديدة[١]، كما عانى التجار العرب من أعمال العنف والسرقة. لذا، فقد استقر رأى هؤلاء التجار على قطع صلاتهم بهذه البلاد، وأقاموا مرفأهم الرئيسى جنوب مدينة كَلَه (ملقا فى جنوب شرق آسيا حاليًا) ، مما اضطر التجار الصينيين أن يذهبوا إلى هناك لكى يظلوا على صلة بعملائهم العرب وبمرور الوقت، ازدهرت المدينة الجديدة، وانفتحت بها الأسواق[٢]، وصار التجار العرب هم الذين يقررون الأسعار فى أسواق بلاد الهند الصينية.

أما عن أهم المنتجات المصدرة إلى بغداد عن طريق بخارى وسمرقند، فهى: الكافور، والقرنفل، والصندل، وجوز الهند، وجوز الطيب، والقصدير[٣] وغيرها من المنتجات.

ثانيًا: التجارة مع الممالك الشمالية

تشمل هذه الممالك: بلاد الخزر، والصقالبة، وبلاد الروس، وأخيرًا قبائل الترك، وكل هذه البلاد كانت لها علاقات تجارية مهمة مع بلاد ما وراء النهر.

---

(١) المسعودى: المصدر السابق، جـ١، ص124- 126 .

(٢) هايد: تاريخ التجارة، جـ١، ص48 د . شوقى عثمان تجارة المحيط الهندى،ص49-50 .

(٣) الثعالبى: لطائف المعارف، ص214. أبى دلف: الرحلة، ص67- 68.

(أ) العلاقة التجارية مع بلاد الخزر والصقالبة

بلاد الخزر تقع إلى الشمال من بلاد ما وراء النهر، وتم الاتصال بهم عن طريق إقليم خوارزم أقرب الأقاليم من بلادهم. وقد وصف أحد الرحالة العرب الذى زار بلادهم، أن ملك هذه البلاد، كان طيبًا، حيث سمح للتجار من مختلف الديانات: المسلمين، والنصارى واليهود، بممارسة تجارتهم بكامل حريتهم. كما سمح لهم - فى الوقت نفسه - أن يؤدوا شعائرهم فى طمأنينة[١] وهذا ما أكده لنا أيضا ابن فضلان فى رحلته إلى بلاد الخزر، فقد ذكر ما تمتع به المسلمون من الحرية الدينية، فقد عَيّن لهم قاضيًا يفصل بينهم فى المنازعات ويقضى بينهم طبقًا لأحكام الشريعة الإسلامية[٢].

وهكذا، استطاع التجار المسلمون أن يوثقوا صلاتهم التجارية مع بلاد شمال بحر قزوين، وشهدت أتيل - Atel - عاصمة الخزر، وصول سفن العرب وقوافلهم؛ وكانت معظم هذه القوافل تصل إلى مدينة الجرجانية - عاصمة إقليم خوارزم - الواقعة على بحر خوارزم (آرال) ومنها تأخذ الطريق البرى عبر آسيا الوسطى، حتى تصل إلى بغداد[٣].

أما الصقالبة: فكانوا - غالبًا - ينزلون على نهر أتيل - الذى أقيمت عليه عاصمة الخزر - وهناك كانت تقام الأسواق[٤] فى موضع مخصص لهم يمارسون فيه أعمالهم التجارية مع العرب القادمين من آسيا الوسطى.

(ب) العلاقة التجارية مع بلاد الروس

لم يقف العرب عند مدينة أتيل - عاصمة الخزر - بل صعدوا نهر الفولجا حتى وصلوا إلى قلب آسيا . ومما ساعد على تقدم التجارة فى هذه المنطقة، اعتناق بعض

---

(١) المسعودى: مروج الذهب، جـ1، ص160.

(٢) ابن فضلان: الرحلة، ص93.

(٣) ابن حوقل: صورة الأرض، ص395- 397. ياقوت: معجم البلدان، جـ2، ص245- 252، هايد: تاريخ التجارة، جـ1، ص64.

(٤) ابن فضلان: الرحلة، ص77. القزوينى: آثار البلاد، ص615.

أهل الفولجا للإسلام[١]. ولكن يبدو أن التجارة الإسلامية لم تتجاوز بلاد البلغار[٢] التى كانت بمثابة مستودع تجارى بين آسيا وشمال أوربا. ولعله وجد هناك تجار يأخذون بضائع العرب للوصول بها إلى البحر البلطى ومنها إلى شمال أوربا. يقول ابن فضلان: "ولقد رأيت الروسية (يعنى الروس) قد وافوا فى تجارتهم، ونزلوا على نهر أتيل، وكان معهم الجوارى الرواقة للتجار، والسمّور، والجلود، والغنم"[٣]. وهنا يجب أن أشير إلى أمرين مهمين:

أولهما: تجار اليهود الرّاذانية: فقد ذكر الرحالة الجغرافى ابن خرداذبة فى فقرة ممتعة عن تجار اليهود، أنهم يتكلمون عدة لغات منها: العربية والفارسية،واللاتينية، وأنهم كانوا يسلكون فى تجارتهم عدة طرق. منها الطريق البحرى: الذى يبدأ من جنوب فرنسا وإسبانيا فيمر عبر مضيق جبل طارق، حتى يجتاز البحر المتوسط كله، ثم ينزلون إلى سوريا، ومنها يأخذون الطريق البرى مرورًا ببغداد، وأقاليم خراسان وبلخ وبخارى وسمرقند، حتى ينتهى إلى بلاد الهند والصين. والطريق الآخر: هو الطريق الشمالى: حيث يجتازون ألمانيا، وبلاد الصقالبة، حتى مدينة أتيل - عاصمة الخزر - ثم يعبرون بحر قزوين، ثم يأخذون الطريق البرى فيمرون على بلخ، ومنها إلى بلاد ما وراء النهر - الطريق الأوسط - حتى يصلوا إلى الصين[٤].

وهكذا، يتضح لنا أن التجار اليهود الراذانية فى كل الأحوال كانوا يمرون على بلاد ما وراء النهر. ويخبرنا ابن خرداذبة - أيضًا - بالبضائع التى يحملها هؤلاء التجار، فكانت تشمل من الغرب إلى الشرق: العبيد، والخصى، والفراء، والسيوف. ومن الشرق إلى الغرب: المسك، والكافور، والقرفة. وغير ذلك من المنتجات المماثلة.

ويبدو لى من كلام ابن خرداذبة، أن هؤلاء التجار كانوا من جنسيات مختلفة بحيث يستطيعون أن يتحدثوا كل هذه اللغات السابقة. وأرجح أن يكون هؤلاء التجار

---

(١) د. حسن إبراهيم: تاريخ الإسلام السياسى، جـ3، ص334.

(٢) القزوينى: المصدر السابق، ص613. ياقوت: معجم البلدان، جـ1، ص383.

(٣) ابن فضلان: الرحلة، ص79- 80.

(٤) ابن خرداذبة: المسالك والممالك، ص153- 155.

من رعايا الدولة العباسية، نظرًا لقوة واتساع الدولة العباسية حينئذ، بالإضافة لشهرة عاصمتها بغداد، ثم هى الدولة الوحيدة القادرة على حماية هؤلاء التجار فى أى مكان فى العالم.

أما قول ابن خرداذبة: "إن تجار الحملة كانوا غربيين"[١]. فلعله، كان يقصد أنهم يرحلون من أوربا إلى آسيا، والعكس، بحيث لا تعرف لهم أوطان[٢].

ومما هو جدير بالذكر، أن المؤرخ الرحالة المسعودى، قد ذكر هؤلاء التجار غير أنه لم يسمهم بهذا الاسم المشهور "الراذانية". بل أطلق عليهم "اللوذعانة". ويقول عنهم: "وهم يختلفون بالتجارة إلى بلاد الأندلس وورومية وقسطنطينية والخزر"[٣].

الأمر الثانى: هو العثور على كمية كبيرة من النقود العربية فى روسيا، وقد ذكر المستشرق الروسى (فريهرن Freehrn) الذى ألف كتاب: "الموجز الطبوجرافى للنقود العربية القديمة فى روسيا"[٤]. أنه قام بتحليل كمية النقود العربية، ووجد أن مجموعة الدراهم التى وجدت تبدأ بقطعة من عام (78هـ/ 698م)، أى فى خلافة عبد الملك بن مروان (65- 86هـ/ 684- 705م) فى الدولة الأموية، وتنتهى بقطعة من عام (402هـ/ 1010م)، أى فى خلافة القادر بالله العباسى (381- 422هـ/ 991- 1030م)، فى عصر سيطرة بنى بويه على الخلافة العباسية. كما ذكر هذا المستشرق أن معظم النقود التى عُثر عليها فى بلاد ما وراء النهر تظهر عليها كلمة بغداد – عاصمة العباسيين – وكان لهذه المدينة النصيب الأوفى من الذكر، على حين لم تظهر كلمة دمشق – عاصمة الأمويين – إلا قليلًا. وهذا يؤكد ما قلته سابقًا من قوة وانتشار ونفوذ التجارة العباسية فى العالم حينئذ.

(ج) العلاقة التجارية مع قبائل الترك

سبق الحديث عن بعض قبائل الترك، ونركز هنا على العلاقات التجارية التى كانت تربط هذه القبائل بالخلافة العباسية. كان الطريق التجارى المؤدى إلى بلاد

(١) ابن خرداذبة: نفس المصدر، ص154.

(٢) هايد: تاريخ التجارة، جـ1، ص142. د. عطية القوصى: تجارة مصر فى البحر الأحمر، ص33.

(٣) المسعودى: مروج الذهب، جـ1، ص164.

(٤) هايد: تاريخ التجارة، جـ1، ص74- 76. لوبون: حضارة العرب، ص561.

الصين – المعروف، بطريق الحرير – مجالاً لنشاط التجار الصغد الذين نجحوا فى تأسيس مستعمرات صغدية لهم. ويروى السائح الصينى (هيوان تسانج) – الذى جاب آسيا الوسطى قرابة عام 630م – أن مدنًا تجارية صغدية[١] كانت موجودة فى المناطق التى يسكنها الأتراك وبعد أن أصبحت بلاد ما وراء النهر، بلادًا إسلامية، أخذت قوافل المسلمين تفد على قبائل الترك، الواقعة على الطريق المؤدى إلى الصين، وكان من الطبيعى أن تقوم علاقات تجارية بين هذه القبائل والبلدان الإسلامية، وما ذكرناه يتفق مع ما جاء فى المصادر الصينية، ويتفق إلى حد كبير مع ما ورد فى نقوش أورخون[٢].

على كل حال، كان لإقليم خوارزم ومدنه المكانة العُظمى فى التعامل مع القبائل التركية. وهذا ليس بغريب على أهل خوارزم، فقد وُصِفوا بأنهم أكثر أهل بلاد ما وراء النهر انتشارًا وسفرًا، فليس هناك مدينة إلا وبها من الخوارزميين الكثير، هذا مع ما تميزوا به من لغة خاصة بهم، وملابس تميزهم عن باقى الأقاليم الأخرى[٣].

والحديث يطول لو ذكرنا العلاقات التجارية مع جميع قبائل الترك، ولكننى أذكر ثلاث قبائل فقط، وهى:

(1) الغُزّية، ذكر ابن فضلان فى رحلته (عام 309هـ/921م) أنه زار قبيلة الترك الغزية، وقدم هدية إلى ملكهم، وهى عبارة عن: ثياب خوارزمية، وبعض الزبيب، والجوز والفلفل والمسك، مع كثير من الجلود، والثياب المروية – نسبة إلى مدينة مرو فى إقليم خراسان – وبعض أثواب الحرير[٤]. وكانت أهم مراكز التجارة مع قبائل الترك الغزية، مدن: طراز، وصبران، وكركانج، وهزار أسب، وكلها من مدن خوارزم[٥].

---

(١) بارتولد: تاريخ الترك، ص27.

(٢) بارتولد: نفس المرجع، ص59. د.فاروق عمر: العباسيون الأوائل، جـ2، ص 645 .

(٣) الإصطخرى: المسالك والممالك، ص168- 170، ابن حوقل: صورة الأرض، ص397.

(٤) ابن فضلان: الرحلة، ص39، 41، 44.

(٥) ياقوت: معجم البلدان، جـ3، ص177، جـ4، ص131، 477.

(2) قبائل القيرغز: أقامت هى الأخرى علاقات تجارية مع بلاد ما وراء النهر، وقد ذكر المسعودى أن ملكهم أسلم فى أيام الخليفة المقتدر بالله العباس (295 -320 هـ/907-932م) وذلك فى عام (310هـ)[١]. وكان مركز التجارة مع هذه القبيلة مدينة أوزكند إحدى مدن فرغانة.

(3) قبيلة الخرخيز: وكان مركز التجارة معها مدينة أوزكند السابقة. أما عن أهم السلع المتبادلة مع قبائل الترك، فمن أمثلتها: البغال والحمير[٢] والمسك، والسّمور، والسنجاب، والفنك، والثعالب السود، والأرانب البيض، والخدنك – نوع من الأخشاب – والخيل، والذهب، والرقيق[٣]. ومن أشهر من اشتغل بتجارة الرقيق من أهل خوارزم مع قبائل الترك، أبو سعيد أحمد بن على بن أحمد الجلابى[٤].

وخلاصة القول، أن علاقة تجارية قوية قامت وتطورت بمرور الزمن بين الخلافة العباسية فى بغداد وبين قبائل الترك، كانت حلقة الوصل بينهما بلاد ما وراء النهر.

ثالثًا: التجارة مع بلدان العالم الإسلامى

كذلك نجحت بلاد ما وراء النهر فى إقامة علاقات تجارية مع بلدان المشرق الإسلامى، والتى يأتى فى مقدمتها، الحواضر الثلاث: بغداد، ومكة، ومصر، وعبر هذه الحواضر كان يتم توزيع منتجات بلاد ما وراء النهر عبر أقطار العالم الإسلامى كله، وفيما يلى التفصيل:

(أ) العلاقة التجارية مع بغداد

كان يشغل فكر الخليفة أبى جعفر المنصور وهو يؤسس عاصمته الجديدة بغداد، أن يوفر لها ما يلزمها من المؤن والسلع المختلفة، لذا فقد قام بحفر قناة ملاحية

---

(١) المسعودى: مروج الذهب، جـ1، ص163.
(٢) ابن حوقل: صورة الأرض، ص385- 420.
(٣) الثعالبى: لطائف المعارف، ص224.
(٤) السمعانى: الأنساب، جـ2، ص137.

تصل إليها من الفرات[1]، وربط بهذا العمل بغداد بآسيا الصغرى وسوريا، وبلاد العرب ومصر. على حين كانت تأتى إليها القوافل من آسيا الوسطى مارة ببخارى وسمرقند وفارس[2]، وبذلك أصبحت بغداد مركزًا تجاريًا دوليًا خصوصًا مع بلاد الهند والصين.

(ب) العلاقة التجارية مع مكة

مكة بلد الله الحرام؛ تهفو إليها قلوب المسلمين من مختلف بقاع الأرض لأداء شعائر الحج. وكانت بلاد ما وراء النهر – على الرغم من بُعد ديّارهم – أول سابق إلى الحج، لا يدخل مكة أحد قبلهم، ولا يخرج منها أحد بعدهم وذلك على قول الإصطخري[3].

وعلى كل، فإن موسم الحج بالنسبة للمسلمين موسم عبادة، وتجارة فى الوقت نفسه، فقد أحل الله تعالى فيه البيع والشراء[4].

كان من الطبيعي – إذًا – أن يأخذ أهل بلاد ما وراء النهر فى أثناء ذهابهم إلى مكة ما يلزم أهل هذه البلاد من منتجات مختلفة، مثل: المنسوجات، والديباج، والحرير، والمسك وغيرها. ثم يعودون إلى بلادهم بكثير من المنتجات المتنوعة من أسواق مكة. وجدير بالذكر، أنه كان لأهل ترمذ – إحدى مدن طخارستان – بندر بمكة بالقرب من المسجد الحرام. وأشهر من شغل هذا المنصب: أبو الحسن على ابن محمد البندارى[5].

---

(١) د. محمد الوكيل: عناية الإسلام بتخطيط المدن، ص64-66.

(٢) الخطيب البغدادى؛ تاريخ بغداد، جـ1، ص72.

(٣) الإصطخرى: المسالك والممالك، ص163.

(٤) قال تعالى: ﴿وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾ لِّيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ﴾ (سورة الحج، آية 27-28) . قال ابن عباس (رضى الله عنه) : وأما منافع الدنيا فما يصيبون من منافع البُدْن والذبائح والتجارات .ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، جـ3، ص216، الغزالى: الإحياء، جـ1، ص286.

(٥) البُنْدَار: هو – كما قال السمعانى – من يكون مكثرًا من شىء يشترى منه مَنْ هو اقل مالًا، ثم يبيع ما يشترى منه إلى غيره. وهو ما يطلق عليه فى وقتنا الحاضر تاجر الجملة. السمعانى: الأنساب، جـ1، ص402. وقيل:هم تجار يخزنون البضائع للغلاء.ابن منظور:لسان العرب،جـ4،ص81. المعجم الوسيط،جـ1،ص 73.

(ج) العلاقة التجارية مع مصر

كما تمتعت بغداد بشهرة عالمية – أثناء فترة البحث– فقد تمتعت مدن مصر بشهرة لا تقل عن بغداد. وقد سبقت الإشارة إلى أن الإسكندرية كانت تقرر الأسعار إلى جانب بغداد.

ومن المدن الصناعية المهمة بمصر، مدينتا أشمون[١]، ودبيق[٢]، وإلى هاتين المدينتين نُسب الثياب الأشمونى والدبيقى، الذى انتقل من مصر إلى بلاد ما وراء النهر، حتى إنهم كانوا يقلدونها ولا غرابة؛ فقد كانت مصر أعظم مركز لصناعة النسيج فى العالم الإسلامى كله. يقول ابن زولاق : "بلد الأشمونين وما يعمل فيه من الأزر والكتان ، ويحمل إلى سائر الآفاق"[٣] كما تفوقت فى صناعة الأقمشة الصوفية أيضا .ونبغ أهل تنّيس فى صناعة ثوب يسمى البدنة؛ كان الناس يقبلون غلى شرائه لجودته. يقول ابن الفقيه:"ولهم (أهل مصر) الثياب الدبيقية والشطوية....وغير ذلك من أنواع ثياب الكتان والصوف من الأكسية... ولهم الثياب التنيسية والإسكندرانية"[٤]. واشتهرت مصر أيضًا بصناعة المعادن،لاسيما صياغة الذهب والفضة. وأسهم المصريون بسهم وافر فى صناعة الأدوية والعقاقير، وصناعة الزجاج[٥]. ويمتدح الجاحظ صناعة الورق فى مصر ويفضله على سائر البلدان[٦] بالإضافة إلى ذلك، فقد ذكر السمعانى كثيرًا من التجار الذين رحلوا إلى

---

(١) أشمُون: أهل مصر يقولون الأشمُونين. وهى مدينة قديمة أزّلية عامرة آهلة إلى هذه الغاية. وهى كورة من كُوَر الصعيد الأدنى غربى النيل ذات بساتين ونخل كثير سميت باسم عامرها وهو أشمن بن مصر بن بيصر بن حام بن نوح .ياقوت: معجم البلدان جـ 1 ، ص 133 . تقع – حاليًا – فى مركز ملوى بمحافظة المنيا .محمد رمزى:القاموس الجغرافى،جـ1 ،ص 132.

(٢) دَبيق: من قرى مصر بين الفرما وتنيس . تنسب إليها الثياب الدبيقية .ياقوت:نفس المصدر جـ 2 ، ص 214. ويعرف مكانها – حاليًا – بتل (دبقو) أو(دبجو) بالقرب من شاطئ بحيرة المنزلة فى الشمال الشرقى لصان الحجر بمحافظة الشرقية. محمد رمزى: نفس المرجع ،جـ1 ،ص 243.

(٣) فضائل مصر وأخبارها،ص 65.

(٤) مختصر كتاب البلدان،ص251 .

(٥) د .صفى على محمد: مدن مصر الصناعية فى العصر الإسلامى، ص 20 وما بعدها .

(٦) التبصر بالتجارة،ص27 .

مصر، ومنهم: أبو الحسن أحمد بن محمد بن الحسن المعروف بابن أبى نُعيم. سكن بخارى، وكان يتاجر مع أهل مصر[1].

---

(١) أبو الحسين أحمد بن محمد بن الحسن بن حمويه:
كان مولده بجرجان ثم انتقل إلى بخارى وكان يتجر منها إلى مصر، روى عن أبيه، وأبى النضر محمد ابن عبد الله بن المنذر، وبكر بن محمد بن حمدان، وأبى جعفر محمد بن محمد بن جميل، ومات فى جمادى الآخرة سنة389 هـ . السمعانى: الأنساب، جـ1، ص134 .

المبحث الرابع
الصادرات والواردات

لعل أكثر ما يدل على تقدم الحياة الاقتصادية فى بلاد ما وراء النهر، قائمة المنتجات التى تصدرها كل مدينة. ونلخصها فيما يلى:

أولًا: الصادرات

(١) إقليم الصغد

(أ) بخارى: اشتهرت بخارى بتصدير الثياب والبُسُط ، ولما كانت تدبغ فيها الجلود، وخاصة جلود الضأن لذا فقد كانت تصدر أحزمة الخيل، وتصدر اللحم الذى لا نظير له[١]. ومن المعادن: الحديد، والنحاس الأصفر، والزنك، والزئبق والنفط والنوشادر، والرخام وزيت الزاج والفحم الحجرى[٢]. إلى جانب الأحجار الكريمة، ومنها: الذهب والفضة، وحجر البجادى ، وحجر الياسب (الشب)[٣].

ومن المحاصيل الزراعية: البرقوق والعنب والتين والرمّان والتفاح والكمثرى والخوخ والمشمش والبطيخ بنوعيه: الأصفر والأخضر، إلى جانب الحبوب الغذائية؛

(١) المقدسى: أحسن التقاسيم، ص324. لسترنج: بلدان الخلافة الشرقية، ص514.

(٢) الإصطخرى: المسالك والممالك، ص161- 162. ابن حوقل: صورة الأرض، ص380.

(٣) يحيى بن ماسويه: الجواهر، ص56.

ومنها: القمح والشعير والأرز. ومن الرياحين: الورد والبنفسج والآس والنيلوفر وغيرها[١].

(ب) سمرقند: كانت تصدر الثياب السمرقندية، والقدور العظيمة المصنوعة من النحاس، والديباج الذى يحمل إلى بلاد الترك، وثياب حمر تسمى "ممرجل". وتصدر الأخبية، والركب، والسيور، والورق (الكاغد) الذى يحمل منها إلى سائر بلاد الشرق. هذا إلى جانب: تصدير النوشادر الجيد والزئبق[٢].

ومن الحاصلات الزراعية: كانت تصدر البندق، والجوز والعنب. ومن الرياحين: الشاهسفرم، والبطيخ الذى كان يقدد ويحمل إلى بلاد الشام[٣].

(ج) مدن أخرى: ومن مدن إقليم الصغد التى اشتهرت بالتصدير، كرمينية: وكانت تصدر المناديل، ومدينتا دبوسية ووذار: كانتا تصدِّران الثياب الوذارية، ويسمى ديباج خراسان. ومن أربنجن: أزر النساء، واللبود الحمر، والجلود، والقنب، والكبريت[٤]. وكانت كش: تصدر الملح والعقاقير والمنّ المسمى (الترنجبين). واشتهرت نسف (نخشب): بصناعة الذهب وتصديره[٥].

(2) إقليم خوارزم

أما هذا الإقليم فقد احتل المركز الأول فى التصدير. ومن أمثلة ذلك: فراء السمور، وفراء السنجاب. والفنك وجلود الثعالب والشمع والنشاب والقلانس، وغزا السمك، وأسنان السمك (سن فيل البحر)، والكيمخت (جلود الحمر الوحشية) والعسل والبندق والسيوف والدروع والخلنج (نوع من الخشب). والأغنام والبقر والرقيق. والبرود، والفروش، وثياب اللحف والديباج والمقانع والأقفال وثياب آربنج والقسى[٦] التى لا يقوى على شد القوس منها إلا أشد الرجال، والسمك، والسفن.

---

(١) النرشخى: تاريخ بخارى، ص48. القلقشندى: صبح الأعشى، جـ4، ص432.
(٢) الثعالبى: لطائف المعارف، ص219. الجاحظ: التبصر بالتجارة، ص28.
(٣) النويرى: نهاية الأرب، جـ1، ص371. النابلسى: علم الفلاحة، ص137.
(٤) المقدسى: أحسن التقاسيم، ص324.
(٥) مجهول: حدود العالم، ص85. القزوينى: آثار البلاد، ص554.
(٦) المقدسى: المصدر السابق، ص325. لسترنج: بلدان الخلافة الشرقية، ص502.

ومن المحاصيل الزراعية: كانت تصدر الأعناب، والزبيب والسمسم. والبطيخ المسمى (البارنج). وكان يقدد ويحمل إلى الخليفة المأمون والواثق فى بغداد – كما سبقت الإشارة – هذا إلى جانب: العناب والقطن والقمح والأرز والشعير والدُّخن والذرة والتمر وقصب السكر والموز والليمون[١].

(3) إقليم طخارستان

اشتهرت مدينة ترمذ: بتصدير الصابون والسفن. ومدينة ولواليج: بتصدير السمسم ودهنه. ومن الفاكهة: الجوز واللوز والفستق والكمثرى والأرز والحمص، بالإضافة إلى السمن والجبن، وقرون الحيوان وجلود الثعالب. وكانت مدينة الختل: تصدر الخيول والبغال. ومن قرية وخان: المسك والرقيق[٢]، كذلك اشتهر الإقليم بتصدير الأحجار الكريمة، ومنها: الذهب والفضة، والحجر المكى.واشتهرت مدينة بذخشان: بتصدير البلخش (اللَّعْل)، والبجادى، واللازورد. وغيرها من الأحجار التى كانت تصدر إلى سائر الآفاق[٣]. بالإضافة إلى تصدير حجر الفتيلة، الذى كانت تصنع منه فتيلة المصابيح وغطاء الموائد[٤].

ومن المحاصيل الزراعية: كانت مدينة شومان: تصدر الزعفران، ومدينة سمنجان: تصدر القمح والقطن والعنب. ومدينة الطالقان: تصدر القمح والعنب والتين والخوخ والفستق، والسفرجل، ومدينة القواذيان: تصدر القطن والكمون. ومدينة واشجرد: تصدر الزعفران والعنب[٥].

(4) إقليم فرغانة

اشتهر هذا الإقليم بتصدير الرقيق، والثياب الأبيض وآلات السلاح والسيوف والنحاس والحديد[٦]. بالإضافة إلى: الزئبق والرصاص والنفط والزفت والنوشادر

---

(١) الثعالبى: لطائف المعارف، ص226. النويرى: نهاية الأرب، جـ1، ص368- 371.
(٢) المقدسى: أحسن التقاسيم، ص324- 325. لسترنج: بلدان الخلافة الشرقية، ص480.
(٣) مجهول: الأحجار وخواصها، ورقة 40. يحيى بن ماسويه: الجواهر، ص57.
(٤) القزوينى: آثار البلاد، ص306، القلقشندى: صبح الأعشى، جـ4، ص467.
(٥) الإصطخرى: المسالك والممالك، ص156 . مجهول: حدود العالم، ص86.
(٦) بارتولد: تركستان، ص366.

والفحم الحجرى[1]. ومن الأحجار الكريمة: الذهب والفضة والفيروزج وحجر الباذهر، ومن الحاصلات الزراعية: الجوز الذى ربما بيع ألف منه بدرهم. واللوز، وخاصة من قرية كند. وكانت زاركان: تصدر الأرز والورد والبنفسج[2].

(5) إقليم أشروسنة

كانت مدينة ديزك: تصدر اللبود الجيدة والأقبية والرقيق[3]، ومن المعادن: الحديد والنحاس والرصاص والقصدير، بالإضافة إلى النفط، ومن المحاصيل الزراعية: الرياحين والورد والأزهار[4].

(6) إقليم الشاش

كان يصدر سروج الكيمخت (جلود الحمر الوحشية) الرفيعة، والحُباب (الآنية الكبيرة)، والأخبية وجلود تجلب من الترك وتدبغ. والأرز، والبز، والقسى الجيدة[5]، والقطن والمقاريض. وتصدر طراز: جلود الماعز والخيل والبغال. ومن المعادن: الحديد والنحاس الأصفر، والرصاص والزئبق. ومن الأحجار الكريمة: الفيروزج والياقوت[6]. ومن المحاصيل الزراعية: الكروم والرياحين[7].

ثانيًا: الواردات

لا أعنى هنا بالواردات، الأشياء التى تستوردها بلاد ما وراء النهر من البلدان المجاورة لها فقط، بل يدخل ضمنها الأشياء التى تحصل عليها من هذه البلدان، ثم تأخذ طريقها - عبر القوافل - إلى بغداد حاضرة العباسيين.

(١) القلقشندى: صبح الأعشى، جـ2، ص103.

(٢) القزوينى: آثار البلاد، ص603. ياقوت: معجم البلدان، جـ3، ص428.

(٣) لسترنج: بلدان الخلافة الشرقية، ص531.

(٤) الإصطخرى: المسالك والممالك، ص325.

(٥) المقدسى: أحسن التقاسيم، ص325.

(٦) يحيى بن ماسويه: الجواهر، ص45.

(٧) ابن حوقل: صورة الأرض، ص418، الإدريسى: نزهة المشتاق، جـ2، ص703.

والآن، أعرض لبعض السلع التى كانت تأتى من آسيا إلى بغداد عن طريق بخارى وسمرقند، تلك المحطة المهمة على الطريق، أولاً، والتى كانت فى الوقت نفسه مستودعًا يماد فيه شحن وتفريغ البضائع ثانيًا.

أولًا: التوابل: للتوابل أنواع كثيرة، أخص منها بالذكر، تلك التوابل التى كانت تنقل عبر الطريق البرى (طريق الحرير)، أعنى ما يمر على بخارى وسمرقند، ومنها:

(1) القرفة: كان للقرفة أهمية كبيرة، فتحتوى أزهارها وأوراقها على زيت أثيرى وكانت تستعمل كذلك فى المطبخ لتتبيل الطعام. وكان الأطباء يوافقون على أن يكون لدى العطارين دائمًا زاد من القرفة. وكانت تستعمل على نطاق واسع القرفة المسحوقة المستخدمة فى الأطعمة، أو فى إعداد النبيذ المعطر فى أوربا، كل هذا جعل القرفة مطلوبة فى التجارة، لذا فكان التجار يواصلون رحلاتهم إلى داخل القارة الآسيوية، وكانوا يشترونها من سمرقند[1]. وتصدر إلى بغداد؛ ومنها ما كان يباع فى أسواق الإسكندرية.

(2) الزنجبيل: كان الزنجبيل على شكلين: إما أخضر، وإما محفوظٌ وكان الهنود يعدون منه المستحضرات المحفوظة. وعرفه العرب باسم "زنجبيلة"، وكان يستعمل فى الطهى مع اللحوم والأسماك، كنوع من التوابل؛ لذا فقد كثر الطلب عليه، وشاع كاستعمال الفلفل .وكان الزنجبيل يرد من الهند والصين، ويباع فى أسواق سمرقند، ومنها إلى بغداد[2]، ثم إلى سائر العالم.

(3) الترنجين (عسل الندى): كان ينتج فى بخارى، ومنها كان يصدر تجاريًا إلى أسواق سمرقند، وكان الأطباء العرب، يعرفون مصدره، ويقدرون أهميته؛ لذا فكان التجار يجلبونه من بلاد ما وراء النهر ليباع فى أسواق بغداد وسوريا[3].

---

(1) أبى دلف: الرحلة، ص63. هايد: تاريخ التجارة، جـ4، ص96- 110 د شوقى عثمان: تجارة المحيط الهندى ،ص 217 .

(2) أبى دلف: نفس المصدر، ص59.

(3) هايد: نفس المرجع والجزء، ص137.

(4) جوزة الطيب: كان هذا المحصول يستخرج من بلاد الهند؛ وبلاد الهند الصينية. وكانت جوزة الطيب ضمن التوابل التى يفضل للحصول عليها دفع نفقات النقل فقد توافرت فى أسواق سمرقند؛ ومنها كانت تحمل إلى بغداد.

(5) الرواند الصينى: هو: نبات يأتى من الصين؛ وكان يباع عند العرب، ويعرف باسم(رواند فارس)، أو (راوند الترك). وذلك لأنه يرد عن طريق هذه البلاد، حيث كان هذا النبات يأتى من الصين عن طريق جبال تيان شان، ثم يصل إلى مدينة كاشغر، ومن هناك يحمل إلى أسواق بخارى وسمرقند، ومنها يحمل إلى هراة[١]، حتى يصل فى النهاية إلى أسواق بغداد.

(6) المسك: ويلحق بالتوابل تجارة المسك؛ وهو عبارة عن عطر نافذ. وكما هو معروف فالمسك مادة حيوانية يفرزها حيوان يسمى "أُيِّل المسك" الذكر. وكان أيل المسك يعيش فى المنطقة الواقعة بين هضبة التُّبت والصين[٢]. وكان العرب من كبار هواة العطر، فكانوا يستوردونه بطرق متعددة، من أهمها: مسك هضبة وسط آسيا والذى كان من الطبيعى أن يمر على مدينة ختن وطخارستان. ومنها ينحدر إلى بخارى. وأما مسك الصين: فكان يصدر عن طريق أسواق سمرقند ومن أسواق المدينتين – بخارى وسمرقند – كان يُحمل مسك التبت والصين إلى أسواق بغداد[٣].

ثانيًا: الأحجار الكريمة

أعرض الآن نماذج لبعض الأحجار الكريمة التى تصدر عن طريق بخارى وسمرقند، وأهمها:

(١) اللؤلؤ:حيوان بحرى[٤] كانت مصائده متركزة فى الخليج الفارسى (العربى حاليًا) وكانت سمرقند، على اتصال دائم بالخليج الفارسى؛ لذا فقد كانت سمرقند

---

(١) الجاحظ:التبصر بالتجارة،ص 17 .

(٢) المسعودى: مروج الذهب، جـ1، ص143.

(٣) هايد: المرجع السابق، نفس الجزء، ص143.

(٤) عن طريقة استخراج اللؤلؤ بالتفصيل انظر: المسعودى: المرجع السابق، جـ1، ص134. وآدم متز: الحضارة الإسلامية، جـ2، ص241– 243.

سوقًا رئيسًا لتجارة اللؤلؤ فى آسيا الوسطى وكان يحمل منها إلى بلاد الهند والصين[1].

(2) الفيروز: كان هذا المعدن متوافرًا بكثرة فى المناطق الجبلية فى مناطق فرغانة وبذخشان ومن هذه المناطق كان يُحمل إلى أسواق سمرقند، ويصدر إلى أسواق بغداد.

(3) اللازورد (الياقوت الأزرق): كان يستخرج من إقليم طخارستان، وكان يستعمل فى الزينة والأصباغ. لذا فقد حظى هذا الحجر بالتقدير فى مختلف الدول، وكثر انطلب عليه. فكان يحمل من أسواق سمرقند إلى أسواق بغداد[٢].

(4) البلخش أو اللَّعْل (الياقوت الأحمر): كانت المناطق الجبلية الواقعة فى شرق بذخشان - بطخارستان - يستخرج منها هذا الحجر. وكان الولاة يحتفظون لأنفسهم بالحق المطلق فى التصرف فى محصولها، ولا يتركون للتجارة إلا مقادير صغيرة منها. وهى - بلا شك -. طريقة ممتازة للحفاظ على سعر مرتفع لهذا الحجر، ومن ثم كان هذا الحجر نادرًا للغاية ومطلوبًا بشدة. وكانت الأسواق الرئيسة التى تمارس فيها تجارة هذا الحجر[٣]، أسواق: سمرقند، وفارس، وبغداد، والإسكندرية.

(5) الزجاج: إذا كان الزجاج لا يدخل ضمن الأحجار الكريمة، فإنه كان - غالبًا - يصدر مع القوافل التى كانت تحمل الأحجار الكريمة.

على كل حال، تمتعت البلاد الشرقية، وخاصة بلاد الصين، بشهرة واسعة فى صناعة الزجاج[٤]، وقد استخدمت المصنوعات الزجاجية البديعة ذات الأشكال المتنوعة، والتى كان الأثرياء يحبون تزيين بيوتهم بها. ومن هذه الأشياء: الأقداح، والقوارير، والأطباق الزجاجية الملونة أو المزخرفة[٥]. وكل هذا كان ينتقل من سمرقند إلى أسواق بغداد[٦].

---

(١) الجاحظ :التبصر بالتجارة،ص 12 . هايد: نفس المرجع، ونفس الجزء، ص175.

(٢) الجاحظ:نفس المرجع ،ص15 . هايد: نفس المرجع والجزء، ص160.

(٣) الجاحظ :نفس المرجع ص 13 . هايد، نفس المرجع، والجزء، ص165.

(٤) ابن الفقيه:مختصر كتاب البلدان، ص251 . د. زكى محمد حسن: الفنون الإيرانية، ص295.

(٥) هايد: المرجع السابق، نفس الجزء، ص223.

(٦) الثعالبى: لطائف المعارف، ص220. د. سعاد ماهر: الفنون الإسلامية، ص250.

ثالثًا: المنسوجات

احتلت تجارة المنسوجات مكانة كبيرة فى التجارة الدولية، نذكر بعض النماذج لها. وهى كالتالى:

(1) الحرير: سبقت الإشارة كثيرًا عن هذا المنتج، ونضيف إلى ما سبق، أن موطنه الأصلى بلاد الصين[١]. وقد حظى بشهرة عالمية سواء فى آسيا أو فى أوربا. ثم أخذت بلاد الصغد عن الصينيين طريقة صناعته، وكان يسمى عندهم (مردا كاسيا). وعندما زاد الترف والنعيم فى الدولة العباسية زاد إقبال الناس عليه؛ مما شجع التجار على تحمل المصاعب والمشاق فى حمل هذا المنتج إلى أسواق بغداد. ولأن هذا الحرير كان يصدر عن طريق القوافل المتخذة من الطريق الأوسط عبر آسيا الوسطى طريقًا لها، لذا فسمى بطريق الحرير[٢].

(2) بروكار (محرمة بالعربية): كان يصنع هذا المنتج فى بلاد الصين. ومنها كان يحمل إلى أسواق سمرقند ثم إلى أسواق بغداد. والجدير بالذكر، أن صناعة هذا المنتج قد انتقلت إلى بغداد، وأقيمت بها المصانع لإنتاج هذا النوع من القماش الذى أخذ اسمه العربى "محرمة"[٣].

(3) التفتا: هذا الاسم يدل على أصله الفارسى. وقد وجد فى أسواق سمرقند، ومنها كان يحمل إلى أسواق بغداد. ثم أقيمت له المصانع هناك.

(4) زيتونة: كلمة زيتونى، كانت تستعمل كنعت للدلالة على أطلس (ساتانا)، ثم أصبح علمًا على قماش حرير من نوع خاص مهما كان مصدره، وكان ينتج فى الصين وظهر فى أسواق سمرقند باسم ستونس[٤] Setunis. ومنها كان يصدر إلى بغداد. وهناك أقيمت له المصانع فى دار الخلافة العباسية[5].

---

(١) لمزيد من التفاصيل انظر: الجاحظ :التبصر بالتجارة ،ص26 . براونستون: طريق الحرير، ص70-71.

(٢) هايد: تاريخ التجارة، جـ4، ص183. د. سعاد ماهر: الفنون الإسلامية، ص106.

(٣) هايد: نفس المرجع ونفس الجزء، ص212.

(٤) هايد: نفس المرجع، ونفس الجزء، ص214. ديماند: الفنون الإسلامية، ص258.

(٥) ابن طيفور: كتاب بغداد، ص147.

رابعًا: الرقيق

كانت تجارة الرقيق من أهم السلع الرئيسة التى كانت تقدمها مناطق آسيا للتجار العرب. وبزيادة الترف فى أنحاء الدولة العباسية كثر الطلب عليهم. فكانت الجوارى يعملن فى البيوت، ثم يتخذن سرارى. ويثنى الجاحظ فى رسالته الممتعة عن الجوارى والغلمان على رقيق بلاد ما وراء النهر[1]. وابن فضلان الطبيب البغدادى يؤلف رسالة تحت عنوان: "رسالة جامعة لفنون نافعة فى شرَى الرقيق وتقليب العبيد" يثنى فيها على جوارى البلاد الشرقية لدولة الخلافة العباسية[2].

بمثل هذه الأوصاف التى تأخذ - عادة - بلب الرجال ؛ كثر الطلب على الجوارى من بلاد ما وراء النهر. والدليل، أننا نقرأ كثيرًا أن معظم أمهات الخلفاء العباسيين من هذه المنطقة. فقد ذكر ابن الجوزى أن صالحًا ابن الخليفة المنصور كانت أمّه أَمَة من بلاد الصغد[3]. والطبرى يذكر أن أم الخليفة المعتصم العباسى كانت صغدية[4] تسمى ماردة. والمسعودى يذكر أيضًا أن أم الخليفة المتوكل كانت من طخارستان[5] تسمى شجاع[6]. وكما زاد الطلب على الجوارى، فقد زاد أكثر على الرجال الذين كانوا يستقدمون للخدمة. خاصة وقد فُضِّل الأتراك على سائر

---

(١) يقول: "إن ريح الجارية أطيب، وثيابها أعطر، ومشيتها أحسن، ونغمتها أرق. والقلوب إليها أميل". رسائل الجاحظ - رسالة فى مفاخرة الجوارى والغلمان، جـ2، ص97.

(٢) يقول: "وهذه البلاد ألوان أهلها بيض. مُشْربة حمرة، وأجسامهم خصبة، وأصواتهم صافية وأمراضهم قليلة، وصورهم جميلة، وأخلاقهم كريمة، ثم يقول عن التركيات: "قد جمعن الحسن والبياض والنعمة، ووجوههن مائلة إلى الجهامة، وعيونهن مع صغرها ذات حلاوة، وقد يوجد فيهن السمراء الأسيلة، وقدودهن ما بين الربع والقصر، والطول فيهن قليل. ومليحتهن غاية، وهنَّ كنوز الأولاد، ومعادن النسل، قل ما يتفق فى أولادهن وحش، ولا ردىء التركيب، وفيهن نظافة ولباقة" ثم يوصى "من أراد الجارية للولد فليتخذها فارسية". ابن بطلان: (أبو الحسن المختار بن الحسن بن عبدون. ت444هـ): نوادر المخطوطات، تحقيق عبد السلام هارون، الخانجى، القاهرة، 1392هـ/ 1972م، جـ1، ص372.

(٣) المنتظم، جـ7، ص336.

(٤) تاريخ الأمم، جـ5، ص273.

(٥) التنبيه والأشراف، دار ومكتبة الهلال، بيروت، 1981م، ص329.

(٦) شجاع: أم الخليفة المتوكل، اتصفت هذه السيدة بالسخاء والكرم، وكانت وافرة السماحة، شديدة الرغبة فى فعل الخير، توفيت عام 247هـ/861 م، وصلى عليها الخليفة محمد المنتصر، ودفنت ببغداد. ابن الجوزى: المنتظم، جـ11 ص346- 350. ابن خلكان: وفيات الأعيان، جـ1، ص326.

الأجناس الأخرى وذلك لما امتازوا به من قوة عسكرية، وكفاءة قتالية فقد كانوا فرسانًا، ورماة ممتازين. يتصفون بالشجاعة والوفاء، وفى الوقت نفسه كانوا قد تمرسوا على المصاعب والمكاره خلال حياتهم القاسية فى الصحراء[1].

والجدير بالذكر، أن جميع المصادر التاريخية كانت تثنى على هؤلاء الرجال والجاحظ يؤلف رسالة تحمل عنوان "مناقب الترك، وعامة جند الخلافة" ذكر فيها أوصاف هؤلاء الأتراك، وفضلهم على سائر الأجناس الأخرى ومما جاء فيها: "والتركى إذا أدبر فهو السم الناقع، والحتف القاضى، لأنه يصيب بسهمه وهو مدبر كما يصيب به وهو مقبل"[2]. وهكذا فالرسالة من أولها إلى آخرها ثناء على هؤلاء الأتراك. وليس المجال هنا تفصيل هذه الرسالة[3].

ولم يكن الجاحظ هو الكاتب الوحيد الذى يثنى على هؤلاء الأتراك، فابن فضلان يقول عنهم: "من أراد الرجال للحرب والشجاعة، فالترك والصقالبة... هم رجال الحرب والنجدة،... هؤلاء عراض الصدور وشجعان"[4]. ويقول صاحب "هداية المريد فى تقليب العبيد": "اطلب من العبيد من كان حسن الانقياد، قوى الجسم، شديد الحياء"[5] وهو يعنى بذلك الأتراك. والإصطخرى يفصل المسألة أكثر، ويثنى - أيضًا - على هؤلاء الأتراك فى جمل طويلة نقتبس منها، قوله: "وهم أحسن الناس طاعة لكبرائهم، وألطفهم خدمة لعظمائهم وفيما بينهم، حتى دعا ذلك الخلفاء إلى أن استدعوا مما وراء النهر رجالًا، وكانت الأتراك جيوشهم لفضلهم على سائر الأجناس فى البأس والجرأة والشجاعة والإقدام.... فصاروا حاشية الخلافة وثقاتهم ورؤساء عساكرهم مثل الفراغنة والأتراك، الذين هم شحنة دار الخلافة"[6].

---

(١) شاخت: تراث الإسلام، جـ1، ص79.

(٢) مناقب الترك، ص45- 46.

(٣) لمزيد من التفاصيل، انظر: أحمد أمين: ضحى الإسلام، جـ1، ص77. وكتابه: ظُهر الإسلام، جـ1، ص14- 17.

(٤) رسالة جامعة لفنون نافعة، ص352، 372، 387.

(٥) محمد الغزالى (من علماء العصر العثمانى ولم أعثر على ترجمة له): هداية المريد فى تقليب العبيد. نوادر المخطوطات، جـ1، ص407. .

(٦) المسالك والممالك، ص163. ابن حوقل: صورة الأرض، ص385.

وهكذا؛ زاد الطلب على الأتراك للانتفاع بهم فى دار الخلافة العباسية، فأضحت بلاد ما وراء النهر هى أكبر المصادر للحصول على هؤلاء. يقول الإصطخرى: "فإنه يقع إليهم (أى سكان بلاد ما وراء النهر) من الأتراك المحيطة بهم ما يفضل عن كفايتهم، وينقل إلى الآفاق من بلادهم، وهو خير رقيق يحيط بالمشرق كله"[1]. واشتهرت سمرقند بأنها أكبر سوق للرقيق الأبيض. فكان يأتى إليها رقيق تركستان والصقالبة والخزر وغيرهم وقد اتخذ بعض سكانها تربية الرقيق وتهذيبهم صناعة يعيشون منها[2]. ومن هذه الأسواق كان الرقيق يصدر إلى أسواق بغداد.

ولنا سؤال، إذا كان لرقيق بلاد ما وراء النهر كل هذه الأهمية، فكم يبلغ ثمن العبد الواحد منهم؟ أو بصيغة أخرى: بكم يباع العبد فى أسواق بغداد؟

للأسف، لم تمدنا المصادر التاريخية بما يفيدنا فى معرفة ذلك، ولكن ابن خرداذبة أورد لنا فى قائمة الخراج، أن قيمة ألفَىْ رأس من الرقيق التى كان يرسلها الطاهريون سنويًا إلى دار الخلافة بلغت ستمائة ألف درهم[3]. وبعملية حسابية بسيطة، وهى قسمة ستمائة ألف درهم على ألفى رأس (2000/600,000) يتضح لنا أن العبد التركى كان يباع فى أسواق بغداد بنحو ثلاثمائة درهم فى المتوسط.

دور الأتراك فى الحياة السياسية

سبق القول عند الحديث عن استقرار العرب فى بلاد ما وراء النهر، أن عبيد الله بن زياد، استكثر من شراء العبيد، خاصة من أهل بخارى وأنه أسكنهم البصرة فى مكان عرف باسم البخارية، وبمرور الوقت كثر العبيد، حتى صارت الخلافة الأموية تعتمد عليهم فى القضاء على الثورات[4] التى تنشب ضدهم فى أنحاء الخلافة.

---

(١) الإصطخرى: نفس المصدر، ص162.

(٢) آدم متز: الحضارة الإسلامية، جـ2، ص268- 270.

(٣) المسالك والممالك، ص39.

(٤) ابن قتيبة: عيون الأخبار، جـ1، ص132.

ثم أخذ عنصر الأتراك فى الظهور فى البلاط العباسى، فوجد فى بلاط المنصور (136- 158هـ/753- 774م) نواة بسيطة منهم، ثم اقتنى المأمون (198-218هـ/813- 833م) عددًا قليلًا منهم. ومن هؤلاء رجل يسمى طولون، أهداه عامل بخارى إلى المأمون. وطولون هذا هو أبو أحمد بن طولون[1] مؤسس الدولة الطولونية فى مصر (254- 292هـ/868- 905م). وفى خلافة المعتصم العباسى (218- 227هـ/833- 841م) توسع فى شراء العبيد من فرغانة وأشروسنة - لأسباب يطول شرحها[2] - حتى بلغ عددهم سبعين ألفًا على قول المسعودى[3]، ثم زاد عددهم حتى وصل إلى مائة ألف على قول ابن الجوزى والسيوطى[4].

هذا؛ وقد حرص الخليفة المعتصم على أن تبقى دماء هؤلاء العبيد متميزة، فجلب لهم نساء من جنسهم، ومنعهم أن يتزوجوا من غيرهن، وأنفق عليهم الخليفة بسخاء، واعتنى بزيهم، فألبسهم الديباج، والمناطق الذهبية، واتخذ لهم ثكنات عسكرية خاصة بهم يعيشون فيها، وظهر كثير من القادة العظام من هؤلاء الأتراك، ومنهم: الأفشين، والإخشيد حاكم مصر، وعجيف بن عنبسة، وغيرهم.

وبمرور الوقت أصبح هؤلاء الترك هم قادة الجيش العباسى، وأصبح لهم مركزٌ فى مجال السياسة والحرب، وعلا شأن هؤلاء، وأَدَرَّ عليهم الخليفة الهبات والأرزاق، وآثرهم على باقى العناصر الأخرى - من العرب والفرس والمغاربة - غير أنهم استغلوا هذه المميزات بطريقة سيئة فساروا فى شوارع بغداد راكبين خيولهم دون أن يعبئُوا بالمارة، فيصدمون شيخًا ضعيفًا، أو امرأة عجوزًا، حتى تأذى أهل بغداد من ذلك، ورفعوا شكاياتهم[5] إلى الخليفة المعتصم، الذى خاف من ثورة أهل بغداد

---

(١) البلوى: سيرة أحمد بن طولون، ص33، ابن خلكان: وفيات الأعيان، جـ1، ص184. المقريزى: الخطط، جـ2، ص104.

(٢) انظر، التفاصيل د.عبد العزيز الدورى :العصر العباسى الأول ،ص 32 د.أحمد شلبى :الخلافة العباسية ،جـ3 ،ص 194-195 .

(٣) مروج الذهب، جـ4، ص53.

(٤) ابن الجوزى: المنتظم، جـ11، ص127. السيوطى: تاريخ الخلفاء، ص336.

(٥) ياقوت الحموى: معجم البلدان، جـ3، ص11. ابن طباطبا: الفخرى فى الآداب السلطانية، ص231.

ضده، فاتخذ موضعًا بنى فيه حاضرة جديدة له ولجنده، هى مدينة سامراء[١].

وهكذا، زاد نفوذ الأتراك، وأصبحوا يمثلون خطرًا حقيقيًا حتى على الخليفة نفسه، ويبدو أن المعتصم قد أبدى أسفه على اصطناع هؤلاء الترك[٢]، ولكن بعد فوات الأوان.

ثم يأتى الخليفة الواثق (227- 232هـ/841- 846م) فيزيد الأمر سوءًا ويوسع الهوة أكثر، فيكثر من شراء الأتراك، فكانت النتيجة أن ضعفت هيبة الخلفاء، حتى قام الأتراك بقتل المتوكل، والمنتصر، والمستعين، والمعتز، وبدأت مرحلة جديدة فى تاريخ الدولة العباسية، عرفت عند المؤرخين "بعصر نفوذ الأتراك"[٣].

وخلاصة القول؛ إن بلاد ما وراء النهر كانت المستودع الكبير للبضائع على الطرق التى تربط بين قارة آسيا وأوربا. فكانت هذه البلاد بمثابة حلقة الوصل على هذا الطريق التجارى الكبير، وازدهرت تجارتها الخارجية بفضل موقعها الجغرافى، ونشاط سكانها. وكثرة إنتاجهم [٤].

---

(١) الإصطخرى: المسالك والممالك، ص60.

(٢) التفاصيل فى الطبرى: تاريخ الأمم، جـ5، ص272.

(٣) د.أحمد الشريف :العالم الإسلامى فى العصر العباسى (العصر العباسى الثانى)، ص313 وما بعدها.

(٤) فى ختام هذا النصل نُذكّر أن دول آسيا الوسطى تفكر بقوة فى إعادة تشغيل طريق الحرير مرة ثانية، بوسائل المواصلات العصرية وقد رفعت الأمر إلى الأمم المتحدة. وبالفعل فى الثالث عشر من مايو 1996م اجتمعت وفود أربعين دولة فى إيران، بينهم رؤساء دول آسيا الوسطى، وكان هدف الاجتماع إعلان قيام "طريق الحرير الجديد". من خلال خط السكك الحديدية الإيرانية التركمانية، الذى يكمل شبكة سكك حديد آسيا، ويُحيى طريق الحرير الذى يربط بين بكين شرقًا، والبحر المتوسط. وقد وصف رئيس الوزراء الصينى (لى بينج) هذا الخط بأنه: "طريق الحرير للقرن الحادى والعشرين". (براونستون: طريق الحرير، ص7 وما بعدها) . وقد افتُتح مؤخرًا جزء من هذا الطريق يبلغ طوله 165 كيلومترًا، وهو يربط بين سرخس ومشهد، ومعه شبكة السكك الحديدية التى تربط بين دول آسيا.

الفصل الثامن

"النظام المالى"

المبحث الأول: نظام الضرائب (المكوس):

المبحث الثانى: العملة الإسلامية (السّكة):

(أ) الدراهم الغطريفية.

(ب) الدراهم المحمدية.

(ج) الدراهم المسيبية.

(د) دار الضرب.

المبحث الثالث: الخراج:

(أ) خراج خراسان.

(ب) خراج بلاد ما وراء النهر.

التمهيد

لا أقصد هنا بالنظام المالى، موارد بيت المال المختلفة من: زكاة وجزية أو فىء... إلى آخره، لأن ذلك مبسوط فى كتب الفقه والحضارة الإسلامية[١]. هذا أولاً. وثانيًا: لأن المصادر الإسلامية لم تمدنا بمزيد من المعلومات حول هذه الأشياء فى بلاد ما وراء النهر. ولكننى أستطيع القول: إن بيت المال فى هذه البلاد لا يختلف مطلقًا عن أى بيت مال آخر فى الدولة الإسلامية. أعنى من حيث الموارد والمصارف. وسوف أقصر القول فى هذا الفصل على ثلاثة أمور مهمة، وهى كالتالى:

المبحث الأول
" نظام الضرائب (المكوس) "

تعد المكوس[٢] إحدى موارد بيت المال؛ وهى ضريبة تفرض على التجار المسلمين، وغير المسلمين، فى مقابل مرور بضائعهم عبر الدولة الإسلامية. وبخصوص بلاد ما وراء النهر، فإن سواد الشعب قد تحسنت أحواله المعيشية بدرجة ملحوظة. ويرجع

---

(١) الماوردى: الأحكام السلطانية، ص220 وما بعدها. د. أبو زيد شلبى: تاريخ الحضارة الإسلامية، ص313.

(٢) عرف المقريزى المكس بأنه: دراهم تؤخذ من بائع السلع فى الأسواق فى الجاهلية وأصل المكس فى اللغة: الجباية. (الخطط، جـ2، ص 368) . الخوارزمى: مفاتيح العلوم، ص59. بينما يذكر كاهن بأن كلمة مكس، هى: كلمة من أصل آرامى استعملها اليهود بمعنى: دفع الضرائب. د. عطية القوصى: تجارة مصر فى البحر الأحمر، ص232، حاشية (2).

ذلك: إلى استتباب الأمن فى أغلب الأوقات، وتقدم الصناعة، وازدهار التجارة، ثم يضاف إلى ذلك أن الضرائب والعوائد كانت قليلة، كما يقول المقدسى[1]. وأكبر دليل على ذلك قائمة الصادرات التى تحدثت عنها فى الفصل السابق.

هذا؛ وكانت الضرائب تجمع عادة فى بلاد ما وراء النهر عند معابر نهر جيحون وذلك بمقدار درهمين على الحمل، ودرهم على أمتعة الراكب سواء أكان ممتطيًا جوادًا أم حمارًا. وكانوا يركزون فى التفتيش على الفضة، وغالبًا ما كانت ترد إلى بخارى كى تصنع منها الدراهم. وإن كانت هذه الفضة قليلة، فيجبى عليها غالبًا ما بين درهم إلى نصف درهم.

المبحث الثانى

" العملة (السّكة)[2]"

لم تكن العملات فى أنحاء الدولة الإسلامية موحدة، ففى البلاد الإسلامية - التى كانت تخضع للدولة الرومانية كالشام ومصر مثلًا - شاع فيها استعمال الدنانير الذهبية. أما فى بلاد فارس والعراق فكانت عملتها الدراهم[3] الفضية. ومنذ قام عبد الملك بن مروان بسك العملة (ضرب الدنانير) أخذت العملة الجديدة تنتشر فى بلدان الخلافة الإسلامية. ومع ذلك فقد ظلت البلاد الإسلامية الشرقية (خراسان وبلاد ما وراء النهر) تتعامل بالدراهم الفضية. يقول الإصطخرى: "إن نقود أهل بخارى الدراهم، ولا يتعاملون بالدينار فيما بينهم"[4].

هذا؛ وقد ظهرت فى بلاد ما وراء النهر فى ظل الخلافة العباسية ثلاثة أنواع من الدراهم، وهى:

---

(١) أحسن التقاسيم، ص340.

(٢) السّكة: يعرفها الماوردى بأنها: "الحديد التى يطبع عليها الدراهم، ولذلك سميت الدراهم المضروبة السكة" (الأحكام السلطانية، ص 147) . ويعرفها ابن خلدون بقوله: "الختم على الدنانير والدراهم المتعامل بها بين الناس بطابع حديد ينقش فيه صور أو كلمات مقلوبة، ويضرب بها الدينار والدرهم، فتخرج رسوم تلك النقوش عليها ظاهرة مستقيمة". (المقدمة، جـ2، ص612- 664) .

(٣) يحيى بن آدم: الخراج، ص71.

(٤) المسالك والممالك، ص175.

(أ) الدراهم الغطريفية

نسبة إلى غطريف بن عطاء، أمير خراسان عام (175)[1]، وخال أمير المؤمنين هارون الرشيد (149- 193هـ/766- 809م). أعطاه ولاية خراسان، وعزل عنها العباس ابن جعفر بن محمد بن الأشعث.

كانت العملة المتداولة فى بخارى عليها صورة (بخار خدات)، وهى التى ضربت قبل الفتح الإسلامى ، ولكنها صارت قليلة بينهم وحلت محلها عملة خوارزم. فشكا أهل بخارى إلى الوالى الجديد غطريف بن عطاء، وطلبوا منه أن يسك لهم نقودًا من الفضة على هيئة دراهم بخارى القديمة، على أن يقتصر التعامل بها محليًا، ولا تخرج من بلدهم.

ونظرًا لارتفاع سعر الفضة، فى هذا الوقت - كما يقول النرشخى - فقد اتفق غطريف مع الأهالي[2] على سك عملة من خليط مركب من ستة معادن. وهى: الذهب والفضة والرصاص والقصدير والحديد والنحاس[3]. وبالفعل تم سك الدراهم الجديدة، والتى حملت اسم الوالى الجديد غطريف بن عطاء، ونسبت إليه، فصارت تعرف بـ"الدراهم الغطريفية" ويقال لها - أيضًا - "الغدرفى"[4] ويذكر ياقوت أن "سكتها تصاوير وهى من ضرب الإسلام"[5].

ومن الغريب، أن أهل بخارى رفضوا التعامل بهذه الدراهم، والتى سميت بـ"الدراهم السوداء". ولعلها سميت بذلك لقلة الفضة بها لذا فكانت تبدو سوداء. ولكن الوالى غطريف أجبرهم على ذلك وفرض عليهم سعرًا إجباريًا؛ حيث جعل ما قيمته ستة دراهم غطريفية مساويًا لدرهم واحد من الفضة الخالصة[6]. وقَبِلَ منهم دفع الخراج بهذه الدراهم الجديدة "الغطريفية".

(١) يذكر النرشخى أنه تولى عام (185هـ). تاريخ بخارى ، ص21.

(٢) نفس المصدر، ص62. وسوف أناقش هذا الرأى بعد قليل.

(٣) ابن فضلان: الرحلة، ص79.

(٤) السمعانى: الأنساب، جـ4، ص302.

(٥) ياقوت: معجم البلدان، جـ1، ص281.

(٦) القلقشندى: صبح الأعشى، جـ4، ص445.

كان خراج بخارى، ونواحيها فى ذلك الوقت لا يتجاوز المائتى ألف درهم ونتيجة استخدام العملة الجديدة ارتفع إلى: (مليون، وثمانية وستين ألفًا، وخمسمائة وسبعة وستين) (567, 068, 1). درهمًا غطريفيًا. وذلك وفقًا لقول النرشخى[١]. وبعد وقت قصير ارتفع سعر الدرهم الغطريفى، حتى صار يعادل درهم الفضة الخالصة وفى الوقت نفسه لم يُخفض أو يُعدّل - خراج بخارى. وعلى ذلك فقد وجد الناس أنهم يدفعون ستة أضعاف ما كانوا يدفعونه من قبل.

وللأسف لم تذكر لنا المصادر التاريخية - على قدر علمى - سبب ارتفاع سعر الدرهم الغطريفى لهذه الدرجة، وليس لدينا - كذلك - معلومات تفيدنا فى تحديد نسبة التبايع بين الدراهم الغطريفية، والدنانير المستخدمة فى بغداد. حتى نستطيع عقد المقارنة.

وأظن أن المسألة تحتاج إلى مناقشة، أحاول فيها تحليل نص النرشخى السابق، لنصل فى النهاية إلى نتيجة مرضية وفقًا للبحث التاريخى:

أولًا: يفهم من رواية النرشخى - السابقة - أن أهل بخارى هم الذين طلبوا من الوالى غطريف بن عطاء، أن يضرب لهم عُمْلة محلية خاصة بهم، لا تخرج من بلدهم. وذلك على غرار عملة أهل خوارزم، والتى قال عنها المقدسى: "وجعلوا الدرهم أربعة دوانق لئلا يخرجها التجار من عندهم. فإلى اليوم الفضة تحمل إليهم، ولا تخرج من عندهم"[٢].

وبالفعل، استجاب الوالى غطريف لهم وضرب العملة الجديدة، واستبدل بالفضة الخالصة خليطًا من ستة معادن كما سبق القول، ويزيد السمعانى: أنه طيَّبها بالمسك[٣].

إذًا، لم يكن السبب فى استخدام هذه المعادن؛ قلة الفضة، أو غلاء سعرها. كما يقول النرشخى. بل كان السبب هو الحد من تداول العملة الجديدة بحيث لا تخرج من بخارى. كما قرر ذلك القول الإصطخرى فى موضع آخر. حيث قال: "وكانت الفضة فى الدرهم الغطريفى أكثر من الأخلاط (المعادن) الأخرى. وقيل إنه كان

---

(١) تاريخ بخارى، ص63.

(٢) أحسن التقاسيم، ص286.

(٣) الأنساب، جـ4، ص302.

فى كل درهم قدر من الذهب"[1]. وعلى ذلك، فإنه لم يكن هناك ما يبرر رفض أهل بخارى للعملة الجديدة، وأعنى بها الدرهم الغطريفى. إذًا أقول بضعف رواية النرشخى،لأنه يناقض نفسه .

ثانيًا: قلت أيضًا، إن المصادر التاريخية لم تذكر لنا أسباب ظاهرة ارتفاع سعر الدرهم الغطريفى، بحيث صار يعادل درهم الفضة الخالصة، ولكن يبدو لى أن سبب ذلك كان يرجع إلى انخفاض قيمة الدرهم الأبيض – المضروب من الفضة الخالصة – وذلك لكثرة استعماله وقدمه. "ولئن صح بعد كل هذا أن تحديد الأرقام المتعلقة بالخراج قد تم على أساس الدرهم الغطريفى. فإنه يصبح من غير الممكن أن يتوقع من الدولة تخفيضها بسبب ارتفاع الدرهم الغطريفي[2]. أو بصيغة أخرى، بسبب انخفاض قيمة الدراهم البيض. ومما يرجح هذا التعليل، ما يفهم من قول المقدسى: إن الدراهم السود المتداولة ببلاد ما وراء النهر هى وحدها التى كانت لها الأفضلية هناك على الدراهم البيض. ونص المقدسى هو: "هذه الدراهم وهى سود، على عمل الفلوس. لا تنفق إلا بهيطل. ولها فضل على (الدراهم) البيض"[3].

(ب) الدراهم المحمدية

ظهر إلى جانب الدراهم الغطريفية، ما يعرف باسم "الدراهم المحمدية" ووفقًا لرواية الكرديزى، فإن هذه الدراهم منسوبة إلى شخص يدعى "محمد بن زبيدة"[4]، ولعله يقصد الخليفة العباسى محمد الأمين بن هارون الرشيد. فقد ذكر ابن الجوزى فى أحداث عام (195هـ) أن المأمون أمر بإسقاط الدراهم والدنانير التى ضربت لأخيه بخراسان ؛ بسبب الحروب التى نشبت بينهما[5]. وعلى ذلك فمحمد المذكور فى رواية الكرديزى، هو نفسه الخليفة العباسى[6].

---

(١) المسالك والممالك، ص175. النرشخى: تاريخ بخارى، ص63.

(٢) بارتولد: تركستان، ص327.

(٣) المقدسى: أحسن التقاسيم، ص340.

(٤) زين الأخبار، ص204.

(٥) المنتظم، جـ10، ص11.

(٦) وفى هذا ردٌّ على المستشرق الروسى (بارتولد) الذى ذكر أن (الدراهم المحمدية) تنسب إلى الوالى (محمد بن دهده) .انظر :(تركستان،ص328) . ومما يؤسف له أن اسم هذا الرجل لم أعثر عليه بين أسماء الولاة فى مصادرنا الإسلامية.

وعلى كل حال؛ فقد ذكر ابن حوقل أنه رأى فى بلاد ما وراء النهر دراهم تعرف "بالمحمدية" وذكر أنها مركبة من معادن مختلفة. ومنها: الحديد، والنحاس، والفضة وغيرها[١]. ووفقًا لقائمة الخراج التى أوردها المقدسي- وسوف تأتى بعد قليل - فإن خراج فرغانة ونسف وأشروسنة، كان يُجبى بالدراهم المحمدية[٢]؛ مما يثبت استعمال هذه الدراهم فى هذه الأقاليم.

(ج) الدراهم المسيبية

هذه هى العملة الثالثة فى بلاد ما وراء النهر، وهى تنسب إلى والٍ معروف وهو المسيب بن زهير (163- 165هـ/780- 783م) الذى تولى حكم خراسان للخليفة المهدى (158- 169هـ/744- 785م). بعد عزل الوالى معاذ بن مسلم. وكانت هذه الدراهم يتم التعامل بها فى أقاليم: الشاش، وخُجَنده من إقليم فرغانة[٣].

ويضيف ابن خرداذبة وابن فضلان،أنها كانت تستعمل فى إقليم خوارزم[٤]. ولم تمدنا المصادر بمعلومات جديدة حول مقدار هذه الدراهم، ولا عن تطورها.

عملات أخرى

وإلى جانب الدراهم الثلاثة السابقة، ظهرت عملات أقل تسمى الفلوس[٥] وهى: الدانق، والقيراط ،والطسوج، والحبة، والفلس[٦]. وكانت هذه العملات البسيطة تستعمل فى شراء وبيع الأشياء القليلة.

أما عن المظهر الخارجى الدراهم فلم يكن هناك اختلاف جوهرى يميز هذه

---

(١) صورة الأرض، ص411.

(٢) أحسن التقاسيم، ص339- 340.

(٣) المقدسى: أحسن التقاسيم، ص340.

(٤) المسالك والممالك ، ص38. الرحلة، ص36.

(٥) ابن حوقل: صورة الأرض، ص404. القلقشندى: صبح الأعشى، جـ4، ص445.

(٦) كان الدرهم الواحد يساوى أربعة دوانق ونصفًا، وفى بغداد يساوى ستة دوانق. (ابن فضلان: الرحلة، ص23. ياقوت: معجم البلدان، جـ2، ص254) . والدانق يساوى اثنى عشر قيراطًا أى يساوى (495. 0) من الجرام، والقيراط يساوى (2475. 0) من الجرام ، و الطسوج يساوى (1237. 0) من الجرام، والحبة تساوى (60. 0) من الجرام ، والفلس (30. 0) من الجرام . وعلى ذلك فالدرهم يساوى (10) دنانير ، والدانق قيراطان ، والقيراط طسوجان ، والطسوج حبتان، والحبة (2) فلس . (الخوارزمى : مفاتيح العلوم . ص 12) . و القيراط أربعة وعشرون طسوجًا. والطسوج ثمانية وأربعون حبة . (المقريزى: النقود الإسلامية، ص158 -159. د. محمد ضياء الدين الريس: الخراج والنظم المالية، ص355- 356) .

الدراهم بعضها عن بعض. فجميعها كان يحمل أشكالًا يميزها عن باقى النقود الإسلامية الأخرى. كما كانت تحمل فى الوقت نفسه كتابات تدل على اسم الخليفة، أو الوالى، والسنة التى ضربت فى عهده. وقبل أن نغادر العملة فى بلاد ما وراء النهر، نؤكد على عدم قبول رواية المقدسى والسمعانى، والتى ملخصها، أن هذه الدراهم تنسب إلى ثلاثة من الإخوة، وهم: محمد ومسيب وغطريف. من أسرة كانت تعيش فى رَبْع الريوند من بخارى. وأن هؤلاء ذهبوا إلى بلاد ما وراء النهر، وضربوا السِّكة هناك بأسمائهم. وبقيت آثارهم بها[1]. أقول، هذه الرواية لا أساس لها، والحقائق التاريخية التى سبق ذكرها حول هذه العملة تؤكد بطلانها.

وصفوة القول: إن دراهم بلاد ما وراء النهر كانت على ثلاثة أنواع، وهى: الغطريفية، والمحمدية، والمسيبية. وهذه الدراهم نسبت إلى ثلاثة من الولاة فى عصور مختلفة. ونؤكد على أن هذه الدراهم كانت لها مناطق انتشار جغرافية فى بلاد ما وراء النهر، وهذه الدراهم هى أول سكة إسلامية يتم ضربها فى هذه البلاد.

دار ضرب العملة (مقر السِّكة)

هى المكان المخصص لسك العملة. وكان ينفق على هذه الدار من الديوان السلطانى، فى كل ما تحتاج إليه من الأصناف المختلفة، كالحديد والنحاس والآلات، وأجور الصناع والمشرفين ونحوهم. وكان المحتسب أو نائبه يحضر إلى هذه الدار لمراقبة العمال ولمنع الغش فى العملة[٢].

وبخصوص بلاد ما وراء النهر، فإن دار الضرب بها كانت فى ثلاث مناطق فقط، وهى: بخارى بالقرب من قصر "ماخ"[٣]. وسمرقند، وتونكث بإقليم الشاش[٤]، اثنان

---

(١) أحسن التقاسيم، ص340. الأنساب، جـ3، ص117، لفظ "الريوندى".

(٢) المقريزى: الخطط، جـ2، ص250– 343. ابن خلدون: المقدمة، جـ2، ص612.

(٣) هو: قصر يقع فى وسط بخارى، بناه رجل مجوسى يسمى (ماخ) فنسب إليه، ثم صار بعد الفتح الإسلامى مسجدًا للمسلمين. ياقوت : معجم البلدان ، جـ 4 ، ص 32.

(٤) الإصطخرى: المسالك والممالك، ص185. ابن حوقل: صورة الأرض، ص418، النرشخى: تاريخ

بجانب السورق، والدار الأخيرة فى مقر إنتاج الفضة. وجدير بالذكر، أن هذه الدار كان يشرف عليها المحتسب أو أحد أعوانه. فكانت الدراهم توزن أولًا وذلك خوفًا من تزييفها، خاصة وأن بخارى وسمرقند كان يتم فى أسواقهما استبدال النقود بين سكان آسيا الشرقية والغربية.

هذا، وقد استفاد سكان بلاد ما وراء النهر، وخاصة أهل بخارى من وجود دار سك للعملة فى ديارهم، فظهر من بين السكان مَنْ يعمل بحرفة الصيرفة[1]، وظهر فى المنطقة المَثَل القديم: "أشد يقظة من سمسار بخارى"[2].

المبحث الثالث

" الخراج "

من حُسن حظ الباحث فى التاريخ الاقتصادى فى العصر العباسى، أن هذا العصر قد حفظ لنا قوائم مفصلة وكاملة تبين مقادير الخراج التى كانت تُجبى من مختلف أقاليم الدولة، كما أنها تبين لنا أيضًا أنواع العروض المختلفة التى تُجبى إلى جانب المبالغ النقدية. وبذلك يمكن تقدير مجموع الخراج العام، للدولة كلها. وهذا ما يمثل ثروة الدولة العباسية فى هذا الوقت.

ولكن مما يؤسف له أن هذه القوائم قد ذكرت خراج خراسان جملة واحدة، ولم يرد فيها ذكر لبلاد ما وراء النهر؛ لذا فسوف أحاول أن أدرس قائمة خراج خراسان أولًا، ثم أتبعها بدراسة قائمة خراج بلاد ما وراء النهر.

بخارى، ص25.

(١) منهم : على بن أحمد بن الحسن الصيرفى الفارسى، سكن سمرقند إلى حين وفاته، وكان شيخًا ثقة صدوقًا، سمع أبا عثمان سعيد بن أبى سعيد العيار الصوفى، وأبا بكر أحمد بن منصور بن خلف المغربى و غيرهما، روى عنه: أبو شجاع عمر بن محمد بن عبد الله البسطامى، عاش مائة وثلاث عشرة سنة، وتوفى بسمرقند ، ودفن بجاكرديزه. السمعانى: الأنساب، جـ3، ص574.

(٢) فامبرى: تاريخ بخارى، ص25.

أولًا: خراج خراسان

وقد ذكر فى عدة قوائم، وهى كالتالى:

(١) قائمة الجهشيارى: تأتى قائمة الجهشيارى على رأس القوائم التى ذكرت خراج الدولة العباسية. وكما هو معروف فإن الجهشيارى قد كتب هذه القائمة فى خلافة هارون الرشيد، وذلك لأن الدولة العباسية قد بلغت ذروتها فى هذا الوقت. وعن هذه القائمة - كما أكد ذلك الدكتور محمد ضياء الدين الريس[١] - أخذ ابن خلدون قائمته. وعنها أخذ معظم الباحثين المحدثين[٢] قوائم الخراج التى ذُكرت فى كتبهم.

على كل حال، فإن الجهشيارى قد ذكر أن خراج خراسان قد بلغ ثمانية وعشرين ألف ألف درهم (28 مليون ، رهم)، بالإضافة إلى ألفىْ نُقْرة[٣]، والبراذين (الخيول التركية)، أربعة آلاف برذون. ومن الرقيق ألف رأس، ومن المتاع (27) ألف ثوب، ومن الإهْلِيَلج[٤] (300) رطل[٥].

(2) قائمة قدامة بن جعفر: كُتبت هذه القائمة تقريبًا فى أواخر خلافة المأمون، وأوائل خلافة المعتصم، وبلغ خراج خراسان طبقًا لهذه القائمة (38 مليون درهم). وفى موضع آخر يقدرها بحو (37 مليون درهم)[٦]، ولعل المليون درهم الفرق بين القائمتين، كان ثمن السبى والغنم والثياب... إلخ.

---

(١) الخراج والنظم المالية، ص488.

(٢) من أمثلة: الشيخ محمد الخضرى: تاريخ الدولة العباسية، جـ 2، ص237؛ د/ حسن إبراهيم: تاريخ الإسلام السياسى، جـ 2، ص315، د/ جرجى زيدان: تاريخ التمدن الإسلامى، جـ 2، ص306، 309، 313.

(٣) النُّقْرَةُ: القِطْعَةُ المُذابَةُ من الذهب والفضة ، وقيل هو ما سُبِكَ مجتمعًا منها. والنُّقْرَةُ السَّبِيكَةُ .ابن منظور: لسان العرب جـ 5 ، ص 227.

(٤) هو : نبات أسود اللون ، دقيق العود، يشبه الزيتون فى شكله ،يزيل الصداع،ويزيد فى الحفظ ، ويقوى الحواس. ابن البيطار: الجامع لفردات الأدوية والأغذية، جـ2، ص 321.

(٥) الجهشيارى: الوزراء والكُتّاب، ص283- 284.

(٦) قدامة بن جعفر: الخراج، ص243- 250.

(3) قائمة الطبرى: بلغ خراج خراسان وأعمالها فى أوائل خلافة الواثق (48 مليون درهم)[١]، غير أن الطبرى لم يحدد قائمة تفصيلية بمقدار هذا المبلغ.

(4) قائمة ابن خرداذبة: بلغ خراج خراسان – طبقًا لهذه القائمة – فى أواخر عصر الواثق، وأوائل خلافة المتوكل نحو (46،800،44 درهمًا) بالإضافة إلى ثلاثة عشر من جياد الخيل، وألفى رأس من الغنم، وألفى رأس من الرقيق، وألف ومائة وسبعة وثمانين ثوبًا (1187). وألف وثلاثمائة من صفائح الحديد (1300)[٢].

(5) قائمة اليعقوبى: ذكر أن خراج خراسان بلغ نحو (13مليون درهم) ومن الكور أربعين ألف درهم، سوى الأخماس التى ترفع من الثغور[٣]. ولكنه لم يحدد لنا فى عصر أى خليفة كانت هذه القائمة.

(6) قائمة ابن الفقيه: أما ابن الفقيه فقد ذكر أن خراج خراسان بلغ – فى خلافة هارون الرشيد – مقدار (47،800،440) درهمًا. وثلاث عشرة دابة، وألف شاه من الغنم، ومن الرقيق: ألف رأس، واثنين وعشرين (1022) ومن صفائح الحديد، ألف و ثلاثمائة قطعة (1300)[٤].

(7) قائمة المقدسى: ووفقًا لقول المقدسى فإن خراج خراسان قد وصل – فى خلافة هارون الرشيد – إلى (13،839،44) درهمًا. ومن الدواب عشرين، ومن الغنم ألف رأس، ومن الرقيق (1022). ومن الحديد (1300) قطعة[٥].

---

(١) الطبرى: تاريخ الأمم، جـ5، ص279.
(٢) ابن خرداذبة: المسالك والممالك، ص36.
(٣) اليعقوبى: البلدان، ص308.
(٤) ابن الفقيه: مختصر كتاب البلدان، ص328.
(٥) المقدسى: أحسن التقاسيم، ص340.

وبدراسة هذه القوائم، يبدو لى، أن قائمة ابن خرداذبة هى الأقرب إلى الصواب، لأنها تتساوى مع ما يملكه إقليم خراسان من اقتصاد قوى. ويبدو أن ابن الفقيه والمقدسى قد نقلا قائمة ابن خرداذبة، مع تغير طفيف، لعله يرجع إلى خطأ فى النسخ، أو سبق قلم. أما كلام اليعقوبى، فإنه يحمل بين ثناياه خطأه، فمن المستحيل أن يصل خراج إقليم خراسان الواسع إلى هذا المبلغ البسيط.

ثانيًا: قائمة خراج بلاد ما وراء النهر

لم تذكر المصادر الإسلامية - على قدر علمى - قائمة مفصلة بخراج بلاد ما وراء النهر، لذا فإننى سأحاول أن أجمع شتات هذه المادة العلمية وأصيغها بأسلوب جديد؛ لنخرج فى النهاية بالمقدار الحقيقى لخراج بلاد ما وراء النهر:

(1) قائمة ابن خرداذبة[1]

اسم الإقليم	البلاد	المقدار بالدراهم	نوع العملة
(1) الصغد:	نسف	90.000 درهم	
	كش	11.500 درهم	
	البتم	5.000	
	الباكيكين	6.200	
	رستاق جاوان	7.000	
	رستاق الرويان	2.220	
	افنه	48.000	
	بخارى	[1]1.189.200	درهم غطريفى
	سمرقند	326.400	
	المجموع	1.785.520درهمًا	

(١) ابن خرداذبة: المسالك والممالك، صفحات متفرقة، ص36- 39.

(2) إقليم خوارزم	لم نعثر على بلدان فى هذا الإقليم	489.000	درهم خوارزمى
(3) طخارستان			
	ترمذ	1000 درهم	فى موضع آخر 47.100 درهم
	سمنجان	12.600 درهم	
	الريو شاران	10.000	
	الباميان	5.000	
	برسخان	206.500	
	البينقان	3500	
	كران	4.000	
	شقتان	40.000	
	وخان	20.000	
	المندجان	1000	
	آخرون (آغزون)	32	هكذا فقط
	الكست	10.000	
	نهام	20.000	
	الصغانيان	48.500	
	باسارا	7.300	
	الواشجرد	1000	
	الزمثان	12.000	13 دابة
	المجموع	402.432 دراهمًا	
(4) فرغانة		280.000	درهم محمدى
	خجندة	100.000	درهم مسيبى منها (48) ألف محمدية وألفان مسيبية
(5) أشروسنة		50.000	درهم مسيبى
(6) الشاش		607.000	درهم مسيبى
(7) مدائن الترك		46.400	مسيبية وخوارزمية

وعلى ذلك فمجموع خراج بلاد ما وراء النهر بلغ 3.713.952 درهمًا، فإذا أضفنا إليه مدائن الترك (المذكورة) يصبح المجموع 3.760.352 درهمًا.

(2) **قائمة المقدسى**[1]

الإقليم وبعض البلدان	المقدار بالدراهم	نوع العملة
الصغد وكش ونسف وأشروسنة	1.039.031	درهم محمدى
بخاري	1.166.897	درهم غطريفى
فرغانة	280.000	درهم محمدى
خجندة	100.000	درهم مسيبى
الشاش	180.000	درهم مسيبى
أسفيجاب	4دوانق	هكذا، وأظن أن هناك خطأ
خوارزم	420.120	دراهم خوارزمى
صغانيان	48.529	
وخان	40.000	
المجموع	3.274.577 درهمًا	

مما سبق نستنتج، أن قائمة ابن خرداذبة هى الأقرب إلى الصواب، لأنها تتساوى مع ما تملكه أقاليم بلاد ما وراء النهر من اقتصاد قوى، ويبدو أن المقدسى قد نقل عنها، مع تغيير طفيف بينهما، وعلى ذلك، فمجموع خراج بلاد ما وراء النهر - خلال فترة البحث - قد وصل نحو (3.760.352) درهمًا، مع التذكير بأن القائمتين - أعنى ابن خرداذبة والمقدسى - لم تذكرا بلاد ما وراء النهر بالتفصيل. ولعل أحد الباحثين فى المستقبل يعثر على وثيقة - أو وثائق فى إحدى المخطوطات - تساعد على حل هذه المسألة بصورة جذرية، وتبين لنا هذه الناحية المالية المهمة، وتسد هذا النقص.

وفى الختام: نقرر أن عناية الخلفاء العباسيين بالتجارة، وحرصهم على تبادلها، وتيسير طرقها خاصة البريد، كان له أثر بعيد فى تقدم التجارة التى تقوم فى الأساس على تبادل السلع، وفى الوقت نفسه ساعدت على إعلاء شأن الجاليات الإسلامية فى كثير من الأقطار التى يحكمها غير المسلمين. كما كانت التجارة مصدر ثروة لعدد كبير من الناس. هذا من الناحية الاجتماعية.

---

(١) المقدسى: أحسن التقاسيم، ص339- 340.

أما من الناحية العلمية، فقد يسرت لطلاب العلم، وخاصة أهل الجغرافيا والحديث، سهولة الانتقال عبر ربوع العالم فى يسر وطمأنينة وأمن؛ وتركوا لنا أسفارهم المهمة، التى ينهل منها طلاب العلم فى مختلف دول العالم الإسلامى، وغير الإسلامى فى سهولة تامة فللّه دَرّهُم. والله نسأل أن يجعل الجنة مثواهم؛ جزاء ما قدموا لنا من علم نافع. كما نسأله تعالى أن ييسر لهذه الأمة من الباحثين الجادين، من يستطيع دراسة الحياة الاجتماعية، والعلمية فى بلاد ما وراء النهر دراسة علمية جادة يذكرنا فيها بعلماء أمتنا فى هذه البقاع.

الخاتمة

الخاتمة

وأهم نتائج البحث

وبعد: فهذه خاتمة ذكرت فيها أهم النتائج التى توصل إليها البحث..

(١) عالج البحث بالتفصيل آراء المؤرخين المحدثين حول السكان الأصليين لبلاد ما وراء النهر. ثم خَلُصت الدراسة إلى أن هذه البلاد كان يسكنها خليط من عدة عناصر مختلفة، ومنها: العنصر الآرى، والصينى، والإيرانى، والتركى، وإنه كان لهذا العنصر الغلبة على باقى العناصر الأخرى.

(2) أظهر البحث أن بلاد ما وراء النهر - قبل الفتح الإسلامى - كانت تعانى التفكك السياسى، فلم تعرف قيام حكومة مركزية وظهرت فيها عدة ممالك مستقلة بعضها عن البعض، كانت متحاربة باستمرار، يحكم كل منها "خان" تدفع له الجزية.

(3) أظهر البحث - كذلك - أن مجتمع بلاد ما وراء النهر - قبل الفتح الإسلامى كان يعانى التفكك الاجتماعى. فقد انقسم المجتمع إلى طبقتين: طبقة الأغنياء، وتعرف بـ"الدهاقين" وتمتعت بكافة الحقوق والمزايا. وطبقة أخرى فقيرة هى طبقة "الفلاحين" حُرمت من كل شىء. وكانت فى انتظار من يخلصهم من هذا الحكم الطبقى البغيض.

(4) أظهر البحث أن مجتمع بلاد ما وراء النهر كان يعانى أيضًا الاضطراب الدينى، حيث لم يعرف سكانه ديانة موحدة، تلتف حولها شعوب المنطقة بل على العكس، ظهرت عدة ديانات مختلفة منها: الزرادشتية، والبوذية، والمانوية، والمزدكية، والمسيحية، وأن هذه الديانات قد تسربت إليهم من الشعوب المجاورة لهم. غير أن هذه الديانات لم تشعر الناس بالأمان والطمأنينة، مما جعل المنطقة كلها مهيأة للدين الإسلامى الحنيف الذى سيخلصهم من كل هذه الأوهام والمعتقدات الباطلة.

(5) كشف البحث عن تقدم وازدهار الحياة الاقتصادية فى بلاد ما وراء النهر قبل الفتح الإسلامى، فقد ازدهرت الزراعة، وراجت التجارة الداخلية، ونشطت التجارة الخارجية. ويرجع ذلك فى المقام الأول إلى موقع هذه البلاد، على طريق الحرير، الذى صار حلقة الوصل بين مناطق الإنتاج (آسيا) ومناطق التوزيع (أوربا)، وغدت بيكند وسمرقند ونسف أهم مراكز تجارة وتوزيع الحرير فى العالم كله.

(6) أثبت البحث أن فتح بلاد ما وراء النهر قد جاء ضرورة حتمية بعد نجاح المسلمين فى فتح إقليم خراسان، الذى أصبح قاعدة ثغرية تنطلق منه جيوش المسلمين. وأن الفضل الأكبر فى ذلك يرجع إلى القائد زياد بن أبيه فى خلافة معاوية بن أبى سفيان.

(7) عالج البحث بالتفصيل جهود المسلمين الأوائل فى فتح بلاد ما وراء النهر منذ خلافة معاوية بن أبى سفيان وحتى خلافة الوليد بن عبد الملك، وأن هؤلاء القادة قد تحملوا الصعاب، واستطاعوا مقاومة طبيعة الإقليم قارسة البرودة، والذى لم يألفوه من قبل كما استطاعوا التغلب على الممرات الجبلية فى هذه البلاد، كل ذلك من أجل نشر الإسلام فى هذه المناطق، وليس كما يردد المستشرقون من أن الغرض من هذه الفتوحات الطمع فى خيرات هذه البلاد.

(8) أثبت البحث أن بلاد ما وراء النهر كانت أسرع أقاليم خراسان للدخول فى الدعوة العباسية، بل مساندتها، ويرجع ذلك فى المقام الأول لحبهم لآل البيت.

(9) عالج البحث بالتفصيل أهم الثورات التى واجهت العباسيين فى بلاد ما وراء النهر، وكان أهمها على الإطلاق ثورة المقنع (150هـ/767م)، والتى عمت جميع

بلاد ما وراء النهر، وامتدت إلى إقليم خراسان واستمرت ما يقرب من خمسة عشر عامًا، وقد عانى المسلمون من هذه الثورة أشد المعاناة. حتى نجح الخليفة المهدى فى القضاء عليها.

(10) ناقشت الدراسة بالتفصيل ثورات الأمراء المحليين ضد الخلفاء العباسيين بداية من خلافة أبى جعفر المنصور وحتى خلافة المأمون. وأن هؤلاء الخلفاء قد نجحوا فى القضاء على هذه الثورات. كما نجحوا فى إعادة الهدوء والاستقرار إلى بلاد ما وراء النهر. وظهرت نتائج هذه الجهود فى خلافة المعتصم الذى حضرت إليه الملوك والأمراء معلنين الطاعة، مقدمين له الولاء.

(11) أثبت البحث أن السبب الحقيقى فى قيام الدولة الطاهرية يعود إلى اختلال الأحوال السياسية فى مشرق الدولة الإسلامية، بسبب تغيير الولاة المستمر. لذا فقد رأت الخلافة أن أفضل وسيلة للقضاء على هذا الاضطراب الذى يسود المنطقة هو تعيين حكام وراثيين من أبناء هذه المنطقة،فكان تعيين طاهر بن الحسين، الذى استطاع تثبيت أقدام أسرته فى حكم هذه المنطقة.

(12) أثبت البحث أن أحوال بلاد ما وراء النهر خلال تلك الفترة تقدمت تقدمًا كبيرًا فى الأحوال السياسية، والدينية، والاقتصادية،وغدت هذه البلاد ثغورًا إسلامية تعيش فى حمايتهم ، وبذلك واصل الطاهريون السياسة التى وضع أسسها الأمويون وعمقها العباسيون؛ وهى سياسة التمكين للإسلام فى الداخل، ودرء الأخطار الخارجية.

(13) أوضح البحث أن السبب الحقيقى لسقوط الدولة الطاهرية؛ هو ضعف شخصية محمد بن طاهر آخر ولاة الدولة الطاهرية، حيث لم يحافظ على ميراث آبائه. هذا فى الوقت الذى كان عليه أن يكافح للمحافظة على عرشه ضد القوى المتصاعدة فى المنطقة ،وأعنى بها قوة يعقوب بن الليث الصفار؛ والذى نجح فى إسقاط الدولة الطاهرية، بعد أن سدد إليها ضربات موجعة وذلك فى عام (259هـ/872م).

(14) عالج البحث بالتفصيل عوامل قيام الدولة السامانية ؛ونجاحهم فى درء الخطر الموجه إلى بلادهم ؛بلاد ما وراء النهر ،والتى صارت فى ظل حكمهم

مركز الإشعاع الأول فى المنطقة وأصبحت خراسان تابعة لها لأول مرة منذ الفتح الإسلامى. وعلت بخارى فى ظل حكمهم حتى صارت كعبة العلوم ومحط طلاب العلم خلال تلك الفترة .

(15) عالج البحث بشىء من التفصيل مراحل استقرار العرب فى بلاد ما وراء النهر، منذ الفتح الإسلامى وحتى قيام الدولة السامانية - فترة البحث - وظهر لنا أن العرب قد نزلوا بالفعل جميع أقاليم بلاد ما وراء النهر، مما كان له أكبر الأثر فى نشر الإسلام فى هذه المناطق. يضاف إلى هذا، أن ظاهرة الاختلاط التى تمت بين المسلمين وأهل هذه البلاد ، قد ساعدت على خلق مجتمع جديد، كان له أكبر الأثر فى التمكين للسيادة الإسلامية فى بلاد ما وراء النهر.

(16) كشف البحث عن تعدد الأساليب التى اتبعها المسلمون الأوائل فى نشر الإسلام فى بلاد ما وراء النهر، وكان للمسجد دور كبير فى ذلك، حيث كان يؤدى وظيفته فى مجال الدعوة الإسلامية، وأصبح فى نفس الوقت نواة لحركة علمية ظهرت ثم ازدهرت بمرور الأيام، حتى أخرجت لنا عددًا هائلًا من العلماء والمفكرين المسلمين. كالإمام البخارى، والفارابى والترمذى.

(17) أكدت الدراسة على أن الفتح الإسلامى لبلاد ما وراء النهر كان فيه الخير العظيم لهم، وإذا كانت الدولة الأموية قد نجحت فى فتح هذه البلاد، فإن الفضل يرجع إلى العباسيين فى أنهم مكنوا لهذه الحركة الإسلامية العميقة من أن تمضى فى سبيل نجاحها؛ ليكتسب إقليم ما وراء النهر فى مستهل القرن الثالث الهجرى طابعًا إسلاميًا واضحًا.

(18) أثبت البحث بالأدلة التاريخية أن الخلفاء العباسيين قد اهتموا بنظام الرى فى بلاد ما وراء النهر، وعملوا على تنميته وتطويره، وذلك بتوفير كافة أشكال الإمدادات المائية من حفر قنوات جديدة، وشق للجداول والترع، وبناء للسدود وتقويتها؛ وإعادة حفر الأنهار القديمة وتطهيرها. وتعيين أمير مشرف على المياه فى هذه البلاد، كل هذه الإجراءات ساعدت على تقدم الزراعة فى هذه البلاد.

(19) أثبت البحث بالرجوع إلى المصادر التاريخية الصحيحة، أن الخلفاء العباسيين قد اهتموا بتخفيف الضرائب عن الفلاحين، وساروا فى ذلك على

سياسة حكيمة ترمى إلى عدم إرهاق المزارعين. وعدم أخذ الخراج من مناطق الثغور والرباطات فى بلاد ما وراء النهر.

(20) كشف البحث عن تقدم وازدهار الزراعة فى بلاد ما وراء النهر، بعد الفتح الإسلامى، حيث تقدمت المحاصيل الزراعية، ووجد فائض كبير كان يصدر لسائر أقاليم العالم الإسلامى، وخاصة بغداد حاضرة العباسيين.

(21) خَلُصت الدراسة إلى أن الثروة الحيوانية كانت متقدمة فى بلاد ما وراء النهر، وخاصة الخيول: ذات الشهرة العالمية فى قارة آسيا، والبراذين التى اعتز الخلفاء الأمويون والعباسيون بها وتنافسوا فى شرائها. والإبل التى تمتاز بسلالتها الجيدة. والضأن الذى لم يكن له مثيل فى العالم كله. ودودة القز التى قامت عليها صناعة الحرير المشهورة، هذا بالإضافة إلى الثروة السمكية الهائلة.

(22) أثبت البحث توافر المعادن والأحجار الكريمة فى بلاد ما وراء النهر، ومن ثَم فقد تقدمت الصناعة بها، وإن بدأت هذه الصناعات متأثرة بالصناعات الصينية، غير أنها سرعان ما استقلت، وأصبحت تشكل وحدة صناعية واحدة. ثم انفردت مدن بلاد ما وراء النهر بإنتاج نوع معين من هذه الصناعات كالمنسوجات فى بخارى والورق فى سمرقند. والذى حظى باهتمام الخلفاء العباسيين، حتى اقيمت له المصانع فى مصر، ودمشق وفلسطين، ومع ذلك فقد ظل ورق سمرقند له السبق على الجميع.

(23) أثبت البحث بالرجوع إلى المصادر الجغرافية، أن سكان بلاد ما وراء النهر قد نجحوا فى استخدام طواحين الماء فى الصناعة على نطاق واسع. وكان لهم السبق على باقى الأمصار الإسلامية فى ذلك.

(24) عالج البحث بالتفصيل عوامل ازدهار التجارة فى بلاد ما وراء النهر بعد الفتح الإسلامى، فقد اعتنى الخلفاء العباسيون بأمر الأسواق الداخلية، فوكلوا بها رجال الحسبة القائمين بالإشراف على هذه الأسواق، كما أظهر البحث أنواع المكاييل المستخدمة فى أسواق بلاد ما وراء النهر.

(25) كشف البحث عن تقدم بلاد ما وراء النهر فى التجارة الخارجية؛ وذلك يرجع إلى شبكة من الطرق التى ربطت بين بلاد ما وراء النهر، وسائر الأقاليم

المجاورة لها. بالإضافة إلى إقامة المنشآت التجارية المهمة مثل: القياسر، والخانات، والفنادق، التى كانت تعمل على راحة التجار.

(26) أظهر البحث مدى تقدم التجارة الخارجية لبلاد ما وراء النهر، حيث كانت تصدر سائر منتجاتها إلى الأقاليم المجاورة لها، مثل: الصين، والهند، والخزر، والدقالبة، والروس، وبغداد، ومكة، ومصر، وقد زاد طلب الخلفاء العباسيين على رقيق بلاد ما وراء النهر، وبمرور الوقت، أصبح هؤلاء قادة الجيش العباسى وصار لهم مركزٌ مهم فى مجال السياسة والحرب، ومن ثم فقد زاد خطرهم على بغداد، مما اضطر الخليفة المعتصم إلى اتخاذ عاصمة جديدة لهم هى سامراء.

(27) خَلُصت الدراسة إلى أن العملة المتداولة فى بلاد ما وراء النهر فى ظل الحكم العباسى كانت على ثلاثة أنواع، وهى: الغطريفية، والمحمدية، والمسيبية. وقد نسبت هذه الدراهم إلى ثلاثة من ولاة العصر العباسى الأول، وهذه هى أول سكة إسلامية تضرب فى هذه البلاد.

(28) كشفت الدراسة عن مقدار خراج بلاد ما وراء النهر، والذى زاد على ثلاثة ملايين درهم. وهذا يؤكد ازدهار وتقدم الحياة الاقتصادية فى بلاد ما وراء النهر خلال فترة البحث.

قائمة المصادر والمراجع

أولًا: المخطوطات.

ثانيًا: المصادر العربية.

ثالثًا: المصادر الفارسية المعربة.

رابعًا: المراجع العربية.

خامسًا: المراجع الأجنبية المعربة.

سادسًا: المراجع الأجنبية.

سابعًا: الرسائل العلمية.

ثامنًا: المجلات العلمية والدوريات.

أولًا: المخطوطات

التيفاشى: أحمد بن يوسف بن أحمد القيسى (ت 651هـ/1253م).

1) منافع الأحجار. 122 طبيعة وكيمياء، ميكروفيلم 13249.

الخوارزمى: أبو محمد محمود بن محمد بن عباس بن أرسلان،(ت568هـ/1172م).

2) تاريخ خوارزم. 290 مجاميع تيمور، ميكروفيلم 15519.

مؤلف مجهول:

3) الأحجار وخواصها، 130 كيمياء، ميكروفيلم 13081.

4) البلدان. 123 بلدان تيمور، ميكروفيلم 30181.

5) رسالة فى خواص الأحجار ومضارها ومنافعها. 137 كيمياء، ميكروفيلم 14946.

ثانيًا: المصادر العربية

ابن الأثير: أبو الحسن على بن محمد بن محمد بن عبد الكريم الشيبانى، (ت630/1233م).

6) الكامل فى التاريخ. 6 أجزاء، تحقيق: عبد الله القاضى، مراجعة: د. محمد يوسف الدقاق. دار الكتب العلمية، بيروت، ط3، 1418هـ / 1998م.

ابن الأثير: أبو السعادات المبارك بن الجزرى،(ت606هـ/1209م).

7) النهاية فى غريب الحديث الأثر، تحقيق: طاهر أحمد الزاوى، ومحمود محمد الطناحى، المكتبة الإسلامية. القاهرة. (بدون تاريخ).

ابن الأخوة: محمد بن محمد أحمد القرشى،(ت729هـ./1329م).

8) معالم القربة فى أحكام الحسبة، تحقيق: د. محمد محمد شعبان. وصديق عيسى. الهيئة المصرية للكتاب، القاهرة، 1976م.

الإدريسي: أبو عبد الله محمد بن محمد بن عبد الله بن إدريس، (ت562هـ./1167م).

9) نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق. جزءان، دار الثقافة الدينية، القاهرة. (بدون تاريخ).

الإصطخرى: أبو إسحاق إبراهيم بن محمد الفارسى،(ت340هـ/951م).

10) المسالك والممالك. تحقيق د. محمد جابر عبد العال الحينى، مراجعة د. محمد شفيق غربال، الهيئة العامة لقصور الثقافة، الذخائر، العدد (119)، القاهرة، 2004م.

ابن أعثم الكوفى : أبو محمد أحمد بن أعثم الكوفى (ت 314 هـ/926 م).

11) الفتوح،تحقيق نعيم زرزور، دار الكتب العلمية، بيروت، أربعة مجلدات، الطبعة الأولى، 1986م.

البخارى: محمد بن إسماعيل بن إبراهيم الجعفى،(ت256هـ/801م).

12) التاريخ الكبير، تحقيق: السيد هاشم الندوى، 9 أجزاء، دار الفكر. (بدون تاريخ).

ابن بطلان: أبو الحسن المختار بن الحسن بن عبدون، توفى بعد عام (444/1052م).

13) رسالة جامعة لفنون نافعة فى شرى الرقيق وتقليب العبيد. نوادر المخطوطات، الجزء الأول، تحقيق: عبد السلام هارون، مكتبة الخانجى، القاهرة، ط2، 1392هـ/ 1972م.

بطليموس الحكيم:

14) ذكر ما جاء فى النوروز وأحكامه،مما فسره بطليموس الحكيم ووجده عن علم دانيال. نوادر المخطوطات، جـ1، تحقيق: عبد السلام هارون، مكتبة الخانجى، القاهرة، ط2، 1392هـ - 1972م.

البكرى: أبو عبيد عبد الله بن عبد العزيز (ت 478هـ./1085م).

15) المسالك والممالك. جزءان. تحقيق أدريان فان ليوفن، وأندرى فيرى، الدار العربية للكتاب، تونس، 1992م.

البلاذرى: أبو الحسن أحمد بن يحيى بن جابر (ت279هـ/817م).

16) فتوح البلدان. تحقيق: د. عبد الأمير مهنا، دار اقرأ، بيروت، الطبعة الأولى، 1412هـ - 1992م.

البلوى: أبو محمد عبد الله بن محمد المدينى،(المتوفى فى النصف الأول من القرن الرابع الهجرى).

17) سيرة أحمد بن طولون. تحقيق: محمد كرد على، الهيئة العامة لقصور الثقافة، الذخائر العدد (55)، القاهرة، 1999م.

البيرونى: أبو الريحان محمد بن أحمد الخوارزمى (ت440هـ/1048م).

18) الآثار الباقية عن القرون الخالية. وضع حواشيه خليل عمران المنصور، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1420هـ - 2000م.

19) الجماهر فى معرفة الجواهر. تحقيق: فريتس كرنكو، حيدر آباد ،الدكن . الهند،1355هـ .

ابن تغرى بردى: جمال الدين أبى المحاسن يوسف الأتابكى (ت874/1469م):

20) النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة،الأجزاء (1-3)، دار الكتب المصرية، القاهرة 2007م.

التيفاشى: أحمد بن يوسف بن أحمد القيسى (ت 651 هـ / 1253م) :

21) أزهار الأفكار فى جواهر الأحجار، تحقيق: محمد يوسف حسن ،محمود بسيونى خفاجى،الهيئة المصرية العامة للكتاب،1977م.

ابن تيمية: أحمد بن عبد الحليم (ت728هـ/1328م):

22) الحسبة ومسئولية الحكومة الإسلامية. تحقيق صلاح عزام، دار الشعب، القاهرة، 1976م.

الثعالبى: أبو منصور عبد الملك بن محمد بن إسماعيل(ت 429هـ/1038م).

23) لطائف المعارف.تحقيق: إبراهيم الإبيارى، وحسن كامل الصيرفى، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، 1960م.

الجاحظ: أبو عثمان عمرو بن بحر (ت255هـ./981م) .

24) البيان والتبيين، 4 أجزاء. تحقيق: وشرح: عبد السلام هارون، الهيئة العامة لقصور الثقافة، الذخائر، العدد (85)، القاهرة، 2003م.

25) التبصر بالتجارة، تحقيق حسن حسنى عبد الوهاب التونسى، مكتبة الخانجى، القاهرة،الطبعة الثالثة ،1410هـ / 1994م.

26) الحيوان، تحفيق: عبد السلام هارون، تقديم د. أحمد فؤاد باشا، مكتبة الأسرة – مهرجان القراءة للجميع، 2004م.

27) رسائل الجاحظ، نوادر المخطوطات، جـ2، تحقيق وشرح: عبد السلام هارون، مكتبة الخانجى، القاهرة، ط2، 1399هـ – 1979م.

الجهشيارى: أبو عبد الله محمد بن عبدوس (ت331هـ./853م).

28) الوزراء والكُتّاب. تحقيق: مصطفى السقا، إبراهيم الإبيارى، عبد الحفيظ شلبى، الهيئة العامة لقصور الثقافة، الذخائر، العدد (126)، القاهرة، 1425هـ / 2004م.

ابن الجوزى: أبو الفرج عبد الرحمن بن على بن محمد بن على البغدادى (ت597هـ/1201م) .

29) سيرة عمر بن العزيز، دار الفجر، القاهرة، ط1، 1420هـ - 1999م.
30) المنتظم فى تاريخ الأمم والملوك،13جزءًا، دراسة، وتحقيق: محمد عبد القادر عطا، ومصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1412هـ - 1992م.
ابن حبان: أبو حاتم محمد بن حبان أحمد التميمى البستى.
31) الثقات، 9 أجزاء. تحقيق: السيد شرف الدين أحمد، دار الفكر، بيروت، ط1، 1395هـ - 1975م.
ابن حجر العسقلانى: أحمد بن على بن حجر الشافعى (ت853هـ/1449م).
32) الإصابة فى تمييز الصحابة، 8 أجزاء. تحقيق: على محمد البجاوى، دار الجيل، بيروت، ط1، 1412هـ.
33) فتح البارى بشرح صحيح البخارى، 14 جزءًا. تحقيق: محب الدين الخطيب وآخرين، دار الريان للتراث، القاهرة، 1407هـ- 1987م.
ابن حنبل: أبو عبد الله أحمد بن حنبل الشيبانى (ت241هـ/790م).
34) المسند، تحقيق أحمد شاكر، طبعة قرطبة، القاهرة (بدون تاريخ).
ابن حوقل: أبو القاسم بن حوقل النصيبى (ت367هـ./977م).
35) صورة الأرض. دار الكتاب الإسلامى، القاهرة، (بدون تاريخ).
ابن خرداذبة: أبو القاسم عبيد الله بن عبد الله (ت232هـ./784م).
36) المسالك والممالك. تحقيق دى جويه، المكتبة الجغرافية، لَيدنْ، بريل، 1889م.
الخطيب البغدادى: أبو بكر بن أحمد بن على الخطيب (ت463هـ./1071م) .
37) تاريخ بغداد أو مدينة السلام. دار الكتب العلمية، بيروت، (بدون تاريخ).
ابن خلدون: عبد الرحمن بن محمد بن خلدون (ت808هـ/1405م).
38) العبر وديوان المبتدأ والخبر فى أيام العرب والعجم ومن عاصرهم من ذوى السلطان الأكبر، المعروف بتاريخ ابن خلدون، 7 أجزاء، الهيئة العامة لقصور الثقافة، الذخائر، العدد (155)، القاهرة، 1428هـ / 2007م، وهى مصورة عن الطبعة الأولى بالمطبعة الكبرى ببولاق، القاهرة، 1284هـ.

39) المقدمة، 3 أجزاء، تحقيق: د. على عبد الواحد وافى، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مهرجان القراءة للجميع، مكتبة الأسرة، 2006.

ابن خلكان: أبو العباس أحمد بن محمد بن إبراهيم بن أبى بكر(ت681هـ/1282م).

40) وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، خمسة أجزاء. تحقيق يوسف على طويل، د.مريم قاسم طويل، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، 1419هـ-1998م.

خليفة بن خياط: أبو عمرو خليفة بن خياط أبى هبيرة الليثى العُصفرى (ت240هـ/789م).

41) تاريخ خليفة بن خياط. تحقيق: د. مصطفى نجيب فواز، د. حكمت كشلى فواز، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، 1415هـ - 1995م.

42) الطبقات. تحقيق: د. أكرم ضياء العُمرى، دار طيبة، الرياض، 1402هـ - 1982م.

الخوارزمى: أبو عبد الله محمد بن أحمد بن يوسف (ت387هـ/988م).

43) مفاتيح العلوم. تحقيق فان فلوتن، الهيئة العامة لقصور الثقافة، الذخائر، العدد (118). القاهرة، 2004م.

أبو داود: سليمان بن الأشعث السجستانى الأزدى (ت275هـ/967م).

44) سنن أبى داود. تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد، دار إحياء السنة النبوية ، القاهرة ، (بدون تاريخ).

أبو دلف: مسعر بن المهلهل الخزرجى (توفى نحو 390هـ./1000م).

45) رحلة أبى دلف إلى بلاد الترك والصين والهند قرابة سنة 331هـ.

دراسة وتحقيق: د. مريزن سعيد مريزن عسيرى، مركز إحياء التراث الإسلامى، مكة المكرمة، 1416هـ / 1995م.

الدينورى: أبو حنيفة أحمد بن داود (ت 282هـ./819م).

46) الأخبار الطوال، تحقيق: عصام محمد الحاج، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، 1421هـ - 2001م.

الرازى: فخر الدين محمد بن عمر بن حسين الطبرستانى (ت 606هـ/1209م).

47) اعتقادات فرق المسلمين والمشركين، مراجعة على سامى النشار، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، 1356هـ - 1938م.

الرازى: محمد بن أبى بكر بن عبد القادر.(ت660/1262م).

48) مختار الصحاح، تحقيق محمود خاطر، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت، 1415هـ - 1995م.

ابن رسته: أبو على أحمد بن عمر (ت 290هـ./824م).

49) الأعلاق النفيسة، تحقيق دى جويه، المكتبة الجغرافية ليدن، بريل، 1891م.

السخاوى: شمس الدين محمد بن عبد الرحمن (ت902هـ./1496م).

50) الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ، تحقيق محمد عثمان الخُشت، مكتبة ابن سينا، القاهرة، 1989م.

ابن سعد: محمد بن سعد بن منيع الزهري(ت230هـ./782م) .

51) الطبقات الكبير، تحقيق: د. على محمد عمر، مكتبة الأسرة مهرجان القراءة للجميع، القاهرة، 2002م، وطبعة ثانية، دار صادر، بيروت، (بدون تاريخ).

السمعانى: أبو سعد عبد الكريم بن محمد بن منصور التميمى (ت562هـ/1167م).

52) الأنساب، تقديم وتعليق عبد الله عمر البارودى، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، 1408هـ / 1988م.

السيوطى: جلال الدين عبد الرحمن بن أبى بكر (ت911هـ./1505م).

53) تاريخ الخلفاء، المكتبة التجارية الكبرى، القاهرة، الطبعة الرابعة، 1389هـ-1969م.

الشهرستانى: أبو الفتح محمد عبد الكريم بن أبى بكر بن أحمد (ت548هـ/1153م).

54) الملل والنحل، 3 أجزاء، تحقيق عبد العزيز محمد الوكيل، مؤسسة الحلبى، القاهرة، 1968م.

الأصفهانى: أبو الفرج على بن الحسين بن محمد القرشى (ت356هـ./967م).

55) الأغانى، 30 جزءًا، تحقيق إبراهيم الإبيارى، دار الشعب، القاهرة، 1389هـ / 1970م.

ابن طباطبا: محمد بن على ابن طباطبا المعروف بابن الطقطقى (ت709هـ./1309م).

56) الفخرى فى الآداب السلطانية والدول الإسلامية، دار صادر، بيروت، (بدون تاريخ).

الطبرى: أبو جعفر محمد بن جرير(ت310هـ/838م).

57) تاريخ الأمم والملوك، تحقيق: لجنة من العلماء، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الثانية، 1424هـ - 2003م.

ابن طيفور: أبو الفضل أحمد بن طاهر الكاتب (ت 280هـ./817م).

58) كتاب بغداد، تحقيق: محمد زاهد الكوثرى، مكتبة الخانجى، القاهرة، ط2، 1415هـ - 1994م.

ابن عبد البر: أبو عمرو يوسف بن عبد الله بن محمد القرطبى (ت463هـ./1071م).

59) الاستيعاب فى أسماء الأصحاب، جزءان، مكتبة مصر، القاهرة، (بدون تاريخ).

ابن عبد ربه الأندلسى: أبو عمر أحمد بن محمد (ت 327هـ/805م).

60) العقد الفريد، 7 أجزاء، تحقيق أحمد أمين، وآخرين الهيئة العامة لقصور الثقافة، الذخائر، العدد (111). القاهرة، 2004م.

ابن العبرى: غريغوريوس أبو الفرج هارون الملطى (ت 685هـ./1286م).

61) تاريخ مختصر الدول، تحقيق الأب أنطون صالحانى العيسوى، دار المشرق، بيروت، ط3، 1992م.

الغزالى: أبو حامد محمد بن محمد (ت 505هـ/1111م).

62) إحياء علوم الدين، دار الريان للتراث 4 أجزاء، ط1، القاهرة، 1407هـ / 1987م.

أبو الفدا: عماد الدين إسماعيل بن محمد بن عمر (ت 732هـ./1332م).

63) تقويم البلدان، دار صادر، بيروت، 1840م.

ابن فضلان: أحمد بن فضلان بن العباس بن راشد بن حماد (ت312هـ/840م).

64) رسالة ابن فضلان، فى وصف الرحلة إلى بلاد الترك والخزر والروس والصقالبة، تحقيق: د. سامى الدهان، مطبوعات المجمع العلمى العربى بدمشق، 1379هـ/ 1959م. وطبعة ثانية، تحقيق: محفوظ أبو بكر بن معتومة، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، 1427هـ / 2006م.

ابن الفقيه: أبو بكر أحمد بن محمد الهمذانى (ت أواخر القرن الثالث الهجري/ أوائل القرن العاشر الميلادي).

65) مختصر كتاب البلدان، تحقيق دى جويه، المكتبة الجغرافية، لَيَدنْ، بريل، 1302هـ - 1884م.

الفيروزآبادى: محمد بن يعقوب (ت 817هـ/1414م).

66) القاموس المحيط، بيروت، لبنان، (بدون تاريخ).

ابن قتيبة: أبو محمد عبد الله بن مسلم الدينورى (ت 276هـ./815م).

67) الإمامة والسياسة، علق عليه: خيرى سعيد، المكتبة التوفيقية، القاهرة، 2000م.

68) عيون الأخبار، 4 أجزاء، تحقيق: لجنة من العلماء بدار الكتب المصرية، الهيئة العامة لقصور الثقافة، الذخائر، العدد (101)، القاهرة، 2003م.

69) المعارف، دار الكتب العلمية، بيروت، 1407هـ / 1987م.

قدامة بن جعفر: أبو الفرج البغدادى (ت 320هـ /838 م).

70) كتاب الخراج وصنعة الكتابة، تحقيق دى جوية، المكتبة الجغرافية، دار صادر، بيروت، (بدون تاريخ).

القزوينى: زكريا بن محمد بن محمود (ت 682هـ./1283م).

71) آثار البلاد وأخبار العباد، الهيئة العامة لقصور الثقافة، الدراسات الشعبية، العدد (78)، 2003م.

القلقشندى: الشيخ أبو العباس أحمد (ت 921هـ./1515م).

72) صبح الأعشى فى صناعة الإنشا، 14 جزءًا، الهيئة العامة لقصور الثقافة، الذخائر، العدد (130)، القاهرة، 2004- 2006م.

ابن كثير: إسماعيل بن كثير القرشى (ت 774هـ./1372م).

73) البداية والنهاية، دار المنار ، القاهرة ، 1412 هـ / 2001 م .

الكندى: عمر بن محمد بن يوسف (ت 350هـ./961م).

74) فضائل مصر المحروسة، تحقيق: د. على محمد عمر، مكتبة الأسرة، مهرجان القراءة للجميع، 1997م.

75) ولاة مصر ،تحقيق: د.حسين نصار،دار صادر، بيروت،(بدون تاريخ).

الماوردى: أبو الحسن على بن محمد بن حبيب البصرى (ت450هـ./1058م).

76) الأحكام السلطانية والولايات الدينية، دار ابن خلدون، الإسكندرية، (بدون تاريخ).

محمد الغزالى: (من علماء العصر العثمانى. ولم أعثر على ترجمة له).

77) هداية المريد فى تقليب العبيد، نوادر المخطوطات، الجزء الأول، تحقيق: عبد السلام هارون، مكتبة الخانجى، القاهرة 1392هـ / 1972م.

المسعودى: أبو الحسن على بن الحسين بن على (ت 346هـ./957م).

78) التنبيه والأشراف، دار ومكتبة الهلال، بيروت، 1981م.

79) مروج الذهب ومعادن الجوهر، 4 أجزاء، تحقيق: مصطفى السيد بن أبى ليلى، المكتبة التوفيقة، القاهرة، 1424هـ / 2003م.

المطهر المقدسى: المطهر بن طاهر المقدسى (من علماء أواخر القرن الرابع الهجرى).

80) البدء والتاريخ، 4 أجزاء، دار صادر، بيروت، (بدون تاريخ).

المقدسى: أبو عبد الله محمد بن أبى بكر المعروف بالبشَّارى (ت 378هـ/988م).

81) أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم، مكتبة مدبولى، القاهرة، الطبعة الثالثة، 1411هـ / 1991م.

المقريزى: تقى الدين أحمد بن على عبد القادر بن محمد (ت 845هـ/1441م)..

82) رسائل المقريزى، تحقيق: رمضان البدرى، أحمد مصطفى قاسم، دار الحديث، القاهرة، الطبعة الأولى، 1419هـ / 1998م.

83) المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، مكتبة الآداب، القاهرة، 1996م.

ابن منظور: محمد بن مكرم بن منظور المصرى (ت 711هـ/1311م).

84) لسان العرب، دار صادر، بيروت، الطبعة الأولى، (بدون تاريخ).

النابلسى: عبد الغنى بن إسماعيل بن أحمد المعروف بالنابلسى القارى (ت1143هـ/1730م).

85) عَلَم الملاحة فى عِلْم الفلاحة. دار الآفاق الجديدة، بيروت الطبعة الثانية، 1401هـ - 1981م.

ابن النديم: أبو الفرج محمد بن إسحاق النديم (ت 383هـ./1277م).

86) الفهرست، علق عليه الشيخ إبراهيم رمضان، دار المعرفة بيروت، الطبعة الثانية، 1417هـ - 1997م.

النووى: محيى الدين أبى زكريا يحيى بن شرف (ت 676هـ./1277م).

87) صحيح مسلم بشرح النووى، ضبط، وتحقيق: محمد محمد عامر، دار الفجر للتراث، القاهرة، 1420هـ – 1999م.

النويرى: شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب (ت 733هـ./1333م).

88) نهاية الأرب فى فنون الأدب، تحقيق لجنة من كبار العلماء، (الأجزاء 1، 22، 25، 27) الهيئة المصرية للكتاب، القاهرة، 1404هـ – 1984م.

ابن الوردى: سراج الدين أبو حفص عمر (ت 749 هـ / 1352م).

89) خريدة العجائب وفريدة الغرائب،مكتبة الحلبى ،القاهرة. (بدون تاريخ) .

ياقوت الحموى: أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموى الرومى (ت 626هـ./1229م).

90) معجم البلدان، 4 أجزاء، دار إحياء التراث العربى، بيروت الطبعة الأولى، 1417هـ – 1997م.

91) معجم الأدباء (إرشاد الأريب لمعرفة الأديب)، 6 أجزاء،دار الكتب العلمية،بيروت،الطبعة الأولى ، 1411هـ . 1991 م.

يحيى بن آدم: يحيى بن آدم بن سليمان القرشى الأموى (ت203هـ /764م).

92) الخراج، تحقيق أحمد محمد شاكر، دار التراث، القاهرة، الطبعة الثانية، (بدون تاريخ).

يحيى بن ماسويه: أبو زكريا يحيى بن ماسويه الخوزى (ت 243هـ./792م).

93) الجواهر وصفاتها وفى أى بلد هى وصفة الغواصين والبحار، حققه وعلق عليه د. عماد عبد السلام رؤوف، الهيئة المصرية للكتاب، 1977م.

اليعقوبى: أحمد بن أبى يعقوب بن واضح (ت284هـ./820م).

94) البلدان، تحقيق: دى جويه، المكتبة الجغرافية، ليدن، 1891م.

95) تاريخ اليعقوبى، جزءان، علق عليه: خليل المنصور، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الثانية، 1423هـ – 2002م.

أبو يوسف: يعقوب بن إبراهيم (ت 182هـ./749م).

96) الخراج، تحقيق: د. طه عبد الرؤوف سعد، د. سعد حسن محمد ، المكتبة الأزهرية، للتراث، 1420هـ / 1999م.

ثالثًا: المصادر الفارسية المعربة

الكرديزى: أبو سعيد عبد الحى بن الضحاك بن محمود (ت 443هـ./1051م).

97) زين الأخبار، ترجمته عن الفارسية: د. عفاف السيد زيدان، دار الطباعة المحمدية، القاهرة، الطبعة الأولى، 1402هـ / 1982م.

مؤلف مجهول: كتبه بالفارسية (عام 372هـ/982م).

98) حدود العالم من المشرق إلى المغرب، تحقيق: يوسف الهادى الدار الثقافية للنشر، القاهرة، الطبعة الأولى، 1419هـ / 1999م.

مجهول : 99) تاريخ سجستان، ترجمة: د محمود عبد الكريم،المجلس الأعلى للثقافة، المشروع القومى للترجمة، العدد (1056) ،2006م.

النرشخى: أبو بكر محمد بن جعفر(ت 348هـ./958م).

100) تاريخ بخارى، ترجمه عن الفارسية وحققه: د. أمين عبد المجيد بدوى، د. نصر مبشر الطرازى، دار المعارف، ذخائر العرب، العدد (40) الطبعة الثالثة، 1993م.

رابعًا: المراجع العربية

أكرم: السيد عبد المؤمن السيد.

101) أضواء على تاريخ تركستان، مطبعة رابطة العالم الإسلامى، مكة المكرمة، 1395هـ.

أمين: أحمد أمين (بك).

102) ضحى الإسلام، 3 أجزاء، الهيئة المصرية للكتاب، مهرجان القراءة للجميع، مكتبة الأسرة، 2002م.

103) ظُهْر الإسلام، 4 أجزاء، النهضة المصرية، القاهرة، ط4، 1966م.

104) فجر الإسلام، النهضة المصرية، القاهرة، ط9، 1964م.

البراوى: راشد البراوى (دكتور):

105) التفسير القرآنى للتاريخ، دار النهضة العربية، القاهرة، الطبعة الثانية، 1976م.

جمعه: على جمعه (دكتور):

106) شبهات وإجابات حول الجهاد فى الإسلام، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، دراسات إسلامية، العدد (83)، القاهرة، 1423هـ - 2002م.

حبشى: حسن حبشى (دكتور):

107) تاريخ العالم الإسلامى، الجزء الأول، الهيئة المصرية العامة للكتاب، تاريخ المصريين، العدد (228)، 2002م

حبيبه:على حبيبه (دكتور):

108) العباسيون فى التاريخ ،مكتبة الشباب ،القاهرة ،1980م.

حسب الله: محمد أحمد محمود (دكتور):

109) فى تاريخ دولة بنى العباس. دار الأقصى للطباعة ،القاهرة، 2008م.

حسن: حسن إبراهيم (دكتور):

110) تاريخ الإسلامى السياسى والدينى والثقافى والاجتماعى، مكتبة النهضة المصرية، ط13، القاهرة، 1411هـ - 1991م.

حسن الباشا: (دكتور):

111) دراسات فى تاريخ الدولة العباسية، دار النهضة العربية، القاهرة، 1975م.

حسن: زكى محمد حسن (دكتور):

112) الفنون الإيرانية فى العصر الإسلامى، دار الكتب المصرية الطبعة الثانية، 1946م.

حمدان: جمال حمدان (دكتور):

113) استراتيجية الاستعمار والتحرير، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مهرجان القراءة للجميع ، مكتبة الأسرة، 1999م.

حمور: السيد أحمد إبراهيم (دكتور):

114) الدولة العباسية - بين أسس بنائها وأسباب فنائها، دار الرسالة، الطبعة الأولى، القاهرة، 1402هـ - 1982م.

الخربوطلى: على حسنى (دكتور):

115) الحضارة العربية الإسلامية، مكتبة الخانجى، الطبعة الثانية، القاهرة، 1415هـ / 1994م.

الخضرى: محمد الخضرى (الشيخ):

116) محاضرات فى تاريخ الأمم الإسلامية: الدولة الأموية - الدولة العباسية. تحقيق: إبراهيم أمين محمد، المكتبة التوفيقية، القاهرة، (بدون تاريخ).

خطاب: محمود شيت (اللواء الركن):

117) قادة الفتح الإسلامى فى بلاد ما وراء النهر، دار ابن حزم، بيروت، 1418هـ / 1998م.

الدورى: عبد العزيز الدورى (دكتور):

118) العصر العباسى الأول (دراسة فى التاريخ السياسى والإدارى والمالى)، دار الطليعة ،بيروت، الطبعة الثالثة،1997م

119) موجز تاريخ الحضارة العربية، شركة التجارة والطباعة المحدودة، بغداد، ط3، 1371هـ / 1952م.

رفاعى: أحمد فريد:

120) عصر المأمون، جزءان، الهيئة المصرية للكتاب، سلسلة الألف كتاب الثانى، العدد (292)، ط2، 1997م.

رمضان: أحمد رمضان (دكتور):

121) تطور علم التاريخ الإسلامى حتى نهاية العصور الوسطى، الهيئة المصرية للكتاب، القاهرة، 1989م.

رمضان: مصطفى رمضان (دكتور):

122) المسلمون فى آسيا الوسطى وإيران، دار أبو المجد للطباعة، القاهرة، 1994م.

الريس: محمد ضياء الدين (دكتور):

123) الخراج والنظم المالية للدولة الإسلامية، دار الأنصار، القاهرة، ط4، 1977م.

124) النظريات السياسية الإسلامية، دار التراث، القاهرة، الطبعة السابعة، 1979م.

أبو زيد: سهام مصطفى (دكتوره):

125) الحسبة فى مصر الإسلامية من الفتح العربى إلى نهاية العصر المملوكى، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1986م.

الساداتى: أحمد محمود (دكتور):

126) تاريخ الدول الإسلامية بآسيا وحضارتها، دار الثقافة للطباعة والنشر، القاهرة، 1979م.

سالم: السيد عبد العزيز (دكتور):

127) التاريخ والمؤرخون العرب، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، 1987م.

سرور: محمد جمال الدين (دكتور):

128) تاريخ الحضارة الإسلامية فى الشرق، من عهد نفوذ الأتراك إلى منتصف القرن الخامس الهجرى، دار الفكر العربى، الطبعة الثانية، 1387- 1967م.

أبو سيف: فتحى (دكتور) :

129) خراسان، تاريخها السياسى من سقوط الظاهريين إلى بداية الغزنويين. مكتبة سعيد رأفت ،جامعة عين شمس،القاهرة،1409 هـ / 1988م.

سيد: أحمد فؤاد (دكتور):

130) الإسلام والثقافة العربية فى بلاد ما وراء النهر، آسيا الوسطى والقوقاز، دار الغد العربى، القاهرة، 1417هـ / 1996م.

شعوط: إبراهيم على (دكتور):

131) أباطيل يجب أن تمحى من التاريخ، المكتب الإسلامى، بيروت، الطبعة الخامسة، 1403هـ / 1983م.

شلبى: أحمد شلبى (دكتور):

132) موسوعة التاريخ الإسلامى والحضارة الإسلامية ، الجزء الثالث،1996.الجزء الثامن،1993م ،مكتبة النهضة المصرية ،القاهرة.

شلبى: أبو زيد شلبى (دكتور):

133) تاريخ الحضارة الإسلامية والفكر الإسلامى، مكتبة وهبة، الطبعة السابعة، القاهرة، 1416هـ / 1996م.

عاشور: سعيد عبد الفتاح (دكتور):

134) المدنيَّة الإسلامية وأثرها فى الحضارة الأوربية، مكتبة الأنجلو المصرية، الطبعة الثانية، 1982م.

صبره:عفاف سيد(دكتورة) :

135) التاريخ السياسى للدولة الخوارزمية،دار الكتاب الجامعى،القاهرة،1987م.

عبد الله: سامية توفيق (دكتورة):

136) تطور صناعة المنسوجات بالمشرق الإسلامى فى العصر العباسى، مستلة من مجلة كلية اللغة العربية بأسيوط، جامعة الأزهر، العدد الثامن عشر، 1419هـ - 1999م.

عبد الله: صفى على محمد (دكتورة):

137) مدن مصر الصناعية فى العصر الإسلامى، الهيئة المصرية العامة للكتاب، تاريخ المصريين العدد (169)، القاهرة، 2003م.

عبد اللطيف: عبد الشافى محمد (دكتور):

138) أوائل المؤلفين فى السيرة النبوية، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، دراسات إسلامية، العدد (114)، القاهرة، 1425هـ - 2005م.

139) بحوث فى السيرة النبوية و التاريخ الإسلامى (قراءة ورؤية جديدة)، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع،القاهرة،1428/2007م.

140) العالم الإسلامى فى العصر الأموى - دراسة سياسية - الطبعة الثانية، 1414هـ / 1993م. القاهرة . (لم تذكر دار الطبع).

عتاقى: محمد على (دكتور):

141) المسلمون فى أذربيجان، وإقليم الجبال - من الفتح الإسلامى حتى نهاية العصر العباسى الأول، مطبعة الحسين الإسلامية، الطبعة الأولى، القاهرة، 1415هـ / 1994م.

عثمان: شوقى عبد القوى (دكتور):

142) تجارة المحيط الهندى فى عصر السيادة الإسلامية،المجلس الوطنى للثقافة والفنون ،الكويت،عالم المعرفة،العدد(151)،1410/1990م.

عزب: خالد عزب (دكتور):

143) بخارى الشريفة، تاريخها وتراثها الحضارى، مكتبة مد بولى، القاهرة، (بدون تاريخ).

أبو العلا: محمود أبو العلا (دكتور):

144) المسلمون فى الاتحاد السوفيتى - سابقًا - دراسة اجتماعية واقتصادية وسياسية، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، 1993م.

غنيم: عبد العزيز غنيم (دكتور):

145) دور العباسيين فى طلب الخلافة، دار الوفاء للطباعة، القاهرة، 1403هـ - 1983م

الغنيمى: عبد الفتاح مقلد (دكتور):

146) الإسلام والمسلمون فى جمهوريات آسيا الوسطى الاتحاد السوفيتى سابقًا . دار الأمين ،القاهرة،1416 هـ - 1996م.

الفقى:عصام عبد الرءوف (دكتور):

147) الدول المستقلة فى الشرق ،دار الفكر العربى،القاهرة،1987م.

فيصل: شكرى فيصل (دكتور):

148) حركة الفتح الإسلامى فى القرن الأول - دراسة تمهيدية لنشأة المجتمعات الإسلامية، دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة الخامسة، 1980م.

فوزى: فاروق عمر (دكتور):

149) العباسيون الأوائل،جزءان،دار المجدلاوى،الأردن،1424هـ -2003م.

قاسم: قاسم عبده (دكتور):

150) أهل الذمة فى مصر فى العصور الوسطى - دراسة وثائقية، دار المعارف، القاهرة، الطبعة الأولى، 1977م.

القوصى: عطية أحمد (دكتور):

151) تجارة مصر فى البحر الأحمر منذ فجر الإسلام حتى سقوط الخلافة العباسية، دار النهضة العربية، القاهرة، 1976م.

كاشف: سيدة إسماعيل (دكتورة):

152) الوليد بن عبد الملك، الهيئة المصرية العامة للكتاب، تاريخ المصريين، العدد (238)، القاهرة، 2005م.

153) مصر فى فجر الإسلام من الفتح العربى إلى قيام الدولة الطولونية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مهرجان القراءة للجميع: مكتبة الأسرة، 1999م.

كسبه: مصطفى دسوقى (دكتور):

154) المسلمون فى آسيا الوسطى والقوقاز، هدية مجلة الأزهر، 1414 هـ.

ماهر: سعاد ماهر (دكتورة):

155) الفنون الإسلامية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مهرجان القراءة للجميع، مكتبة الأسرة، 2005م.

مجمع اللغة العربية:

156) المعجم الوسيط،، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1985م.

محمد: أحمد محمد (دكتور):

157) بخارى فى صدر الإسلام، دار الفكر العربى، القاهرة، 1992م.

محمود: حسن أحمد (دكتور):

158) الإسلام والحضارة العربية فى آسيا الوسطى بين الفتحين العربى والتركى، دار الفكر العربى، القاهرة، 1968م.

محمود: حسن أحمد (دكتور): بالإشتراك مع الدكتور احمد إبراهيم الشريف .

159) العالم الإسلامى فى العصر العباسى ، دار الفكر العربى ، الطبعة الأولى ، القاهرة، 1966م.

مصطفى:شاكر مصطفى (دكتور):

160) دولة بنى العباس ،جزءان،وكالة المطبوعات،الكويت،الطبعة الأولى،1973م.

مؤنس: حسين مؤنس (دكتور):

161) أطلس تاريخ الإسلام، الزهراء للإعلام العربى، القاهرة، 1407هـ - 1987م.

162) تنقية أصول التاريخ الإسلامى، دار الرشاد،القاهرة،2005م.

نقلى: عصام عباس محمد على:

163) تحليل الفكر الاقتصادى فى العصر العباسى الأول. ومدى الاستفادة منه فى الاقتصاد المعاصر، معهد البحوث العلمية، إحياء التراث الإسلامى، مكة المكرمة 1416هـ.

هويدى: فهمى هويدى (الأستاذ):

164) الإسلام فى الصين، المجلس الوطنى للثقافة والفنون، الكويت، عالم المعرفة، العدد (43)، 1401هـ - 1981م.

وزيرى: يحيى وزيرى (دكتور):

165) العمارة الإسلامية والبيئة، المجلس الوطنى للثقافة والفنون والآداب، الكويت، عالم المعرفة، العدد (304). 2004م.

الوكيل: محمد السيد (دكتور):

166) عناية الإسلام بتخطيط المدن وعمارتها، دار الأنصار، القاهرة، 1402هـ - 1982م.

خامسًا: المراجع الأجنبية المعربة

آبا: أوقطاى أصلان.

167) فنون الترك وعمائرهم، ترجمه عن التركية: أحمد محمد عيسى، مطبعة رنكلر، إستانبول، 1407هـ - 1987م.

آرنولد: توماس آرنولد:

168) الدعوة إلى الإسلام - بحث فى نشر العقيدة الإسلامية - ترجمة: د. حسن إبراهيم حسن، د. عبد المجيد عابدين، إسماعيل النحراوى، النهضة المصرية، القاهرة، ط3، 1970م.

بارتولد: فاسيلى فلاديميروفتش (ت 1930م):

169) تاريخ الترك فى آسيا الوسطى، ترجمة أحمد السعيد سليمان، الهيئة المصرية للكتاب، الألف كتاب الثانى، العدد (235)، القاهرة، 1996م.

170) تركستان من الفتح العربى إلى الغزو المغولى، ترجمة عن الروسية، صلاح الدين عثمان هاشم، الكويت، 1401هـ - 1981م.

براون: إدوارد براون:

171) تاريخ الأدب فى إيران، ترجمة د. أحمد كمال الدين حلمى، المجلس الأعلى للثقافة، المشروع القومى للترجمة، العدد (678)، الطبعة الأولى، 2005م.

براونستون: ديفيد، وأيرين فرانك:

172) طريق الحرير، ترجمة أحمد محمود، المجلس الأعلى للثقافة، المشروع القومى للترجمة، العدد (7)، الطبعة الأولى، 1997م.

بروكلمان: كارل بروكلمان:

173) تاريخ الأدب العربى، ترجمه عن الألمانية، د. محمود فهمى حجازى، وآخرون، الهيئة المصرية للكتاب، القاهرة، 1993م.

بوريس: يزييف (محمدين ميرزا محمدوف):

174) كنوز العبقرية البشرية (التراث الثقافى الإسلامى فى الاتحاد السوفيتي) مؤسسة العصر الحديث، القاهرة، 1981م.

تومكين: فيتالى، وأندريه نيدفيتسكى (ت 1932م).

175) بخارى، ترجمه عن الروسية، صلاح صلاح الدين هاشم ، منشورات المجمع الثقافى، الإمارات العربية المتحدة، الطبعة الأولى، 1995م.

جيبون: إدوارد جيبون:

176) اضمحلال الإمبراطورية الرومانية وسقوطها، ترجمة محمد على أبو درة،مراجعة: د. محمد سليم سالم، 3 أجزاء، الهيئة المصرية العامة للكتاب، سلسلة الألف كتاب الثانى، العدد (258)، الطبعة الثانية، 1997م.

ديماند: م. س ديماند:

177) الفنون الإسلامية، ترجمة: أحمد محمد عيسى، مراجعة: د. أحمد فكرى، دار المعارف، الطبعة الثانية، 1985م.

ديورانت: ول ديورانت:

178) قصة الحضارة، عصر الإيمان، المجلد السابع، ترجمة: محمد بدران، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مهرجان القراءة للجميع، مكتبة الأسرة، 2001م.

سزكين: فؤاد سزكين (دكتور):

179) تاريخ التراث العربى، ترجمه عن الألمانية: د. محمود فهمى حجازى، مراجعة: د. عرفة مصطفى، ود. سعيد عبد الرحيم، جامعة الإمام محمد بن مسعود الإسلامية، 1411هـ - 1991م.

شاخت: جوزيف، وكليفورد بوزورث:

180) تراث الإسلام، الجزء الأول، ترجمة: د. محمد زهير السمهورى، تعليق وتحقيق د. شاكر مصطفى، مراجعة: د. فؤاد زكريا، المجلس الوطنى للثقافة والفنون والآداب، الكويت، عالم المعرفة، العدد (8)، الطبعة الثانية، 1988م.

عطية: جورج عطية:

181) الكتاب فى العالم الإسلامى، ترجمة: عبد الستار الحلوجى، المجلس الوطنى للثقافة والفنون والآداب، الكويت، عالم المعرفة، العدد (297)، 2003م.

فامبرى: أرمينيوس:

182) تاريخ بخارى منذ أقدم العصور حتى العصر الحاضر، ترجمة: د. أحمد محمود الساداتى، مراجعة: د. يحيى الخشاب، مكتبة نهضة الشرق، جامعة القاهرة، 1987م.

كب: ستانوود:

183) المسلمون فى تاريخ الحضارة، ترجمة: د. محمد فتحى عثمان. الدار السعودية للنشر والتوزيع، الطبعة الثانية، 1405هـ - 1985م.

كراتشكوفسكى: إغناطيوس يوليانوفتش (ت1951م).

184) تاريخ الأدب الجغرافى العربى، نقله عن الروسية، صلاح الدين عثمان هاشم، دار الغرب الإسلامى، 1408هـ - 1989م.

كريستنسن: آرثر (ت1945م):

185) إيران فى عهد الساسانيين، ترجمة د. يحيى الخشاب، مراجعة د. عبد الوهاب عزام، الهيئة المصرية العامة للكتاب، الألف كتاب الثانى، (لم يذكر رقم العدد) 1998م.

لسترنج: كى لسترنج:

186) بلدان الخلافة الشرقية، ترجمة: بشير فرنسيس، كوركيس عواد، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الثانية، 1405هـ - 1985م.

لوبون: جوستاف:

187) حضارة العرب، ترجمة: عادل زعيتر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مهرجان القراءة للجميع، مكتبة الأسرة، 2000م.

متز: آدم:

188) الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى، ترجمة محمد عبد الهادى أبو ريده، الهيئة المصرية للكتاب، سلسلة الألف كتاب، الطبعة الثالثة، 2003م.

موسى سانت:

189) ميلاد العصور الوسطى، ترجمة عبد العزيز توفيق جاويد مراجعة: د. السيد الباز العرينى، الهيئة المصرية للكتاب، الألف كتاب الثانى، العدد (285)، 1998م.

هايد: ف هايد:

190) تاريخ التجارة فى الشرق الأدنى فى العصور الوسطى 4 أجزاء، ترجمه عن الفرنسية: أحمد محمد رضا، مراجعة: د. عز الدين فوده، الهيئة المصرية للكتاب، 1985م.

هيل: دونالد:

191) العلوم والهندسة فى الحضارة الإسلامية، ترجمة: د. أحمد فؤاد باشا، المجلس الوطنى للثقافة والفنون والآداب، الكويت، عالم المعرفة، العدد (305)، 2004م.

وات: مونتجومرى:

192) فضل الإسلام على الحضارة الغربية، ترجمة: د. حسين أحمد أمين، مكتبة مدبولى، القاهرة، 1403هـ - 1983م.

ونت: آجاء:

193) أضواء على آسيا، ترجمة: روفائيل جرجس، مراجعة: على آدهم، مكتبة الأنجلو المصرية، الألف كتاب الأولى، العدد (308)، (بدون تاريخ).

سادسًا: المراجع الأجنبية

194) Gibb: H . A . R:

● The Arab Conquests in centeral Asia London، 1923، The Rayal Asiatic Society. VoI. 11.

سابعًا: الرسائل العلمية

إبراهيم: مصطفى شوقى:

195) التراث الحضارى الإسلامى فى جمهوريات وسط آسيا الإسلامية - دراسة للعمارة والفنون، رسالة ماجستير معهد الدراسات الآسيوية، جامعة الزقازيق، تحت رقم (700، فنون)، 2001م.

جمعة: أحمد أمين محمد:

196) المؤسسات الإسلامية فى منطقة آسيا الوسطى، دراسة حضارية معمارية أثرية، رسالة دكتوراه، معهد الدراسات الآسيوية، جامعة الزقازيق، تحت رقم (700، فنون)، 2002م.

الرشيدى: محمد الركابى:

197) دور العرب فى الدعوة إلى بنى العباس ،رسالة ماجستير،كلية اللغة العربية، بالقاهرة،قسم التاريخ،تحت رقم(2338)، 1994م.

سلطان: سعيد أحمد محمد:

198) التأثير الأيديولوجى للروس على المجتمعات الإسلامية بوسط آسيا "أوزبكستان". رسالة ماجستير، معهد الدراسات الآسيوية، جامعة الزقازيق، تحت رقم (500) تاريخ، 2003م.

ثامنًا: الجرائد والدوريات

199) خطاب: محمود شيت (اللواء الركن):

"الأحنف بن قيس التميمى، فاتح قاشان وخراسان" مجلة المجمع العلمى العراقى، المجلد الحادى عشر، 1384هـ - 1964م.

200) دائرة المعارف الإسلامية:

مجموعة من المستشرقين، ترجمة إبراهيم زكى خورشيد، أحمد الشنتناوى، حسن عثمان، د. عبد الحميد يونس، دار الشعب، القاهرة، 1969- 1974م.(مادة بخارى م 6 ، طخارستان م6 ،بذخشان م6،أخسيكث م 2 ، سيحون م 2، أشروسنة م3، توران م 10، بحيرة خوارزم م11،خاتون م16).

201) رجب: مصطفى رجب (دكتور): «المشكلات التعليمية لدى الأقلية المسلمة فى الصين «مجلة منبر الإسلام، السنة (66)، العدد (5) جمادى الأولى 1428هـ/ مايو - يونيه 2007م.

202) عاشور: صلاح على (دكتور):

"أبو سعد المسعانى وكتابه الأنساب". مجلة كلية اللغة العربية بالقاهرة، جامعة الأزهر، العدد الثالث والعشرون 1426هـ - 2005م، الجزء الثالث.

203) عبد الحميد: سعد زغلول (دكتور):

"الإسلام والترك"، المختار من عالم الفكر، دراسات إسلامية، وزارة الإعلام، الكويت، 1983م، المجلد الأول

204) مركز الأهرام للتنظيم وتكنولوجيا المعلومات:

"ملف الأقليات الإسلامية، الجزء الثانى، 1424هـ.

ملف الجمهوريات الإسلامية فى آسيا الوسطى 1424هـ.

الملاحق

ملحق رقم (١)

قائمة تفصيلية بالمساجد فى بلاد ما وراء النهر

أولًا: إقليم الصغد:			ثانيًا: إقليم خوارزم:		
م	البلدة	مكان المسجد	م	البلدة	مكان المسجد
1	نُمُوجَكَتْ	الجامع داخل المدينة له	15	كاث	وسط السوق
		رحبات عدة نظيفة	16	سدور	وسط المدينة
2	طواويس	الجامع بعيد عن المدينة	17	براتكين	وسط السوق
3	زَنْدَنَة	داخل الحصن	18	نوزوار	الجامع فى السوق
4	خُجَادَى	داخل الحصن، حسن ظريف	19	زمخشر	جامع ظريف بطرف السوق
5	مَغْكان	جامع ظريف به ماء جار	20	روزوند	على طريق السوق
6	بيكند	جامع فى محرابه جواهر	21	خيوه	بها جامع عامر
7	زَرْمِيَثَن	الجامع وسط المدينة	22	جكربند	فى طرف السوق
8	وخسون	داخل المدينة	23	جاز	على طرف الطريق
9	كرمينية	بها مسجد جامع	24	دَرْغَان	جامع حسن على الشط ليس بالناحية مثله به جواهر
10	سمرقند	داخل المدينة			

11	كش	داخل المدينة	25	بيز	وسط السوق
12	نسف (نخشب)	داخل الريض عند الأسواق	26	سكارا	وسط البلد
13	الصَّغَانيان	وسط السوق			
14	دَارْزَنْجى	وسط السوق			
ثالثًا: إقليم طخارستان:			**رابعًا: إقليم فرغانة:**		
27	الفارياب	مسجد جامع ليس له منارة	36	إخسيكث	بها مسجد جامع
28	اليهودية	الجامع له منارتان	37	ورنجد	بها جامع نزيه
29	الباميان	داخل الربط	38	شكت	الجامع فى السوق
30	هُلْبُك	وسط البلد	39	تسمان	الجامع فى السوق
31	ترمذ	الجامع داخل الحصن	40	زاركان	على باب الجامع روضة شجر
32	كالف	داخل المدينة	41	خيرلام	بها جامع حسن
33	زمّ	وسط الأسواق	42	بشبشان	الجامع فى الميدان
34	نوميرة	الجامع وسط البلد	43	أشتيقان	الجامع فى السوق

35	فربر	الجامع على باب المدينة	44	أوزكند	بها جامع حسن
			45	أوش	الجامع وسط الأسواق
			46	قُبا	جامعها فى الأسواق
			47	برنك	جامع خارج البلد
			48	مَرْغَنيان	الجامع على باب النهر
			49	ورشتان	بين الميدان والسوق
خامسًا: إقليم اشروسنة:			سادسًا: إقليم الشاش وايلاق:		
50	بُونْجكَث	الجامع داخل المدينة	53	بُنْكَث	الجامع على حائط القلعة
51	زامين	على يمين الخارج لسمرقند	54	بَناكثَ	الجامع فى السوق
52	مرسمنده	الجامع على ناحية السوق	55	تُونكَث	الجامع خارج القلعة
			56	أسفيجاب	الجامع وسط السوق
			57	جمشلاغو	الجامع بعيد عن السوق

			58	أَرْسُبَانيكَث	الجامع داخل الربض
			59	باراب	الجامع داخل الحصن
			60	وسيبخ	الجامع فى السوق
			61	وَشَاوغَر	الجامع على طرف السوق
			62	سَوْزَان	الجامع داخل المدينة
			63	بلاج	الجامع فى السوق
			64	بروخ	الجامع فى السوق
			65	أَذَخْكث	الجامع داخل الحصن
			66	طَرَاز	الجامع فى السوق
			67	بَرسُخَان	الجامع فى السوق
			68	بَنْهلرَ	الجامع فى السوق

			69	جموكت	الجامع داخل الحصن
			70	شلْجى	الجامع خارج القلعة
			71	كَولاَن	الجامع داخل الحصن
			72	ميركى	الجامع داخل القلعة
			73	أطلخ	الجامع فى المدينة

ملحق رقم (٢)

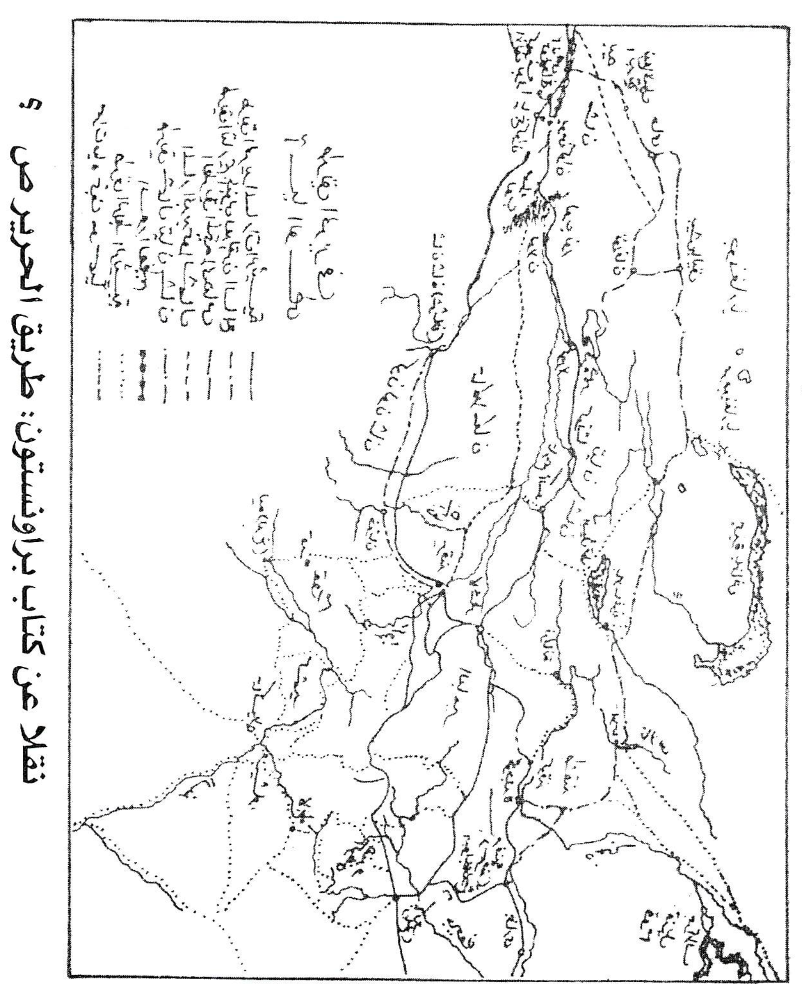
آسيا الوسطى
في القرون الوسيطة

صحراء قزيل قوم

صحراء قراقوم

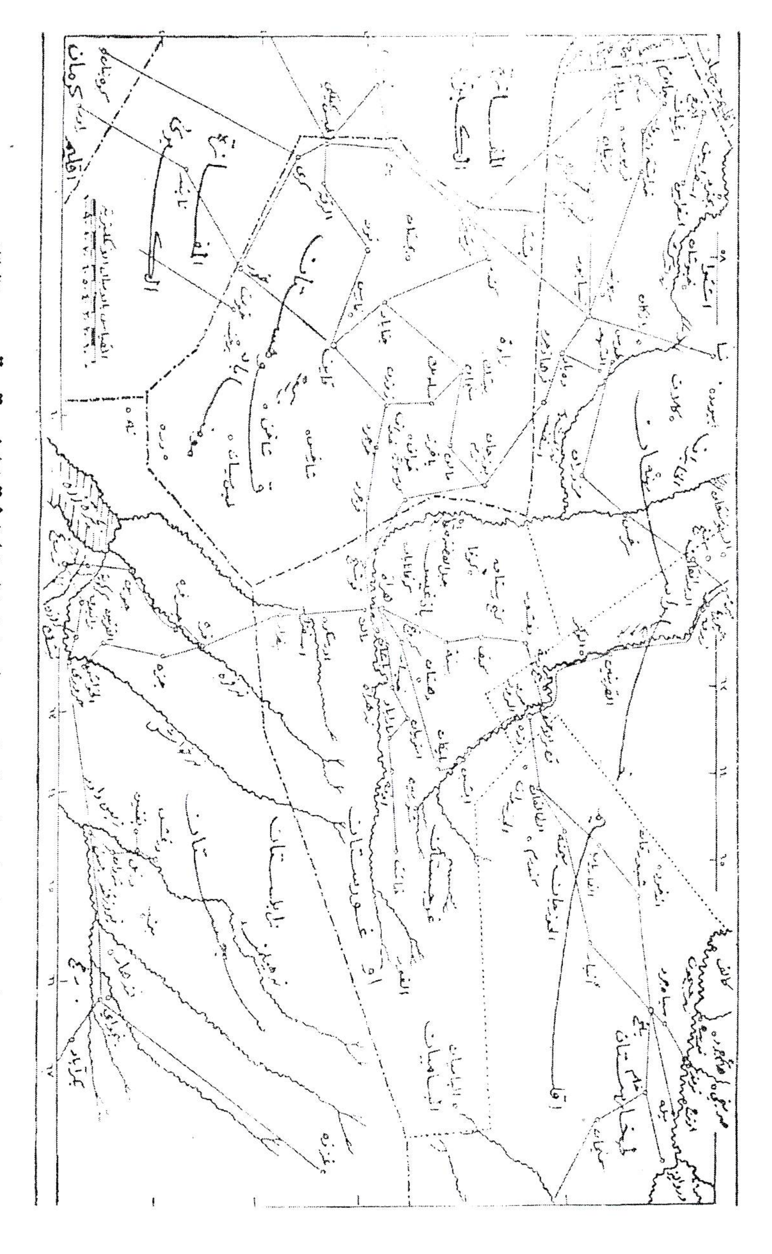
نقلا عن كتاب بارتولد: تركسالت من الفتح العربى إلى الغزو

ملحق رقم (٣)



نقلا عن كتاب براونستون: طريق الحرير ص ٩

ملحق رقم (٤)



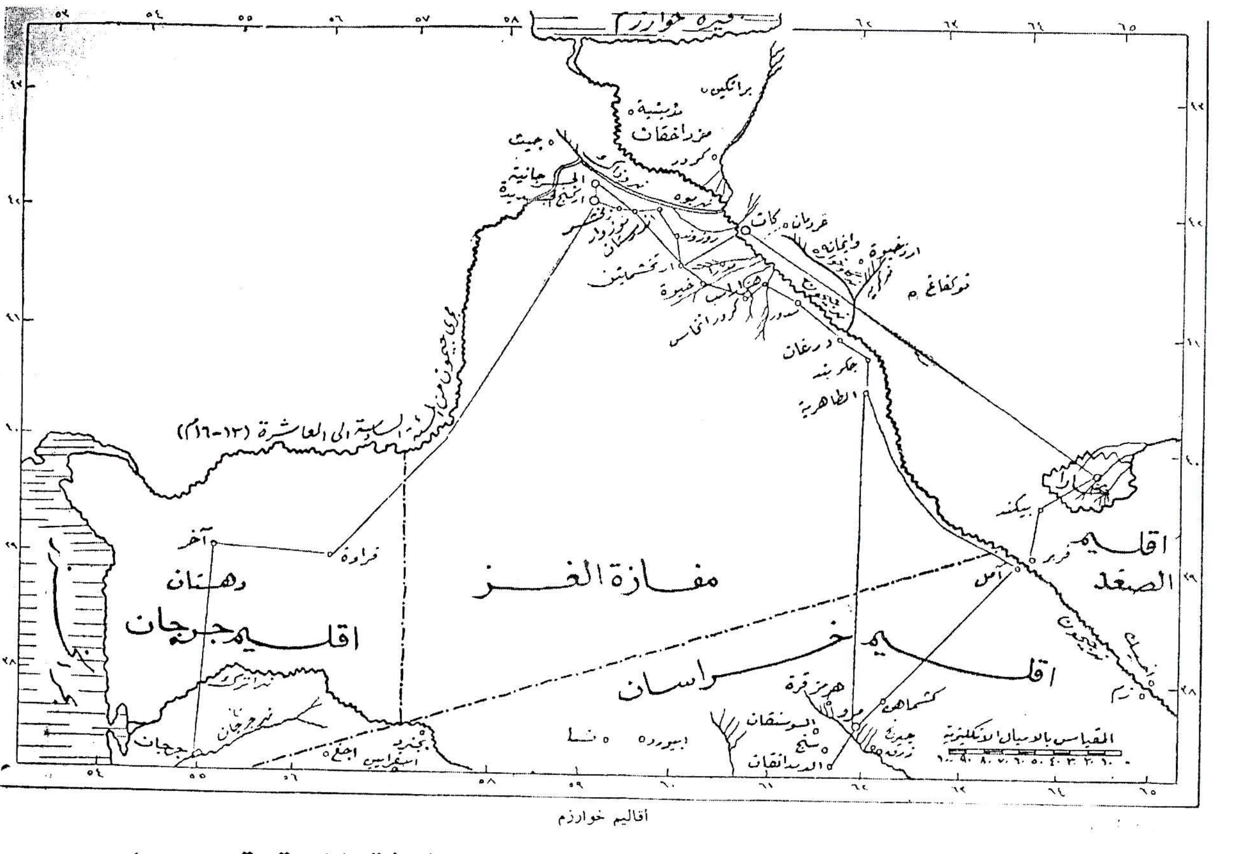
نقلا عن كتاب استرنج: بلدان الخلافة الشرقية ص ٣٧٦

ملحق رقم (٥)



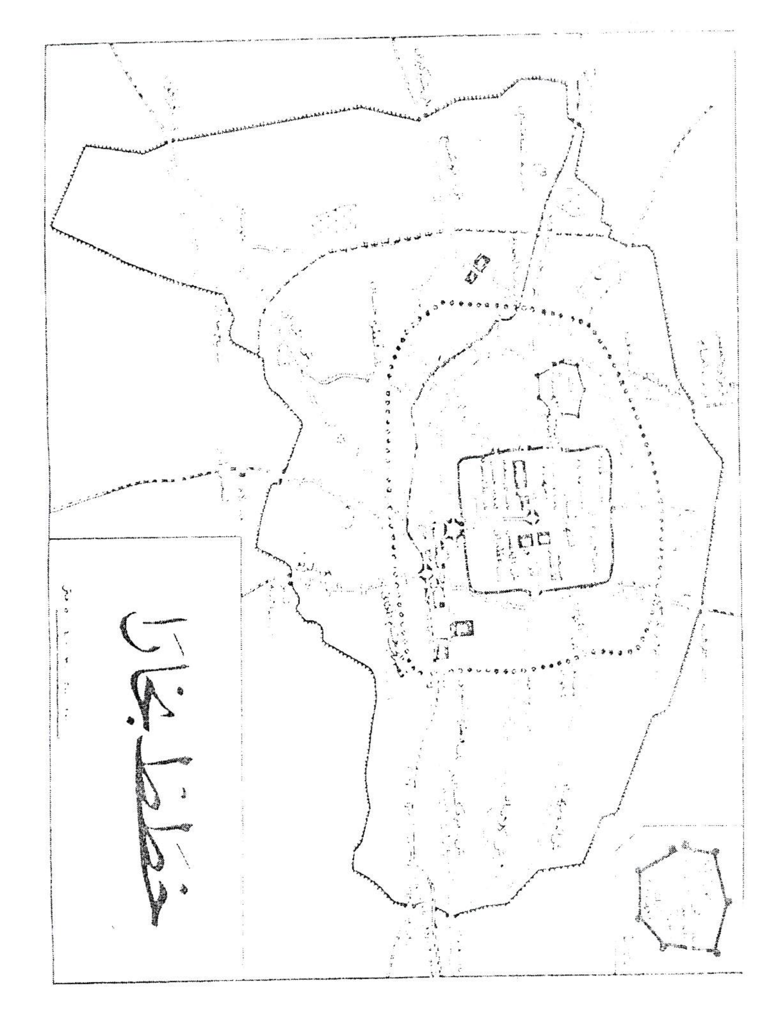
نقلا عن كتاب استرنج: بلدان الخلافة الشرقية ص ٤٧٠

ملحق رقم (٦)



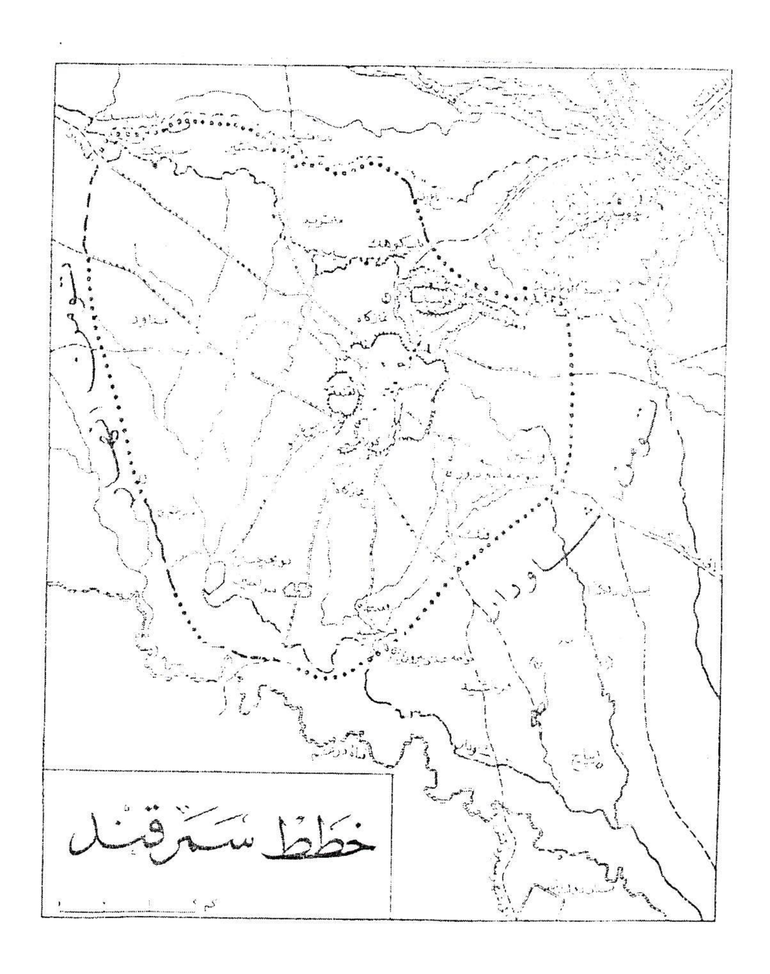
نقلا عن كتاب استرنج: بلدان الخلافة الشرقية صـ ٤٨٨

ملحق رقم (٧)



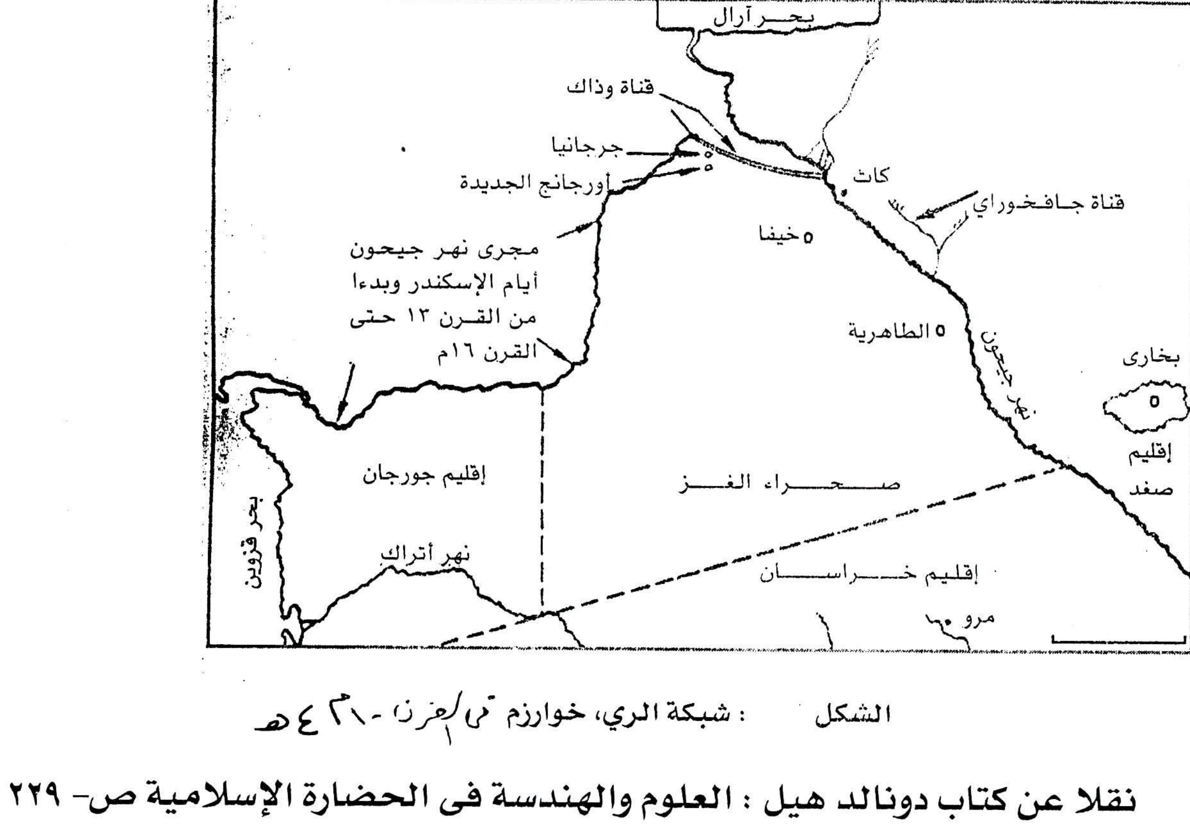
نقلا عن كتاب بارتولد : تركستان من الفتح العربي إلى الغزو المغولي ص ٧٠٢

ملحق رقم (٨)



نقلا عن كتاب بارتولد : تركستان من الفتح العربى إلى الغزو المغولى صـ ١٧٩

ملحق رقم (٩)



الشكل : شبكة الري، خوارزم في القرن ١٠م - ٤هـ

نقلا عن كتاب دونالد هيل : العلوم والهندسة فى الحضارة الإسلامية ص- ٢٢٩

الفهـــرس

منافذ بيع

الهيئة المصرية العامة للكتاب

مكتبة المعرض الدائم

١١٩٤ كورنيش النيل - رملة بولاق

مبنى الهيئة المصرية العامة للكتاب

القاهرة

ت : ٢٥٧٧٥٠٠٠
٢٥٧٧٥٢٢٨ داخلى ١٩٤
٢٥٧٧٥١٠٩

مكتبة مركز الكتاب الدولى

٣٠ ش ٢٦ يوليو - القاهرة

ت : ٢٥٧٨٧٥٤٨

مكتبة ٢٦ يوليو

١٩ ش ٢٦ يوليو - القاهرة

ت : ٢٥٧٨٨٤٣١

مكتبة شريف

٣٦ ش شريف - القاهرة

ت : ٢٣٩٣٩٦١٢

مكتبة عرابى

٥ ميدان عرابى - التوفيقية - القاهرة

ت : ٢٥٧٤٠٠٧٥

مكتبة الحسين

مدخل ٢ الباب الأخضر - الحسين - القاهرة

ت : ٢٥٩١٣٤٤٧

مكتبة المبتديان

١٣ش المبتديان - السيدة زينب

أمام دار الهلال - القاهرة

مكتبة ١٥ مايو

مدينة ١٥ مايو - حلوان خلف مبنى الجهاز

مكتبة الجيزة

١ ش مراد - ميدان الجيزة - الجيزة

ت : ٣٥٧٢١٣١١

مكتبة جامعة القاهرة

خلف كلية الإعلام - بالحرم الجامعى

بالجامعة - الجيزة

مكتبة رادوبيس

ش الهرم - محطة المساحة - الجيزة

مبنى سينما رادوبيس

مكتبة أكاديمية الفنون

ش جمال الدين الأفغانى من شارع

محطة المساحة - الهرم

مبنى أكاديمية الفنون - الجيزة

مكتبة الإسكندرية

٤٩ ش سعد زغلول – الإسكندرية

ت : ٠٣/٤٨٦٢٩٢٥

مكتبة الإسماعيلية

التمليك – المرحلة الخامسة – عمارة ٦

مدخل (أ) – الإسماعيلية

ت : ٠٦٤/٣٢١٤٠٧٨

مكتبة جامعة قناة السويس

مبنى الملحق الإدارى – بكلية الزراعة –

الجامعة الجديدة – الإسماعيلية

مكتبة بورفؤاد

بجوار مدخل الجامعة

ناصية ش ١١، ١٤ – بورسعيد

مكتبة أسوان

السوق السياحى – أسوان

ت : ٠٩٧/٢٣٠٢٩٣٠

مكتبة أسيوط

٦٠ ش الجمهورية – أسيوط

ت : ٠٨٨/٢٣٢٢٠٣٢

مكتبة المنيا

١٦ ش بن خصيب – المنيا

ت : ٠٨٦/٢٣٦٤٤٥٤

مكتبة المنيا (فرع الجامعة)

مبنى كلية الآداب –جامعة المنيا – المنيا

مكتبة طنطا

ميدان الساعة – عمارة سينما أمير – طنطا

ت : ٠٤٠/٣٣٣٢٥٩٤

مكتبة المحلة الكبرى

ميدان محطة السكة الحديد

عمارة الضرائب سابقًا – المحلة

مكتبة دمنهور

ش عبدالسلام الشاذلى – دمنهور

مكتب بريد المجمع الحكومى – توزيع

دمنهور الجديدة

مكتبة المنصورة

٥ ش السكة الجديدة – المنصورة

ت : ٠٥٠/٢٢٤٦٧١٩٠

مكتبة منوف

مبنى كلية الهندسة الإلكترونية

جامعة منوف

توكيل الهيئة بمحافظة الشرقية

مكتبة طلعت سلامة للصحافة والإعلام

ميدان التحرير – الزقازيق

ت : ٠٥٥٢٣٦٢٧١٠ – ٠١٠٦٥٣٣٧٣٣٢

مكتبـــات ووكـــلاء

البيع بالدول العربية

لبنان

١ - مكتبة الهيئة المصرية العامة للكتاب
شارع صيدنايا المصيطبة - بناية الدوحة-
بيروت - ت: ٩٦١/١/٧٠٢١٣٣
ص. ب : ٩١١٣ - ١١ بيروت - لبنان

٢ - مكتبة الهيئة المصرية العامة للكتاب
بيـروت - الفـرع الجـديد - شـارع
الصيداني - الحمراء - رأس بيروت -
بناية سنتر ماريا
ص. ب : ١١٣/٥٧٥٢
فاكس: ٠٠٩٦١/١/٦٥٩١٥٠

سوريا

دار المدى للثقافة والنشر والتوزيع -
سوريا - دمشق - شارع كرجيه حداد -
المتفرع من شارع ٢٩ أيار - ص. ب: ٧٣٦٦
- الجمهورية العربية السورية

تونس

المكتبة الحديثة. ٤ شارع الطاهر صفر-
٤٠٠٠ سوسة - الجمهورية التونسية .

المملكة العربية السعودية

١ - مـؤسـسـة العبيـكـان - الرياض
(ص. ب: ٦٢٨٠٧) رمـز ١١٥٩٥ - تقـاطع
طريق الملك فهد مع طريق العـروبة -
هاتف: ٤٦٥٤٤٢٤ - ٤١٦٠٠١٨ .

٢ - شركة كنوز المعرفة للمطبوعات
والأدوات الكتابية - جدة - الشرفية -
شـارع السـتين - ص. ب: ٣٠٧٤٦ جدة :
٢١٤٨٧ - ت : المـكـتـب: ٦٥٧٠٧٢٢ -
٦٥١٠٤٢١ - ٦٥١٤٢٢٢ - ٦٥٧٠٦٢٨.

٣ - مكتبة الرشد للنشر والتوزيع -
الرياض - المملكة العربية السعودية -
ص. ب: ١٧٥٢٢ الـريـاض: ١١٤٩٤ - ت:
٤٥٩٣٤٥١.

٤ - مـؤسـسـة عـبـد الرحـمـن
السـديري الخـيـريـة - الجـوف -
المملكة العربية السعودية - دار الجوف
للعلوم ص. ب: ٤٥٨ الجـــوف - هاتف:
٠٠٩٦٦٤٦٢٤٣٩٦٠ فاكس: ٠٠٩٦٦٤٦٢٤٧٧٨٠

الأردن - عمان

١ - دار الشروق للنشر والتوزيع
ت: ٤٦١٨١٩٠ - ٤٦١٨١٩١
فاكس: ٠٠٩٦٢٦٤٦١٠٠٦٥

٢ - دار اليازوري العلمية للنشر والتوزيع
عمان - وسط البلد - شارع الملك حسين
ت: ٩٦٢٦٤٦٢٦٦٢٦ +
تلفاكس: ٩٦٢٦٤٦١٤١٨٥ +
ص. ب: ٥٢٠٦٤٦ - عمان: ١١١٥٢ الأردن.


الهيئة المصرية العامة للكتاب